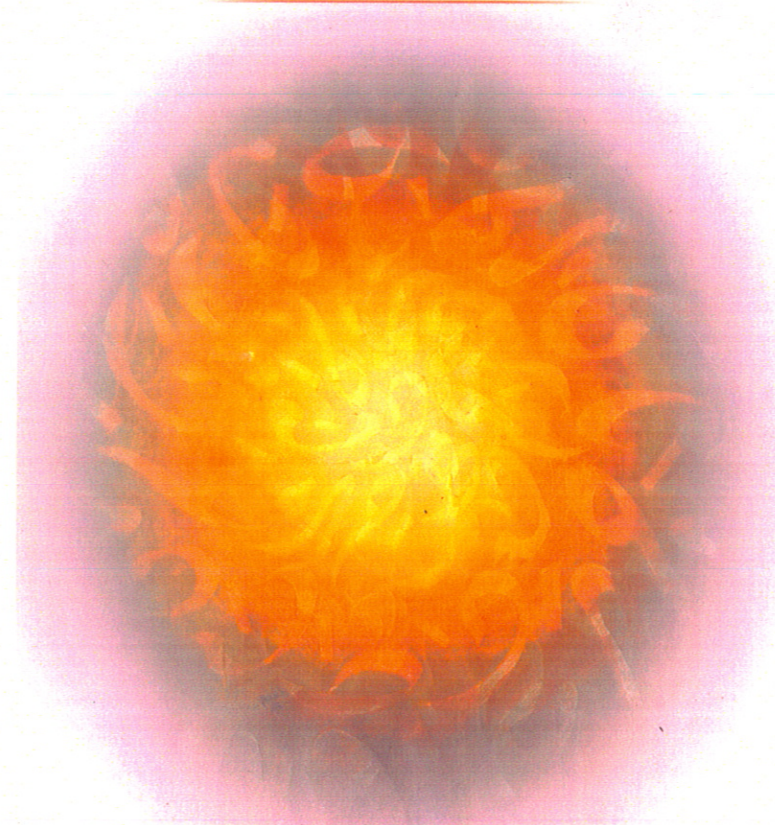


## رواية



بسام شمس الدين

# الدائرة المقدسة

بسام شمس الدين

الدائرة المقدسة

بعد هنيهة قصيرة جاء الملك كرب بالطفل رام، وأوقفه أمام السادن شيزار ولازال ممسكاً به، فأماط السادن القماط عن كتفه الأيسر، ونزع من جرابه مسماراً ذهبياً مسنناً بسن صغير حاد، وأمر الخدم بتسخين المسمار بحيث يكون السن ملتهباً، بينما انهمك يتلو أسماء الآلهة ويتضرع، ومن حين إلى آخر يتقل على كتف رام، ثم جيء له بالمسمار ملتهباً، فأمسكه بواسطة واق، وأمر الخدم بإمسك الطفل، على حين أخرج دائرة ذهبية صغيرة بحجم الدينار، وألصقها بإحكام على صفحة كتفه الأيسر، وأخذ يمرر السن عليها بحذر ناقشاً على الجلد الرخو دائرة صغيرة متقنة..

كان رام يبكي والسادن دائب على النقش، وما إن رفع المسمار حتى جاء دور الكاهن سريح.. كان الأخير هو الوحيد بسبباً، وقد لقنه كبير السحرة في حمير هذه الصنعة، فتلا سحره وأشعل بخوراً عجيباً، وحملق بعينيه، فإذا بهم يرون الدائرة تومض كالقمر وتضيء المقصورة.. كل هذا يحدث ولا يزال رام يبكي متألماً.. بينما سجدوا جميعاً حين تجلى وجه المقة.. كان آخر عمل قام به السادن شيزار أن قبل تلك الدائرة قبلة حارة ودعا الآلهة أن تحفظها وتجعلها عادلة خيرة.



مركز عيادي للدراسات والنشر

ص.ب : 662 - صنعاء

ت : 485691 / فاكس : 485692

سيار : 777219617

الجمهورية اليمنية

الدائرة المقدسة

بسلام شمس الدييه



بِسْمِ شَمْسِ الدِّينِ

# الدائرة المقدسة

رواية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تأسست المكتبة الأم في عدن قبل عام 1890  
تأسس المركز في صنعاء عام 1994

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء 2008/547

الطبعة الأولى 1429هـ الموافق 2008م

### حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع  
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع  
والحاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي

مركز عبادي للدراسات والنشر

ت: 485691 / فاكس: 485692

سيار: 777219617 ص.ب: 662

صنعاء - الجمهورية اليمنية

التنفيذ الطباعي: مركز عبادي للدراسات والنشر - صنعاء

لوحة الغلاف: للفنان التشكيلي/ طلال النجار

## تَـوَيـر

جميع أحداث هذه الرواية من صنع الخيال، ما عدا بعض المسميات الخاصة التي تسلت من الذاكرة إلى الصفحات: لكي تعطي النص نكهة محلية خالصة.

ومن قبيل الأمانة الأدبية ينبغي الإشارة إلى أن هذه الرواية كُتبت مطلع عام ٢٠٠٢م، في مدينة مأرب، وأنجزت خلال عام واحد فقط، وساعدني على كتابتها فسحة من الفراغ، ومناخ أثري وصحراوي رائع، ولن أتعرض لظروف وجودي في هذه المدينة العجيبة، لأنها بمجملها قصة، حيث أصدر مديري في العمل قراراً بنفسي إليها، وهي عقوبة يخشاها جميع العاملين، ويشفقون على من يتعرض لها. ولكنني خرجت منها بهذه الرواية، ولم تكن المسودة الأصلية بشكلها الحالي، بل أجريت عليها الكثير من التنقيح فيما بعد، حتى جاء هذا النص بصورته النهائية، وبفعل ضخامة حجمه، وبالتالي ارتفاع تكلفته، تأخر إصدار هذا العمل.

وفي هذه الطبعة لن يتجاوز عدد نسخها مائتين وخمسين نسخة فقط، ولكن يبقى الأمل أن يطبع منها عدد كبير جداً من النسخ في المستقبل، ومن ثم تصبح بمتناول جميع عشاق الرواية..

ها هي "الدائرة المقدسة" بين أيديكم....

المؤلف



## ( ١ )

تظهر مدينة جنات بضخامتها ورونقها وبقصورها التي تشكل مربعاً كبيراً ملحوظاً في الوسط وهي مساكن الأقيال وذوي الدائرة المقدسة. ومن جميع جوانبها تتخذ دور المدينة الأخرى شكلها المرموق، وتترامى بطريقة متكافئة لا تدعو للشك بأنها بنيت على طراز واحد، ومهما تباين ارتفاعها من مسكن إلى آخر. تتراص المساكن ويلتصق بعضها ببعض كأنها تقاوم العواصف الهوجاء، رابضة وسط قاع مائل قليلاً، محاطاً بزروع وأحواض وترع وسواقٍ يجري فيها الماء. وتمتلى العين بمشهد سد جنات المستلقي فوق المدينة بتألؤه وخضوعه. فيبدو كجسد عملاق نابض متدفق الحياة، وقنوات الماء العشر متفرعة من واجهته الأمامية تفرع الشرايين من سجاف القلب. وتنطلق إلى رحم الأرض المتصحرة بتعرجات خفيفة لتنسكب في المحميات السبئية النائية، وتنخفض مياه السد إلى أدنى من النصف، ولكنها في جميع الأحوال لا تنفذ بسبب السيول المنحدرة من المرتفعات في فصل الصيف...

على مشارف المدينة كانت ثمة قافلة تزحف بتؤدة عجيبة، تتوقف حيناً وتزحف حيناً آخر.. إلى أن ولجت بين المزارع. احتشد نفر من المزارعين، يتأملون النوق المصرية الهجينة، لأول مرة في حياتهم يرونها، هالتهم بدانتها وهاماتها المنفرة. ولحوا



التباين العجيب بينها وبين تابعيها الهزال، صفر الوجوه.. كان الموسم المثمر قد بدأ، وأصناف الثمار تتدلى من على الأشجار كأنها أسرجة متوهجة.. وصرخات التجار المحليين والغرباء تتعالى، وهم يساومون أصحاب المزارع على محاصيلهم اليانعة، ويخمنون مقاديرها رجماً بالغيب. ولكن أرباب المحاصيل يستثرون إلى أقصى حد، ويرون في ذلك استفزازاً لذكائهم، وزيفاً جليلاً لا ينطلي عليهم. إنهم أدرى الناس جميعاً بما تحمله أشجارهم من ثمار. ولهم خبرة فائقة في التخمين أكسبتهم إياها السنون المتوالية..

انسلخ التاجر الشاب فالوس الروماني من أتباعه المصريين. راح يطوف ويجول بين المزارع وعيناه معلقتان بكل مكان. رأى أن من الخير له أن يسرع في المضي قدماً نحو المدينة، عسى يجد فيها ما يهفو إلى معرفته، وما تجشم عناء السفر من أجله.. عرج ناحية باحة خضراء معشبة تفضي إلى معبر جانبي مهده للسير.. أدركت أنفه نسمات عطرة لقرنفلات متفتحة موزعة على طول ذلك الطريق.. انتشى بسرعة، ووقع في حالة تأمل وانبهار..

ثم ما لبث أن اجتاز الأحرش المؤدية إلى مدينة جنات، ولقت انتباهه التاجر الشاب فالوس وجود حشد عظيم من الجنود يتدربون على القتال في بيد شاسع، تطوقه وتحدد معالمه جلاميد صخرية متلاصقة، لكنه مفتوح من الأمام ليتخذ شكل هلال في أوج شيخوخته، ثم شاهد خيمة ذات أكسية من الخبز البديع منتصبة على ردهة عالية من الميدان، يلوح عليها نخبة من الأقبال الوقورين، ذي عمائم خضر، وأزياء بهية متباينة الألوان،

يتوسطهم رجل عظيم البنية، قاسي الملامح، تتغلغل في عينيه  
 صرامة شديدة جلية للعيان.. ورغم أن الشيب قد فشى على  
 عارضيه، إلا أنه ما زال يحتفظ بصورة جميلة وطرأوة ونشاط  
 متقد، وكان كرسيه المنمق العالي يوحي أنه ملك سبأ. انحصر  
 التدريب على فتیان کثر یافعين، بأيديهم سيوف مثلومة ورماح  
 منزوعة الأسنة. بدأ الصراع قوياً مثيراً، لكنه سلمى لا يراق فيه  
 دم، وصارت الخفة والبداهة واستغلال الفرص من أبرز سماته.  
 لمح فالوس براعة الفتیان في فنون القتال بكل حيله والأعيه  
 السريعة، فاندس بين المتفرجين من أهالي المدينة، وما إن شعروا  
 به حتى أخذوا يفسحون له الطريق برحابة صدر، إلى أن استقر  
 في مقدمة الصف المثل على مسرح القتال. كانت دهشته تزداد  
 مع مرور الوقت، وهو يرى كل فرقة من الفتیان أشد قتالاً من  
 سابقتها... فجأة زعق المتفرجون بحماس وأخذوا يرنون إلى  
 جانب غير بعيد من الميدان، رنا فالوس بدوره إلى ذلك الجانب،  
 فرأى فرقة فوق جياذ بنية اللون تقتحم المكان، وسرعان ما انداح  
 الفتیان المتصارعون جانباً، والذهول والتهيب يملآن فراغات  
 ملاحظهم المضطربة. دار عراك ضارٍ بين أرباب الجياذ البنية،  
 وأخذت أعدادهم تقلص حتى جمدت الأبصار على فارسين  
 جلدين يتعاركان بجدية. تأمل فالوس ملامح الفارسين جيداً،  
 وأدهشه أنهما متكافئان في العراك رغم فارق السن الجلي  
 واختلاف البنية الجسدية بينهما، كان أحدهما وهو الأصغر رشيق  
 الجسد، مليح الصورة، تغلب على ملامحه فراسة شديدة،  
 وشجاعة وضّاحة، وهالة من الانبساط والمرح. أما الفتى الأكبر  
 فقد بدا بديناً، مشرباً وجهه باحمرار طفيف، وفي عينيه السوداوين

يبدو ومض مشتعل من الخبث والمكر، إلا أن ثمة شبهةً كبيراً  
يشركه والمملك في تقاطيع الوجه، ماعدا هالة الشر التي لا أثر لها  
في ملامح المملك على حين تلوح بجلاء في عيني الفتى..  
قال التاجر فالوس لنفسه هازاً رأسه بلووم:

"كما ظننت، إنهم أقوياء يمضون أوقاتهم في التدريب على  
القتال وفي الزراعة، ولعل منبع قوتهم وثرانهم هو الماء".

وشخص يبصره جهة سد جنات. نسي مشاغله الكثيرة، حيث  
يتحتم عليه أن يشق طريقه في الصحراء ليصل وقافلته المحملة  
بالأقمشة والآنية الرومانية إلى محمية ذي الجامش موطن اللبان  
ومن ثم يقايض التجار هناك، وبعد يتجه شرقاً إلى محمية حريب  
لاقتناء الطيب لإمبراطور الرومان وحاكم مصر، ويجب أن يجلب  
بعض الأحجار الكريمة من محمية اليمينات وعليه أيضاً أن يزور  
محمية الحجر ليستتطب إلى قافلته أنواعاً من التوابل، لأن أسواق  
الرومان بحاجة ماسة إليها، وفي ذهنه أن يمر على محمية حبّ ومحمية  
الججج لبيتاع البخور وزيت الأبرجة. والأهم من هذا كله أن  
ينجز الأمر الذي جاء من أجله، أن يتجسس على أحوال المحميات  
السبئية وينقل صورة دقيقة أمينة عن الحياة العامة في أرجاء سبأ  
والحال الذي بلغه السبئيون من القوة أو الضعف.

شعر التاجر فالوس بالدوخة لطول بقائه واقفاً، تذكر أعماله  
التي تستدعي العجلة، فتحفز للانصراف كارهاً، وقد كانت  
لذته شديدة وهو يشاهد ذلك القتال الشيق، تمنى لو تغلب  
أحدهما على الآخر ليمضي إلى قافلته مرتاح البال، وبعد نقاش  
مستفيض علم من جاره في الصف، أن الفارسين هما شام وكرب  
ابنا المملك شراح، وقال السبئي في آخر كلامه:

- إن القتال هو الشغل الشاغل لأهل سبأ، وفي كل شهر ينزل الملك إلى عرض الميدان، ويشرف بنفسه على القتال ويمنح الأبطال جوائز مالية مجزية، ويجعل لبطل الأبطال مقعداً في مجلسه، ومنصباً مرموقاً ...

بعدها فضّ التاجر فالوس طريقه إلى قافلته. اشتهى تلك الوهلة أن تنبت له أجنحة ليقتضي حوائجه بأسرع زمن ممكن ثم يعود إلى مصر. منعه اليأس أن يتم تجواله في نواحي المدينة كما كان قد أزمع. مشى محتقاً في الاتجاه المضاد. اجتاز مزرعة شاسعة مكللة بشمار البرتقال الناضجة. مدّ يده بخوف والتقط عشر برتقالات، والتفت فجأة فرأى عدداً من الجواري الحسان يضحكن عليه لارتبأكه ولفتاته الخائفة. سرعان ما عرف منهن أن أرباب المزارع لا يلتفتون مطلقاً إلى من يقطف ثمارهم، أو حتى يلتهم منها ما يمكن أن تحمله عشرة جمال من أصناف الفاكهة.. حيث أن ذلك من دواعي سرورهم، لأنه يخفف عنهم مؤونة الجني المستمر، ففي أغلب الأحيان تتلف الشمار لطول بقائها على الأشجار، وقد تسقط إلى الأرض وتدوسها أقدام الجناة ورواد المزارع.

تاه فالوس داخل تلك المزرعة. كان يمشي على عجل متلفتاً حوله، والشمار من برهة إلى أخرى تقع على رأسه وعاتقه. حاول أن يهتدي بالشمس، لكنه لم ير بين الأغصان المتشابكة ثقباً يمكن لأشعة الشمس أن تنفذ عبره، فسار عمق ظلال داكن حتى بلغ الجانب الآخر للمزرعة، ولما رأى النور ابتهجت نفسه. لأنه صار قريباً من قافلته التي ما لبث أن وجدها قد هُجّلت بسلال البلح، وعلى أهبة الرحيل، فاستحث أتباعه على السير،

بينما سار بجواده متنقلاً من موضع إلى آخر، وعيناه تعدّان الإبل المتابعة عدداً دقيقاً.. اطمأن أخيراً حين ألفاها مائة كاملة. وهدأت وساوسه فالتحق بمقدمة القافلة..

\*\*\*

ما إن وضع قدميه على أرض مصر، حتى كُلف بالسفر إلى الحبشة لبيتاع رقيقاً، نقل إليه الحاكم نيروب هذا التكليف بكل بساطة، وبفعل الذهول واليأس والانفعال؛ لم يتجشم عبء السؤال عن التفاصيل في نفس الموقف، ولكنه زُود بالمعلومات اللازمة فيما بعد، وكان الحاكم جاداً ولطيفاً معه على غير عادته، وهو الهازئ على الدوام، المتهمم من كل شيء، واحتار التاجر فالوس، ووقع وسط نوبة من المشاعر المضطربة، لم يدرك ما إذا كان عليه أن يفرح أو أن يستاء؛ لأن العملية ليست بسيطة ومحددة النتائج، إنها مغامرة خطيرة لا يدرك إلى كم ستستمر من السنوات. والرقم الذي يتحتم أن يبلغه في نقل العبيد رقم ضخم، ويخشى أن لا يجد في أسواق الحبشة كلها هذا العدد المطلوب.. وفي نفس الوقت، أوقفت لحساب هذه المهمة ثروة ضخمة جداً، وقد رأى القطع الذهبية مقنطرة ومكومة في أكياسها المحكمة الأقفال، تعلقو على هامته، وتمدد بإغراء في أحد مخادع بيوت المال بقصر الحاكم نيروب، تسلّم مفتاح المخدع بأصابع مرتجفة، وانطلق في نفس اليوم إلى العائلة المصرية التي خطب منها، وفسخ خطوبته، ودفع لرب العائلة عشرين قطعة ذهبية لقاء هذا الخبر السيئ. واكتفى بذلك عن تبرير سبب الفسخ لأنه يعلم أن الذهب سوف يهدى من روعهم. كان حزيناً من أجل ذلك، حيث أصبحت نفسه تميل إلى الاستقرار ونبذ

العزوبية ولكن ما من سبيل إلى الهروب مما وكل به. فضلاً عن حلمه الدائم بالبذخ والجاه الواسع واستدرار رضا الإمبراطور. لاسيما حين انتقاه وأحسن به الظن من دون جميع التجار، وهناك من هو أكبر جاهاً منه وأعز تجارة من تجار مصر.

كان قد بدأ بتجارة الأقمشة البالية برأس مال ضئيل، وخلال عام واحد توفر لديه من المال ما جعل له مكاناً في أسواق مصر، وقفز قفزة واحدة إلى بيع الأقمشة الرومانية والمصرية الجديدة. ثم راح يجول ويجوب بلدان وبوادي مصر يبيع ويشترى حتى جاءه أمر الحاكم نيروبو، وهو في الجيزة، بأن يمضي باتجاه الجنوب إلى مملكة سبأ على رأس قافلة تجارية ليبعد الريبة عنه ويكون الوازع الحقيقي لسفره، هو استكشاف تلك الأرض، واستكناه أحوالها عياناً. لم يكن بوسعه تجاهل هذا الأمر القاسي، بل إنه من ميله العميق للترحال والوقوف على بلدان قاصية يسمع عنها فحسب، أحب أن يخوض التجربة من هذا المنطلق، عسى أن يتنسم الفأل الحسن بعيداً عن لجاجة المصريين، أولئك الذين يلجأون دائماً إلى رتق ثيابهم، ولا يرمونها إلا متى تهالكت وبات رتقها ضرباً من ضروب المحال. ليس لشُحهم المعهود أي صلة بهذا الفعل، وإنما نكاية بالأقمشة الرومانية التي تزخر بها أسواقهم وأجبروا على ارتدائها. ها قد عاد من رحلته الأولى ظاناً في دخيلة نفسه أن مهمته قد انتهت بما جلب من أخبار سبأ. ولكنها بالكاد ابتدأت. رأى فالوس المركب الذي سيقله إلى الحبشة معداً على الشاطئ، والخدم والطواشية تنقل إليه مؤن الرحلة الطويلة، وقائد المركب يومي لأتباعه مطوحاً بذراعه في كل الجهات كأنها يأمر بشد الصواري ومعالجة الدفات العليا

والتروس السفلية.. وجد لديه فسحة من الوقت لينعزل بنفسه في  
جهة خالية، ريثما يفرغ أولئك من أعمالهم.. كان الرمل ناعماً رطباً  
حين أغمد مشطي قدميه فيه. جلس مغمضاً عينيه، مصيخاً إلى  
رجرجات المياه في مدها وجزرها. وإلى أصوات النوارس التي  
يؤثرها على غيرها من طيور البحر. كان الجو هادئاً خاملاً مع  
أول الصباح، وقرص الشمس المستدير لم يبرز من الأفق.

لكن القلق على آتي أيامه يقضي على هدوئه وفرحه.. والمجهول  
يفتح له شذقيه ليدخل لا يعلم ما سيلاتي في أعماقه الموحشة..  
طريق البحر غير مأمون الجانب، تحف به المنغصات والأمواج  
الهادرة، وتستوطنه القراصنة والجزر الميتة..

بعد مدة من الوقت أفاق، ولم يكن ليفيق لولا حركة دبب  
بجواره.. رأى بنظرة مائلة إلى وجه شمطاوي، ومن خلفه ارتسم  
قرص الشمس المشع وهو في بدء شروقه.. وعجب من التباين  
العظيم بين وجه العجوز الكاسف وبين وجه الشمس الأبيض،  
واستلهم مما بين يدي تلك المرأة من محار وأصداف أنها عرافة،  
وما أكثر السحرة والساحرات في مصر ولكنه من دون العالمين  
يهزأ بالنبوءات منذ زمن بعيد: يوم استنبأت أمه إحدى العرافات  
عن حال أبيه الذي مضى محارباً وجيش الرومان في قرطاج،  
فأنبأتها بأنه لن يعود، حينئذ رفعت صوتها بالعويل والصراخ.  
وانصرفت إلى الحزن المحض. ولكن النبوءة المشؤمة كذبت،  
وعاد الرجل إلى أهله، وعاش بينهم عشر سنوات أخرى قبل أن  
يصاب بالحمى ويموت بها..

همّ أن يتنحى عن طريق هذه الساحرة، وأوشك أن يفعل لولا  
أن سمع صوتها المبحوح يأتي مشروخاً من فمها الأثرم

وتعنيه قائلة:

- بقطعة ذهبية واحدة أنبتك نبوءة لا تحيب، هيّا أيها الرجل

المسافر.

دار التاجر فالوس، وقال بتهكم:

- أنا لا أو من بالنبوءات، فكفاكن تخرصاً يا عجائز مصر..

أخذت تضم القواقع والأصداف وتخلطها ببعضها ورمت

ما بيديها إلى سطح الرمل الساحلي الرطب، قائلة بنزق:

- اسمع أيها الروماني الطائش، سأتنبأ لك، ليس من أجل

القطعة الذهبية التي لا تعرف لونها ولا ملمسها، ولكن لترى

أنني لا أتخرص..

تناثرت القطع، واتخذت أوضاعاً عديدة وغريبة، وحملت

العجوز إليها بذهول ومضت تقول بلا وعي:

- يا لك من شيطان. ممتلىء بالذهب ومستخم بالشر ( أشارت

إلى قوقعة ضخمة مستوية على الرمل قربها أصداف كثيرة) تبحر

إلى الحبشة ( أشارت إلى قوقعة سوداء) لتتاجر بالرفيق ( أشارت

إلى خطوط كثيرة سوداء على قوقعة أخرى) ورؤوس القواقع

السوداء تتجه نحو هذه القوقعة البيضاء.. وهاتيك الأصداف

الحمراء المقلوبة على ظهورها.. سينتهي بك المطاف كما ترى إلى

أرض قوية ( أشارت إلى صدفة ذات أسنان حادة تقع بين

القوقعة السوداء والقوقعة البيضاء).

تحافت صوت التاجر فالوس وهو يقول بتأثر متفحصاً

القواقع:

- هذا حق ولكن أين ما يدلني متى أبدأ وكيف أعمل؟

وأخرج خمس قطع ذهبية من بين ثيابه وقذفها، فالتقطتها



بشطارة، وقالت مشيرة إلى القواقع الحمراء:

-متى وجدت أناساً تعلقو جلودهم الدماء ابدأ من حيث هناك  
باحتراس شديد.

هز التاجر فالوس رأسه كأنها فك عقدة اللغز الذي يحيره،  
وسرعان ما سارت يده إلى قبضة سيفه، فكرر أن يصرم رأس  
الساحرة المصرية لكي لا تفشي سر رحلته، فمضى يسألها بلهجة  
متعللاً سبباً لقتلها:

- أخبريني هل حاجتي ستقضى؟ هيا أخبريني عن كل شيء؟  
وثبتت العجوز مرتاعة كأن شيئاً شدّها من رأسها،  
وصرخت بهلع:

- أيها الأحق، ألا ترى المسافة التي تفصل بين القواقع السوداء  
والبيضاء؟ إن حاجتك تتطلب زمناً لا أتكهنه. أبعد يدك عن  
مقبض سيفك أيها الشرير.. أهوى التاجر فالوس قدمه على  
القواقع السوداء فهشمها ورفس البيضاء فتناثرت وسل سيفه،  
وهو يزجر:

- ما هذه الوقاحة أيتها المصرية اللعينة، لست أحقاً كما  
تظنين.. سأميتك، لأنك تدركين أسرار الرقيق.. هيا أخبريني بما  
تدركين من مصري..

هتفت العجوز ضارعة وهي ترتجف:

- أقسم لك أنني لا أعلم سر الرقيق ولا البلاد التي يقادون  
إليها ولا مغزى ذلك.. إن فعلك هذا وتهشيمك للأصداق  
السوداء ينم على هلاك أولئك الرقيق بتلك البلاد، ويكون  
حالك مثل حالي.. وتكون حياتك رهن حياتي، إن نجوت منك  
نجوت منهم، وإن قتلتني قتلوك. حاذر فالنبوءة لازالت جارية،

والقواقع والأصداف لم ترفع بعد عن الرمل، ستفر هكذا....  
هرولت العجوز فارة من بين يديه متعثرة بخطى بطيئة  
مضطربة، كان من السير عليه أن يتبعها ويقتلها ولكن شيئاً في  
نفسه الملتهبة شلَّ حركته، ووجد نفسه يعود حائراً متعجباً إلى  
المركب، وسرعان ما ألقى أمره الصريح للقبطان المصري  
"فارغ" أن يبحر.

\*\*\*

استبشر التاجر فالوس بهدوء البحر وصفائه، وأحس ببعض  
الانسجام والارتياح، ومن وقت إلى آخر في نهار أو ليل تعاوده  
كلمات الساحرة المصرية التي هدمت همته آخر المطاف.  
على ظهر السفينة عرف كيف يزجي وقته، وجد لدى القبطان  
المصري فارغ ما يلهيه عن أسرار هذه الرحلة، وعن التساؤلات  
اللامجدية، ففي قمرة القيادة يقطعان شطراً كبيراً من الليل،  
يشربان الخمر ويعربدان ثم يصعدان آخر المطاف إلى أعلى مكان  
في السفينة لكي يعدّان النجوم في السماء.. يكون الثمل في هذه  
الحالة قد سكنهما، بيد أن مجرى الرحلة لا يتأثر ما دام مساعده  
القبطان والأدلة عيونهم مفتوحة ترصد خط السير ببراعة  
وتمرس.. وعندما يجثو هذان السكيران من الإعياء يسارع الخدم  
بحملهما إلى مخدعيهما، وفي كل يوم يتكرر هذا الحال..  
أخيراً وقف المركب على شاطئ الحبشة الجنوبي في ساعة من  
سويعات النهار وقد استل شهر من رحلة هادئة لم تشبها أي  
صعاب. تراءت خمس سفن كبيرة موثقة إلى أوتاد مغروزة في  
الرمال الناعمة.. وفي اليابسة حول الشط أكواخ لا تحصى من  
السعف والجريد وأعجاف النخيل الجافة. كانت إحدى السفن

تشحن بالرقيق، ويتولى أمر شحنها جنود رومان ذوو خود مذهبة. واستقبل التاجر فالوس استقبلاً فاتراً جافاً، ولولا معرفته المسبقة بالغموض الذي يكتنف هذا العمل لعد ذلك استهانة لا تغتفر.. فقد مال إليه أحد الفرسان وأملى عليه بصوت متعطرس المهام الموكلة إليه قائلاً:

- تلك أربع سفن تسع أربعائة عبد وجارية، ولديك مركباً يسع مائة. لا شأن لي بالأعداد التي عليك أن تقلها إلى البر الآخر، هذا شأنك وحدك يا فالوس.. والقرار قرارك، ولعلك حين رأيت هذه الأكواخ أدركت حالاً أننا مدينون للعمال الأحباش بأجور بنائها، كما نحن مدينون أيضاً لأسواق الرقيق بثمن ألف عبد حبشي. ستدفع لهؤلاء وأولئك ما في ذمتنا من مال يبدأ بيد، ثم تبرم في العبيد عقود بيع لكي لا تنتهم بالاختطاف.. ولا تنس أن هناك روميات فاتنات قادمات من روما، سننشئ هن ملاجئ وأكواخاً، ولا بد لهذه الأنفس الكثيرة من مال جم يغطي نفقتها اليومية، وستدفع نفقات المعيشة بما في ذلك أثمان الأسرجة وزيوها التي ستبعد عن أرباب الأكواخ وحشة ليل الشاطيء، ويحتاجون إلى كسوة لا سيما الجوازي الذي يستدعي الحال أن يبدن في أجمل زينة.. وأرغب في كيت وكيت..

وظل ذلك الفارس يعدد رغباته ومطالبه، ولكن التاجر فالوس كان غائب الذهن لا يخرن حرقاً مما يهذر به. فمنذ أن أنبئ بقدم الروميات الفاتنات ظل يسبح مفكراً في موسم هانئ من أحلام اللذة المنتظرة، عرف أن هذا وحده كافٍ باخضرار لياليه الجذباء، ويهون من ألم الغربة وكلل السفر..

شطف التاجر فالوس آخر جملة من كلام صاحبه الروماني

الذي زجر منبهاً:

- والآن هل وعيت دورك يا فالوس، وخنت مقدار ما استدفع

من مال؟

لم يكن فالوس قد وعى دوره تماماً بسبب غياب وعيه في السابق، إلا أنه أجاب باحترازه المعهود:

- كل ما تفوهت به نستعيده على رواقه في جلسة مريحة،

ونحتسب كل النفقات لكل بند على حدة..

أخذ الفارس الروماني بيد التاجر فالوس واستقر معه عمق كوخ نظيف.. وظلاً بحساب المال في أخذ ورد حتى وقفوا عند رقم معقول ارتضيا به..

\*\*\*

وقف التاجر فالوس على رمال سبأ ثانية ولكنه هذه الفينة متهيباً متوجساً خيفة مما تخبئه له الأيام.. لم يكن مطمئناً إلى حاله وهو يسوق خمسمائة عبد حبشي كقطيع نعاج سوداء، لا يعلم راعيها هل سيتهي بها إلى المراعي أم إلى مسلخ الجزائر.. وليست لديه إشارة أمان واحدة، كما ليس ثمة دليل عن سوء محقق، كل ما في الأمر أنه ولج إلى أرض سبأ بجيش صغير غير مسلح لا يمكن أن يؤذي أحداً، بل من الممكن القول أنهم جاءوا لخدمة أهل هذه البلدة المترفين.. فكر التاجر فالوس أنه كيف للسبأين أن يفطنوا إلى ذلك من أول وهلة.. بل لا يستحب إلقاء اللائمة عليهم حين يعتقدون أن حثالة من الغزاة الطامعين قد طرقت أرضهم.. عشرات من الفتيان استنفروا من ميدان التدريب الخاص بهم، واعترضوا مسيرة فالوس والرقيق.. لم يكن بوسعهم أن يبرر للفتيان سبب مجيئه وذلك العدد الكبير من العبيد.. لأنه

أبلغ مسبقاً أن هذا الشأن لا يعينهم في شيء، وليس في وسع أحد أن يبيت في أمره أو أن يستمع إلى نجواه سوى الملك شراح...  
وقد تعرف من بين الفتيان الذين احتاطوا به على وجهي كرب وشام ابني الملك.. احتفظ بملاحظتها في مخيلته التي لا زالت تحتفظ كذلك بصور متفرقة لأماكن مر بها ورآها في رحلته السابقة.. كان الصمت يغلف الجميع قليلاً من الوقت، وهم يتخنون الطريق بأقدامهم قاصدين المدينة، تكللهم روائح أشجار الغار ونباتات النعناع وأغبرة الخطى المتطايرة، ويتصاعد العطاس والكحات وشهقات الإعجاب وكلام متفرق بين الفتيان السبثيين أو حتى بين العبيد أنفسهم أو بين هؤلاء وأولئك، ويتخيل التاجر فالوس هيئة ملك سبأ ورونق مجلس الحكم بسجاجيده الفخمة.. لا بد أن يتلطف كثيراً وهو يتفحح الملك بتمثال آدمي من الذهب الخام يجسد صورة فينوس آلهة الحب لدى الرومان، وأعمال من أعقاد وأقراط وأساور وكؤوس من صنع الرومان وأقمشة حريرية وأشياء أخرى للنساء ومنسوجات زاهية..

هدية ضخمة كهذه تدمغ القلوب وتدهش العقول، ومهما بلغت فهي لا تتعد عن أدواق الملوك والأثرياء من الناس.. ولكن هدية قوامها عدد كبير من العبيد تبدو مدعاة للظنون والتشاؤم.. تكاد أرض سبأ تكون خالية من العبيد والخادmates.. عدة مئات منهم داخل حواشي القصور في سبأ برمتها. يعتقد التاجر فالوس بذلك، وفوق هذا يرى أنه قد بالغ في تعداد العبيد الأصليين الخادامين في المحميات السبثية، ولو كان بوسعه أن ينفي أمر وجودهم لفعل، غير أنه يتذكر رؤيته

لنقر من العبيد يتسوقون في أسواق مدينة جنات، وبعضهم يخرج من أبواب قصور المحميات الأخرى. الأقيال وحدهم يقتنون العبيد للخدمة في القصور، يوكلون إليهم تربية الماشية والتسوق.. وأعمالاً أخرى يجدون في أنفسهم حرجاً من القيام بها.. لكن العامة من أهل سبأ لا تفكر البتة باقتناء العبيد كما لو كانوا يجرون على ديدن عرف قديم مستفحل فيهم منذ الأزل، إنهم يزرعون ويحصدون ويسوقون منتجاتهم بأنفسهم أو يقايضون بها، بل يمارسون كل الحرف والأعمال دون غضاضة، ويعيشون صغارهم إلى حلقة دروس المعبد، ويتلقون عسف الملك شراح ورعونة عسسه باصطبار وتسليم، ويتقربون إلى وجدان انسادن شيزار بالأتاوى المستديمة والقرايين التي تكشف عنهم ضر الآلهة.. فكل الأهالي في سبأ يجلون الملك وسلالته القديمة، لا يدري أحد فحوى مشاعرهم الحقيقية، ولكن للدائرة المقدسة التي تحملها العائلة الملكية منذ القدم كامل التأثير عليهم.. لأنها مهوراة بأدعية السادن وبركات الآلهة..

تمكن الغضب من التاجر فالوس وقال لروحه:

" لقد هجم علينا هؤلاء الفتیان الحمقى وأخافونا بسيوفهم المثلومة ولم يلقونا باللطف والترحاب للذين يلقون به قوافل التجار الأغراب.. كل هذا لأن قافلتى هذه المرة من العبيد الأحباش، وإذا لم تتدخل عناية الآلهة الكبرى في تليين عريكة ملك سبأ وجعله يقبل هديتي لا سيما العبيد فإن العواقب لن تحمد وتدور الدوائر على رأسي". وفي قرارة التاجر فالوس أن فشل مسعاه أقل ما يمكن أن يلقاه، حتى وإن حظيت هداياه بالقبول والامتنان، هذه المرة يستحال أن تنظلي على ملك سبأ

فكرة المتاجرة بالعبيد في المدن السبئية، باعتباره تاجر رقيق روماني المنبت جاء في طلب الرزق، على أي حال فإن هذه الفكرة هي الشيء المأمول الذي ينبغي أن يتم رغم كل ظرف.. ما أمر الخيبة التي تتأتى من فعل يجبر المرء عليه مع ما هناك من مؤشرات بائنة توحى بالإخفاق. فكر متبرماً..

رمق التاجر فالوس ابني الملك وهما يتأرجحان على جوادين عالين، ويشمخان بأنفيهما عالياً كأنما آبا من الصيد بفرائس ووحوش ضارية، وظهر المعبد الأكبر أمام أعينهم شاخاً مهيباً، بأعمدته الستة وبملحقاته المصممة في أدق تصميم يليق بالآلهة (المقة)، مثل كل المعابد في سبأ التي تتسق في نمط معمارها وتماثل مع بعضها البعض، وتأخذ شكلاً مستطيلاً محدودباً في مساحة تقدر بمئات الأمتار.. ويبرز كالعادة المصلى وحجر الآلهة، ثم المذبح وأحواض القرابين الواطئة وألواح التشريع، وفناء تعليم الصغار، وسلام حجرية نازلة وصاعدة من هنا وهناك ثم الأعمدة الستة، ويقابلها مسكن السادن شيزار، ثم حلبة تعذيب المارقين من دين الآلهة، وهي باحة كبيرة مستيجة بسياج خشبي دائري من أخشاب شجر الصنوبر القوي يرتفع بقدر نصف قامته، والهدف منه أن يصد الأجساد المعذبة المتدحرجة، وإلى جوار هذه الحلبة تقع خشبة التطهير من الذنب الأكبر التي تبتز فوقها الرؤوس أو الأطراف، وخشبها المكفهر القذر صار أسود مصقولاً يلمع مع أشعة الشمس الجهنمية، وتنتشر روائح الدماء العطنة حول المعبد في ساعة الضحى، بمجرد أن يكف عبيد المعبد عن حرق المزيد من البخور ونفث الطيوب في أحواض القرابين وأركان المعبد الأخرى..

في ذلك الوقت غلفت الجو في محيط المعبد سحابة من الروائح المتناقضة تشبه ما ينبعث من حوانيت الجزارين.

- "هذه رائحة لاذعة لدماء مزمنة، وهناك فوح دماء أريققت

قبل أيام ثلاثة، من بوسعه أن يتقرب للآلهة بكل هذه البهائم؟"  
ألقي التاجر فالوس بالتساؤل الأخير بصوت مسموع بحيث أثار انتباه عدد من الفتیان السبثيين الذين يسرون معه جنباً إلى جنب، فانبثقت من أفواههم الردود والتعليقات بتعاقب سريع..

- "سيطالعنا المعبد عما قليل بعد تلك العطفة (أشار بيده)  
وإياك يا تاجر العبيد ألا تنحني حين يتجلى حجر الآلهة أو روح المعبد شيزار". أجاب كرب..

رد شام بصوت حانق:

- "ليست دماء بهائم كما تظن، إنما دماء رجال ونساء من الأهالي يقول السادن شيزار إنهم مرقوا عن دين (المقة)".

أجاب هاري ابن السادن شيزار بغضب شديد:

- "أبي يقوم بأفعال غريبة غير مستحبة، ويستحوذ هو والمملك على ممتلكات الأهالي، ومن عصي وأمسك على أمواله بكلتا يديه وحال دون ما يريدون، يضعون له وزر المروق عن التشريع، ويلقى حتفه على مرأى من الآلهة، لا شك أنها غاضبة لا يسرها ما يحدث، وإن تشريعها الصحيح عندما كانت الدائرة المقدسة في وجوه...."

سكت هاري فجأة وانكسرت نظرتة نحو الأرض وبدأ عليه

الأسى.

كان جميع الفتیان خلا كوهار لا يروق لهم الحديث عن التشريع المقدس خوفاً من الاصطدام مع صديقهم هاري الحاد



الطباع فيلوذون بالصمت.

- " إن كلامك عن التشريع قد يغري شياطين سبأ على أن تصدق جزءاً منه، ولا شك أن أول من يبش لأقوالك هو الحكيم الإغريقي حانون، إنه محاجج كبير يتحذلق ويجادل في كل شيء، ويسمي هذا الجدل فلسفة إغريقية، ياله من إنسان غريب الأطوار". قال كوهار ابن المشرّع نياز..

اقترب هاري من مكان كوهار وهمس بصوت متهدج خافض:

- اسمع يا كوهار أنت ملاذي الوحيد وسأبوح لك بسر عظيم، لقد استخرجت الوثائق الخالدة القديمة من خزانة المعبد وقرأت وثائق سبأ الخالدة، وسرقت وثيقة سرية خطيرة هي أهم الوثائق المقدسة على الإطلاق وأشملها وأكبرها، وإن الكشف عنها يهدد مقام السادن والملك وذوي الدائرة المقدسة بالذات، ولأجل هذا سيهبان لاستعادتها بأي ثمن بمجرد أن يدرك أبي اختفاءها..

فغر كوهار فاهُ وقال برعب: "يا لللمقة الدائرة المقدسة؟"

- نعم، إن الوثيقة تكشف حقيقتها بشكل آخر لا يخطر لأحد على بال، خذها واخلطها بين وثائق أبيك المهمة واحذر أن تقع عليها عيناه.

مد له هاري لفافة كبيرة مطوية من الرق فتناولها كوهار بلا مبالاة ودسها تحت ثيابه، فقد كان من المألوف جداً أن يتسلم من هاري عقود الإيجارات ووثائق البيع والشراء التي تبرم بين الناس في المعبد، ليسلمها هو إلى يد أبيه المشرّع نياز الذي يودعها خزانة مثيلاتها من الوثائق الصغيرة. انسحب كوهار مثقلاً بالمهمة القاسية التي تجشم أمر القيام بها. نأى عن المعبد من

طريق خلفية تفضي إلى وسط المدينة.

بينما وجد الجميع أنفسهم يطلون على حلبة التعذيب وثمة عشرة عبيد مشمري السواعد يلهبون بالسياط أربعة عراة لا تبين أعمارهم بسبب آثار التعذيب والتشوهات التي على أبدانهم والأوساخ والأتربة. انقطع أنينهم ولم يعد يسمع إلا ضربات السياط المنتظمة، سد التاجر فالوس منخريه من الروائح الكريهة التي انبعثت وتأججت. كان السادن شيزار يقف متشجاً إزاره الأبيض المسترسل إلى الكعبيين، ويتطلع من باب مقامه المقدس مصوباً نظره إلى الحلبة مستمتعاً بما يدور فيها. انحنى الفتيان متممين بعبارات التسليم للآلهة وروح المعبد. ومنع الدهول التاجر فالوس أن يتمعن شخص السادن شيزار الوقور بشيئته اللامعة وعوده الصلب. استطاع فقط أن يقدر عمره ويعطيه سبعين عاماً، وحضره حديث ساحرة مصر عن القواقع والأصداف. إنها محقة. هاهي القواقع السوداء البشعة تضرب. والأصداف الحمراء مبطوحة على بطونها تتألم. ما أشد دهشته من هذا التوافق العظيم بين كلام الساحرة العجوز وبين ما يرى على الحلبة.

انتبه على صوت السادن شيزار الذي أوقف الجلادين بإشارة من يده وقال متطلعاً إلى القادمين:

- تمنيت على الآلهة أن تمنحني المزيد من العبيد لكي يعملوا على تنظيف أقدار ودماء المارقين عن التشريع، لا بد أنكم قد شمتم هذه القذارة ورأيتموها، إن أهالي سبأ منشغلون عن آلتهم (المقة) بالتجارة وجني المحاصيل والأموال، أقسمت أنها لن تغفر لهم هذا..

انتفضت أجساد الفتیان السبئیین من هول القسم. ولاحظ فالوس كيف وقع قول السادن في نفوسهم، وسرعان ما اقترب إلى موضع يراه فيه السادن جلياً ورفع صوته قائلاً بلكنة رومانية مميزة:

- أيها الأب المبارك، لقد أجابت الآلهة أمنتك وحققت أملك، وبعثت فالوس من أرض مصر لكي يسد حاجة المعبد وأرض سبأ بما تشاءون من عبيد الحبشة وجواري الرومان، إنكم في موقع عظيم من الشرف والجاه، وبوسعكم أن تتركوا الأعمال الحقيرة لمن هم مسخرون لها من أوباش الناس، وقد وهبت المعبد ما يعوزه من عبيد ومال لقاء أن يتاح لي السبيل كي أتاجر في أرضكم بالرقيق، وسأدفع لملك سبأ أجراً كبيراً كل عام، وقد جئت إليه آمناً مسالماً بهدية جليلة، لكن هؤلاء الفتیان اعترضوني وأخافوا عبيدي ونوقي ..

بدت غضون وجه السادن شيزار بوضوح، وارتجفت شفثاه، ورمى الفتیان بنظرات لاهبة، وقال يخاطب التاجر فالوس:

- أيها التاجر المدعو فالوس، إن الآلهة تأمرني أن أدلل أمامك كل السبل، فثق بقضاء مهامك وبلوغ مأربك، وإن أساء إليك الفتیان فقد شطوا عن صلوات المعبد وخالفوا أعراف سبأ وتشريعاتها، يا لها من فضيحة يا فالوس، إنني أفضح نفسي وأشكو لمن هب ودب من رواد المعبد لعل الآلهة تعيد ابني المارق إلى رشده، انظر إلى هؤلاء المارقين من العامة كيف يسامون بالعذاب، ثم يقتلون، ولكنهم يذهبون إلى رحمة الآلهة، إنهم يخالفونني ولا يبذلون ما عليهم من قرابين للمعبد. أو ينكرون أمر الدائرة المقدسة، أو لا يؤدّون الولاء لأربابها..

صمت السادن لحظات كأنها يسترد أنفاسه المرهقة، ثم أخذ نفساً عميقاً وأضاف بصوت خارق:

- انظر إلى الفتیان، إنهم جميعاً مخرومو الآذان من سلالة الأقبال ودماءؤهم معصومة بأمر الآلهة، وإن لم يثوبوا إلى الصلوات وينأوا عن الشيطان الإغريقي حانون وعن صعاليك سبأ، سوف تعذبهم (المقة) بعد فنائهم، وتغرس أرواحهم وجماجهم فوق نار لاطية، والآن أيها الفتیان إن الآلهة تستييكم وتأمركم بالدخول إلى الحلبة لركل المارقين والبصق في وجوههم، هيا يا هاري انج بنفسك وافعل ما أمرتك به، هيا يا فتیان إلى الحلبة.

دخل كرب وكثير من الفتیان إلى الحلبة، وركلوا المعذبين بقسوة وبصقوا عليهم، وكالعادة تأخر هاري وشام وسبعة فتیان آخرين باستثناء كوهار الذي كان غائباً إنهم نفس المجموعة العاصية التي تعاند ولا تستجيب. هم رواد جلسة الحكيم حانون الإغريقي ويعتقد السادن شيزار أنه الشيطان عدو الآلهة، وكم كان يحلو له أن يسمي هذه المجموعة "فتیان حانون".

وحانون هذا ليس في الحقيقة سوى أحد تلامذة الفلاسفة الإغريق، نذر نفسه للتجوال في أرجاء المعمورة بحثاً عن الحقيقة، وقد جعلته الحملات العدائية الشرسة على الفلاسفة وتلامذتهم يلوذ بالهجرة. كان يحلم بمعرفة مقدار حجم الأرض والنفوذ من أحد أقطارها، وظن أن بإمكانه عندما يصل إلى حافة الأرض أن يختلس النظر إلى أسفلها ليكتشف ما يتواجد هناك في الخواء، كانت تبرق في ذهنه أحلام كبيرة عاش معها فترة طويلة من عمره، قطع بها كثيراً من البلدان وتوغل في أغوار البحار، ولازمته حتى وائته بوادر الشيخوخة، فشاخت معه

فارقة بريقها القوي النافذ. لم يندم على ما فاته من الحياة ولا زال يدعي - رغم ما جاب من الأصقاع - أن هناك بلداناً وبحاراً تقطعت به السبل إليها لكنها موجودة على الطبيعة. كان يضع علامات على الجبال التي يمر بها، ولكنه بعد سنين يصطدم بتلك العلامات أثناء تجواله في الأرض، مما دعاه ليستنتج أن الأرض بدون حواف. لم تواته الجرأة ليؤكد أن الأرض كروية الشكل وليست مسطحة كما يعتقد الناس. وظلت هذه الفكرة متداولة ومدروسة يبذرهما بين تلاميذه في كل مكان من الأرض مأهول بالسكان، ينشرها مع الأفكار الجديدة الأخرى عن وجود الإنسان وعلاقته بعنصري الخير والشر، وبالشيطان، ذلك العنصر الخفي المتهم والبريء في آن واحد، والذي لا وجود له في قائمة الحقائق الوجودية. قال إن الشيطان هو اختراع الشيطان نفسه، ومن أجل هذه الأفكار لم يكن يمكث في أي بلد مدة شهر واحد، فبمجرد أن يسمعها الناس يطردونه من أرضهم في الحال. ولكن ما إن وصل حانون إلى ضواحي أرض جنات حتى طاب له المقام هناك. بنى له كوخاً متواضعاً من جذوع النخيل المتيسسة وغطاه بالسعف وأغصان شجرة (النعطة) الطيبة الرائحة، وعثر الفتیان عليه في نوبة من نوبات الصيد، وجده كرب قرب كوخه يطعم زوجاً من الأرناب، وينثر الحبوب أمام طيرين من طيور الحجل الحبشية التي تقوقى بلا توقف. وسرعان ما اهتدى الصحاب بالقوقأة إلى مكانه، فاجتمعوا عنده، ولم يلبث الحكيم حانون أن يادر معرفاً بنفسه:

- أنا حانون الإغريقي، سائح في الأرض منذ سنوات بعيدة، أبحث عن الحقيقة يا أبنائي.

نظروا إلى بعضهم البعض في عجب وسأله كرب ساخرًا:

- عن أية حقيقة تبحث أيها الشيخ الهرم؟

- حقيقة أنفسنا يا بني، حقيقة هذه الأرض التي نطؤها مثل بقية الحيوانات ولا نسأل عنها! ما أكثر الحقائق الغائبة عنا والتي يعوزنا أن نعرفها.

- الحقيقة هي أننا جئنا لنعيش ثم نموت، لا يعوزنا أن نعرف أكثر من ذلك، فتمتع بحياتك وأد صلواتك ودعني وشأني.. هيا.. إنه مجنون لا شك.. انصرف كرب والفتيان، ومكث شام وهاري وكوهار وسبعة فتیان راق لهم كلام الحكيم. وسرعان ما أدمنوا حديث الشيخ وصاروا تلاميذه الذين لا ينفكون عن درسه اليومي، وفي غضون أسابيع قليلة اتسعت حلقة الدروس بانضمام عدد كبير من فئة الصعاليك السبثيين الذين كانوا يأتون إليه سرًا بعد المغيب.. وهم جماعة من المارقين عن التشريع والفارين من الطلب. والبعض منهم من أبناء البغايا عاشوا حياة ضنكى في فجوات المعابد، يأكلون مما يجود به عليهم السدنة ورواد المعبد، ولما كبروا طردوا من المحميات وصار مكتوباً عليهم التشرّد والتجوال في الدروب غير المسكونة حتى يرفق بهم الموت.. وقد أطلق عليهم الناس إسم الصعالك أبناء الخطيئة، وقد لجأ البعض منهم إلى تكوين عصابات تقوم بأعمال القرصنة على طرق التجارة.

وظل الأمر مخفياً إلى أن فطن السادن شيزار إلى تخلف هاري عن ميقات الصلوات، وعلم أن ثمة شيخ إغريقي يدعى حانون يذهبون إلى درسه ويأخذون أفكاره الغريبة، حينئذ أقام الدنيا، ودخل على الملك شراح، وأخبره عن حكاية الحكيم الإغريقي

الذي يفسد عقول الفتیان بأقواله التي تنافي تعاليم المعبد. ويتلقى الحماية من شام والتلاميذ الذين يرتادون جلسسته، أراد الملك شراح أن يأخذ برأي السادن ويطرد الحكيم حانون من بلاده، ولكن شام استنجد بأمه الملكة سنديانا وتضرع عندها أن تشفع للحكيم لدى الملك ففعلت.. وطار عقل السادن من رأسه، وطفق يذرع أرضية المعبد جيئةً وذهاباً عند حجر الآلهة ويدمدم: "صارت الملكة سنديانا ملاذاً لأعداء التشريع، ويلٌ للملك شراح من دعواتي ونقمتي، ويلٌ لهم جميعاً".

ويظل صوته هذا واطناً لا يمكن أن يرتفع أكثر من ذلك. لأن قرارات الملك شراح تنبع من رأس الملكة سنديانا التي تعتبر المرجعية الهامة للمهام العظام في مملكة سبأ، وما الملك إلا شبح متعطرس على العرش يأمر ويزجر ويحبس ويقتل، وينزل لماماً - بمقتضى العادة - إلى ميادين التدريب لتكريم أبطال المحميات، ومنح بطل الأبطال منصب قائد جيوش سبأ.

أثقلت السادن شيزار الظغينة على ذوي الدائرة المقدسة بسبب ذلك. لأنه لا يتسامح مطلقاً في الأمور التي تهدد سلامة التشريع. ظل يكرر لنفسه أن أفكار الحكيم حانون أخطر من كل الكوارث الطبيعية الماحقة، وإن لم تكبح بسرعة فلن يجد ما يشفع له من تنكيل الآلهة.

أخيراً زاد سعار غضبه عند عصيان الفتیان العشرة لأوامر الآلهة برفضهم البصق على وجوه المارقين عن التشريع، ووجد ذريعة كافية ليدخل ذارعاً سلام قصر الملك شراح في صراخ وعويل. اندهش الملك عندما رآه في تلك الحالة من البؤس وسوء الحال، ودار بخلده أن المعبد قد أغير عليه وتحطمت حجر آلهة

سبأ الكبرى. سأل الملك:

- ما هذا بحق الآلهة؟

استعاد السادن أنفاسه وأجاب باضطراب:

- أيها الملك. إن لم تطرد حانون أو تبعد عنه حمايتك وإلا تنزل

اللعنة على سبأ.

- ماذا استدعى غضبك يا روح المعبد؟ هل سب الإغريقي

المعبد أو بصق عليه؟

انفجر السادن شيزار قائلاً:

- وهل نترث حتى يفعل ذلك؟ إنه يبذر روح التمرد في

أجساد أبنائنا، لقد تغير طبع ولدي هاري مذ جاء هذا اللعين،

وصار يقول لي بوقاحة: ألا تخجل يا أبي عندما تسمع أنات

المعذبين؟ إنك والمملك تستحلان دماء السبئيين وأموالهم. ولا

شك أن ولدك سينقض عليك ذات يوم بمثل هذا الكلام، فهما

يخضران معاً دروس الإغريقي. استغرق الملك شراح في التفكير

لحظات وجيزة، ثم قال بقوة:

- لا تبتئس من كل هذا يا روح المعبد، لا تدع هذا الرجل يهز

إيمانك العظيم وقلبك الحليم. وأبشرك بأنه سيرحل من ذات

نفسه عما قريب. إنه رجل غريب مهووس بالأسفار لا يستطيع

العيش في مكان واحد. وعندما نظرده تعسفاً دون أن يبدر منه ما

يستوجب الطرد فقد يقذفنا بالسوء بين الممالك، ويمرغ سمعتنا

بأشنع الأوصاف. اطمئن يا روح المعبد. سيذهب ويعود إليك

الفتيان المارقون تائبين مستغفرين.

كبت السادن غيظه وجعل يقول لنفسه:

"هذه كلمات الملكة سنديانا، عجباً يا ناطح الجمال. كيف



يجتمع رأسك القوي وعقلك الضعيف!" .

ثم قال بصوت حام:

- إن سلمنا من الفتيان لم نسلم من صعاليك سبأ الذين صاروا يملأون الصحارى. فقد نما إلي أنهم كذلك يترددون عليه ليلاً ويستمعون إليه.

- هل لديك من حاجة أخرى أفضيها لك؟ سأل الملك بحزم.  
يئس السادن شيزار من أمر الحكيم حانون، فأراد أن لا يعود دون أي شيء مادام لديه مأرب آخر. فقال:

- استجار بالمعبد تاجر روماني يدعى فالوس وقد سجد للمقة ودعاها أن تهب سبأ القوة والمجد، وأن تزجي إلى ملوكها النصر والتمكين. وطلب أن تأذن له أن يتاجر بالرقيق في المملكة على أن يدفع الأتاوة إلى خزينة القصر كل سنة.

- أذنت له أن يتاجر ...

أدرك السادن شيزار أن اقتضاب جواب الملك علامة ضيق شديد، فأنصرف من أمامه عائداً إلى المعبد بهذا المكسب الوحيد، واستطاع كذلك أن يفوز بكل الهدايا التي جلبها التاجر فالوس، ولكنه لم يضم إلى معية المعبد سوى خمسين من العبيد. وأمر ببيع العدد المتبقي في سوق المدينة. ظل حزيناً منظر القلب في ذلك المساء، لأنه في اليوم السابق قام بطرد ولده هاري من المعبد عندما جابهه بذلك الكلام، ثم لم يعد في الليلة الثانية إلى مخدعه لينام، ساحت دمعة حمئة من عين السادن شيزار وسرعان ما تغلغت في لحيته الكثة. وتساءل في رقة: " أين يذهب هاري ابني الوحيد في هذا الليل البهيم؟ لماذا يعاملني بكل هذا القنوط؟ لا أظنه يفعل ذلك لأنني أطبق تشريع المقة، وليس غير

الشیطان حانون هو السبب، ویلُّ له " ..

فجأة دق السادن شیزار علی صدره بقوة كالمصعوق، انتبه إلى أن هاري قال له من مجمل كلام الليلة الماضية أن الدائرة المقدسة القديمة هي الدائرة الصحيحة، وأشار إلى وجوه النساء الجميلات أو شيئاً من هذا القبيل. هبَّ السادن من جلسته وأخذ السراج وتوغل في أحشاء المعبد إلى خزينة الوثائق. ولم يلبث أن عاد وهو يولول بصوت خارق. ثم أمر العبيد أن يدقوا أجراس المعبد الكبيرة، والمنادي أن ينادي في أرجاء مدينة جنات عن سرقة وثيقة الدائرة المقدسة، وفي تلك اللحظة كان الحكيم حانون يفارق كوخه إلى غير رجعة تشيعه دموع تلامذته الفتيان. وسرعان ما هدأت الزوبعة بعد رحيله، ونسي الملك والسادن والسبئيون جميعاً أمر هذه الوثيقة المقدسة المفقودة، ولا زالت هناك نسخة من هذه الوثيقة في خزينة قصر الملك شراح، ولم يشك أحد من السبئيين في أن الحكيم حانون قد سرق الوثيقة بمساعدة تلامذته العشرة، وبالذات هاري الذي كان يسكن بالمعبد ويعلم أسراره. ولكن ظل السؤال الأكثر حيرة في الأمر هو: ماذا يمكن أن يعود علی الحكيم الإغريقي من وراء سرقة هذه الوثيقة المقدسة؟ لقد شطت بالكثير الظنون إلى الاعتقاد أن هذه الوثيقة تكنز داخلها مفاتيح أسرار الآلهة. وذلك بسبب حالة الفوضى والضجة العارمة التي صنعتها أجراس المعبد ليلة فقدان الوثيقة.

## (٢)

أخذ الشاب شلق مهام المعبد بعد أبيه ميدم، ولبس خاتمه المقدس وجبته المطيبة بألوان الطيب. مضى عليه أيام وهو يمارس طقوسه التعبدية فكان مجيداً لجميعها، عارفاً أكثر من أبيه بطرق الوعظ وتقريب القرابين والخطابة في الناس دون تجهم. لقد صارت شعيرات وجهه تتناول ليكتمل معمار وقاره وسدائنه وهو لم يزل في عز شبابه وصحته. كان المعبد الذي يقيم به الصلوات مدسوساً بين أشجار اللبان على خلاف المنازل المؤودة بمحيط المكان، والأراضي الخالية المقابلة في الجانب الآخر، وتحت الجدران يهجع ظل مديد يقتسمه صغار وصغيرات الأقيال، فيلقي عليهم كل صباح أوامر ومخاذير الآلهة ويعلمهم واجبات الصلاة والقرابين والأدعية، وتتطور الدروس حتى تنتهي في أقصى حدودها عند تعلم القراءة والكتابة بأحرف المسند، وكان لا ينسى قبل أن يتدئ بالدرس أن يمرر عينيه متفحصاً أرناب الأذنان الأطفال واحداً بعد الآخر، وكانت تلك طريقته المثلى للتأكد من عدم اندساس أبناء العامة بين الدارسين، وعرفاً درج عليه أبوه من قبله، ولقد فرض عليهم هذا ارتفاع عدد رواد المعبد من الأبطال إلى مائتي صبي وصبية، وكلهم مخرومو الأذنان يرتدون أزياء مكشكشة من صناعة نساجي صرواح. ولكنهم بشقاوتهم قضوا على أعصاب السادن ميدم

بالإرهاق، فطالما كان يعوزه البرود والانسجام مع هذا العالم المضطرب لا سيما في السنوات الأخيرة من سني عمره التي قاربت الثمانين.. ومع هذا فقد كان يتمتع بسلامة حواسه وبدنه لولا حمى غربية سلمته إلى الموت في يوم واحد.. وطيلة حياته لم يقر بالزواج واجباً روحياً إلا لياتي بمن يقيم شعائر المعبد من بعده.. ولذلك أوكل نفسه إلى مشتهاها، وهجر مضجع أم شلق بعد وضعها وعاش أرملًا في نزل طيني لصق المعبد.. ولم تكن أيامه المكلفة بإلقاء الدروس للصغار وإحياء الصلوات تخلو من أوقات في الظهرية يقتطف فيها لجسده بعض اللذة.. فعندما يكتظ قعر المعبد الضيق بصفوف الرجال يلجئون إلى نزل السادن ميسم، فيقيم فيهم الصلاة، ويصرفهم ليقوم الصلاة في النساء، فيبدأ بالعجائز والثواب والأرامل ثم ينتهي بالعذارى والصغيرات، وكانت خاتمة صلاته تطول، تصاحبها أدعية حارة تجأر بها الأفواه بالهمهمات العالية، ويكون السادن ميسم في تلك اللحظات يقترف برفق لعبته الخبيثة مع فتاة قاصر مستعيناً بظلمة النزل وروحانيته، وهو بفعله هذا لم يكن يرغب في لعب فعال مؤذٍ، والذي يهيمه هو أن يتمتع ويبلغ أقصى النشوة باللادوعي في آخر المطاف.. وتتلون تلك الألعاب وتكرر مع ألوان شتى من القُصْر والمراهقات، أما الأخيرات فقد نزعن إلى هوى الأفعال المدهشة التي لم يعتدنها من قبل، وراقهن المجيء المنتظم إلى المعبد في مواقيت الصلاة، حيث تقام ضحى كل يوم وهي صلاة يؤديها الجميع، وهناك صلوات أخرى تعقد في أي ميقات على سبيل التطوع والتقرب من الآلهة.. أما القُصْر فكن لجهلهن يحسبن أن ما يقترفه السادن طقساً خيفاً من طقوس

العبادة.. ولكن لا يلبث أن يهجرن المعبد ويتعرضن لغضب أهلهن ودعوات السادن الناقمة. وفي مرة من المرات عادت تنرا الكبرى ابنة قيل صرواح طاهم بن شاري إلى القصر وهي تبدو ساهمة ومتعبة، وجبت نفسها في مقصورتها، وظلت متقلبة المزاج تعبس وتصرخ وتتحرك في أرجاء القصر كأنها ألم بها الجنون.. كانت في الثانية عشرة من العمر ولها أخ يصغرها بعامين يدعى حوف، وأخت مفردة تدعى تنرا الصغرى لها من العمر سبعة أعوام.. أبوها القيل طاهم أحس بشيء ولكنه هو الآخر كان مكدرًا بقتل ونزاعات خطيرة في أقصى صرواح على كتب من ثغور مملكة معين، وكان عليه أن يخرج إلى تلك البقاع الملتهبة ويرى ما يمكنه أن يفعل مع المعينيين لقطع دابر هذا النزاع بحل حكيم، وهو خير بمثل هذه الشؤون، وليست هذه المرة الوحيدة التي تلتهب فيها هذه الثغور، ولكنها هكذا تتبلبل من فينة إلى أخرى، وفي أسوأ الحالات يكون التنازل من أحد الجانبين الرهان العريض الذين يقفون عنده حائرين، ولكن القيل طاهم يكون هو البادئ في التنازل غير المجحف فيبدو مرناً منقاداً للهدنة كلما عن له ذلك.. وكان خصومه في صرواح يتهمونه بملاينة أصهاره المعينيين، ولا يدعون أية هدنة تضي دون وشاية يبعثون بها إلى أرض جنات. وعلى هذا مضى في الغداة مصطحباً نخبة من عقلاء صرواح إلى الثغور. وأما القبيلة نوب أم تنرا فقد كانت كثيرة الصمت والشذوذ تتحرك في نواحي القصر بلا وعي كالسحاب تمور لوحدها في سماء مليئة بالكواكب، وكانت لها لغة خاصة بها صار يفهمها أهل القصر، حتى العبيد والجواري والأضياف المعتادون.. وتلجأ في مخاطبتها إلى إشارات

أصابها وإيحاءات عينيها، ويفهم غضبها وفرحها وحزنها من  
صفحة وجهها المستكين، وإن حار المخاطب منها ووقف موقف  
المندهش المتجلد، تجمع كل قدرتها لترمي في وجهه كلمة قريبة  
من المعنى أو كلمتين فاترتين، كانت حالتها هذه تسبب نزاعاً  
خفياً بينها وبين القيل طاهم، ومع مراسه وخبرته في فكفكة  
النزاعات في صرواح، وجد نفسه يائساً من انحلال عقدة لسانها  
المزمنة، ولا يمكنه الإنكار أنها تسعده في فراش الزوجية أيما  
إسعاد، وتتماهى معه إلى أفق يجب أن يكونا فيه معاً وحيدين  
محلقيين في غاية الانسجام والمتعة. وهي فوق هذا أجل ما رأت  
عيناه، ويوم خطبها من أهلها لم يكن قد رآها من قبل، وفي نهار  
قائظ لم تشهد له الصحراء مثيلاً، كان تاجر من حضرموت يعلن  
بأعلى صوته أن الآلهة تجلت في نافذة من نوافذ قصور  
معين.. فأخذ منه علامات القصر، وسعى سعياً إلى معين، وتقدم  
من القصر المزعوم وبلغت به الجرأة أن يطلب مقابلة القيل  
صاحب القصر لأمر جليل، وجاء القيل يرفل برداء منفوش  
طويل.. فخطب منه ابنته باستهانة بحتة كأنها يود استعارة قطعة  
من الأثاث.. في البداية أنكر أن تكون في قصره أنثى أخرى غير  
امرأته، ولكن القيل الشاب طاهم ألح ودخل معه في جدال  
مرير، ورأى القيل المعيني الإبل مناخة حول قصره، محملة  
بصناديق ملأى بثروة هائلة هي مهر المخطوبة. وكان هذا كافياً  
ليشعر بالرضا ويبادر بالقبول.. وما كان سيقبل أن يزوج ابنته  
الوحيدة لأي كائن آخر، فقد كان كبرياؤه لا يوصف، ولكنه  
رأى أن هذا القيل الصرواحي الشجاع سبصون ابنته في حدقتي  
عينيه، وقد أتى يخطبها عن حب وليس عن طمع.. وجهز ابنته

كما يجب وزفها في هدوء الليل إلى صرواح، وهناك في المعبد ربطها السادن ميدم برباط الزوجية. ووجد القليل طاهم زوجته نوب أجمل مما وصفت بكثير، فلم يأسف على المهر الجزيل الذي أمهرها به.. كانت تتكلم بطلاقة وتهتم بالتفاصيل وتحكي الطرائف والنكات.. وفي يوم ذهبت لزيارة أهلها في معين بعد شهرين، فوجدت قصرهم خرباً وأحجاره مبعثرة مغطاة بأكوام التراب والأخشاب.. علمت دون أن تسأل بما جرى لسكان القصر.. فقد نكبهم الملك المعيني معراد حين أدرك أنها زفت إلى صرواح، وهي محمية سبئية معادية.. فضلاً عن هذا فقد كان قضاع بن معراد قد خطبها قبل ذلك لنفسه، ولكنها أبت عليه وعلى غيره من أبناء معين.. وهكذا عادت القبيلة نوب إلى صرواح حزينة صامته، وعكفت على شيئين هما الصمت والعبادة، ولهذا غضبت حينما ألفت ابنتها تيرا الكبرى عازقة عن الصلاة، وقفت عند رأسها متنمرة، وأشارت بإصبعها نحو المعبد، فشعرت بابنتها تبكي منفجرة بالقول:

- كرهت المعبد والآلهة والسادن ميدم... ولن أذهب للصلاة..  
قرصتها أمها قرصة موجعة وهي تحملق بعينيها وتمز رأسها في  
ذهول..

- فك السادن عقدة سروالي وأخذني من الخلف.. أجابت تيرا  
ناكسة الرأس.. وقفت القبيلة نوب متجمدة، ثم ولت من تجاه  
ابنتها بالحال وهي في غاية الغيظ، وهبطت إلى أسفل القصر،  
وأشارت إلى الخدم فجاءوا تباعاً، وجعلت تومئ إليهم وتقلب  
راحتها بحددة، ولكنهم لم يستلهموا شيئاً من إيباءاتها  
المتلونة.. فانفجرت صارخة في وجوههم:

- اذهبوا إلى المعبد واسرقوا الجرس الذي يدق للعدارى..  
ذهبوا وقد أجمتهم الدهشة عن الرد، لأنها المرة الأولى التي  
يستمعون إلى صوت القبيلة، وجلبوا معهم الجرس رغم المخافة  
التي غشيتهم بسبب ما يقدمون عليه من عمل مشين، ولكن  
عصيان أمر القبيلة هو أشين من ذلك وسيحملهم من المتاعب ما  
لا طاقة لهم به.. أما الآلهة فقد تصفح عنهم ولو بعد  
حين.. وبرغم أن حادثة سرقة الجرس الذي يدق للعدارى قد  
أحدثت ريكة واضحة داخل صرواح، إلا أن الصخب انتهى  
بعد مرور أيام على هذا الحدث واكتفى السادن بصلاة الرجال  
والأرامل، واعترف في ذات نفسه أنه فقد طعم اللذة بفقدانه  
ذلك الجرس الرنان، فلم تعد تأتيه الفتيات للصلاة، فعاش أيامه  
التالية في كرب وسهوم حتى فاجأ الموت.. وشبت نورا الكبرى،  
وصارت في ذلك السن المبكر تتطلع إلى الفارس الطائر الذي  
يسقط من العلياء ليقتلها من جذورها ويفر بها إلى حيث لا  
يعلم أحد.. كانت تقاطع وجهها مائلة للسمرة، وجسدها طري  
وحيوي.. ومثل بقية فتيات صرواح واظبت على زيارة مسبح  
المدينة، وهو المصب الذي تنتهي عنده القناة الأولى التي تجلب  
مياه سد جنات إلى المحمية.. وتظل تتفصح من مكان إلى آخر  
ولكن لواعج نفسها لا تهدأ.. ومع تصاعد سنوات عمرها تضيق  
وتحزن، وكلما تعمقت في أزقة مدينة صرواح ترى المنازل حافلة  
بالأعراس والزينة، فتحسد فتيات العامة على هذه النعمة التي  
يتمتعن بها، وتلقت إلى جهة واحدة حيث مساكن الأقبال، لكن  
فارسها لا يأتي من تلك الجهة.. فلقد اقترن معظم الأقبال  
المروقين في المدينة بقبيلات من محميات أخرى.. وبقي اليسير ممن



ليس فيهم مطمع.. وعند المسيح تعرفت بتاجر شاب ثري يدعى زقم، وهو مشتهر بتجارة المجوهرات والذهب.. وبرغم ما يملك من مال وصيت، لم يكن به أي رفق من الجمال، ولكن شيئاً فيه لا تدري ما هو جذبها إليه، لعلها الفرحة يوم أهداها أول عقد من الجواهر البراق.. وقد انحى قبحة من عينها فبدا لها جميلاً وأنيقاً في نفس الوقت. والتقت به في أكثر من مكان وفي أكثر من مناسبة.. في المعبد، وفي سوق الزينة، وفي زقاق الغرباء.. ولم تخفق كل مرة في الانفراد به، لأنها كانت تؤمن أنها لا بد أن تلقاه مهما واجهت من صعاب.. فتسعى في سبيل ذلك متتحلة أذكى الوسائل والأعدار.. ولعبا في مخزن الجواهر لعبة العريس والعروس، ووجدت تنرا الكبرى نفسها أمام بند خطير من بنود التشريع.. كيف أغفلت هذا الأمر حتى اشتبكت بهذا التاجر الثري، وهي من قبل قد لمحت أذنيه غير مخرومتين؟ إنه من أبناء العامة، وهي قبيلة نجبية وابنة القيل الأكبر في صرواح.. وعلى هذا لن تتمكن من الاقتران به.. تضخمت بطن تنرا الكبرى ورأت القبيلة "نوب" هذا التضخم فتلون وجهها بألوان شتى.. وعضتها عضه شديدة على ساعدها، وصاحت حتى ارتج القصر.. ووقف القيل طاهم أمام ابنته المرتعشة، وسألها عن الفاعل، فاعترفت له بكل شيء.. وفكر بتأفف أن يقتلها، ولكنه رغب عن القتل، وهداه عقله أن يستدعي التاجر زقم ليقرنه بها قبل أن تفرغ حمولتها، وجاء التاجر زقم وقلبه يركض في صدره وجلاً، لكنه استبشر خيراً بوجود السادن شلق، والذي سارع بإجراء روتين القران المعروف.. وتبدل الخوف إلى فرح وزفت تنرا الكبرى إلى التاجر زقم وسط

اندهاش أهالي صرواح الذين لم يرقهم ذلك الاقتران  
اللامتكافئ.. ووضعت تنرا بعد مضي ثلاثة أشهر طفلتها  
البكر.. وبدأت الألسن بالهمس والنهش في عرضها، إلا أن  
السادن شلق اعتبر هذه الولادة المبكرة طفرة من طفرات  
الآلهة. فاستكان الناس إلى قوله، ولم يعودوا إلى ذكر أمر الولادة،  
وانصب اهتمامهم كله على الطفلة الطفرة التي تخلقت في ثلاثة  
أشهر فقط.. وهروباً من المتاعب التي قد تأتي بسبب ذلك، أوعز  
القبيل طاهم لابنته وقرينها أن يغادرا صرواح إلى محمية  
مرار.. ويوافيانه بالزيارة من حين إلى آخر.. وعشية يوم سفرهما  
سقطت القبيلة " نوب " على سلام القصر واستيقظ القبيل طاهم  
على صوت سقوطها، ولم يجدها بجواره على منامتها الخشبية،  
فسار بخطى عجولة ليرى ما حدث.. فوجدها عند آخر أضلاع  
السلم دون حراك.. وسرى الخبر كالنار في صرواح، وشيع بين  
الناس أنها انتحرت جزعاً على فراق ابنتها تنرا الكبرى.. وتلقى  
القبيل طاهم تعازي الملك شراح، ودعوة منه لزيارة أرض جنات  
ليروّح على نفسه من الحزن.

### (٣)

وفد إلى أرض جنات القيل الأكبر في صرواح، وفي معيته ابنته تنرا الصغرى وولده خوف، فاستضافه الملك شراح وأنزله قصره. وكان القيل طاهم رجلاً كريماً محباً للبذل والعطاء، ويقصده السائل والمعوز، ولا ينأى بنفسه عن عوام الناس، وعلى هذا النحو ظل ينشر أفعاله الطيبة في كل مكان، حتى أن الأقيال أخذوا يلتفون حوله ويعلمون مقامه في مجلس الملك، إلا قليلاً واحداً كان يحسده على منزلته الكريمة، ويكرهه بشدة، وهذا القيل الذي يدعى دارم كان عقيماً شاذاً في طباعه، ممقوتاً عند الأقيال، وقد عجز الحكماء عن مداواة عقمه، فباء بحسرة شديدة، وخزي كبير. وفي أي يوم يرى فيه تنرا أو خوف قرب والدهما القيل طاهم يزداد حقهده وهوسه... ولا يبرح حتى يشي به عند الملك ويلفق ضده أكاذيب كثيرة، ولكن الملك شراح كان لا يعبأ بتلك الأقاويل، وظل يتفاني في ضيافة قيل صرواح، ويقربه منه. وكان له جناحاً خاصاً وولديه في القصر، ومن حين إلى آخر يدعوهم الملك إلى طعامه، ويقبعون وأهلهم حول مائدة واحدة. وترك خوف وتنرا حرية التنقل في أرجاء القصر دون عائق.

كان خوف آنذاك شاباً في العشرين من عمره، وكانت شقيقته تنرا في الخامسة عشرة من عمرها، ومنذ أن رآها شام أحس برجفة شديدة تزلزل أعماقه، ولكنه كان يحترق في السر ولا أحد

يعلم بما يكابده من وجد، حتى تنرا نفسها جاهلة بذلك رغم  
توددها إليه، ومحاولاتها في كسر أسوار خجله المنيع، فكلما  
شاهدها قرب أمه الملكة " سنديانا " يضطرب، وتتغير ملامحه،  
ولا يلبث أن ينسل خارجاً حتى لا تدري أمه بحاله.. ظل يتكبد  
ألم حبه لا يجرؤ على الإفصاح لها به؛ لأنه كان خجولاً خجل  
المراهقين، لكنه صمم أن يبوح لتترا بسره بعد أن فتك به التكتم،  
فما زال يشجع ذاته، ويتمنى أن ينفرد بها بعيداً عن العيون. أراد أن  
يقيم الصداقة وحواف كوسيلة للتقرب إليها، لكنه أخفق في  
ذلك، حيث أن فارق السن حال دون نجاح الصداقة، بينما  
أضحى حواف صديق كرب الحميم رغم أن الأخير يصغره  
بعام، لكن أسلوب كرب وتطلعاته توافقت وتطلعات حواف  
وأسلوبه في التعامل فكلاهما يحب القمار واللهو، في الوقت الذي  
يستهووي شام الصيد والتدريب الدءوب على القتال، فيظل يروح  
ويغدو مع رفاقه الفتيان لا يجمعهم أي شيء عن التجمع  
والإنطلاق في أعماق الفلوات. وكانت معظم أوقاتهم تقضى بين  
ميادين التدريب وأحراش المحميات البعيدة، وإن عادوا من  
رحلاتهم ينزعون إلى الراحة بضعة أيام.

وفي يوم من أيام الراحة غابت الملكة وجواربها عن القصر،  
وكن قد ذهبن إلى سوق المدينة لشراء قطع من الأقمشة وبعض  
الآنية البيتية.. دخل شام القصر يبحث عن درعه، فوجد تنرا  
وحيدة في مقصورة أمه، وبعد حوار قصير علم منها أن الملكة  
وجواربها خارج القصر، لم يلبث أن أشار إلى الدرع القابع في  
ركن من أركان المقصورة وقال:

- بحق الآلهة، ناولينى ذلك الدرع..

وسرعان ما نزعت الدرع من مكانه، ومضت به إليه، وتجلت الرحابة في رمشي عينيها النشطين، وذلك من خلال حركتها المفعمة بالحوية والوداعة وهي تحمله إليه. أطرق إلى الأرض لوهلة واحدة، ثم رفع نظره إلى وجهها، فالتقت عيناه بعينيها، وسقط الدرع من يدها، فخبجت لذلك وأرادت أن تنحني لترفعه، لكنه قبض ذراعها بكفه برفق، والتقطه من الأرض قائلاً:

بنبرات سريعة:

- لا عليك، أنا من أسقطه..

- لماذا تضع سيوفك ودروعك في مقصورة الملكة ولا تدعها

في مقصورتك؟

سألته تنرا بذلك مدارية خجلها بنبرات أفاظها السريعة،

أجاب بهدوء:

- هذه رغبة أمني، وهي التي تقدمها إليّ، وتساعدني في أحيان كثيرة على ارتدائها.. سكتت تنرا، ولم تعقب على قوله شيئاً، أحس شام أن وجوده أضحى عبثاً ثقيلاً على الفتاة، سار قليلاً صوب مقصورته القريبة، ولكن نفسه لم تطاوعه على الانصراف دون أن يلمح بحبه على الأقل. عاد إليها ماشياً بتناقل، ابتسمت حالما رأته قادماً، وشعرت بحيرته.

- لعلك تريد قطعة أخرى؟ قالت بانبساط..

- نعم، أريد ذلك السيف...

جلبت له السيف، ولم يظهر عليها الضيق بفعل عودته إليها. وما إن تناوله حتى انسحب إلى مقصورته بالحال، وقد أخرس الخجل لسانه ثانية. ضرب كفه على الأرض بقوة، ولام نفسه طويلاً ثم ارتد إليها بخطى سريعة وقوى قلبه وعاجلها قائلاً:

- هذه آخر مرة أعود إليك، ناوليني الدرقة ..  
جلبت له الدرقة دون أن تتغير أو تمتعض، وقالت له بصوت

جاد:

-أصدقني القول. هناك ما تريد قوله لي ..

-لا شيء، لا أود شيئاً .

-قل، ولا تخف مني ... لن أغضب منك .

عند ذلك تصيب العرق من صفحتي جبينه ورقبته، وقال

بصوت متقطع:

- أنه أنا أحب، لا أحب شيئاً ...

قال العبارة المتقطعة ثم نفاها وانطلق يعدو، وقالت له قبل أن

يوصد الباب على نفسه:

-إن شئت أن ألقاك في الجناح المهجور غداً فعلت.

في الصباح التالي التقاها شام في الجناح المهجور، وبعناء شديد

أفضى لها ما يختلج في أعماقه من حب، تحفظت في البداية على

الأمر كعادة الفتيات. ولكن بعد لقاءات أخرى أبرزت له الحب

بطريقة ذكية. ومع كل يوم ينمو مولود قلبيهما البكر حتى صار

في عنقوان اهتياجه ..

كان كرب هو الآخر يعشق تنرا، ويغازلها كلما التقاها، ولكن

بطريقة فظة وأسلوب فاضح، فلم تكن تلتفت إليه أو تعباً به،

وزادت محاولاته معها، فضاق صدرها من تعريضه المستمر

فاشتكت منه لأبيها الذي لم يلبث أن شكاه للملك شراح،

فاستشاط غضباً، وعاقب كرباً بقسوة وقضى عليه أن لا يدخل

ذلك الجناح ثانية. كان هذا كفيلاً أن يخلق في نفس كرب انقلاباً

جذرياً سيئاً، إذ تضخمت أحقادها ضد القليل طاهم وابنته تنرا

وصار يتبرم من وجودهما في القصر. أما حوف فكان بمنأى عن  
حقده. لأنه صديقه درخين طو... وبعده أيام رمق كرب سليله  
شام وتترا وهما يخرجان سوياً من القصر ويتجهان إلى المزارع  
البهيجة للنزهة.. حينها كاد يسقط ميتاً من شدة غيظه وغيرته،  
وكان هذا أول حقد بينغ في صميمه على أخيه شام، حيث كانا  
من قبل أشد ألفة ومحبة ...

\*\*\*

ذات ضحى جمعت الصدفة القيل دارم وكرب في فناء القصر  
كان الأخير يود الدخول إلى القصر ليهين تنرا، وينتقم لنفسه  
بتجريحها بألفاظ قاسية، ويكون هذا بمثابة رد فوري على  
وشايتها به، وقد نصحه أحد رفاقه أن يفعل ذلك وأوممه أن  
التوبيخ يبعث في الفتيات العاطفة، ويجعلهن أكثر ليناً  
ولطفاً. لكن حُرَّاس القصر حالوا دون دخوله متسلحين بأمر  
الملك شراح الصارم. وسمعه القيل دارم، وهو يقول للحراس  
بحق:

- لا بد أن أطردهم جميعاً ذات يوم، وسأبدأ بذلك القيل  
المتطفل في القصر .

وقف دارم مرهصاً السمع، شدد انتباهه جملة كرب الأخيرة،  
وسرعان ما حدس أنه يقصد بها القيل طاهم، فاقرب منه ليزداد  
يقيناً، وقال:

- أهو الضيف الصرواحي النزيل لدى جلالة الملك؟؟

- لا شأن لك يا دارم، فهذا الأمر لا يعنك .

رد عليه متجاهلاً ألفاظه اللاذعة:

- يمكن أن نفرّد الآن، وسترى ما أجود به عليك من حيل .

-هيا يا ابن الشيطانة نتفسّح في حديقة القصر، لأنّي أشعر بدوار في رأسي.. ثم ابتعدا عن فناء القصر، وما لا إلى مربع من الأرض تملأه مشاتل زهور فواحة وورود ملونة نضرة.. ظن كرب أن دارم سوف يوجد عليه بما يدي تنرا منه لتهواه فحسب ولكنه جعل يوغر صدره على القيل طاهم، وجاد عليه بمكيدة لم تخطر له على بال. أدرك كرب أنها ناجحة حتما، ولكنها ستجعل الملك يقدم على قتل ضيفه قيل صرواح، وهو لا يجب أن تؤدي إلى هذه النتيجة المؤلمة، فقط يود أن يؤدب تنرا، ولا يفكر البتة أن يدمر حياتها وحياة صديقه حوف بتلك المكيدة الخسيسة، احتدم الجدل بينهما، وأخيراً نجح دارم بخبشه أن يقنعه بضرورة تنفيذها، زاعماً أنها الجزاء المستحق لطاهم، والرد المثالي على إهانة تنرا... وقال له دارم بصوت مفعم بالفرح:

-غداً نسير إلى صرواح، فأنا أعرف نفراً من الطامعين سوف يكونون أرباب الشكوى، وبوسعك أن تغري أحد نواب طاهم بعرش صرواح إن رفع الدعوى ضد سيده، ولا تخف من انكشاف المكيدة، لأنّي سأقضي على أرباب الشكوى خارج مدينة جنات، وأنت بدورك تتخلص من صاحبك القيل..

في اليوم التالي اتجها صوب صرواح، وهناك أخذنا يعدا العدة لتلك المكيدة، حتى اكتملت وجهزت حددا لها موعداً في نفس الشهر وآبا إلى مدينة جنات.

وفي أحد أيام الشهر وبينما حوف وكرب في وادي جنات وتنرا في مقصورتها بالقصر، وشام حاضر في المجلس وأبوه الملك والقيل طاهم، وثلة عظيمة من الأقيال والجند، إذ دخل المجلس شردمة من الناس، حفاة مكشوفي الرؤوس. أخذوا ينوحون. وما



إن رأيهم القليل طاهم حتى هبّ من موضعه فزعاً وقال:  
-ماذا حدث يا قوم؟

فوجئ بهم يشيرون إليه ويقولون للملك بكاء:  
-القليل طاهم سلب أموالنا وهتك أعراضنا وألب علينا  
جنوده، وتحالف ومملكة معين .

-خستّم. لظالما بسطت إليكم يدي، والآن تقولون كلاماً  
مشيناً كالمجانين .

تغير لون القليل طاهم وارتعدت شفتاه بسبب تلك المباغثة  
كل هذا والملك يحملق بعينه إلى وجوه القوم، ثم يديرهما إلى  
وجه القليل طاهم. ولا يكاد يعي ما يسمع. ظل كل منهم ينشر  
للملك مظلمته، فهذا يدعي أنه دنس عرض ابنته، وتأتي الفتاة  
بسروال ممزق ملطخ بالدم، وذاك يزعم أن القليل طاهم أخذ ماله  
وماشيته قهراً، وتجلت عشرات المظالم أمام الملك شراح مرفقة  
بأدلة لا تشير الشك في صدقها. ولما فرغ القوم من الجأر  
بشكواهم التفت الملك إلى القليل طاهم الذي بدا حائراً مرتبكاً،  
وقال متسائلاً بغضب:

-أهؤلاء قومك؟

-لا أعلم يا سيدي، ولكن القليل جعيد هو نائبي على صرواح  
إلى أن أعود .

أشار القليل طاهم إلى رجل عريض الوجه، خبيث النظرات،  
وزاد الملك يقيناً بما كان يضيفه على مسمعه القليل دارم، حيث  
كان يقسم بالمقة عندما يخلو والمسلك أن القليل طاهم يتظاهر  
بالطيبة والبذل ليستأثر بقلوب الأقيال والجند ثم يثور  
على حكمه، فانتفض الغضب في صدر الملك شراح وقال

بصوت خفيف:

-لن تعود إلى صرواح. افصل رأسه يا غردق، وطهره من أعماله الشريرة.

لم يقاوم القليل طاهم ذو الخمسين عاماً من عمره حين جذبته السيف بقسوة، وقاده إلى مصطبة الدم. لكنه انفجر باكياً وقال يخاطب الملك:

-لتغفر لك الآلهة يا جلالة الملك. ويجب أن تدرك أن دمى سيصير وبالأعليك وعلى من بعدك، وسوف تموت نادماً..

كان شام في تلك اللحظة متجمداً مبهوراً، ولكنه حين سمع عبارة القليل طاهم الأخيرة قفز من مكانه إلى أمام عرش أبيه، وسجد وقال له بتضرع:

-لا تقتله يا أبي، إنه محض افتراء. ابعث إلى أهالي صرواح ليزداد يقينك.

زجره الملك للتو وأمر بإخراجه من المجلس.

أطلت تنرا من نافذة مقصورتها إثر الضجة التي صدرت من الجناح القريب. أرهصت السمع فوصل إليها صوت أبيها هادراً وهو يندب نفسه قبل أن يهوي السيف على رقبتة: "وابنتاه وا ولداه". وكان القليل طاهم كان يتذكر ولديه قبل مقتله، وكيف سيكون حالهما من بعده، وبالفعل كان يخشى عليهما من الألم النفسي الذي سيلحقه بهما خبر موته المفاجئ.. غافلت تنرا حراس المجلس واقتحمته وارتمت صارخة على بساطه، ولم تكن حتى تلك البرهة قد تحررت بعد من الحزن على أمها القبيلة نوب. صارت تتمرغ منتحبة متمايلة كالحية التي تتجرد من جلدها القديم.. لم يمهلها الجند حتى تمنع النظر في رأس أبيها الرمسي

جانباً عن جسده.. إذ سحبوها على وجهها إلى فناء القصر..  
 وجاء إليها شقيقها خوف آخر النهار ماشياً على عجل، وجذب  
 كفها وخرجا من المدينة قاصدين صرواح مشياً على الأقدام..  
 ظل شام يحاذيها بحصانه، ويتوسل إليهما أن يمكثا في مدينة  
 جنات إلى الصباح؛ لأن الليل أوشك على الحلول، لكنه بقاء  
 بالفشل، فاستمر يواكب خطاهما حتى توقف أخيراً قرب سد  
 جنات البعيد عن المدينة، رجاهما أن يصفحا عنه، لأنه لم يستطع  
 أن ينقذ والدهما من الموت، لكن رجاؤه خاب أمام قلب تنرا  
 الذي عصره الوجد وبخره الحزن... وردت عليه بألفاظ سقيمة  
 لاسعة أثرت في نفسه كثيراً فبتر بخنجره إحدى أصابع كفه  
 ليثبت لها حزنه العميق لما أصابها، لكنها لم تأبه له، ولم تقبل منه  
 سوى حصانه الذي تركه لها لتمطيه، حيث كانت خاترة الجسد  
 لا تقوى على المشي.. بينما انكب يعالج جرحه النازف والألم  
 يسحق وجهه المكفهر. بعدئذ شرع الليل يحشر نفسه في تلك  
 الأماكن، فعاد شام يجرح جسده الخائر ليستلقي على فراش  
 المرض. وجاء كرب يعوده بعد يومين وهو يضحك باستهتار،  
 فأدرك أن لأخيه ضلعاً في تلك المكيدة المدبرة.. وما كاد يشفى من  
 سقمه حتى وقعت أمه الملكة سنديانا رهينة للطاعون الذي  
 تفشى في تلك الفترة في أرجاء مملكة سبأ. وقضت نحبها بعد  
 شفائه بشهرين.. ومن فرط استغراقه في الحزن وهنت عزيمته  
 وقر ولعه بالصيد والتدريب وأصبح منغمساً في مقصورته لا  
 يطبق النظر إلى أحد. وحل الوبال الذي ذكره القيل طاهم قبل  
 موته. أحس الملك شراح بذلك، فأرسل إلى صرواح ليأتوه  
 بأقباها وعلى رأسهم القيل جعيد الذي مثل أمامه شاكياً، فجيء

بأقيال صرواح جميعاً وقيل أن القيل جعيد لا أثر له مطلقاً... وسأل عن أولاد القيل طاهم، فقيل له لا أثر لهم في صرواح. رأى أقيال صرواح يبكون كالثكالي حين نعي إليهم سيدهم طاهم، ضرب الملك شراح وجهه وعض معصمه حتى أدماه وقال متأوهاً:

- يا ليتني استمعت إلى ولدي شام ولم أتسرع في قتله. قتلت ضيفي الكريم، واحسرتاه يا معشر سبأ..

ظل الملك شراح يرتاد المعبد في أغلب أوقاته، وأمر بالبحث عن حوف ليقبع على عرش صرواح خلفاً لأبيه، وكان أمره قاطعاً صارماً حتى إن أقيال صرواح علقوه على حائط مجلس الحكم في قصر صرواح، وأرسلوا السعاة للبحث عنه وشقيقته تنرا في كل سبأ. ولم يكد العام ينقضي حتى انطرح الملك شراح على فراش السقم.

\* \* \*

كانت حالة الملك شراح تسوء يوماً بعد يوم، وتندّر بدنو نهايته. ذات يوم من أيام السنة الجديدة دوت أصوات الأبواق في مدينة جنات، فخفقت قلوب أهالي مملكة سبأ، وزاغت عقولهم، وتوجسوا خيفة من تلك الفاجعة القريبة. تكومت أعداد هائلة منهم على باحة قصر جنات، وصار المسافر من المحميات السبئية يسير براحلته إن كانت له راحلة، وإلا يبحث خطاه مشياً على قدميه لينصب له مكاناً قريباً من قصر الملك المحتضر شراح. لم يكن ذلك منهم تعاطفاً أو تعلقاً بقدر ما هو شكلاً معتاداً من أشكال الولاء.

القصر العالي الإسطواني الشكل معمور بأحجار صماء

(وقيص)، يصل طول أصغرهما إلى مترين، مائتا مقصورة في جوفه، ناهيك عن إيوان الحكم الذي يشبه العمامة المطرزة بالسليم على رأس الرجل المنعم الفارع القامة. السادن أقرب الناس إلى الملك شراح الذي اعتل بداء الملوك الذي أصاب ثلثة من ملوك وأقبال ممالك الجنوب في تلك الفترة، شيزار السادن يتلهج باسم الآلهة ويطلب منها الغوث، وكذلك الوزير عشنان وقائد الجيوش السبئية راب، ومستشار الملك دارم وبقية الأقبال يدعون له، وهم يرجفون من هيئته التي ما فتئت السكرات تزلزها وتلونها بالشحوب والاغبرار أمام أعينهم. نفض هدهد سبئي ريشه على أحد أركان القصر، وغمغم مستخفاً بالخدم والخزائن المليئة بنفيس الحلل والأموال الجمة ومئات الآلاف من السبئيين المرتصين بوادي جنات ومنافذه، قائلاً بصوت آس: هذا الملك شراح الذي نطح في أحد الأيام جملاً يزن ألف أوقية فألقاه على الأرض فاقد الوعي. وكانت الجياد لا تطيق جسده الضخم، فتتقوس تحته حتى تقع بطونها على الأرض، أو تتهشم عظامها الجلفة قبل أن تخطو به خطوة واحدة، ولعل ذلك بفعل سيفه المذهب، الذي ليس يسيراً على المحارب العادي أن يرفعه إلى سواء رأسه، أو للزرود الحديدية والجلاجل التي يغص بها صدره، ففي يوم واحد جزّ رؤوس ألف قتباني وألصقها على (بقيع الغور)\* على هيئة رسالة خالدة بالمسند، وشكّل من تلك الرؤوس عبارة تقول: "لتحيا المملكة السبئية بعون المقة ولتسقط قتبان".

\* بقيع الغور: إسم مكان.

تسلل شمشون كبير نحاتي الصخر إلى المقصورة مطأطأ رأسه  
باستكانة . ووقف في مكان بحيث يراه السادن الأكبر شيزار  
. وتبعه مشرّع سبأ ومجلي عقودها ووثائقها نياز الطاعن في السن،  
أثناء ذلك تطلع السادن بتدلل إلى الملك شراح وقال بوضاعة:  
- شمشون النحات ونياز المشرّع والآلهة المقدسة بين يديك يا  
سيدي .

هنهن الملك بتوجع وأخذ يقلب عينيه الغائرتين في سواد  
محجريهما رانياً إلى أولاده كرب الأكبر وشام الأوسط وجندب  
الأصغر، وقال:

- رويدك حتى أرى من الأكفأ لعرش سبأ .

اجتذب صوته جذباً من حنجرتة الواهية، وتذكر زوجته "  
شبرا" أم كرب التي ماتت إثر نظرتة القاتلة إليها، أما الخادم  
كيهام فرّاش مقصورة الملكة شبرا، فهو الآخر مات عرباناً فوق  
الفرّاش الوثير، وذلك بعد أن رأى الملك شراح جامداً على باب  
المقصورة، ودماء الغضب السوداء تقطر من أنفه المقوس، ومع  
أنه في تلك اللحظة لم يكن يتصل معها اتصالاً جنسياً مباشراً، إلا  
أن الخبيث يعتبر أول مبتكر للجنس الفموي، إذ كان يلحق  
جسدها بلسانه كما يلحق العجل الحساء، وهى تهز مؤخرتها تحت  
رأسه - مع إيقاعات لسانه المشقق - هزات فظيعة وتشهق  
شهيقاً حاداً.

كان الملك قد ضاجعها في المساء، وهذا ما أغضبه أكثر وأثار  
حفيظته، ولم يكن يظن أن إحدى نسائه ستلجأ إلى الرذيلة، لأنه  
وافر الرجولة ويعطي أياً منهن حصتها من الجنس، فهو يبيت  
كل يوم عند واحدة من نسائه الاثنتين. ولولا أن كرب أبيض

البشرة جمالي الهيئة لألحقه بأمه شبرا، ولكن قيل له أكثر من مرة أنه أشبه الناس به. أما ابنته الوحيدة " مروة " الأكبر من كرب فلا زال مرتاباً منها إذ لا تشبهه في شيء من الملامح. لكنها نسخة مماثلة لأمها شبرا، إلا أن زواجها ونأيها عن عينيه قد خفف وطأة الحقد في نفسه. فقد اقترنت بقيل من أقارب الملك وسكنت معه في ضاحية بعيدة من ضواحي مدينة جنات ولم يعد يراها إلا لماماً.

أما سنديانا أم شام وجندب، فهي ابنة قيل ذي الجامش مرمر، وكان قد رآها تطارد سرباً من القطا البرية، راكبة حصاناً صافي البياض، فأعجب بها وتزوجها من ساعته بعد رجوعه من ذي الجامش إلى مدينة جنات. وكانت ذات فطنة ووجاهة، إلى حد أنها صارت تتدخل في قرارات الملك عند الضرورة، وتشير عليه بما فيه الخير للمملكة، لذا كانت أحب نسائه إليه، وأكرمهن منزلة، وقد سمح لها لفترة قصيرة أن تقوم بتدريب فتيات سباً على الفروسية والقتال قبل أن تلد شاماً.

كانت آخر عبارة نطق بها الملك شراح أن قال قبل أن ينخرس لسانه:

-يا معشر سباً، من أشير إليه من أولادي يكون ملكاً عليكم من بعدي، وابن الملكة العفيفة النزينة سند ...

انبرت ألفاظه فجأة، وفغر فاه مرة أخرى بعسر، لكنه لم يقدر على الكلام. فقد بدا في تلك الوهلة يصارع آخر سكرات الموت، غير أنه رفع ساعده بثقل وأوماً إلى شام بإصبعه، وسقطت يده سقوطاً أفزع السادن والأقيال المحيطين به، ولم يجروء أحد أن يجس كفه المتثلجة إلا حكيم الملكة سعفد، الذي نبس بكلمة

وحيدة بعد تردد ورهبة: مات الملك..

أفاق الجميع من جمودهم، بينما صدع النحات شمشون بأمر الملك الميت، فأخذ يدق بالأزميل الحديدي الصغير على حجر مستطيل طويل أملس. وكان قد جاء به إلى المجلس عشرة من أعتى الرجال في سبأ. فنقش عليه بضع عبارات: " بأمر الملك شراح ملك سبأ الملقب بتاطح الجمال ومدوخ قتيان، يكون الملك على سبأ من بعده ابنه الأوسط شام، وهذا بحضور (المقة) والسادن والأقيال ".

غشي السواد وجه كرب الذي لم يجرؤ على التقوه بحرف واحد، لكي لا يطير رأسه عن جسده، ومن ثم يسام بخسف وغضب من الآلهة. بعد ذلك سيق الملك شراح إلى مقبرة ملوك سبأ، وهجع في قبر محفور على الصخر هو وسيفه الرديني المذهب والكثير من آيته الثمينة ومتاعه الخفيف كالصولجان وكرياجه الشهير. ثم سيق شام برفقة الأقيال والجنود ومعشر سبأ إلى قصر جنات، يتقدمه النحاتون الذين يحملون الحجر المنقوش عليه أمر سيادته على سبأ.

وفي أول مجلس يعقده الملك الحديث السن شام، أخذ الأقيال وأرباب المجلس يرمقونه بقلق، ويتوجسون من سياسته خيفة، وظلوا صامتين ينظرون إلى بعضهم البعض بحذر بالغ، وبعد وهلة وجيزة نفض السادن شيزار غبار الصمت، إذ قال مخاطباً الملك الصغير:

-المقة تباركك المُلْك وتشد أزرِك، وتعدك بالنصر على

أعدائك.

لكن الملك شام ظل صامتاً، بينما تظاهر الوزير عشان بنقاء



السريرة، وقال بصوت متهاوت:

- أنت أصغر ملك سبئي يا سيدي، والأمر القادم عليك جد صعب .

- بم تشير علي يا جناب الوزير؟ سأل الملك شام.

- لو أردت التنحي عن الحكم إكراماً لأخيك كسب المعتقل نفسه في قصره .

- اضرب عنقه يا غردق .

قالها الملك شام ببرود، ولبي السياف الحبشي الغليظ السواعد أمره، وأطار رأسه عن جثته وهو على مقعده، وأسرع خدم المجلس لرفع الجثة وتطهير المكان من آثارها وقال السادن شيزار بضيق:

- (المقة) تكره الدماء يا جلالة الملك لا سيما دماء الأقيال .

- اخرس يا روح المعبد، فإنك تميز لنفسك إراقة دماء من تسميهم بالمارقين عن التشريع، ولا أحد يستخطئ ما تفعل .  
(وبنبرات نادمة متلاشية) وشرف المقة لأقودن سبأ إلى بر الأمان والعدل ولن يجز بعد اليوم رأس إنسان.

لاذ السادن بالصمت وكذا الأقيال، في حين تتمم الملك شام بصوت متهدج:

- يا مشرّع المملكة !!

- هأنذا يا سيدي علي بساطك الكريم. أجب المشرّع نياز.  
- قم بتشكيل هيئة ملكية جديدة من ذوي الثقة، وعلى السادن شيزار أن يزكي الأعضاء المختارين. واغربوا عني اليوم.  
انقشع الأقيال من حوله حتى لم يبق في المجلس أحد سواه. كان الهدوء قاتلاً مليئاً بالملل والضيق، كعاد أن يفقد وعيه حين

انقصف عنق الوزير عشانان، رأى الدم ينز طرياً قانياً كدم الشور الهرم. كان مقطع الرقبة مفتوحاً مثل فوهة الجراب. والعضلات فيه متشنجة ممزقة. أحس بالذنب قوياً مؤذياً لنفسه. ألم يسمع من الحكيم حانون أن القتل حرفة تدمنها النفوس المتوحشة الخاوية من النبالة والحب؟ ولكنه ممتلىء إلى سقف رأسه بهوى الفتاة الصرواحية تنرا، ويعاني من بعادها أيما معاناة. فلا يكاد يمر عليه يوم إلا يستعيد ذكرى مقتل أبيها القبل طاهم. ما أشبه هذا بذلك. إن السيف هو عينه غردق، والأداة هي عين السيف الصلد العتيق، والمجلس هو مجلس الحكم، والموت هو الموت. لم يتغير شيء إذن. كل هذا ولا زال يكابد الجراح التي أوقعها الموت الأول في صميمه. لم ينس تنرا قط. ولم تفارقه استغاثتها وصوتها الرخيم المولول. كانت كالحلم الجميل الذي تغييه كوابيس مرعبة ليترك بعده تنهدات داوية وحياة فاترة كثيبة. لقد أثار الوزير عشانان غضبه، وهو قيل من وجهاء الأقبال ذو عِمة خضراء، متشح بوشاح شيخ جليل. ولعله في مثل عمر أبيه يوم مات يربو على السبعين عاماً، ولكن ألا يجب على من أخذ دروس الحكيم حانون أن يتسم بالحلم وألا يدع الابتسامة تغادر شفتيه. مشى الملك شام إلى خزينة الوثائق الخالدة. وفتحها وطفق يتفرس فيها ملياً حتى وجد وثيقة الملك نور، وبها مقتطفات من سيرته الذاتية وحكايات مثيرة عن الزمن الزاهر والرخاء الذي كان في عهده. قال لذاته: "إنه قمين بتمثال منحوت من الذهب المطعم بالبرونز". وجعل يقلب رزمة من الوثائق العتيقة وينفض عنها الغبار الكثيف الذي يغشاها. تأملها بتمحيص حتى وقف على وثيقة الدائرة المقدسة القديمة وعرف سرها، أحس عندئذٍ

بالتلاشي في ذاته، وتحطم في داخله شيء ما غامض، وهمس بانقباض: "الدائرة المقدسة الحقيقية كانت في وجوه النساء إذن، يالها من حكمة". كانت هذه الوثيقة مكتوبة على جلود الرق، محرزة بشكل جيد وممتلئة بالأحكام. وفي وثيقة أخرى قرأ الملك شام هذه الفقرات: "كان الحكماء المشرعون يجتمعون كل سبعة أيام، في مجلس واسع يضم عدداً كبيراً من أهل القضايا والفضوليين. وتعرض القضايا على حكماء سبأ الذين وصلوا بحكمتهم وإمامهم بأحوال الناس إلى بنود التشريع العادل، لقد فطن الحكماء الملهمون إلى أن وجوه الفتيات السبئيات المستديرة تشبه إلى حد كبير وجه الآلهة (المقة)، ويقتضي الحال أن يعاملن معاملة كريمة لبيدين سعيدات ضحوكات فاتنات. فأبرمت غالبية الحكماء واثق خالدة تجعل من وجه المرأة أقدس معبد للمقة آلهة الضياء والجمال، وبات رمز "الدائرة المقدسة" هو وجه فتاة حسناء منقوش على جدران كل معابد سبأ، وأضحى الحب بين الرجل والمرأة فناً يتقنه السبئيون، ومن أجل هذا الفن أنشئت السدود العظيمة لحجز مياه الأمطار التي سوف تروي الورود وكل أشكال الياسمينات والخمائل العطرة، واجتهد الصنّاع السبئيون كذلك في صناعة الطيب وأدوات الزينة.. وهكذا لقيت النساء حظوة لم يألّفنها من قبل، حتى صرن ملكات وحكيّات في مجلس التشريع.. كانت أمور الحياة تمشي بهدوء، يعيش الرجال والنساء جنباً إلى جنب. يتحادثون عن شؤونهم الخاصة في الأسواق والطرقات العامة والمتنزهات ولم يكن لهم شغل غير الاستمتاع بمباهج الحياة. كان يكفي ليتم الزواج، حب عاصف بين الأنثى والذكر. وخاتم صغير من

الفضة. وشاهد وحيد. ويظل الزواج سارياً لا ينتقض إلا بموت أحدهما أو في حالة الإخلال بالواجبات الكبيرة.

قال الملك شام لنفسه: لم يكن هناك سادن يبرم الوثائق وعقود الزواج حسب هواه. ولا مشرّع عديم الجدوى، ولا ملك مغتصب متسلط يقتل من يخلو له أو يحجر على مال من يشاء".

تعجب الملك شام أشد العجب، وافتتن افتتاناً شديداً بما جاء في هذه الوثيقة، واستوى يبحث في الوثائق الخالدة الأخرى للملوك الذين جاءوا بعد الملك نور، وما أسرع أن لمس التحريف الذي تسلل إلى هذه الوثائق شيئاً فشيئاً، حتى غدت غير ذات جدوى للسواد الأعظم من الناس. ابتداءً الملك شام يستخرج الأحكام النافعة الملائمة لحياة السبئيين، واستدعى من أجل تدوينها كاتب القصر، والشيء الذي أثار وتيرة غرابته هو أن بنود التشريع القديم كانت تعنى بشئون العامة أكثر من عنايتها بصلوات الآلهة، ولم يكن للسدنة أي تأثير ملموس خارج محيط المعبد. طوى الملك شام الوثيقة التي تشير إلى زواج الملكة بلقس بالملك سلمان. أحس بالضجر والغيرة معاً، وقال بصوت محسوس:

" هكذا مآل الحكمة لدى النساء، أغواها الرجل المقدسي فاتبعت دينه ولحقت به "

ووقف يفكر لمدة قصيرة ثم أردف متسائلاً وقد تبددت لواعج نفسه وآب إليه هدوءه: " ولكن ألم تكن الملكة قد افتدت السبئيين بنفسها من ذلك الملك المتغطرس؟ نعم، الخير في ما فعلت. فقد كان ذلك الرجل قوياً يسير على بساط تقوده الرياح، كما تحكي الشائعات، وشرف (المقة) إن الخير هو ما فعلت ". ثم نشر وثائق

أخرى، ومن هنا زاد شحوباً على شحوب فقد تدهورت الأحوال بعد رحيل الملكة بلقس. مذ تملك "ينع"، حيث أتى السدنة في عهده بوثائق غريبة. وساءت الأمور أكثر بإقصاء الشيوخ الحكماء عن مجلس الحكم، مذ ذاك، خرمت آذان حاشية الملك لتمييزهم عن بقية أهالي سبأ. وانقشعت قدسية وجوه النساء إلى القمر والشمس والكواكب الأخرى في الساء وأهملن إهمالاً لا نظير له، ولم يعدن بعد ذلك يلدن نسلأً جميلاً كما كان عليه الحال من قبل، وأمست الدائرة المقدسة معلقة نائية في الأفق البعيد، حتى قام أحد السدنة بزراعتها في صفحة الكتف الأيسر لابن الملك يشجب الأول، فصارت تكوى بالنار وتزرع مستديرة كالدينار الذهبي على أكتاف الملوك، ثم تتلى عليها أدعية قاصمة كي لا يجرواً أحد على عصيانها. عندها استبد السدنة ونبذوا الوثائق القديمة وأتوا بتشريع جديد يسمح لهم بالتدخل في كل شئون العوام، وصاروا يفتون الناس بفتاوى تتضارب جميعها وتتفاوت من سادن إلى آخر. وأقيمت على ساحة المعبد الأكبر مصطبة تجز عليها رؤوس المارقين من دين المقة، وفي قصور الأقيال مصاطب مماثلة تجز فوقها رقاب الخدم، وفي قصر الملك مصطبة للخارجين عن طاعة ذوي الدائرة المقدسة.

رمى الملك شام آخر الوثائق من يده، وقد امتلاً بغضب عارم، وانتفخت عروق عنقه، وصاح بملء الصوت:

"يا حجاب القصر، يا حراس، يا غردق، ويلكم هلموا إلي". دخلت مجموعة كبيرة من الحراس والحجاب والخدم، وأقبل غردق شاهراً سيفه العتيق.

أشار الملك إليه وصرخ في وجهه:

- أغمد هذا السيف البشع المرغ بالدماء، اغرب عني، لا أود أن ألمح وجهك الحجري هنا في القصر" ( وحول عينيه إلى الحجاب والحراس) اذهبوا به ليخدم في زريبة الأبقار، وانزعوا ذلك السيف الدموي عنه، فقد تأخذه سنة من السهو، فيجز به أعناق البهائم.

امتقع وجه الخادم غردق وعلاه الاكتئاب والذهول، بدا والحراس تسوقه إلى مثواه الجديد كأنه يفكر كيف بوسعه التعايش مع خوار الأبقار وروائحها المنتنة، فليس بمستطاعه أن يصمد ليوم واحد، كيف يقوم بتقديم الأعلاف إلى أحواض الحظائر وكنس الزريبة، وإشعال نوع من البخور الرديء ليمنع صعود الروائح إلى القصر؟ وهل سيحمل مع الخدم الآخرين فضلات البهائم إلى حفر عميقة خارج مدينة جنات قبل الزوال؟.

أحس غردق أنه غير أهل لكل هذا العمل المبتذل وليس له في قاع الزريبة أي إرب، لقد برع في قطع الأعناق فحسب، ولم يطل به السن حتى يفقد أهميته ويستغنى عنه. لا زال قوي الضربة، في الخامسة والثلاثين من عمره، وليس بجديد على مهنته، حيث استخدمه الملك شراح سيفاً قبل خمسة عشر عاماً، دربه على بتر الرؤوس سيف المعبد عسقل، ولكنه فيما بعد أصبح أشطر منه وأدهى، وتحول مع مرور السنوات إلى كابوس مرعب يقض مضاجع السبئيين في ليلهم البهيم، وذلك لعظم ما أشيع عن قسوته.

\* \* \*

في آخر الإِسبوع انعقد مجلس الحكم، وشمرَّ المشرع " نياز " أطراف قميصه الداكن، وشرع يسرد أسماء الأعضاء المشكّكين، وكانوا جميعاً من الأقبال، منهم أخوه كرب. وران الصمت بعد أن أتم المشرع كلامه، وتفكر الملك شام في الهيئة الملكية المقترحة، و صوب نظراته إلى السادن شيزار، فقال الأخير متحفظاً على أحد البنود:

- القيل هابر لا يجب أن يكون قائد جيوش سبأ، لأنه لعن المقة ذات يوم.

وهكذا ظل الجدل على أشده في المجلس حتى آخر النهار. وفي الصباح التالي جاء المشرع نياز بوثيقة جديدة أغلب أعضائها من أبناء الأقبال، ومنهم ابنه كوهار، وهاري ابن السادن، أما منصب قائد الجيوش فقد تركه خالياً ليختاره الملك شام بنفسه. فأجاز السادن هذه الوثيقة على مضض وقال المشرع نياز موجهماً حديثه إلى الملك:

- المقة المباركة تحبب هذه الوثيقة، لأن سعادة الملك شاب، ويتحتم أن تكون بطانته من أترابه الشباب.

- لقد نسيت قائد الجيوش والمتأدمة والمستشارين وأمناء الخزائن والأملاك والحجاب.

- بوسعك يا جلالة الملك أن تختار من تشاء.

عند ذلك أمعن الملك شام في التأمل الجاد، وجمال ببعصره في وجوه الجلوس، ولكنه لم يمل إلى أحدهم، وساورته فكرة نادرة، فهب من على كرسيه قائماً، قائلاً بصوت ذي نبرات صلبة:

- في الغد اجمعوا شباب أرض جنات في الميدان الفسيح،  
لأنتقي من أبناء العامة من يسد هذه المناصب، ثم أرسلوا إلى كل  
محمية أن تنتخب قبيلها الأكبر من أبنائها، أما منصب قائد  
الجيوش فسوف أختاره لاحقاً في عيد الآلهة بحضور شباب  
المحميات في ميدان التدريب.

أصيب الأقيال بدوار الدهشة، واغتاضوا بسبب مشاركة أبناء  
العامة لهم في الهيئة الجديدة، ونيلهم حصة كبيرة من مقاعد  
مجلس الحكم. فتبعثت من أفواه الأقيال ألفاظ شتى تنم عن  
عدم الفهم وقال البعض للملك:

-ماذا تنوي أن تفعل يا جلالة الملك؟

-ستعرفون يومئذ كل شيء.



## (٤)

امتطى كرب حصانه، ومرق كالبرق سائراً إلى قصر أمه شبرا،  
وهناك لقي دوما دادة القصر التي تساقطت أسنانها ماعدا  
واحدة منتصبه في فكها السفلي كتمثال بليد. قال لها متجههم  
الوجه:

-ماذا تعرفينه عن أمي يا دوما؟

أجابته بنغمة شيطانية، وهي تهرش وركها بيدها الخشنة:

-عندما كنت صغيراً، ماتت إثر مرض المالمط، ودفنت في مقبرة  
القبيلات.

-كلا يا كاذبة، سأوسخ سيفي بدمائك مادمت مصرة على  
الإنكار.

-لا تفعل، أمك شبرا ماتت وهي تمارس الرذيلة مع فراش  
القصر، وقد ابتلعت معظم جثتها الكلاب، والباقي منها دفن في  
القبر المدور.

حينذاك استدار كرب بحصانه الذي وقع ذيله بقسوة على  
وجه العجوز، فألقاها إلى الأرض، ومضى إلى مقبرة القبيلات،  
وهناك استقام فوق قبر أمه، والحصان يتحرك باهتياج، وحافراه  
الأماميان يرتفعان ثم يسقطان على قضاض القبر، وهو يصيح  
بصوته المللع الحزين:

-لماذا فعلت ذلك يا شبرا؟ لو كنت حية لقتلتك ألف مرة،

وصلبتك على عمود المعبد لتلعنك المقة كل حين .

بعدها سار مشجعاً روحه الذابلة على اجتياز الطريق التي تفضي إلى مقبرة ملوك سبأ الصخرية . ولاح أمامه شبح حارس المقبرة الأسود " مردان " الذي جهر بصوته الأجش صارخاً:  
- من أنت أيها المغامر بحق الآهة؟

- أنا كرب . إياك أن تعترضني يا حارس المقبرة .

أجاب كرب بنزق، فتكور جسد مردان، وخنق محنياً رأسه إلى مقابل صدره، ووضع قبضته اليمنى على كتفه الأيسر كأحسن تحية للدائرة المقدسة. تقدم كرب حتى شارف على قبر مبروز ببراويز صخرية بديعة، وهمم بالنزول من على حصانه ليمثل بقبر أبيه بسنان ورحم، لكنه تسمر على صهوة الجواد حين خيل إليه أن الملك شراح ينطح جملاً جامحاً، وصورته النكراء تزفر وحشية وصرامة، وتجأر في أصقاع المقبرة بصوته الصახب، وحينها ارتد كرب إلى الوراء، وأخذ يخاطب الخيال المائل أمامه قائلاً بارتعاش:

-أبتاه يا ناطح الجمال، لقد قلبت أعراف سبأ رأساً على عقب، وأنا الأكبر الجدير بحكم سبأ. لماذا تعاقبني بخطيئة شبرا؟.

تنحج الحارس الأسود، وهاش بقدميه بين الأجداث الملفوفة بظلام سويغات الليل الأولى، وعكف على معالجة قوسه القديم ونباله، وقال وهو يياشر عمله:

-لقد قتلت قبل لحظات سارقين من الأحباش اقتحما المقبرة لسرقة أغراض الملك وسيفه المذهب .

انتفض جسد كرب، وأدار ظهره للحارس الأسود، وأجابه وهو يتعد عنه:

- نمّ قرير العين أيها المنحوس، فأطياف الملك متشرة في كل مكان من المقبرة.

وظل فوق حصانه المجنون يجوس عتبات معبد الشمس ذهاباً وإياباً، ويمشي في ردهاته وسط دياجير تلكم الليالي الطويلة، والبؤس يقبض بذراعين فولاذيتين على عنقه المرتش ببقع البهاق البيضاء اللون، وكانت تلك الرتوش كل ما ورثه عن جده أبي أمه القليل نجناج .

في تلك الليلة احتضن أعمدة المعبد الستة واحداً تلو الآخر، داعياً الآلهة أن تحرق جثة أبيه شراح، وأن تفني أخيه شام. وتارة أخرى يذهب إلى معبد " برآن "، ويغمس أنفه في حوض السادن " ميفع "، ثم يتوسد في مقام جده الخامس عشر إلى أن يغلبه النعاس، وقبلئذٍ رد رسل أخيه الملك شام بوابل من الرفض، ولم يقبل أية مساومة رخيصة، إذ لا زال غير مقتنع بالمناصب التي عرضت عليه. فمنصب قيل محمية مرار ثالث أكبر محميات المملكة لا يليق بنجل شراح الأكبر، هكذا قال له رفاقه، وهو يطمع بقيادة جيوش سبأ أو على الأقل يكون قيبلاً على صرواح، ومن ثم تتوطد أركانه وتقوى شوكته فيتزعزع أرض جنات حاضرة المملكة من برائن الملك شام الذي لا زال يحسبه صبيلاً لا دراية له بالحكم .

وفي المعبد الأكبر صادفه السادن شيزار وهو ينشر صلواته العميقة وأدعيته الحرّى بغرض نفاذ روح شام من جسده، فبادره قائلاً:

- أراك سخيّاً على الآلهة بصلواتك هذه الفترة، وزاهداً عن المناصب.

يملكه وجهه ولذعه بعينيه المتحفظتين للالتهاب، ورد  
عليه قائلاً:

-لولا غضب المقة والخوف من نقمته للطخت بدمائك  
أحجار المدينة.

-أفعل إن استطعت. فدماء السدنة سموم في أجساد سافكيها.

-أولا تدري أن شراح نقض تشريع سباً؟

-هذه إرادة الملك، والسر معه في قبره .

-بئس السريا روح المعبد، وليس لي ذنب في ما حدث .

في أثناء ذلك طار وطواط كبير من السقف القريب، ودخل  
شبح شخص لم تستطع أضواء السراج الخافتة أن تكشف عن  
ملاحمه، وما إن اقترب منها حتى همس السادن همسة شاحبة:

-إنه مجنون زقاق الهدهاد فطالما يرتاد المعبد في الليل ..

حدجه كرب بنظرة تنم عن ارتياحه، وقبض على ثياب رقبته  
ولطشه لطشة أفقدته توازنه، وقال وهو يضغط كلماته بقسوة:

-جاسوس رث الثياب أرسله شام ليرصد حركاتي ..

-المقة تكره الاعتداء في المعبد. إياك وغضب (المقة)..رد

السادن بقلق .

-يا للتشريع الأرعن ..(المقة) تكره كل شيء إلا التجسس

والتلاعب ...

انقطع حديثه حين أصدر مجنون زقاق الهدهاد ضوضاء كلامية  
صاخبة ونهض قابضاً على قميصه وولى هارباً وهو يصيح بألفاظ  
مخيفة:

- الماء في زمنك، والفرار والدمار، والموت لك، ولن تثبت إلا

الأعمدة الستة ...

تضحك كرب لكنه تساءل بذهول:

-ماذا يقول مجنون الزقاق، أقصد الجاسوس؟.

ثم أردف بسخرية:

- انقلب مجنون الزقاق إلى كاهن يتنبأ لي بالدمار وكأنني الملك المتوج، يا ليتني أستولي على الأمر، وليكن ما يمكن ..

-لا تأخذ كلامه مأخذ الجد، إنه مجنون حقاً، وقد جُنَّ يوم جرف السيل إبله وأعطب محاصيله، وكان ثرياً واسع الباع .

-أهو هذا الذي ضم الملك مزارعه إلى ملكيته قبل أعوام؟

-نعم، كان ذلك بعد أن مسَّه الجنون.. ولم يقدر على تدبير

أمواله ...

أجابه السادن بنبرات حازمة ماكرة كأنها يبرر للملك فعلته، ولكنه في الحقيقة شاء أن يقطع دابر اللوم على كرب، لأنه هو الآخر وضع يده على نصف أموال مجنون الزقاق، بيد أن كرب لم يكن له دراية بما يدور في ذهن السادن من قلق وليس له فهم في الحقوق ..

\*\*\*

استحث كرب جواده، وطاف بأرجاء المدينة بحثاً عن جلسائه، فامثل له خمسون منهم، ووافقوه على المسير إلى مملكة قتيان. تنكر هو وأصحابه ولحقوا ركباً تجارياً للقتبانيين يتقدمهم ثمانون بعيراً على متونها بضائع وحبوب وتوابل، ويحيط بها عبيد أشداء سود الوجوه، ذو أنوف مفلطحة ومنتفخة. مال كرب إلى المقدم على القافلة، وهو قتياني مفلطح الجسد، متورم العارضين، وقال له وكان بينهما معرفة قديمة:

-سدنة أرض جنات رحماء ما عدا سادن المعبد الأكبر، فقد

كلفني أن أجلب للآلهة قرباناً كقرايين قتبان .  
بلور القتباني على قسماث وجهه علامة استفهام غريبة،  
وترجمها قائلاً:

-نحن في طريقنا إلى قتبان أرض المعابد العظيمة، ولكن من  
أنت؟؟

-تاجر من الأحقاف، لقد سلب القراصنة قافلتني .وبها نذور  
وقرايين (المقة) .

-قتبان مملكة العدالة وأهتها كفيلة بكشف الضر عنك .

-سأمنح ملككم مفاتيح أرض جنات ليطأها ورجاله .

-أرض جنات مستعصية يا هذا، وملوكها وأهلها ذو بأس  
وقوة وثراء .

سكت كرب على مضض، وأوحت إليه بديته أن لا جدوى  
من مناجاة الرجل غير المتحمس، ومادام قد أمن جانبه فذاك ما  
يسعى إليه.. بعد سويعات قلائل أمر القتباني الركب بأخذ قسط  
من الراحة تحت هجير جبل قصير، يبعد عن أرض جنات  
بضعة أميال.

غفا العبيد ولم يشعروا إلا والسيوف تصلُّ فوق رؤوسهم  
والرماح تنشب في أجسادهم الساكنة، ففر من غفلت عنه  
أصحاب كرب وهم قلة لا يتجاوزون أصابع اليدين، بينما  
واصل الباقيون نومهم الأبدي على الكثبان .بعد ذلك سار كرب  
ورفاقه بالإبل، والمقدم القتباني أسير مشدود بالحبال على بطن  
جمل عجوز، وقد أبقوا على حياته كدليل للطريق التي تؤدي بهم  
إلى قتبان، ولما أشرفوا على تمنع حاضرة قتبان قاموا بقطع رأسه،  
وتركوه وقبره المتحرك يتخبط في مثلث رملي قاحل .وبعد مدة

معقولة انكشفت للأعين مدينة حجرية بيوتها متحوتة على امتداد جبل طويل غير متسق الطول، إذ تتخلله فجوات فراغية كأنها سلخها القبانيون عنوة كمنافذ خلفية للهروب أو التحصن وراء الجبل عند الحرب .

بان قصر بارز على ربوة عالية وكأنه المعلم الوحيد الذي يرشد التجار والغرباء إلى المدينة المخفية في بطن الجبل.. كان منظر المدينة المزري وملامح أهلها ذوي الصدور العارية لا يغذي طموح كرب، والذي أدرك لحينه أن الفقر المدقع متفشٍ فيها، وأنه ليس في وسعهم أن يثبتوا أمام محمية سبئية واحدة. وقد أحاط بالقافلة في سوق المدينة ثلة من التجار، وأخذوا يساومون في البضاعة، في حين قال لهم أحد رفاق كرب:

-إنها لجلالة ملك الأحقاف العظيم، وليست للعراة.

حين سمع التجار هذه العبارة تفرقوا كالسنورات المذعورة من كلاب الهجرس الشرسة، وقفزت الفكرة إلى رأس كرب سريعاً وقال لنفسه بابتهاج بالغ: نسير إلى حاضرة الأحقاف، ويقال أن ألهتها هي آلهة القوة والتشيد .

بعدها شق طريقه في بيداء لا يدرك البصر آخرها، وفي معيته ورفاقه آمال جياشة للانتقام من أرض جنات السبئية، وبعد شهر من السير الدؤوب بلغوا أطراف مدينة حقفا، فلوحظ أن تضاريس الأحقاف المحيطة بها شيءٌ وهذه المدينة شيءٌ آخر، والأحقاف عامة أرض مغبرة لا يجذ فيها البعير ما يسد نهمة من الأشجار أو ما يبلل صداه من الماء. وقد أتقنت جدته هارة الوصف عندما أضفت إلى علمه شيئاً عنها قائلة: مدينة حقفا حاضرة الأحقاف وردة متفتحة نبتت بين الصخور الضخمة

المصمتة والرمال الميتة.

تجمدت الجمال مصدرة بعاماً عالياً مشوباً بالإعجاب أمام سور حجري دائري بدا بألوانه كقوس قزح.. ظهر السور مطلياً بوميض لامع يأسر العيون والألباب. وقف السبئيون إلى جوار جمالهم يدققون النظر في معادن برونزية تغشى تقاطيع السور بتنسيق دقيق، وثمة جسر عملاق فوق عمودين حجريين عجيبين، يتوسط السور ليشكل البوابة المتقنة البناء.

تسارع إليهم حراس كثير ذو ثياب حريرية فضفاضة وتطاريز بهية. في البداية لم يدرك كرب ورفاقه من أين هبط عليهم أولئك الحراس بسبب استغراقهم في التأمل. وبسرعة اشرعوا الرماح إلى صدورهم، فرفعوا أيديهم للأعلى مستسلمين، وسألهم أحدهم يبدو من هيئته المميّزة أنه القائد، قائلاً بلغة مكسرة النبرات إلا أنها مفهومة:

-من أنتم يا قوم، وماذا تفعلون قرب السور؟؟

رد عليه كرب بأنفته السبئية دونما وجل قائلاً:

-نحن سدنة سبأ، ولم ترشدنا ألهتنا المقة إلى بوابة المدينة لجمال سورها .

ضحك قائد الحراس، وقال بلهجة طاووسية وهو يتحرك بخيلاء:

-فكيف بكم إذا دخلتم المدينة، ورأيتم أزقتها وقصورها وحدائقها !!

-الشكر للمقة ولك، فلم نأت من أجل النزهة، ولكننا جئنا لمقابلة صاحب الجلالة .

عند ذلك التفت القائد الأحقافي إلى الحراس، ثم رمق كرباً



بقسوة وقال:

- هذه عادتنا يا خدام الآلهة.. شدُّوا أعينهم بالخز المعتم .  
أخرج الخراس الأحقافيون قطعاً طويلة نوعاً ما من حريز  
الخز، وأرادوا أن يعصبوا بها عيون السبئيين.. بيد أنهم مانعوا  
مندهشين، وقال القائل منهم:

-السدنة لا يقادون كالسبايا، ولسوف تسحقكم المقرة إن  
فعلتم ذلك .

-ستصابون بالجنون إن ظلت أعينكم مفتوحة، وهذا من قبيل  
الحرص على سلامتكم .

-أهي ساحرة إلى هذا الحد؟؟

تساءل كرب بريب، فهز قائد الخراس رأسه مؤكداً، واقترب  
منه وشدَّ عينيه بقطعة غليظة من الخز، بينما انصرف الخراس إلى  
رفاقه وأخذوا يشدُّون أعينهم بقطع مشابهة، ثم قادوهم في طريق  
ممهدة كالعمي، والقائد الأحقافي يبرر لهم هذا العمل قائلاً:

-قبل مائة عام جاء إلى المدينة عشرة من فلاسفة الإغريق..  
وظل هؤلاء الإغريقيون يحدِّقون في معالم البنيان، وما إن بلغوا  
قصر الملك عريم حتى زاغت عقولهم، وصاروا لا يعون ما  
يقولون.. يوم ذاك أمر الملك أن تشدَّ عيون الغرباء قبل دخولهم  
المدينة، وقام بإنشاء هذا السور الذي يلفها كالسوار، واستمر  
بناؤه خمسة أعوام، والأحقاف موطن مناجم الذهب، لذلك فهي  
أعجب بلاد الدنيا في البنيان، لاسيما هذه المدينة .

كلت أقدام السبئيين بفعل السير الحثيث، وشعروا بالملل  
والامتهان، وبعد مدة لا يستهان بها صعد بهم الخراس عبر سلام  
القصر إلى أن وصلوا إلى إيوان ملك الأحقاف، وهناك نزعوا عن

أعينهم قطع الخبز، وأحنوا رؤوسهم له، وحدثوه عن أمرهم،  
بينما تبلد السبثيون وهم يرون أعجب بهو ملكي يروونه في  
حياتهم.. وشرعت نخمة الذهول تتخندق في عقولهم المتأهبة  
للزيغان، لكن الملك ريام المكلل رأسه بتاج يومض كالشعلة  
الواهجة أدركهم قبل أن يجنوا، إذ قال بصوت دوى كالانفجار  
مخاطباً قائد حراس السور:

- من هؤلاء القوم الركاك الأبدان؟

- يقولون أنهم سدنة سبأ يا جلالة الملك... أجاب الحراس

بهدوء ..

تظاهر السبثيون بالنحيب، ثم قال كرب ماسحاً المخاط  
الذائب من مناخيره المحمرة:

- جئناك بإيعاز من آهتنا التي أهانتها ملك أرض

جنات السبئية.

- أنتم الآن ضيوف آهتنا رعاع، وسأرى حاجتكم عقب

انتهاء زمن الضيافة ..

سيق كرب ورفاقه إلى مجلس رحب لا حدود لجماله وأناقته،  
وأحسوا بارتياح كبير فيه غير أنه كان لا يسمح لهم بالخروج من  
قصر الملك ريام، فعاد إليهم بصيص من الاكتئاب، ولكن كلما  
أطلوا من نوافذ المجلس إلى الخارج يعود الأمل من جديد إلى  
نفوسهم القلقة، فقد شاهدوا جنداً لا تحصى في فناء القصر  
الشاسع، وقوماً كالنمل تسري في الأزقة القريبة، قوم غلاظ  
شداد طوال الأجساد. هؤلاء هم سكان مدينة حقفا، أصغر  
رجل منهم كأضخم رجل في سبأ، صار السبثيون يتسلون بهذه  
الأفاظ، ويتواعدون بالنصر، ثم يتجادبون الحديث عن

مغامرات شتى، وكعادة السجناء أرادوا أن يقتلوا الوقت بالأحاديث المثيرة، ولكن السأم لا يلبث أن يعذب أرواحهم كلما تشابهت الحوارات وتكررت وأوشكت على النضوب، وبلغ الملل ذروته حين انبرى كرب متحدثاً عن الحرية، وقال إنها لا تقدر بثمن... وفي يوم يتوسط أسبوع الضيافة دعاهم الملك ريام إلى قصر وسط المدينة تحيطه واحة خلابة، وروضة في غاية الجمال تزرع البنفسج والفل الأبيض والياسمين الأحمر، وتشكيلة أخرى من الأزهار. رأى السبثيون على فئانه أرائك وثيرة ترتص قرب بعضها، وغدائر ماء تترقرق بانسياب لطيف عبر سواقٍ منظمة محفورة بإتقان. اكتمل الأنس بوجود الملك ريام وأقبال مملكته، وثلة من القيان الأحقافيات الحسان. لاح الفناء في ظل عشرات الأسرجة المضيئة كدينار ذهبي قشيب، وبعد مدة ليست بالكثيرة دارت كؤوس الخمرة بين الجلساء، ثم عزفت القيان وغنت بأصوات عذبة، وتراقصت الحواجب والشفاه طرباً وغار القمر من القيان، وشحب وجهه، إذ لا أحد في مدينة حقفا يلتفت إليه في تلك الليلة التي أباحت فيها الآلهة مداعبة النساء والنوم في أحضانهن، وأحلت لعتتها على من يشد عن هذه العادة الممتعة ..

تمل السبثيون بشدة، وانتشوا، فجأة ضحك الملك ريام ضحكة مدوية فتفرقت الأحقافيات وأوين إلى أحضان الثملين، وحدث اختلاط عجيب، وصرن يتقافزن من حضن إلى آخر، وحصل في تلك الليلة من المجنون ما لا يعقل. وهكذا انغمس كرب ورفاقه في المتعة حتى شعشع نور الصباح وحينذاك نزعهم الأحقافيون من أحضان الفتيات بقسوة، ثم قادوهم مرة أخرى

كالعمي إلى الملك ريام، وحرروا أعينهم من الخنز المعتم، فانبرى  
قائلاً لهم بجفوة شديدة:

- ما حاجتكم الآن يا سدنة سبأ؟

أجابوا عليه بصوت واحد قائلين بلا حرج:

- البقاء في مدينة حقفأ إلى الأبد، لأن أهتكم تبيع

التلذذ بالنساء.

- ما هذا الذي جئتم من أجله. قال بغضب.

استدرك كرب قائلاً بتقطيب:

- إذا عدنا يا سيدي إلى أرض جنات سيقتلنا الملك شام

لا شك!!

- السدنة لا يقتلون ..

قال الملك ريام عبارته ، فرد عليه باسماً جناح الذل:

- الملك شام فتى في السابعة عشرة من عمره، وقد جعل المعبد

اسطبلًا لخيوله .

- سبأ لا زالت قوية وغالبة على ممالك الجنوب.

- اطمئن يا جلالة الملك . وثق بالنصر، لأن المستهتر شام غارق

في جهله حتى شحمتي أذنيه ، وقد انفصلت كل المحميات عنه

خلا أرض جنات ..

تهلل وجه الملك ريام أخيراً، لكنه زجر قائلاً:

- يمكنكم الذهاب الآن، وسأعد العدة للانقضاء على سبأ

عما قريب.

- دعنا و...

- لا مكان للغرباء بيننا، وها قد انقضت أيام الضيافة واللذة ..  
كان كلام الملك ريام حاداً، فعلم كرب أن لا فائدة من التوسل  
والإلحاح، وخطر في رأسه أن الذهاب أجدى من البقاء، وذلك  
لأنه افترى في قوله، وأوهم الملك ريام أن مملكة سبأ متضعضة  
ومفككة، وهي ليست كذلك، وقد ينهزم الملك ريام فينكل  
به ورفاقه .

اقترب عيد المقة، وصار أهالي سبأ يتجملون ويزينون المعابد بالطيب وأكاليل الزهر. صرخت الأبواق في أول الأسبوع معلنة عن دفن العيد. كان الملك شام منهمكاً في مراسلة أقيال المحميات. "إلى قيل محمية ذي ريدان، إلى قيل محمية صرواح، إلى قيل محمية مرار، إلى قيل محمية ذي الجامش..."

هكذا شرع كاتب أرض جنات يستهل الرسائل المنقوشة بأحرف المسند على جلود الغزلان، وكانت أدوات الكتابة عبارة عن ريش ذات سنون مدببة تغمس بمادة زيتية لزجة سوداوية اللون مستخلصة من بعض الأشجار. وأحياناً تستخدم مادة (سليطية) من رواسب أدخنة الأسرجة المضيئة.

"بأمر الملك شام يجب إرسال كل شاب ضارب بالسيف أو طاعن بالرمح إلى أرض جنات حاضرة مملكة سبأ العظمى، وهذا بمباركة (المقة) من أجل إختيار قائد الجيوش السبئية وتقريب القرابين والندور..."

حملت الرسل جلود الغزلان، وخفوا على متون الجياد السريعة إلى أقيال المحميات العشر، وفي صبيحة عيد الآلهة نصبت للأقيال الشباب خيمة من الخبز مطرزة ومنمقة بشرائط من السندس، وسار الملك شام والأقيال الشباب وعامة سبأ إلى المعبد الأكبر، وقربوا القرابين للمقة وأحرقوا الندور، ثم أمر

الملك شام بذبح الذبائح، فأسرع السدنة إلى تلطيف أعمدة المعبد بدمائها. وأقيمت كل الشعائر الدينية التي اعتاد عليها أهل سبأ بعدها عادوا إلى ميدان التدريب وقبع الملك والأقبال الشباب في الخيمة، وأحاط بهم الحراس من كل جانب، وأخذ الملك شام يتطلع إلى شباب أرض جنات المرتصين في قلب الميدان، وقد بدت الحركة متوقفة حتى ذلك الحين، وساد ميدان التدريب صمت عجيب، وراح مدرب مملكة سبأ ينظر بقلق إلى الفج البعيد، وقد أحس أن زمن التدريب قد حان ولم يأت بعد شباب المحميات، بعد برهة نعق البوق من أعلى الهضبة البعيدة، ونادى مناد جهوري الصوت من الطرف الآخر في الميدان:

- شباب ذو ريدان قادمون يتقدمهم شاب على حصان أبيض. اغتبط الملك شام، وتهللت أسارير المدرب حين سمع النداء، وجعل يمط عنقه متطلعاً إلى أفواج ذي ريدان القادمة، وانبرى يخطط لهم مكاناً رحباً في الميمنة، وبينما هو ينسق صفوفهم إذ نعق البوق مرة أخرى، ونادى المنادي: "شباب صرواح قرب السد يتقدمهم شاب على جواد أسحم".

انصرف مدرب سبأ لاستقبال شباب صرواح، ومازال البوق يصرخ والمنادي ينادي، وشباب المحميات تتابع إلى ميدان جنات، حتى اكتملت وغصّ بها المكان. عندها ذهب المدرب فخنخام الملقب بليث سبأ إلى خيمة الملك شام، وتجاذب معه الحديث قليلاً، والخبجل جلي على وجه الملك الصغير، وهو يرى أمامه رجلاً جاوز الخمسين عاماً. لكنه لازال مشدود الأعصاب، قوي المهمة، تتدفق الحماسة من ملامحه الصلبة بوضوح، ولما دعاه إلى الجلوس بجانبه أبى، وعاد بوتيرة عالية إلى

الميدان .وأخذ يملي على شباب المحميات تعليمات التدريب،  
قائلاً بصوت عالٍ:

-قائد شباب ذي ريدان يصارع قائد شباب صرواح، وقائد  
مرار يصارع قائد ذي الجامش، وهلم جرا .والمتصر يصارع  
المتصر حتى يبرز المتصر الأخير .

فرح قادة شباب المحميات بدنو ميعاد التدريب، وأخذوا  
يحلّمون بالفوز، ويمرّنون سواعدهم، ويتحركون بخفة  
مستغلين فترة ما قبل الصراع .بعد لحظات أذن الملك شام ببدء  
التدريب، فبدأ النزال ينشب بين القادة، وراح المتصر يقابل  
المتصر حتى صار النزال الأخير بين قائدي شباب ذي ريدان  
وذي الجامش .وقد حالف الأخير الحظ وأسقط خصمه على  
الأرض، فضج أهل سبأ هاتفين بحماس، وصار شباب ذي  
الجامش يتقافزون بانتشاء، وما لبثوا أن هرعوا إلى قائدهم،  
وحملوه على أعناقهم، وجاسوا به في عرض الميدان، بينما باءت  
صيححات المدرب بالخيبة، وهو يحاول أن ينتزعه من على أعناقهم  
دون جدوى .حيث غابت أصواته جوف ضجة هادرة، فاستعان  
أخيراً بشباب أرض جنات الذين انتشروا كالفراش وخطفوه  
قسراً، وساروا بسرعة حينذاك صوب الخيمة والحراس يذودون  
رفاقه عنه .فالتقاء الملك شام بصدر منشرح ، وسأله بصوت  
هادئ:

-ما اسمك يا بطل سبأ؟

-سنوان بن شقر يا سيدي، ويلقبني القوم بالسنونو .

-يا سنونو أنت منذ اللحظة قائد...

بتر الملك شام عبارته حين زعق البوق .فاشرأبت أعناق



الأقيال، وأرهبوا السمع متعجبين، وصاح الملك بانزعاج:  
-ماذا دعا صاحب البوق؟

طغت على وجوه القوم موجة جارفة من الدهول، ولم يجدوا ما  
يردون به على الملك، فلاذوا بالصمت متأملين إلى طرق شتى،  
وبعد لحظات نادى المنادي:

- ملثمون مجهولون آتون من طريق الغور، ويقودهم ملثم  
ضخم الجثة على حصان جامح.

وبسرة صوبت الأنظار ناحية طريق الغور، فترأت لهم  
جماعة كبيرة من الفرسان الملثمين، وهم ينهبون الأرض نهباً  
متجهين صوب ميدان جنات. تفصّد وجه المدرب عرقاً، ونزل  
ليستقبل أولئك الفرسان، ويرى من يكونون!! وخاطب الملك  
من حوله قائلاً بحيرة:

- من يكون أولئك الفرسان الملثمين؟ ولماذا أتوا في وقت  
متأخر كهذا؟

تولى القليل هاري نجل السادن شيزار الرد، فقال مبدئياً توقعه:  
-لعل أحد أمراء الحصون الصغيرة جاء ليرى حظه في النزال.

-إنهم ملثمون، وهذا ما يبعث الريب في نفسي، وربما ليسوا  
من الشباب.

ثم التفت إلى حيث أشار القليل كوهار بإصبعه، وراح  
يتأمل ذلك الفارس الملثم الذي جال في أرجاء ميدان التدريب  
بأنفة بالغة، وعيناه تدوران في رأسه كالرحى، وتبشان غروراً  
لا حدود له، وتحدياً سافراً.. صرخ المدرب في وجهه قائلاً  
بملء الصوت:

- من أنتم أيها الملثمون؟ ولم تأخرتم عن موعد النزال؟

أنته بلبعة صوت قائدهم حين أجاب بصرامة:  
-نحن صعاليك مملكة سبأ، ولكن لنا صولة وجولة في النزال،  
أم إن ملككم العادل لا يعترف بالمشردين من قومه، ولا يجيز لهم  
النزال..

نقل المدرب هذه الكلمات إلى الملك شام، فأمره أن يدعوه  
إلى قتال سنوان... وصدع المدرب، وعاد إلى الفارس وقال  
له بحدة:

-جلالة الملك يدعوك إلى نزال قائد شباب ذي الجامش. لأنه  
آخر منتصر من القادة، هيا أيها المثلثم اقترب من خصمك  
الجسور.

- امنحني سيفاً مثلوماً ورحماً لا يريقان الدم، وإلا أعملت في  
هامته سيفي الصقيل..

منحه المدرب سيفاً لا يبر ورحماً لا يخرق، فاقرب من سنوان  
النحيل الجسد. واصطدم به وأخذ النزال يزداد ضراوة مع مرور  
الوقت، واتضح له أن خصمه صلب عنيد لا تزحزحه الضربات  
قيد أنملة، فلجأ للمكر، وضرب حصان سنوان في عينه اليسرى  
بعقب رمحه فسالت على عارضه، فصهل الحصان سهيلاً  
مزعجاً، ورفع قائمته الأماميين، وطرح سنوان أرضاً، وما لبث  
أن قام خجلاً يتفض الغبار العالق على ثيابه، وفطن للحيلة حين  
رأى عين حصانه مفقوءة، فراح يتبرم ويسدي إلى المدرب ما  
حصل ويريه حصانه، لكن المدرب لم يعبأ به، وقال لنفسه كأنه  
يرد على سنوان لائماً:

"كان يجب ألا تفتح للمثلثم ثغرة ليصل رمحه إلى عين  
جوادك" ..

لم يلبث أن صعّد والمثم إلى خيمة الملك شام، وأعلن لديه عن فوزه على سنوان . كان الحقن جلياً على نبرات ألفاظ المدرب وهو يخاطب الملك، وكأنه أراد أن يعاقب سنوان على عدم حذره واحتراسه . قال له الملك بلهجة شديدة:

- أمط لثامك يا هذا، لأر وجهك .

- لا يليق بك يا جلالة الملك أن تترى وجه صعلوك متشرد مثلي، ولكنني لن أضنّ عليك برؤيتي، لأنك لم تضنّ عليّ بنزال قائد شباب ذي الجامش ..

ثم أماط اللثام عن وجهه، وتأمل الملك شام ذلك الوجه الأمرد وقهقهه الأقبال لغرابة شكله، ولم تكبح موجات الضحك المهووسة إلا نظرات الملك الغاضبة، ثم ابتسم قائلاً له:

- أهلاً بك يا قائد جيوش سبأ .

برق وجه الفارس بريق الفرح وتعجب من سباحة الملك، ونقاء سريرته، في حين اغتاض الأقبال، وتملكهم الاستغراب، لأن صعاليك سبأ لا يجرون على دخول أسواق المحميات، فأنى لهم أن يلجوا مجلس الحكم، ويصير لهم مقعد فيه .. لم يخطر على بالهم يوماً أن صعلو كأ سيصبح جندياً عادياً في بلاط الملك أو حتى خادماً يوكل إليه جمع الروث وفضلات البهائم في زرائب المملكة، فكيف يسمحون لهذا الصعلوك أن يحتل أعلى مقعد يمكن للأقبال أن تبلغه، وهو مقعد قائد الجيوش . وجاء صوت الفارس متلعثماً:

- أنا الصعلوك أكون قائد الجيوش؟ أهذا ما نطقت به يا جلالة الملك؟

- نعم، أنت سبئي، وقد انتزعت هذا المقعد بشجاعتك، ومنذ

الآن أود ألا تعود إلى نشف شعيرات عارضيك وشاربك.. ينبغي أن يعود الصعاليك إلى المدن ويجولوا في الأسواق بحرية ويفعلوا ما يفعله العامة. إبرموا وثيقة في ذلك يا معشر سبأ. ولتشهد المقة.. على ذلك..

ازداد جشع الصعلوك، وابتغى أكثر من المنصب الذي منحه له الملك، وكان ما ألفاه من اللين والعفوية سلماً يرتقي به نهمه، فقال:

- أنا جدير بعرش المملكة، لأنني أعدد أعظم بطل في سبأ، وإن أردت الإنصاف، عليك أن تنازلني يا سيدي و...  
- أيها الصعلوك الوقح!! لا عاشت سبأ إن صار مثلك ملكاً عليها..

أمسك الأقيال القيل هاري الذي انفجر كالبركان وهم بأن يفتك به، على حين شعر الملك بغضب طفيف، وحدث أن الرجل الصعلوك يود أن يمتهته، لكنه ابتسم قائلاً:

- سأنازلك بسيف صقيل ورمح مسنون..

- إن ظفرت بك سأعفو عنك إكراماً لأبيك شراح.

وساد الضجيج بين الأقيال، وتطاير خبر هذا النزال المرتقب إلى أهل سبأ وشباب المحميات، فصاروا يرمون عمائمهم إلى الأرض باستياء، وتبادت مجموعة من النساء من شرفات الدور مستنكرات. ورأى الملك ما ألم بقومه من جزع، ولمح خصمه يلوح له من عمق الميدان ويدعوه إليه.. فاحتار كثيراً وتردد بين الخنوع والإقدام لكنه أخيراً صاح على قومه بصوت عالٍ قائلاً:

- لن أخذلكم يا معشر سبأ، إلي بحصاني، فهذا الفارس وإن كان صعلوكاً قوياً، فأنا أصدق سبئي في الحرب، فلا تبتسوا يا قوم..

هدأ روعهم عقب عبارته، وقدّم له العبيد حصانه، فامتطاه وانطلق نحو الفارس. فلقىه الأخير وصارعه، وظلاً يتقاتلان حتى فصل بينهما الغروب. في اليوم التالي التقيا، وشعر الملك شام بقوة غريمه رغم مراسه في القتال، وحُدس أن المائل أمامه قد قاتله يوماً ما، وأن قتاله أشبه ما يكون بقتال أخيه كرب. وعند الظهيرة أحس بالوهن يعتريه، وسرعان ما أخذ الضجر يتسلل إلى نفسه المهمومة. فترجع إلى الوراء وذلك الفارس يلاحقه بضربات حامية. ونظر الملك شام يميناً وشمالاً فرأى أهل سبأ يرمقونه بإشفاق، وهو يكره ذلك النوع من النظرات حتى في أحلك الظروف، ومرقت دمعة كبرياء من حدقاته المتصلبة وامتزجت بقهقهة الفارس الشامته. ساعتها عرف الملك شام الواقف أمامه جيداً، وتذكر كيف مات القيل طاهم قبل عام، رأى تنرا تشطح أمامه باكية مذعورة كالقطاة الطريفة.. لم تأبه له حين قطع إصبعه الصغرى بخنجره ثأراً لها... ما أشمت قهقهة كرب التي فدت من خنجرته يوم عاده عند مرضه.

طغت موجة من القهر على كيان الملك شام المترهل المهمة، وقرعت ألفاظ تنرا الأخيرة كالرعود القاصفة على ذاكرته، حين قالت قبل أن تتواري وشقيقتها: لقد قتل والدك حينما مع أبي دون ذنب.. يومها أساح دمعة وحيدة تشبه هذه الدمعة التي ذرفها أمام أخيه وأهل سبأ.. عند ذلك رأى أخاه الصامد أمامه بحجم البعوضة الصغيرة فانقض عليه محتتماً بالدركة، ووثب نحوه وثبة قط بري، وقبض على جلبابه ورماه أرضاً، وانقلب إلى وحش لا يرحم. ثم دنا منه وفمه فاغر وعيناه متسعان.. وصار كرب تحت رحمة سنان الملك شام المصوب إلى نحره. فقال باسترحام:

-لا تقتل رب الدائرة المقدسة. أنا أخوك كرب.  
تراجع الملك شام عنه قائلاً:  
-قم يا خائب إلى قصرك، فقد أقلتك عن منصبك.  
ما كاد كرب يسمع تلك الألفاظ حتى جرى هارباً والخزي  
يلوث وجهه ورفاقه..

\* \* \*

انتهى موسم التدريب، وأوشك المتدربون أن يعودوا إلى  
محمياتهم، في ذلك الوقت، طارت أنباء الشر إلى مسامعهم،  
وتبادى لهم شيخ الحرب بملابس سوداء مشؤومة، وقد رأوه  
وحددوا الجهة التي ظهر منها، وتأكدوا أكثر من الرسل المكدودة  
التي جاءت من أقصى الغرب، من ذي ريدان، تلك المحمية  
المسكينة التي تعرضت لهجوم شرس قلب عاليها سافلها،  
ودمرت تدميراً...

ونعق البوق، وسار سنوان قائد الجيوش بشباب المحميات  
لللقاء جيوش الأحقاف، وأراد الملك شام أن يسير للحرب  
وسنوان، ولكن السادن شيزار أشار عليه أن يظل والجيوش  
الرسمي إلى حين الحاجة، وقال مهوناً عليه:

-لن تحشد مملكة سبأ كامل قواها في حرب حفنة رخيصة من  
الأحقافيين. هؤلاء المهوسون لا يعرفون سطوتنا.. بهذه  
العبارات قلل السادن من شأن الغزاة، وكانت كفيلاً باقتناع  
الملك شام بصواب رأيه، ولكنه لسبب ما لا زال متخوفاً قلقاً مما  
تخبئه الأيام القادمة، إذ أن هذه الغارة هي الأولى في عهده،  
ولازالت تجربته قليلة في الحكم، ولا يأمن أن تتكالب على سبأ  
الممالك، وتغررها حدائة سنه، واتكاله على الشباب الذين هم

بطانته في المجلس، وحكام المحميات.. بعد شهر جاء رسول القائد سنوان يستغيث بالملك شام، ويطلب مدداً عظيماً لقتال جيوش الأحقاف اللجبة، وقال الرسول بحروف مرتعشة:

- ذي الجامش هي الأخرى سقطت، وهم في طريقهم إلى صرواح، وقد عبروا بجيش كبير.. حيثذ جن جنون الملك شام، ولأم السادن وعنقه حين نصحه بالبقاء في أرض جنات، ولكنه وجّه اللوم الحقيقي إلى نفسه، لأنه يعي كل الوعي أن السادن شيزار لا يرجو له وللأقبال الشباب خيراً، لأنهم كانوا قد شطوا عن الصلوات وتعاليم المعبد، وأبدلوا وثائق التشريع بوثائق أخرى غريبة تحم من سلطانه وتمنعه من التدخل في شؤون السبئيين، إلا أنه لا يدري كيف يعود ليركن إلى قوله.. لم يلبث أن سار بنفسه إلى المخدع الذي يقبع به طبل إعلان الحرب... وهذا الطبل النحاسي مشدود على لوح حديدي كبير يلتصق بباب المخدع، ولأن اللوح مائل ينحدر للأسفل، وموثوق من الجانبين بصواميل حديدية ملساء تدهن بسليط لزج، فإن اللوح ينزلق والطليل إلى خارج المخدع بمجرد أن يفتح بابه الغليظ، وعلى من يود أن يدق الطبل أن يصعد عبر سلم مبني بأحجار البلق إلى سطح المخدع، ليرى أمامه عموداً حديدياً أسطوانياً الشكل طويل ومتين، وينتهي بكتلة حديدية مصممة تسمى القبقاب، وهذا العمود الذي يسمى المقرع مشدود بحبل متين على وتد ضخم مغروز في سطح المخدع، فإذا تحرر المقرع من حبل الوتد هوى القبقاب على الطبل، ومن ثم يصدر دويماً هائلاً يتردد صدها إلى أصقاع بعيدة، وهذا بفضل حلقات نحاسية تلتحم على أطراف الطبل، وكذلك جلود الفيلة التي شدت عليه ونقش

عليها دوائر وكلمات سحرية من فعل الكهنة القدماء منذ عهد  
قديم. ولا بد أن يجأر المنادي بصوته ليحترس الناس ويحشون  
آذانهم بالعطب أو أي شيء آخر، والويل ثم الويل لمن لم يصله  
النداء أو تجاهل عنوة الخطر المحدق بأذنيه، لا سيما القاطنون  
قرب مخدع الطبل أو المارين من جواره... في ذلك اليوم جأر  
المنادي طويلاً منذراً الناس، وقرع الملك شام الطبل ثلاث  
قرعات، وهذه الثلاث القرعات هي المعروفة عند الحرب، وعلى  
إثرها خرج رجال ومراهقو وفتيات سبأ إلى خارج مدينة جنات،  
ولما تكاملت الأعداد سار الملك شام بهم حتى لحق بسنوان عند  
صحراء البقع، والتقى الجيشان السبئي والأحقافي هناك ودارت  
معركة مهيلة انتصر فيها السبئيون انتصاراً باهراً، وطاردوا فلول  
جيوش الأحقاف إلى مدينة حقفاء، وضربوا عليهم حصاراً  
خائفاً، لكنهم ارتدوا عنها لمناعة أسوارها، وعادوا إلى سبأ كما  
تعود الأبطال الظافرون. ولكن قتل في تلك الحرب سنوان قائد  
الجيش وجندب شقيق الملك شام من أبية وأمه..



## (٦)

مضت السنة الثانية بأحداثها المشيرة وحربها الضروس، ودخلت السنة الثالثة حاملة معها عبقاً من الهدوء والاستقرار وأحداثاً لازالت في طي الغيب، كان التاجر الروماني فالوس قد أوفد خمسة آلاف عبد إلى أرض جنات أثناء انشغال الملك شراح بمرضه، وأضاف خمسة آلاف أخرى أثناء انشغال الملك شام بحريه والأحقافيين. كان يسري بهم ليلاً من طرق شتى بأعداد لا تثير الانتباه، وصار هذا يحدث سرّاً دون أن يشعر أحد في سبأ بذلك، أو يلقي إلى تزايد العبيد في المدينة بالآ...

في أول يوم من السنة الجديدة دخل الحاجب على الملك شام وخاطبه عن تاجر روماني يقف بباحة القصر وفي حوزته مائة عبد حداد السن.. فأذن له ودخل فالوس على الملك ووهبه أولئك العبيد، زاعماً أن تلك الصفقة مقابل أن يسمح له بالتساجرة في بلاده ليستثمر أمواله الطائلة في أسواق الرقيق.. فسمح له الملك شام، واعتراه من العرفان ما جعله يشاور أعضاء هيئة الحكم الأقيال بأن يسمحوا بمنحه مبلغاً رمزياً من خزانة القصر، وتمثلاً عارياً من المرمر كرمز للصفاء.. بعد ذلك، مال التاجر فالوس إلى كرب، وراح يزوده بالعبيد، وقد علم من أحاديث الناس في الأسواق حنقه من أخيه، واعتصامه في قصره، فجلب له وحده ثلاثمائة عبد، لكن

كرب لم يأخذ سوى خمسين عبد، والبقية فرّقها بين رفاقه. ثم صار التاجر يفرّق العبيد على الأقيال وأثرياء المدينة بثمن أو بدون ثمن، حتى صار معروفاً ذائع الصيت، وأضحى الناس يأتونه من داخل وخارج أرض جنات ليأخذوا العبيد. وقد أمن على نفسه أكثر بعد تصريح الملك شام له بالمتاجرة، فصار يجوب أرض جنات بحرية مطلقة.

شارفت السنة على الانتهاء. وفي أحد تلك الأيام شق الملك شام وسط المدينة، وهاله تكاثف العبيد في الأزقة والأسواق، ولما كان خارج المدينة وثلة من الأقيال، شاهد ركباً عظيماً يضم ألف عبد ومائة جارية رومية. لم يلبث أن سأل مقدم الركب عنه فزعم أنه ذاهب إلى خان وسط المدينة يملكه فالوس الروماني.. سرت رعدة شديدة في جسد الملك شام، وشعر أن انتشار العبيد بتلك الصورة المذهلة يذهب عن المملكة هيبتها ويعرضها في أي وقت للانتهاك أو الثورة.. قطع الملك رحلة الصيد التي كان مزمعاً أن يقوم بها خارج أرض جنات، وعاد لتوه إلى قصره ضاجراً مشوش البال. وأمر في تلك الساعة ببناء مدينة كبيرة، ذات منازل طينية وضيعة خارج مدينة جنات، وشدد على إقامة سور حجري قوي يحتوي المدينة، تتوسطه بوابة وحيدة ذات صفائح حديدية غليظة بحيث تغلق من الخارج ولا يمكن أن تغلق من الداخل مطلقاً.

سارع عمال سبأ يعمرون المدينة، واستمر البناء دءوباً حتى فرغ منها العمال بعد عام من العمل الجاد، حيثئذ أمر الملك شام بطرد فالوس وإغلاق خانة وإخراج العبيد من قصور الأقيال والأسواق ومن شتى الأماكن إلى تلك المدينة الطينية. انتشر

الجنود وأخذوا يبعدون العبيد عن مدينة جنات، ويزجون بهم جوف مدينتهم الجديدة... حاول كرب أن يتشبث بعبيده، ولكن الجنود سطوا على قصره وأقصوهم عنه كرهاً. منذ ذلك الحين صار العبيد يأتون إلى مدينة جنات للخدمة في إشراقه الصباح، ويرجعون إلى مدينتهم إذا جن الليل.. وأمسى على بوابتها حراساً من السبئيين يغلقونها وقت الغروب ويفتحونها أول الصباح.

\* \* \*

كانت اللقاءات السرية بين السادن شيزار وكرب والتاجر فالوس لا تنتهي في المعبد. وفي كل لقاء يتفق الثلاثة على أن الملك شام عقبة كؤود يجب أن تزول. ولكن كيف؟ ووصل السادن شيزار إلى رأي قاطع في اللقاء الأخير.. الدائرة المقدسة التي يحملها الملك شام على كتفه لم تعد محصنة بالدعوات. لأنه مارق من تشريع المقة.

كان كرب والسادن شيزار مجتمعين في إحدى زوايا المعبد، مر شطر كبير من الليل دون أن يأتي فالوس الروماني. إنه دائماً يتأخر عن الميعاد المتفق عليه. ولكنها يلقيان له العذر الكافي لتأخره بسبب الرقابة المشددة التي فرضت عليه من قبل الأقبال أعضاء مجلس حكم سبأ. وكلما يتسا من حضوره يفاجئها بمجيئه متكرراً بزي عجيب. كان روح المعبد مهتاجاً للغاية ويوشك على الصراخ والعيول ثم لا يلبث أن يتمسح بحجر الآلهة ويذرف الدموع الغزيرة. ويقول لكرب لائهاً:

- أخوك تمادى مع الرهط الذين في مجلسه لقد سلبوني كل اختصاصاتي وأتوا بتشريع شيطاني يمنع عن المعبد القرايين

والندور والذبائح المأخوذة من الأهالي بأمر الآلهة..

اقشعر بدن كرب ورد بتأثر:

- إنه آخر لقاء، ولازلت تأبى فكرة موته. لن تفيق يا روح

المعبد حتى يأمر بهدم المعبد فوق رأسك.

صاح السادن جائراً نحو الأعلى:

-إنها هناك في الأعلى تضيء، وتتطلع إلى ما يدور في

سبأ. وسوف تحكم بالموت ضد من يؤذي روحها ومعبدها.

جثم روح المعبد حيثئذ على الأرض، وارتعدت فرائصه،  
وغشاه دوار مفاجئ. والقى على نفسه بضع جمل بلغة مجهولة ثم

استقام وقد شعت عيناه ببريق خيف وقال برهبة:

- الآن رفعت (المقة) حمايتها عند الدائرة المقدسة وجاء الوقت

المعلوم للنيل منها.

ووصل فالوس الروماني للتو، كأنها أيدت (المقة) روحها

شيزار بمجيئة السريع وسرعان ما أفتى السادن بضرورة القضاء

على الملك شام وتقويض سلطة الأقيال الشباب أعضاء مجلس

الحكم، ورجع كرب إلى قصره وهو في منتهى السعادة. لأن هذا

الإتفاق يعني أنه قاب قوسين أو أدنى من عرش سبأ. والمفاجأة

السعيدة الأخرى أتت في آخر أيام الأسبوع مع كاتب القصر..

منذ ذلك اليوم صار كرب قائد جيوش سبأ، ولم يكن الملك

شام يأمن جانبه، فوضع له من يرصد حركاته وسكناته. وقد

نبهه الأقيال إلى ذلك، ونصحوه أن يحترس منه على نفسه.

بعد شهر اقترن كرب بابنة أحد أقيال سبأ وتدعى هاميرا،

وكان قد اقترن قبل ثلاثة أعوام ولكنه لم يرزق بذكر أو أنثى.

وزادت رغبته إلحاحاً بأن ينجب ولداً يستخلفه من بعده، حيث

ما زال مزماً أن يزيح أخاه عن الحكم ليحل مكانه، ورأى الملك شام شقيقه كرب عريساً، ففكر هو الآخر بالزواج، لا سيما بعد أن انقضت مشاغله ودبَّ الهدوء في أرجاء المملكة. عرض فكرته تلك على السادن شيزار، وقد ظن أن مشورته لا غنى عنها في هذا الجانب أما ما عدا ذلك فإنه لم يعد يشق بمشورته وألح على أن تكون قرينته فتاة سبئية فريدة الجمال، لا تشبهها فتاة أخرى في سبأ، ليس ضرورياً أن تكون قبيلة ذات حسب ونسب، وقال: لست ناقص شرف وسيادة حتى ألث وراء بنات الملوك أو الأقيال، فالذي أنشده يا روح المعبد هو فتاة نقيبة صدوقة تحفظني في غيبي وحضوري، وتعلم ما أهفو إليه في السر أو العلن، وان لم أهمس لها تستشف نواياي. إنها فتاة تشبه تنرا الصرواحية. أه يا روح المعبد كم أنا تعيس ببعدها ولو علمت بمكانها لما فكرت في الزواج بغيرها .

بالفعل كان الملك شام قد يئس من العثور عليها وشقيقها خوف، فمئذ مقتل والدهما طاهم وهما في مكان مجهول، ولا زال البحث عنهما دؤوباً ووصية الملك شراح لازالت لاصقة على جدار مجلس حكم صرواح. فكر السادن شيزار بعمق، وأخيراً اهتدى إلى فكرة طريفة يحشوها الخبث، حيث نصح الملك أن يتربص بالفتيات اللواتي ينزلن للنزهة أو لجني الثمار في الجنان المنبسطة على عرض وطول أرض جنات. وحدد له ميقاتاً مليحاً في آخر الأسبوع ليخرج من أجل انتقاء فتاة حسناء تعجبه وتملاً عينيه بجهاها. أخذ الملك شام برأي السادن وأزمع على النزول إلى الجنتين منفرداً في الموعد المقرر. وبطريقة ما تسرب الخبر إلى الأقيال، ثم انتقل إلى أهل سبأ فأوعز الأقيال لبناتهم وشقيقاتهم

من هن في سن الزواج بالخروج إلى الجنتين، أملين مصاهرة الملك. خرجت فتيات العامة من أهالي مدينة جنات، وأخذن يمين أنفسهن بالاقتران بالملك شام، وقد علمن أنه لا يميز بين طبقات سبأ، ولا يكثر في أن تكون قرينته بالضرورة قبيلة، وعرفن آنفاً من ألسن الناس أن الملك شام أعدل ملوك سبأ، وأن الدائرة المقدسة المتربعة على كتفه هي الدائرة العادلة، ورغم أن أمل الزواج به ضئيل، لكنهن أردن أن يحظين برؤيته، أو على الأقل يعرفن من يقع عليها اختياره لتكون قرينته. دب الفضول في أوساط الفتيات، وصرن يتحدثن عنه بشفافية، وكل فتاة تنسج له في مخيلتها صورة مغايرة عن تلك التي نسجت لها فتاة أخرى. لكن دالي شقيقة القيل كوهار أفضت للفتيات سياته الحقيقية، لأن قصر أخيها كوهار جوار قصر الملك شام، وقد رأته مراراً كثيرة، لذلك قالت لزمره من الفتيات بثقة: الملك شام شاب طويل القامة، جميل الطلعة، لا تمل العين من النظر إلى وجهه .

عبرن إلى الجنتين من طرق شتى، وانتشرن بين المزارع كالنحل الكثيف الباحث عن الرحيق.. أو ذاك المتكوم فوق أقراص العسل.. وكن قد شرعن يرتدن الأسواق والمزارع ويؤدين الصلاة في المعبد، ويمارسن العمل جنباً إلى جنب مع الرجال. لكن فتيات العائلات الكبيرة المترفة لا سيما القبيلات ألفن العزلة جوف القصور. وفي أحسن الأحوال يتزاورن عند حلول الأعياد والأعراس الكبيرة. أما ما عدا ذلك فلا شأن لهن به. ونادراً يقمن بنزهات خاطفة في مجموعات صغيرة يعرضن لبوسهن وزينتتهن، ويعدن سريعاً متوهماً بأن قلوب أبناء

وبنات العامة قد انشقت من الغيرة.

خرج الملك شام في أصيل يوم الموعد ممتطياً حصانه .راح يمشى الهوينا في الطريق المنحدرة إلى الوادي ، ولما أشرف عليه ترجل عن حصانه ونزل على مهل، وأمسك مقوده وعقله على فرع قوي في شجرة مثمرة. ففر الملك شام فاه مندهشاً حين رأى آلاف الفتيات المتزينات بأنفس الحلل والمصاغ، وفوح الطيب ينفح من ثيابهن الفضفاضة، البعض منهن يجنين الثمر، والأخريات - وهن الأكثر - يتفسحن بين تلك المزارع، ومازال هناك سرب طويل من الفتيات قادم من المدينة .

سُرَّ الملك شام حال رؤيته للكثيرات من فتيات عامة سبياً، إذ كن سافرات الوجوه يخاتلنه النظر بخفر، ثم لا يجروُن على محادثته أو الاقتراب منه، راح يتأمل إلى وجوه المئات، وكل برهة تفد إلى المزارع أفواج أخرى . فهمس في انشدها:

" كأنهن يعلمن سر الفسحة، وعلى ما يبدو أن السادن شيزار قد أفشى الخبر، لا أدري لماذا!! وأحسبني سأتوه بين الفتيات أو ألقى مصرعي فوق صدورهن البضة .."

ثم ذهب إلى فتيات العامة، فصار لا يكلم إحداهن إلا وردت عليه باقتضاب. وطفق يجول بين الأشجار في عجلة، وكلما رأى فتاة حسناء يقف ليحادثها قليلاً ثم يمضي إلى أخرى. لكن شكل القيلات أثار تشاؤمه، حيث بوغت بقراءة مائة قليلة ذوات أردية تكشف ما تحتها في أماكن شتى من أجسادهن، ليس هذا وحسب، بل بلغت بهن الجرأة - علاوة عن الغنج والقهقهة بلا سبب - إلى التحرش به . وقد ارتبك حين أطبقن عليه وحشرنه وسط دائرة عابقة يعرف اللبان والطيب.. فبدأ حائراً

مجنوناً يتهدى في مشيته كطفل متخلف عقلياً..

لم يجد مخرجاً من حصار القبلات، حتى الدائرة المقدسة ذات  
المهابة العارمة لم تعرها القبلات اهتماماً حين انحسرت كدينار  
ذهبي مبهر.. لم يكن الغضب الذي أبداه متأخراً بأحسن من  
اللطف والتوسل المعسولين اللذين طارا ككففاعات  
الصابون.. ولعله صمم بلا هوادة أن يدرأ عن نفسه الوجوه  
والأعضاء الرخوة المتدافعة نحوه بتهافت، لكنه أعياى وخار  
واختبل تماماً.. غير أنه دون شك استلهم أنه ما كان ليستسلم لو  
حوصر برجال، ولقد نسي السيف الذي يتتضيه في جانبه الأيسر،  
ولما تذكر أمره آخر المطاف لم تطاوعه أنامله الحاملة أن تمتد إليه  
.. أحس بانتشاء ونعومة وعرق ساخن يغمره، ثم بهزات جامحة  
لذيذة استحال بعد أن طال بها المطال إلى ألم لا يحتمل. حدس  
إن الشفاء قد مرت على كل موضع فيه، ولولا أنه أغمض عينيه  
لانفقتاً، ومع هذه العشوائية وذلك التخبط واللهف إلا أن  
العدالة بين القبلات جرت مجراها، فكن يتبادلن جسده بحسب  
تسلسل حروف المسند في أسمائهن، وباستثناء القبلة دالي والقبيلة  
روزو اللتان احتالتا على القبلات، ولم تتزحزحا عنه رغم غضب  
وشكوى مخرومات الأذان.. ذلك أن القبلة المسماة دالي الناشزة  
عن النظام هي أخت القيل كوهار، وتمتاز بين القبلات بنحوها  
وشبقها الحاد وهذا ليس خافياً عن عذراوات سبأ، وما أيدها  
أيضاً وجعلها تبدو معذورة أنها وجدت ضالتها في عضو بارز  
جاسر من أكبر الأعضاء، فما كان منها إلا أن تشبث به متمنية  
أن ينحت لحم وسطها ألف عام وعام..

قالت بصرارة وهي تشير إليه وتعايشه بأناملها الرطبة:



هل كنت أذنبت حينما أخرجته من مكمنه وجعلته ينتصب؟  
هكذا احتجت دالي على دعاوى القيلات، وبدت كمن يدافع  
عن حق مشروع. أما المحظوظة الأخرى التي نازعتها شرف  
العبث به فهي روزو ابنة السادن "ميفع" التي ما لبثت أن  
انتصرت، ولكن في آخر المطاف، بعد أن كلت شفتا دالي من  
تقبيله.. ودأبت حرارة أجسادهن وأنفاسهن تدغدغه وتلاحقه  
عن كئيب، حتى كاد يقضى عليه قائماً.. ظل مكتفياً بأذرع ثلاث  
قيلات سمينات لكي لا يبدي أية مقاومة.. وفوجئ بقيلة من  
تينك المسكات به تنهار، ويرتخي ذراعها حين جس بأنامله  
وسطها المنتفخ دون قصد، وحينذاك راح يتحسس أفخاذ  
القيلات الأخرى، فارتخت أذرعهن وتداعين على الأرض  
فاغرات الأشداق، وتمكن ساعتها من انتزاع عضوه الذائب من  
كف روز، وطواه تحت ثيابه، ونجح في المروق من بين القيلات،  
ثم فرّ بين الأشجار كالأرنب المطارد، وهو يعرف أن روز  
ستحرض عليه دعوات أبيها القاصمة، وعند أول مزرعة ركب  
حصانه ورجع إلى قصره.

كم كان ضاعناً على روح المعبد. لأنه مبتكر هذه الفكرة الخبيثة  
التي أحالته إلى دمية عبثت بها أيادي القيلات، وليس لديه ريب  
في أن السادن شيزار سيظل ينصب له المصائد تباعاً، ولكنه لا  
يحتس على نفسه، ولا زال على براءته الأولى كالطفل، ورغم أنه  
يؤمن بوجود الأحقاد، ويعترف بدسائس الأعداء، بيد أن  
ابتسامه واحدة تجعله ينسى كل شيء بمجرد أن ترتسم على ثغر  
عدوه.. ولكن في هذه الحالة انتوى على خطوة حاسمة، ولأجل  
هذا اجتمع لتوه بالأقوال الشباب أعضاء مجلس الحكم.. وعرض

عليهم ما حدث وفوضهم اتخاذ إجراء حاسم.. وبعد مشاورة طويلة أجمعوا على إقالة السادن شيزار من مجلس الحكم، لينضم إلى معلمي دروس القراءة والكتابة في المعبد، ولا سيما بعد انسلاك المثات من أبناء العامة في حلقات الحكماء الدائرية المضروبة بمحيط المعبد، وهو نفس المكان الذي كانت تسفك عليه أرواح البهائم، والمارقين عن تشريع الآلهة.. وكان تعليم الصغار من أوائل بنود الوثيقة الجديدة التي صاغها الأقيال الشباب خلال أول سنة اختيروا فيها..

وأقيل السادن شيزار عن مجلس الحكم.. ورغم كثرة المقالب التي دبرها للملك شام ولحاشيته من الأقيال الشباب، إلا أن هذا القلب هو الفريد من نوعه من حيث المغزى والخطر، كان مع خفته رسالة ذكية قصد من ورائها أن يحس الملك شام بألم الإهانة التي تلقاها في المزارع، فيعلم أن مرونته في الحكم وجرعة الحرية التي تناولها السبثيون على يده، والعدل، وكل هذه الأفكار التي لم يسمعوها من قبل، قد أماتت هيبة الدائرة المقدسة، وأحيت بالمقابل روح القنوط واللاخوف في هياكل العامة، وهي التي عطلت العادات والتقاليد الموروثة، وقضت على مهابة المعبد، فالتهى الناس بالتجارة والمزارع والحرف اليدوية المتنوعة والأسواق.. حتى إن أتوا الصلوات قصيرة حُدد ميقاتها في الماضي البعيد، لم يعودوا يرجفون هلعاً أو يتحبسون عند حجر الآلهة، صار معلوماً للجميع أن بيت السادن قد خوي من البهائم السمان الخالصة البياض حسب خيرته، ونفذت ما لديه من الأموال المخزونة التي كان يسميها قرايين الغفران..

كان قصر جنات مفتوحاً لكل ذي رأي ومشورة والجلسات

المعقودة تخوض في أحوال الناس، وهم ممزوجون بالأقوال دون  
كلفة تذكر، صار المجلس مسرى لمن هب ودب، وجدرانه  
المكسية بالفيسفساء والطيلسان المنضد تشن عرقاً بسبب الزحام،  
ولا ضجيج مع هذا ولا تدافع. كان كل شيء يجري بخفوت  
وتناوب.. تنظمهم حراس مليحو الطلعات لا ينتضون سيقاً ولا  
أسواطاً. وإنما يلتقون الناس بوجوههم السمحة المتسمة، ويأذنون  
لهم بالكلام إلى الملك والأقوال في مواقيتهم المعينة.. وقد يأتي هذا  
ليشكو ظلماً، وذاك لكي يفيد برأي أو فكرة.. ولكن البعض تنفطر  
أقدامهم في البراري ليقفوا أمام الملك شام وحاشيته.. فما سمعوه  
أنه لا يتزين بالتاج، ولا يحمل بيده كرباج جدّه البرونزي.. لكنه  
مطوي بثياب عادية ويربط حول خاصرته حزاماً جليدياً يضم  
سيفه وسهامه.. وأصحابه الأقوال مثله في المظهر.

وصار يقدم مجنون زقاق الهدهاد، ضاجاً بكلماته المخيفة، والتي  
أصبحت لا تشكل عبئاً مثقلاً على مسامع أهالي مدينة جنات.  
فقد سئموها كثيراً.. فيدخل القصر بحرية تامة، لا يعيق حركته  
أحد، مثله مثل باقي الأنام الذين يتاح لهم الولوج إلى عمق  
القصر بلا قيود أو تمييز.. يجيء يسبقه إلى مجلس الحكم صوته  
الممطوط الهادر.. أصبح مألوفاً ألا ينقطع مذدعي ليستعيد  
أملاكه بعد أن استرجعت من ملكية المعبد والقصر.. صار  
المجلس ضمن مسار طوافه اليومي في نواحي المدينة، يجلس  
هنيهة لا تذاً بالصمت، ناكساً رأسه المنكوش المتلبد بالأوساخ  
ونثار الأشجار اليابسة، يتأمل مشطي قدميه المتفطرتين. وملاحه  
بمحملها مضروبة بالوحشة والإبهار.. وعيناه المنموشتين  
صارتا تهتران وحدهما كأنما أفلتت منها الأعصاب.. ولحيتة قد

أشبعته وجهه المطحون إفزاعاً، وعكست في هيئته المهذمة صورة الأغوال رغم ما في بؤبؤيه من أنس.. كان الأطفال يجذفون عليه الجص المذاب وبقايا الطعام من أعالي المنازل وهو ماض بين الأزقة، فلا يرتدع عن الصراخ، ويظل جالساً على مقعد خصص له في المجلس هنيهة، ولكنه يمرق خارجاً إذا فوض بشأن استعادة ممتلكاته، ويدع وراءه صدى ألفاظه الخارقة كأنها لسان حاله يقول أن لا جدوى لهذه المساومة.. ويتخدر الملك شام بالحزن وكذا الأقيال الشباب.. يعجبون أشد العجب.. كيف يأبى قبول أمواله الجزيلة! هل ذلك لأنه مجنون؟ أم ماذا؟.. حقاً إنه ليسدو في الظاهر الخارجي معدم العقل، لا يحس بذاته أو بأي شيء من حوله.. ولكن المتمعن إلى نظرات عينيه التي تتساقط كالأسواط يلقي ألقاً وئيداً في غاية الغموض، وحين يسارع بالبحث عنه تتوالد فيه آفاق أخرى تتشابك ببعضها حتى تعميه عن أطرافها.. ومتى فكر الملك شام بهذا لا يبرحه إلا إذا ألم برأسه الصداع..

في تلك الفترة سطرت وثائق أكثر صرامة، حتى الملك شام ذي الدائرة المقدسة والسادن شيزار ممثل الآلهة في الأرض لم يستثنيا في هذا النظام المقنن.. ولقد سبق أن خاب رجاء روح المعبد في إقصاء نفسه عن طائفة هذه الوثائق المتكررة، حتى أوشك أن يضرم النار في نفسه، ولكن الملك شام والأقيال الشباب أعضاء هيئة الحكم لم يبالوا بتهديده، فلجأ إلى حيله الملتوية، وحرّض الأهالي على الملك والأقيال الشباب، وساعده كرب سرّاً، إلى أن قاد حشوداً هائلة من السبئيين إلى باحة قصر جنات يطالبون الملك شام وهيئته الحاكمة بإعادة وثائق المعبد إلى ما كانت عليه،

أو التنحي عن الحكم، واستطاع الملك شام أن يمتص غضب الناس بكلام لئِن طالباً مهلة شهر ليفكر في هذا الشأن، وحينذاك تفرقوا عن القصر..

خرج الملك والأقيال الأصليون والأقيال أبناء العامة المنتخبون إلى رحلة صيد بعيدة للتسرية على أنفسهم، والتفكير على مهل في الهواء الطلق بما يجب أن يكون، كان الملك شام ساهماً مكلوم القلب بسبب انسياب الناس وراء السادن، ومعاضدتهم له، ولوثائقه المعتمدة بالدم وبالأموال المنهوبة بدعوى إيعاز الآلهة، لكن الوثائق المتكررة مع غرابتها وقشابتها ترفق بهم وبمن يعولون وتجفف دموعهم الذارفة، وتعفيهم من الخنوع لأي كائن كان، وتصون لهم حقوقهم في الحياة والمات وكانوا قد فضلوا التنحي عن الحكم، على ألا يرغمون على وثائق بالية يعافونها حد الغثيان. وبُعيد عودتهم رأوا أثناء مرورهم بالمعبد ثلاثة رؤوس مجزوزة طرية، كانت قد جُزّت لتوها بدليل أن الجثث معلقة على أعمدة المعبد، والدم لا زال يسح خطوطاً حمراء قانية على حجر الآلهة الأسطواني الذي تفوح منه روائح الذبائح القديمة المغثية.. استغل الملك شام هذا المرأى البشع، وحشد أهالي سبأ عند المعبد، وأشار إلى تلك الجثث المشدودة بالحبال سائلاً عن أهاليهم، فبرز ذووهم ينشجون بيبكاء مُر. ما لبث أن صاح والمنادون يرددون قوله بصوت مرتفع:

- سيدعي السادن شيزار أن هؤلاء إنما خالفوا المقعة، وأنها أمرت بجزر رؤوسهم لتظهرهم من جرم اقترفوه، ولكن دائرتي المقدسة التي أحملها تبراً مما عمل روح المعبد، وهأنذا يا معشر سبأ أكِلْ إليكم سماع شهادة ذوي المذبوحين ...

كان السادن قد استقام كتمثال بباب المعبد، وهو يدرك كل الإدراك أن سيف الآلهة مُصَلَّتْ على رؤوس الملك والأقيال الشباب مهما فعلوا لاقناع الناس ببطلان تشريعهم، وليس بصميمه ذرة شك واحدة في أن هناك من سيجسر أن يشهد ضده، فهم ينشدون رضاه بأغرب الوسائل على العقل، ويبدلون كل ما يملكون لأجل أن يمن عليهم بالابتهاالات المباركة، ويكفي لينكبون على حذائه الملبد بدماء الذبائح والخاطئين أن يهدد برفع يديه إلى المقة، أو أن يُلبس وجهه حلة من الاستياء، ولا زال أكثرهم يؤمن أنه ليس أشفى للمغص من رشفة من بوله يفتق بها ريقه صباحاً، ثم تتلوها جلسات أليمة للكي على متنه بصنارات توقد طويلاً بالنار، وما أبهج نفس المخطئ إذا حظي بفتات من فضلاته ينشقها قبل أن يتظهر بالسيف، ولهذا أقمى يتأملهم بملامح ناشفة باردة وقد بدوا يرعشون مظهرين الجلد والتناسك، مختلسين إليه نظرات ساهمة، لا تلبث أن تنعكس بانكسار وذل لتصلب في رؤوس أطفال متفاوتي الأعمار يتوارون وراء بعضهم هلعاً، ويبكون، ويهدئ من روعهم ثلاثة رجال متشابهو القسمات لا يتم الإدراك أيهم أكبر من الآخر.. وهؤلاء ذوي المذبوحين من عائلة ثرية ومالكة وكانوا ستة أخوة من أب وأم ورثوا عن عائلهم ثروة دسمة، ومما استملكوه مزرعة قريبة للمعبد كانت من نصيب المذبوحين، ولكن السادن شيزار اشتهاها أن تكون من مفاسح المعبد وملحقاته وكان قد عيق بالوثائق الجديدة التي صرمت كل دواعي أخذ مال الغير أيضاً كانت.. ولكنه استولى عليها أثناء غياب الملك والأقيال وأمر بذبح أربابها. وفي اللحظة التي كان بها

الصمت يرين، وذوو المذبوحين مطرقين لا ينسون بكلمة، حلّ بالقوم العياء والسأم واحترج موقف الملك شام والأقيال الشباب وأدركوا ما يتوسوس في أذهان أولئك الإخوة من شجن، وما ينهبهم من خوف أدعية السادن وانتقامه ولعل ابتسامته الهازئة التي يجهد أن تبين وقورة تमित ألسنتهم وقلوبهم، في تلك الوهلة تعالت أصوات الأقيال يحثونهم على النطق، ولكن صوت القيل هاري طغى، وأحدث في نفس أبيه المأ وغيظاً ولكنه كغيره خاب وكان قد صاح فيهم بنبراته المميزة:

- اشهدوا ويلكم.... إنه أبي وأنا خارج على قوانينه الظالمة، ولم تعد الآلهة تتلقى دعواته.

صار السادن يتقمص شخص الحليم صاحب الحق، والباكي المجروح، أو لعله كذلك، ويرفع أنامل راعشة إلى الأعلى ويرطن بكلمات ومقاطع جهل من دعاء النقمة، ثم يتمسح بعتبة باب المعبد الحجرية المشوقة، ويطالع وجه ابنه بشزرات لم تخل من حنان صادق وهذا في حد ذاته فعل أبوي نقى ليس مقروناً بخوف أو رياء، وطالما لجأ إليه مستلطفاً ليتنحى عن زمرة الملك وينسلك معه لينجو من عذاب المقة، ولكنه استنكف وأعرض.. ومع هذا لا يمر يوم واحد دون أن يسأل الآلهة أن تردّه إلى الصواب، وأن تديح عن كاهله الأوزار.. بينما يُصاعد الدعاء اللاهب لبياد رفاق الملك الآخرون.. ويظن كل الظن أن هاري سيفيء ذات يوم قريب. لأنه وحيد ونتاج تلاقح طاهر لا يشوبه أي ريب. وما هذا إلا امتحان عابر سينتهي، وإلا هل يعقل أن تدع المقة معبداً بلا روح!؟ ومن يقيم الطقوس المقدسة لو مات!!؟

كانت الحشود من أهالي سبأ قد استسلموا للضجر، وباتوا

يتطلعون أن تقام الحجمة ضد الملك والأقيال، بل بدأوا يستعجلونها مجتمعين على استبدال أعضاء هيئة الحكم الحاليين بآخرين، واستعادة القوانين القديمة، وأما المنادي الذي جيء به ليرفع صوت عقيرته بالشهادة ليسمعها الناس، فقد شرع بالتشاؤب، وراح يتدبر غفلة لينصرف.. ويات الملك شام وأصحابه في كدر وبؤس. فجأة أفلت صبي من أولئك الصبية المحتلقين بذوي المذبوحين، وقد بدا أنه جاهد ملياً حتى أفلح في التملص من قبضتهم، وراح يصيح وينشج بانفجار مفاجئ وهو يرمق جثمان أبيه الخالي من رأسه:

- الويل لمن ذبحوك يا أبي.. رأيت عبيد المعبد يساومونك على التخلي عن المزرعة ثم يجررونك خارج المنزل ناحية المعبد و...

تبعه أحد أعمامه وأغلق فاه براحتة وهو ينهره ويشتمه، ولكن نفرأ من الأقيال ومعهم الملك شام منعوا الرجل من إيذاته وأرغموه أن يعود إلى أدراجه.. وهتف المنادي مردداً قول الصبي بصوت جموح، فتهللت وجوه الأقيال، وصعق عامة السبثيين وصاروا في همس وثرثرة.. فيما أربد وجه السادن شيزار كأنما علاه السخام، ولكنه قال بصوت مربوك بعد أن هدأ اللغظ:

- إنه صبي دون العاشرة، ولقد أفلت من زمام أهله كما أفلت هاري من زمامي.

صاح هاري بصوت رجراج:

- بات الأمر جلياً وقد أخطأ روح المعبد، وسنلجأ إلى تموين

عقوبته و..

قاطعه الملك شام بصرامة:

- وشرف المقة إن العقوبة ستم يا هاري ...



افحمت الدهشة أفواه الأقيال برهة من الزمن حتى نفخ هاري  
بغضب ورد:

-ماذا ترى أنه سيحدث لو عرف الأهالي بالجزاء؟  
دار الملك شام نحو الحشود وحدث المنادي بنظرة فهم الأخير  
معناها ثم صاح:

- جزاؤه الموت يا معشر سبأ، أن يذبح قصاصاً، ويحل محله  
ابنه هاري ..

وعندما وصل النداء الناس شلت أوصالهم ويقوا الحظاظ ساكنين  
سكون الموتى كأنهم لم يصدقوا ما سمعوا، ولكنهم رأوا الجند تمسك  
بالسادن، وقد ابتدأ السيف يتطلع بشهية، ويتفقد سيفه برمقات  
مختلصة متوعدة، ويتحرك كآلة، لا يهيمه من تكون ضحيته.

كلح وجه السادن شيزار وبدا حاجباه الأشيبان مقطبان  
وموتوران، لم يلبث أن وقع بين أيدي الجنود منهاراً عاجزاً عن  
إبداء الاستياء. ثارت الجموع وماجت وتدافعت لتفتدي روح  
المعبد وتخلصه مما يترصص به، فهرب الجند تاركينه لهم وتحاموهم  
بالملك والأقيال، ولولا انكشفت الدائرة المقدسة قبل فوات  
الأوان لهلكوا جميعاً في لحظة غضب عارم. حتى ذوي المذبوحين  
أعلنوا تنازلهم عن حقهم، وعلاوة على ذلك أكدوا استعدادهم  
لعقد وثيقة التنازل تلك البرهة.. فما كان من الملك إلا  
التسليم.. وبعدما خف التوتر وسكنت النفوس اتفقوا على نقل  
مصطبة الدم إلى مجلس الحكم ليتم الإشراف عليها عن كئيب،  
واقصاء السادن عن المجلس ليقوم على الصلوات وتعليم  
الصغار فحسب.

وتفرق الناس راضين، ونعمت أرض جنات بالهدوء بضعة  
شهور.

## (٧)

في إحدى رحلات الصيد تاه الملك شام في الصحراء، بفعل  
تماديه بمطاردة مجموعة من الأيل والظباء البرية، وظل يجوب  
بحصانه في بقعة مقفرة حائراً نائهاً عن الطريق التي ستعيده إلى  
أرض جنات.. راح يهتدي بالنجوم حتى أشرق عليه الصباح  
عندها نظر إلى الشمس، وأخذ يستجمع ما لديه من فراسة  
ليحدد وجهته، وتردد بين أن يسلك شمالاً أم غرباً، وهاتان  
الجهتين اللتين حدس أن تؤديا به إلى مدينة جنات. لكنه بعد تأمل  
جاد اتجه في طريق الغرب، واشتد به الجوع والعطش وأنهكه  
السهر، فأخذ يلهب حصانه بالسوط كي يعدو به إلى مكان غني  
بالحياة مأهول بالسكان. عند حلول الظهيرة تجلت له ملاجئ  
بعيدة عند منعطف في الصحراء. وكان أرباب القوافل التجارية  
يتخذونها ملاذاً عند اشتداد الهجير، ومضجعاً في الليل. عند  
ذلك تملكه الفرح وخف إليها آملاً أن يجد بها ما يقتات به ويروى  
ظمأه.. وهناك وجد حوانيت صغيرة متلاصقة، وثمة إبل مناخة  
قربها وجياد تمحمم وتمز أذناها وتلحق العليق بشهية. سهل  
جواده ووثب على قدور العليق بشدة، ولم يستطع أن يكبح  
جماحه، فاجفلت تلك الجياد، وراحت تزجر بغيظ. بعد برهة رفع  
الجواد رأسه يائساً، حيث أن العليق قد نفذ، ولم يعد بالقدور  
سوى رواسب قديمة لا تجدي.

في تلك الأثناء ظهر عدد من التجار صارخين، وجعل ما يقدر بعشرين عبداً يللمون شعث الجياد. وتكلم عن التجار رجل متجعد الرأس، طويل الذقن، لا أثر للوقار على وجهه الملتحي بلحية كثة تسكنها القمل وتلوح بأعلاها بياض الصبآن. قال بلهجة حادة مخاطباً الملك:

-أيها المتعجرف، كيف تهجم على القافلة، وتوقظنا ونحن غارقون في السبات؟

-المعذرة يا قوم. لقد أفلتت مني الحصان كرهاً حين رأى العليق، فأنا أسير به في الصحراء مذ يومين، ولم أبتلع طعاماً أو أشرب ماءً حتى الآن..

أبرز أحد التجار أسنانه المتسوسة قائلاً بفظاظة:

-ما لدينا من الطعام شيء يسير، والطريق إلى ذي الجامش طويلة، فكفّ عن السؤال أيها الرجل الملحاح، وهاهي صرواح أمامك تزود منها بالطعام والشراب.

-أطعمني يا هذا قطعة خبز، وامنحني جرعة ماء لأتجلد على السير، وإن زدت على ذلك رطلاً من العليق، أقطعك حمية صرواح وأعطيتك وزنك ذهباً.

تضاحك التجار بشدة، وانبرى ذلك التاجر الملتحي قائلاً بسخرية:

-على رسلك أيها الشاب التائه، لقد دفعك جوعك إلى الهديان، وحسبت نفسك ملك سباً لتظفر بالطعام أيها المخادع..  
-اللعة عليكم. أنا ملك سباً حقاً، ولولم أكن ملكاً. أتبخلون عن إطعام رجل واحد؟

قهقه التجار ثانية، وأخرج أحدهم من جرابه كسرة صغيرة لا

تسد أمعاء طفل، وقذفها إليه قائلاً:

- خذ هذه لك ولحصانك، وادخر منها قوت عشرة

أيام قادمة..

- أتسخرون مني؟ لا حاجة لي بطعامكم الآن، ولو أغدقتموه

عليّ..

قال الملك شام عبارته بصوت مختنق، ثم رمى كسرة الخبز ولعابه يسيل عليها نهياً، فسلوا سيوفهم وتحفزوا للهجوم عليه. وقد أهاجهم قوله. فابتعد عنهم وسار متتبعا آثار خطوهم حتى داهمه المساء.. ويات ليلته في العراء إلى أن بزغ الفجر ثم قام وواصل سيره في وضح الصباح يكاد جسده يكتوي من حرارة الأرض والتراب، ولاحت أمامه قناة مائية مناسبة على طريق طويل تحف بها الأشجار من كل جانب، فمشى بمحاذاة القناة يداخله أمل بالنجاة، وقال لنفسه: "القناة تقودني إلى الماء والعيب الوحيد فيها أنها مسقوفة".

بعد سويعات قلائل، ظهر الوهن على الجواد، وصارت خطواته تتباطأ وقوائمه ترتعش، حتى تعثر قرب إحدى الأشجار، وترنح دون حراك.. حاول الملك شام أن يدفعه إلى الأمام ولكنه أخفق في ذلك.. حينها نزل من متنه، وتركه هناك وهو يشعر بالحزن.. وظل يجد في الخطو حتى وصل إلى نهاية القناة...

وجدها تصب في بحيرة صغيرة تشبه المسبح الكبير لكنها محاطة بسور رافع، وعدد من أشجار السرو والساج وثمة جيات سارحة قربها، والأشجار التي تحف به تضيء على المكان جمالاً خلاباً ورونقاً طبيعياً يثير في النفس الانشراح... تسلق الملك شام

السور بخفة، وقفز إلى أرضية البحيرة التي تلي السور من الداخل، واندفع كالقدر المستعجل إلى الماء... لم يعبأ بالجواري الأبيكار العاريات اللواتي كن يغتسلن جوف البحيرة، كانت صدورهن كألواح الفضة ناصعة، وحباب الماء يركب نهودهن البيضاوية المكتنزة. والحلقات الحمراء المتلائة تبدو ملتهبية في وهج الظهيرة وطافحة بالإغواء، لكنه اقتحم البحيرة حتى ركبتيه وانكب على سطح الماء، وعبَّ منه حتى ارتوى، بعدها تأوه بارتياح، وقد عاد إلى روحه بعض الحياة. ثم خرج من البحيرة، فوجد الفتيات قد ارتدين ثيابهن وينظرن إليه بذهول، تتوسطهن فتاة جميلة، تشبه عينيها عيني ذلك الظبي الذي طارده وتاه بفعله في الصحراء. ابتسم بفتور حين لاحظ ذلك الشبه العجيب.. وتطلعن إليه بشيء من الخيفة، فقال بصوت ركيك رانياً إلى تلك الفتاة باستماتة:

- هل لديكن طعام أقتاته، فلي ثلاثة أيام أتخبط في الصحراء بلا طعام وشراب؟

نادت الفتاة بصوت رقيق مخاطبة إحدى جورايبها:

- يا بربرة. اجلبي لهذا الشاب الغريب الخبز والثريد الذي جئنا به من المدينة..

سارت الجارية وأحضرت مائدة صغيرة عليها فخذ خروف مشوي، وبعض الخبز وإناء مملوء بشراب زبيب منقح. ووضعتها أمامه، فأخذ يأكل بنهم حتى اكتفى، وهن يرمقنه مبتسمات، وقد شفقن من حديثه الأمان والطمأنينة ورحن يحدقن في ملامحه التي انتعشت، وصارت تصفو كاشفة عن ملاحظته التي أذهبها الجوع والعطش ووعث السفر. رمق تلك الفتاة بامتنان، وقال بنبرات

حادثة:

- أشكرك أيتها الفتاة الكريمة. أنا مدين لك بحياتي، وسوف تجدين مني ما يسرك .

ابتسمت الفتاة مستغنية عن الجواب، فعاد ليضيف متسائلاً  
باهتمام:

- من أنت أيتها الفتاة؟ وهل هذه محمية صرواح؟

ردت الفتاة بضيق:

- عجباً منك أيها الشاب، تسألني بفضول وكأنك معتاد عليّ،  
وواثق من حسن ردي عليك .

- لم تجيبي عليّ بعد، وما دفعني إلى الجرأة في محادثتك هو لطفك  
وكرمك .

لاحت البهجة على وجهها الذي احمرّ، وبدت عليه مسحة  
عذبة من الحياء، وتولت الرد عليه جارية قالت:

- أنت في صرواح، وهذه سيدتي القيلة ونحن جواريتها ..

أخرج من وسطه صرة صغيرة، وقذفها إلى الجارية متوسماً  
قبولها، فقالت الحسناء بأنفة:

- خذ مالك أيها الغريب. لأنك أعوز به، فلسنا من  
ذوي الفاقة .

- لست ممن يستردون العطاء وتلك عطيتي للجواري، ومتى  
دلفت إلى المدينة وقابلت قيل المحمية والقائد كريب، عدت إلى  
بلادتي بسلام ..

- أمرك غريب أيها الشاب. تعرف القيل وقائد الجيش  
وتتظاهر بالغباوة ..

ضحك الملك شام، وضحك بإصبعه قرن رأسه، وأجاب

عليها بجذل:

- أنا من أرض جنات، والقبيل الأكبر وقائد الجيش من  
أصدقائي الحميمين..

سكتت الفتاة وراحت تتأمل حلته العادية المسيمة بسيم ذهبي  
منظوم، واستقرت عيناها على مقبض سيفه المرصع بالدر  
والجوهر، وفجأة رأته إصبع كفه الصغير، فوجدته مبتوراً،  
فزادت دهشتها، وانتفض ريبها من مكمنه، ولكنها ظنته ثرياً  
تائهاً أصابته العين، وفكرت أن تسأله عن ذاته، غير أن الخجل  
منعها وألجمها ومع ذلك أحست نحوه بميل جارف، وبدت  
غارقة في التفكير به..

وأفاقت من تيهها حين قال بصوت أس:

- ما اسمك يا قبيلة صرواح؟؟ فكم يروق لي أن أرد إليك  
صنيعك ...

- أنا تنرا شقيقة القبيل الأكبر حوف بن طاهم، وقد اعتلى أخي  
عرش صرواح البارحة، إذ كنا لمدة خمس سنوات لاجئين في  
مملكة معين ..

-تنرا؟

نطق الملك شام باسمها، ووثب على قدميه مدققاً النظر في  
ملاحظها التي غدت متغيرة، والتي صارت في أملح صورة،  
وأمشق قوام.

في تلك الأثناء قطعت عليه دهشته أصوات تعالت من زاوية  
قريبة تسترها الأشجار. وبدا القبيل حوف متجههم الوجه ترسم  
عليه صرامة أضفاها المنصب الجديد على قسماته الكليلية. وما إن  
رأى الملك شام قرب الجواري حتى توقف ورفع إصبعه صوبه،

وصاح مخاطباً من حوله بانفعال:

- من أين جاء هذا الرجل؟ اقبضوا عليه ..

تهافت العبيد عليه كالذباب المتطاير من على دماء الذبيحة  
واقبضوا عليه وقادوه إلى أمام القيل حوف. فقال له الملك  
شام بغضب:

- ألم تعرفني بعد حتى تستقبلني بمضارب السيوف، وكأنك  
لا تود أن تعمل بالوثائق المبتكرة؟

- كيف تخاطبني بهذه اللهجة يا وغد؟ من أنت قبل أن أجز  
رأسك؟

- أنا الملك شام، وأظن أن طول غيابك قد أعماك عن  
تميز ملامحي.

ثم أردف:

- لا سبيل الآن إلى جز الرؤوس. لأن الوثائق الجديدة تعاقب  
من تسول له نفسه فعل ذلك ..

ذهل القيل حوف والصرواحيون من حوله، على حين دقت  
تنرا النظر فيه، ثم اقتربت منه وقالت:

- إنه شام يا أخي.. أقصد جلالة الملك شام، وأعرفه بإصبعه  
المبتور، هلا تذكرت ما فعل يوم رافقنا إلى قرب السد؟

- رباه... ذكرت الآن.. المعذرة يا سعادة الملك.. لقد ارتبت  
وغرني وجودك من دون رجال.. أهلاً بك يا سيدي في صرواح.

سمع ترحيب القيل الأكبر حوف، وأتحفه بابتسامة جافة،  
ولكنه تقدم من تنرا مبتسماً بحرارة، ووقف أمامها كأنه يزمع على  
الركوع عرفاناً، تأمل ملامحها البديعة التي غدت أزهى من ذي  
قبل، ثم تناول راحتها وضغط على أناملها برقة ووله، فوجدها



متعركة وحارة. أحس أن عذابات خمس سنوات قد اندحرت، بدت عضلات صدرها تعلو وتهبط، كانت تريد أن يبدأ هو بعناقها، لأنها وقعت في حالة من الحميمية والارتخاء، ولم تعد تستطيع تحمل المزيد من العواطف، ولكنه مال إلى القوم المترئين ولم يلبثوا أن توجهوا إلى مدينة صرواح، ونادى المنادي أن الملك شام ضيف المحمية، فخرج الأهالي لاستقباله، واحتفوا به أشد احتفاء، وساروا معه حتى أدخلوه قصر صرواح. تلك أول نظرة يلقونها على وجه الملك شام، وإنهم ليذكرون يوم جاء الجنود بأمره الصارم.. كان العبيد الأحباش عصبة واحدة يتكالبون على الأهالي، فإذا دب نزاع أو شجار بين عبد وصرواحي هرعوا بالعصي والحجارة وأوسعوا السببي ضرباً. وليست صرواح هي الأثرة بهيمنة الأحباش، بل إن المحميات الأخرى أصيبت بعاهة التعصب والمشادة المستمرة... صار الأطفال في سبأ لا ينزلون إلى الشوارع، كذلك الفتيات النواهد، لأن أولئك المشاكسين يقفون لهم بالمرصاد.

كان فالوس يأتي من حين إلى آخر متخفياً بعد أن طرده الملك شام وأوصد خانه، ولا يلبث حتى يزرع بالمشات من العبيد إلى المدن والثغور.. ودوماً يقول لهم إن مصير سبأ في أيديهم وغداً تصبح موطن العبيد الأحرار. وبعد أن زادت الوشايات بهم والشكاوي قرر الملك شام وأعضاء مجلس الحكم أن يُنْفُوا إلى الحبشة أرضهم الأم، خلا العبيد المسالين القدامى في المملكة. كما اقترح الأقبال أن يبقى القليل من عبيد أرض جنات. لأنهم لا زالوا مطيعين، ولهم مدينة خاصة محروسة..

لأجل هذا قررت الغالبية في مجلس الحكم بقاءهم، بينما أعدت

السفن وربطت في شواطئ تهامة، وصارت تحملهم إلى شواطئ الحبيشة وتعود فارغة، وبعد تلك الخطوة الجريئة، صار السبئيون يتغنون بمحامد الملك شام أكثر من ذي قبل، ولا زالوا يسمون مواليدهم باسمه حتى أصبح في سبأ عشرين ألف شام منذ أن توج في أرض جنات ملكاً. فكان من هؤلاء الأطفال من يقول لأترابه وهم يلعبون بأمان:

- اسمي شام، لذا سأهزمكم كما هزم الملك الأحقاف، وتطردون كالبيد.

لذلك شعر أهالي سبأ بالخبور، وقالوا: لتحكم المقة يا ملكنا الجليل، لأنك أول ملك في أرض جنات لا يمانع أن نسمي أطفالنا باسمه. رغم ذلك لا ننكر أن الملوكونا مزايا حميدة، ولكن الملك شام أنقى الملوك سريرة وأوفرهم شهامة ونخوة. فقد قيل أنه اقتصر للعبد من أحد الأقيال، ثم جعله يدفع أجره نظير ما قدم له من عمل. ولقد جعل أرباب الأذان المخرومة سواء بسواء مع أبناء العامة في سبأ، وألقى على عاتق أهالي المحميات شأن القبول بقبل المحمية المختار. أو نبذه بعد شهر من حكمه. هذا إن لم يحدث انتخاب للقبل في المحمية ذاتها لسبب من الأسباب. ففي هذه الحالة ترسل إليهم أرض جنات قبلاً نجيباً من أقيالها الشباب..

قال إغريقي تفسف على يد أحد الفلاسفة يوم عبر سبأ في طريقه إلى الهند: " إذا تعمّر الخير طويلاً - وهذا لا يحدث في أحيان كثيرة - فإن أقصى درجاته ما أراه في سبأ الآن.. لكنه لا يلبث أن ينقطع أو يتلاشى.. لأن حلفاء الشر كثيرون في هذه البلدان، وما خلقت الأباليس إلا دروعاً للأشرار وذوي

الكروش المتورمة والأجساد المنعمة التي نبتت فوق أعناق الرعايا وارتوت من عرقهم. لذلك لا يعيشون إلا محمولين، ولا يموتون إلا هرمين، و الراعي إن غفا قرب أغنامه تفرقت وافتزعت وإن سهر عليها استجمت وأمنت، إن صدق حدسي فإن هذا الملك الشاب لن يُعمّر. لأنه من الأخيار، إلا إذا اندس بين مئات الحراس، ومن ثم لا تراه عيون الأباليس."

وهكذا أمست صرواح قلباً ضخماً للنشوة البالغة، حتى مراجيح الأطفال صارت تتمايل على إيقاعات ألفاظ الاحتفاء: " أهلاً.. أهلاً يا ملكنا العظيم.. يا حبيبنا وحبیب الآلهة.. سعداء بك يا ضيف صرواح القوية. نريد أن نراك ونلعب سوياً في الأزقة، ونهل على منازلنا ونجلس معك حول مائدة الطعام".. أضحى الملك شام حديث الأسواق والأزقة والمنازل.. واحتل في السمرة القدر الوافر من أحاديثها الفياضة.. وفي ميدان صرواح الكبير قال لأهل المدينة بصوت عال:

" لقد جعت يا قوم حتى هممت أن أساوم على عرش سبأ بكسرة خبز. وعطشت حتى كدت أن أبيع ذاتي لشخص يسقيني كوب ماء آسن. يا قوم لا أحد يعلم ما يقاسيه الجائع إلا من جاع، ولا أحد يدرك ما يصيب العطشان إلا من ظمئ. لقد وجدت أناساً قساة يرون الإنسان يحتضر والنجاة في أيديهم، فلا ينقذونه... وقد قدرت الآلهة أن أنجو من الموت بأعجوبة، أنقذتني فتاة صرواحية قتل أبي أباهما أمام عيني.. وبرت إصبعي لتصفح عني وشقيقتها، لكنها ذهبت وفارقتني خمسة أعوام ولما التقينا على غير موعد كانت هي المنقذة... أشيروا عليّ.. بأي

جزاء أجازيها؟ فقد صرت أحبها حباً جماً جعلني أحسب جميع البشر حتى أعدائي. يا معشر صرواح. لو كانت السعادة الكامنة في نفسي تتفرق لفرقتها على صدور المحزونين منكم. ولو كان موتي يسر أحداً رضيت أن لا أجلس على عرش سبأ بعد اليوم». اختنق صوت الملك شام، وبتر التأثر ألفاظه، فكف عن الحديث، وانشغل بممانعة نزوة ملححة للبكاء. تطلع إلى أهل صرواح راجياً سرعة الجواب.. فذرفت عيونهم.. وجعلوا يتهامسون بجدية. وصار القائل يقول:

وشرف المقة إن جلالة الملك يشير في كلامه إلى تنرا شقيقة القيل الأكبر خوف..

انظفأت الهمسات حينما هدر صوت السادن شلق:

- اقترن بها.. فإن أسمى جزاء في الحياة هو الاقتران المقدس..

تفكر الملك شام في ما قاله السادن ثم رد قائلاً بثبات:

- إنها ابنة صرواح.. وأنا أطليها منكم قبل أن أخاطب قبلكم

بشأنها..

- قبلنا يا جلالة الملك، أبسط كفك إلى كف السادن شلق..

هتف أهل صرواح بذلك مبتهجين، فابتسم الملك شام.. وأعفى المدينة من الأتاوى التي كانت تدفعها لأرض جنات كل سنة، وأبرم في ذلك وثيقة خالدة تسري إلى الأبد، وكانت بمثابة مهر تنرا. وقال السادن شلق وأهل صرواح: هذا أكبر مهر يدفعه رجل لامرأة على الإطلاق.

كان ذلك هو اليوم الرابع في صرواح، وفي اليوم الخامس اقترن الملك شام بحبييته تنرا وسط فرحة عارمة وحشد كبير من أهالي المحمية. وأفردت له مقصورة جميلة في قصر القيل خوف. ليلتها

دخل الملك على عروسه .

وفي غرة الصباح كان مائة فارس من رفاق الملك شام وأرباب مجلسه يقفون بياحة قصر صرواح .. كان العبيد الذين خرجوا برفقته للصيد قد يئسوا من العثور عليه، فعادوا لتوهم إلى مجلس الحكم في أرض جنات، وأسدوا إلى الأقيال الشباب الخبر، فزفرقت أعماق كرب فرحاً، وأخذ يزعزع رغبة الأقيال في البحث عن الملك شام ويهدئ من روعهم .. لكن القيل هاري قفز إلى وسط المجلس حين رأى التقاعس يتفشى في أوساط رفاقه الأقيال... وصرخ بصوت صاخب قائلاً: "يا معشر سبأ، انفروا وراء ملككم هازم الأحقاف، سيموت حتف أنفه جوعاً وعطشاً في الصحراء .. وشرف المقة إنكم لن تجدوا ملكاً أجدر منه لصون حقوقكم، ولسوف تحرقون عمائمكم من بعده، ويغشاكم الذل والهوان . ابعثوا الفوارس إلى كل محمية وفتشوا الصحارى عرضاً وطولاً .. "

هب الأقيال وقوفاً ماعدا كرب، ولما رأى القيل هاري ذلك تشجع، وصاح على مقادمة الجيش، فجاءوا طائعين غير مكترئين بصيحات قائد الجيوش كرب الذي أمرهم بالثبات، بعدها سارت الأقيال وجنود أرض جنات في الصحراء، وتفرقوا باتجاه المحميات . وشق القيل هاري وكوهار الطريق المؤدية إلى صرواح، لأنها أقرب المحميات إليهم، واحتمال وجوده فيها أكبر، وتناهت إلى مسمع الملك شام أصوات متعالية . ثم جاء إليه حراس القصر بالنبأ، فهبط إلى فناء القصر، والتقى بأرباب مجلسه، فعانقوه وهنأوه على الزواج، قال القيل كوهار بصوت متناغم وهو يعانقه:

- أرض جنات تحترق خوفاً عليك، وأنت يا جلالة الملك غارق في نعيم الزواج.

- لا أخافت المقة لكم قلباً. أنا في سعادة بعد أن فارقتني العبيد، وتمت في البيداء. لقد قدرت الآلهة أن أتوه لكي أجد الفتاة الصرواحية التي أبحث عنها.

لم يتطوع أحد بالحديث. دب صمت غريب. ولمح الملك شام في وجوههم فتوراً لم يعهده، وقرأ في أعينهم مخاوف شديدة، ونذيراً مشوباً بالخطر والفجيرة، فأتى صوته مفعماً بالانزعاج:

- انطقوا يا قوم... أتخفون عني شيئاً حدث في أرض جنات؟؟  
- لا شيء يا جلالة الملك.. الأحوال هادئة، والحياة مستقرة كما...

قوطع كوهار. إذ قال هاري للملك بنبرات صادقة:

- هناك شيء لا يجب حجبته عنك... لقد بدأ كرب يلتقي وفالوس الروماني أثناء غيابك، وأخذ يستكثر من العبيد، وقد دس ألف عبد حبشي عمق الجيش..

- ألم أطرده ذلك الشيطان خارج المملكة؟.. من أذن له أن يطرق

بلادتي من جديد؟

تغير وجه الملك شام واحتارت أفكاره.. وصمت برهة ثم

أهتاج وأضاف:

- لن أبيت الليلة اللاحقة في صرواح، لن أدع كرباً وفالوساً

يهدأ ما بني خلال سنوات عديدة.. هاهي مملكة سبأ صارت

عملاقة ذات جيش عتيد خالٍ من الأجناس الأخرى، فمنذ

حرب الأحقاف والممالك تخشاننا، ولم تعد تحدث غارة واحدة على

ثغورنا.. وأخي التعيس يسعى إلى تمزيق المملكة وحفنة من

الأحباش... لكنني لن أسمح بمثل هذه العبث أن يحدث في سبأ.. لن أساوم في بلدتنا الطيبة من أجل نفر واحد، وثلة شريرة من الأغرأب الأوغاد. وإن عدت إلى أرض جنات يكون لي قراراً حازماً لا رجعة عنه ..

عقد الملك شام النية على طرد عبيد أرض جنات وترحيلهم إلى الحبشة كما فعل بعبيد المحميات.. وأضمر في نفسه أن يبعد كرب عن منصبه ويسجنه بعض الوقت في سجن القلعة وبعد كل هذا يتسنى له أن يقوم بأخر الخطوات الجريئة التي اختمرت في رأسه من قبل، وأن الأوان لتنفيذها، ما زال أمامه أن يبذل آخر جهد لكي تعود الدائرة المقدسة إلى وجوه النساء، ثم يعلن للملأ في سبأ عن ميلاد هذه الدائرة المقدسة من جديد.

\*\*\*

مع بزوغ الصبح قفل الملك شام راجعاً وزوجه ورفاقه، وبعد ثلاثة أيام من السير، وصل ومن معه إلى مشارف مدينة جنات.. فالتقاء شقيقه كرب والأقيال وجل أهالي أرض جنات بحفاوة منقطعة النظير، ومشوا أمامه فرحين.

مر الملك شام تحت قلعة المدينة، يظهر في ملامحه السهوم وفي عينيه الشرود ولكنه جعل يصغني إلى تنرا وهي تحدثة من هودجها الصغير ويتصنع الانتباه ويتسم ليكسر حدة تجهمه كما يليق بعريس أن يفعل. كانت تقول له بصوت تملأه الغبطة:

-أخيراً ندخل أرض جنات ضاحكين معاً. آه بعد أن فارقتها وأنا أبكي أبي .

-لولا ما يجري في سبأ لأنهد هيلان من ضحكي.. وأخشى أن يكون الشر قد أفرخ مرة أخرى فلا أستطيع كبحه. فالتمسي لي

العذر ما دامت الشياطين غير مغلولة الأذرع. أجاب .

- لا تبتئس . الآلهة تحمي دائرتك المقدسة وتكبح عنك الشر .

- الآلهة؟ الدائرة المقدسة؟ السادن؟ أشياء قائمة إن بتنا نتكوم

أمامها هلعاً. لقد فطر الناس في سبأ على إذلالها . لا تعجبي من

قولي يا تنرا .

- أعرف أنك مستاء من كل شيء... .

ندت عن تنرا صرخة مدوية، ولكن الحجر الكبير كان أسرع

من صرختها، حيث وقع عليه وجعله يسقط أرضاً مضرراً

بالدم. أسرعت إليه، قائلة:

- يا ليتها وقعت على رأسي وبقيت حياً يا زوجي الحبيب .

سقطت قربة فاقدة الوعي عندما رآته ساكناً متثلج الأطراف

لا يجيب نداءها المتلهف، تسارع الجند الذين كانوا في القرب

مذهولين وصوتوا واستغاثوا حتى ارتج المكان بصخب هائل ..

ارتد كرب والأقيال فزعين، فوجدوا الملك شام ملقى على

جانب الطريق ومسجى بإزار أبيض طويل، وزوجته تنرا قربة

مغمى عليها، تصاعد النشيج المخنوق من أفواه وصدور

السبئين عامة والأقيال الشباب خاصة، حين ذلك شقّ كرب

الصفوف حتى وصل إلى أمام شقيقه الصريع وكشف عن رأسه

السجاء، وبكى بكاء شديداً حين رأى كاهله المهشم وخادعه

المفلوق فلماً كبيراً، رمق الحجر الملقى جانباً بنظرة تنم عن

الحسرة والألم، لم يلبث أن صرخ على الجند قائلاً بغضب:

- اتنوني بكل من تجدوه في القلعة لترى من فعل فعلته الشنيعة

بالملك ..

غاب الجند برهة ثم أتوا بعشرين عبداً غلاظ الأبدان، مشوهي



الخلقة أوقفوهم أمامه، فرمقتهم آلاف العيون بنظرات نارية  
غاضبة، وخاطبهم كرب بلهجة قاسية قائلاً:

- أنتم يا أحقر العبيد؟ كيف طاوعتكم أنفسكم قتل سيدكم  
ملك سبأ؟؟

- يا للمقة!! ألم تلح...؟؟

صوب كرب إصبعه إلى وجوههم، وقاطعهم بشدة قائلاً لمن  
حوله:

- جزوا رؤوس هؤلاء، ولطخوا بدمائهم أعمدة المعبد حتى  
تعلم الآلهة أننا لا نتهاون عن دماء ملوكننا، وإن وجدتم لهم  
أولاداً وأزواجاً أحرقوهم جميعاً...

فوجئ العبيد بأمره القاسي، فصرخوا قائلين بدهشة:

- ليس هذا الذي وعدتنا يا قائد الجيوش. ها أنت تسلمنا لمن  
لا يرحمنا..

أحاطت بهم الجند وأهالي المدينة، وأخذوا يجر جروهم  
بقسوة، ويوسعونهم ركلاً ولكماً، وهم يزعمون بصور هادر:

- أنت الأمر بقتله! هو الأمر بقتل الملك يا معشر سبأ، وما  
نحن إلا عبيد مأمورون أغرانا و...

لم يتموا عبارتهم الأخيرة.. حيث تكثفت عليهم أقدام السبئيين  
واطنة أفواههم.. ولم تمض غير لحظات وجيزة حتى صاروا  
أجساداً ميتة أحرقت بعد ذلك بنار مضرمة، ومع هذا شعر  
السبئيون لا سيما الأقيال أن كرباً وراء مقتل الملك شام، فصاروا  
يلعنونه في سرهم ولا يجرءون على الجهر بما تكنه صدورهم من  
نقمة وغيظ، بيد أن الحزن هو الشيء الوحيد الذي يملكونه في  
ذلك اليوم الكئيب، فحزن الرجال قبل النساء، ولم يغيب البكاء

عن عيون الأطفال أيضاً، حيث بكوا بشدة أسوة بذويهم  
المحزونين، وأزمعوا على هجر مراجيحهم، أما من لم يع معنى  
الحزن لصغر سنه فقد أجبرته أنات من حوله على البكاء، إذ  
وجد بجانبه أناساً يكون فبكى لسبب يجهله.. وشاعت  
الشائعات في مدينة جنات، وظهرت تأويلات كثيرة للجناية،  
لكن كل البنان أشارت إلى رجل واحد مستفيد من موت الملك  
شام وهو شقيقه كرب، فانشال الغضب عليه وحاقت به  
اللعنات. وأحس الأقبال بالحسرة، لأن عبيد القلعة ماتوا دون أن  
يدلوا بشهادتهم كاملة، وكانوا سيكشفون بجلاء من أمرهم  
بقتل الملك أمام الملأ.. وحدث هاري وحده أن ثمة مؤامرة  
حيكت في ليل، وأن أباه السادن على علم بما دبسه كرب، إذا لم  
يكن قد أجاز تلك القتلة البشعة، ولكنه سيدي حزنه ويتحجب  
أسفاً على الدائرة المقدسة.

ودفن الملك شام قرب أبيه شراح عمق قبر بنيت جدارنه  
بأحجار كريمة، ومنذ تلك اللحظة صار كرب الوريث الوحيد  
لعرش سبأ، إذ لا ولد للملك شام يخلفه من بعده. حتى إن كان  
في أحشاء زوجته ولد، فهو الأحق بالعرش إلى أن يبلغ ابن الملك  
سن الخامسة عشرة، ومن ثم يتنحى عن العرش لتوه ليعتليه  
الفتى، إلا إذا كان الأخير معتوهاً أو ذا سذاجة عظيمة، حينها  
يبيز تشريع سبأ بقاء الملك السابق على العرش، لأن الوريث غير  
كفو له، وصعوده عليه سيؤدي إلى ضعف قوة سبأ..

## (٨)

صعد كرب على عرش سبأ، وفي ذلك اليوم سيق أمامه الحجر المنقوش إلى قصر جنات، وعليه أمر سيادته على المملكة مخطوط بأحرف المسند الكبيرة، بعد ذلك توافد أهالي المحميات مُعززين حتى امتلأت بهم أرض جنات، ولما سكنت الأوضاع قام الملك كرب بتشكيل هيئته الملكية وأرباب مجلسه بنفسه، ولم يشاور السادن أو أيّاً من الشيوخ الكبار أو الأقيال، سارع فأعاد غردق إلى مصطبة الإعدام في القصر والتي هجرت وأقفرت من قبل وأقصى الأقيال الشباب أرباب مجلس الحكم في عهد الملك شام، كذلك أقال أقيال المحميات.. إلا أنه استبقى على قيلين من أولئك الشباب، والقيلان الشبان هما كوهار وهاري ابن السادن شيزار، الأول كان المعياً شهيراً بمشورته وعائلته ذات إخلاص وصلات وثيقة بعائلته الملكية منذ القدم، أما الثاني رغم تطرفه ومعاضدته للملك شام فقد استبقاه ليظفر بدعوات أبيه (روح المعبد)، كذلك بركات المقة..

لكنه الآن وقد صار ملكاً على سبأ أزمع أن يرد لها الصفحة القديمة، لذلك أقطعها أصغر محميتين في مملكة سبأ وفعل ذلك ليحرق مكائتيهما العاليتين ويمتهنها، فاتجه كوهار بنفسه راضية إلى محمية الحجر، بينما أنف القيل هاري أن يذهب إلى محمية الجبجب، فاعتصم داخل قصره وهجر جميع الناس، وهكذا

صارت حاشية الملك كرب هم رفقاء لهوه وملذاته، وغيرهم خمسة أو ستة ليسوا من رفاقه. كان هؤلاء ساخرين ضحوكين لا دراية لهم بسياسة الحكم، الوحيد الذي التمع شأنه في المجلس هو القيل دارم، استعاض عن دساته وعنصر الخبث الكامن فيه بمزيج مثير من اللباقة وسداد الرأي والكياسة. كان من قبل مرمياً في قصره كالنعل التالف، حيناً ينظر إلى طفله الوحيد بريب، ولا يهدأ ويستجم حتى يوسع زوجته لطمأً وتعنيفاً، وينبري قائلاً لها بحددة:

- أنا عقيم أبيض البشرة، وأنت بيضاء، وهذا اللعين شنار أسمر اللون مشوه الأذنين متنفخ الأنف.

تصرخ، تبكي، وتقسم بالمقة أن الطفل شنار قطرة من جسده، لكنه يظل يتبرم ويهتاج ويهبل عليها السباب والشتائم إلى أن تسحره قائلة:

- شنار معجزة أتت به الآلهة لتقيس الإيوان في نفسينا يا دارم..  
-أف..أف هي قادرة على كل شيء، لكنني كلما نظرت إلى أذنيه لا أدري...

ويسكت على مضض، ويكتم غيظه وريبه في ضيق. وفي حين آخر ينشق رائحة الحنو عندما يروق مزاجه وتصفو أوقاته، فيناغي شناراً ويتبرع لخدمته بقبلة وحيدة ثم ينكفي عنه.

فوجئ بعد اعتلاء الملك كرب عرش سبأ بالرسول تهل عليه.. "يا للبشرى! صرت كبير مستشاري الملك..كنت متشائماً من هذا الصبي، فمنذ أربعة أعوام من يوم مولده لم يصادفني يوماً سعيداً، ولعل الشؤم قد زال من طالع شنار. قال ذلك لنفسه وأمسك بكفه وشق طريقه صوب قصر جنات،

كانت أول جلسة يعقدها الملك كرب بانتظاره، دلف المجلس واحتل مكانه وحشا جسده شنار إلى يساره في المقعد، كان الأخير لعباً مشاكساً لا يكل ولا يمل عن الجري، لذا حاول جاهداً التملص من يد أبيه، لكنه أخفق في نزع نفسه، فولول بشدة وزعق كالماعز الذي يغادره القطيع، شعر دارم بخجل عارم لاسيما حين رمقه الملك كرب بوجه متغضن.. عند ذلك نهره، فهرول سريعاً خارج المجلس فعاد إلى الملك وتامه وسأله قائلاً:

-أهو ولدك هذا الشقي الأسمر؟

هز القيل رأسه موافقاً متحاشياً الخوض في الحديث عنه..

\* \* \*

سكنت قرينة الملك شام في مقصورة رديئة من مقصورات القصر. وكانت تقوم على خدمتها ثلاث جوارٍ روميات، وهي على حالها غارقة في الحزن لابسة السواد لا تهجع في الليل إلا قليلاً من الوقت، لا تفتأ تذكر ما حدث أسفل القلعة وتبكي بحرقه حتى يتشف حوض عينيها، فتكف عن النشيج حتى يتجدد ماءؤه، ثم تعود لتهرق الدموع ثانية وهكذا دواليك.. جاءت رسل أخيها حوف ناشدين عودتها إلى صرواح، فأبت أن تعود وقالت لهم بمرارة:

-أبلغوا حوفاً أي لن أعود إلى صرواح إلا بعد عام، أنا هنا

قريبة من مكان شام ..

لقد أسرت في نفسها شيئاً. ولم تشأ أن تجازف وتفصح لأخيها عما طرأ عليها مؤخراً من أمارات غريبة توحى بالحمل.. أصبحت تشتهي أنواعاً من الخضر والفاكهة كانت نفسها تعافها قبل الزواج، اشتت كبد خروف طري وأكلته نيتاً ملوثاً بدمائه،

وبنهم مفرط.. هذه الأمارات تعتبرها نساء سبأ بشرى لحدوث الحمل، بعد أشهر قليلة تحركت أحشاؤها ولمحت انتفاخ بطنها بائناً، وصارت أرديتها تضيق على جسدها، فاستبدلتها بأردية أخرى، وشاع خبر حملها في أرجاء القصر، فاغتم الملك كرب وخشي أن تنجب ولدأ ينازعه العرش .

لكنه حبس شجنه وتظاهر بالسرور، هاميرا هي الأخرى ظهر حملها، فارسلت المبشرين إلى الملك كرب، ففرح فرحاً شديداً وطابت نفسه.. بعد شهور ستة وضعت نورا مولوداً بهي الوجه، لكنها ماتت إثر ولادته، حيث كان مخاضها عسيراً، وجسدها ضعيفاً لم يطق النزيف الحاد الذي اتتاها بعد الولادة.. فتعهدت الدادات بالطفل، على حين جاء القيل حوف حزينا وأخذ شقيقته الميتة، وآب إلى صرواح ليدفنها في مقبرة القيلات، وتذكر أنها قالت أن عودتها إلى صرواح ستكون بعد عام، فقال لنفسه بأسى: " كأنك يا نورا عدديت أيام العام ورأيت آخر أيامك..

أسمى الملك كرب الطفل «رام»، وعزم أن يكتم خبر مولده، لكن آذان الناس كانت أسرع منه، حيث سبقته والتقطت خبره من ألسن النساء، ومن ثم تفشى عند العامة أن الملك شام رزق بمولود ماتت أمه الصرواحية بعد مولده..

وعلم السادن بذلك، فأقبل حاملاً جرابه يتبعه الكاهن سريح، ودخل القصر دون إذن، والحراس يحنون رؤوسهم ويتبركون بمسحة كفه.. وفوجئ بها الملك كرب يدلفان جناحه الخاص، فقام على حيله مبهوراً، واحتفى بها ثم قال بلين:

-بوركت يا روح المعبد.. لو أرسلت إليّ جئتك وقضيت حاجتك .

أجاب عليه السادن شيزار بلهجة شديدة قائلاً:  
- لم آت عن طمع.. وإنما جئت لأطبق تشريع المقة !!  
- كيف يا روح المعبد؟؟  
اصفر وجه الملك كرب، وتساءل متقمصاً جهله بالأمر.. فرد  
عليه بارتجاف:

- هات ابن الملك شام كي أعلمه بالدائرة المقدسة..  
- أرجوك يا صاحب القداسة، لا تمنحه الدائرة، فهذا الصبي  
قد يؤذينا.. قاطعه متوسلاً.

- هات الصبي.. صاح السادن شيزار.  
- ما هذا العنت يا روح المعبد؟ ألم تسترد مقعدك ومكاتبك  
والقرايين والندور، وكل شيء صغير أو كبير ضاع منك في زمن  
شام؟

- تلك حقوقي المشروعة من الآلهة، وقد آبت البنود القديمة  
بمشيئتها وليس بفضلك، ومهما يكن الخطأ الذي اقترفه أخوك  
الملك في حقي وحق الآلهة، فلست معقياً أبداً من تعليمه بالعلامة  
المقدسة، أنا ملزم بتطبيق شرع المقة.. وإن مجرد التفكير بهذا يدع  
الآلهة تغور في عليائها أربعين عاماً.. غفرانك أيتها المقة..

أرعى السادن شيزار شذقيه وأجفانه، ووقع ساجداً وجسده  
يهتز بشدة.. ثم وثب فجأة، وهو يصرخ كالمجنون أو كالذي يود  
أن يتحامي خطراً قريباً قبل فوات الأوان:

- هات ابن الملك لأقيم شرع المقة وإلا...

- لا تفعل يا روح المعبد.. سأتيك به حالاً..

قالتها مقاطعاً بعد أن رآه يهيم أن يرفع كفيه، ويدعو الآلهة  
لتسحقه أو تجعله معتوهاً يهيم في الصحارى.. إنه يذكر ما روته

الألسن عن سادن - هو جدٌ قديم لشيزار - دعا على قيل بالحسف  
فأتت ريح قوية من السماء زلزلت قصره وردمته، ولم تصب  
قصرًا آخر غيره بأذى..

بعد هنيهة قصيرة جاء الملك كرب بالطفل رام، وأوقفه أمام  
السادن شيزار ولا زال ممسكاً به، فأماط السادن القباط عن كتفه  
الأيسر، ونزع من جرابه مسماراً ذهبياً مسنناً بسن صغير حاد،  
وأمر الخدم بتسخين المسمار بحيث يكون السن ملتهباً، بينما  
انهمك يتلو أسماء الآلهة ويتضرع، ومن حين إلى آخر يتفل على  
كتف رام، ثم جيء له بالمسار ملتهباً، فأمسكه بواسطة وإق،  
وأمر الخدم بإمسك الطفل، على حين أخرج دائرة ذهبية صغيرة  
بحجم الدينار، وألصقها بإحكام على صفحة كتفه الأيسر،  
وأخذ يمرر السن عليها بحذر ناقشاً على الجلد الرخو دائرة  
صغيرة متقنة.. كان رام يبكي والسادن دائبٌ على النقش، وما إن  
رفع المسار حتى جاء دور الكاهن سريح.. كان الأخير هو  
الوحيد بسبأ، وقد لقنه كبير السحرة في حير هذه الصنعة، فتلا  
سحره وأشعل بخوراً عجيباً، وحملق بعينه، فإذا بهم يرون  
الدائرة تومض كالقمر وتضيء المقصورة.. كل هذا يحدث  
ولا زال رام يبكي متألماً.. بينما سجدوا جميعاً حين تجلى وجه  
المقة.. كان آخر عمل قام به السادن شيزار أن قبّل تلك الدائرة  
قبلة حارة ودعا الآلهة أن تحفظها وتجعلها عادلة خيرة، ثم أخذ  
جرابه وانصرف مطمئناً، لأنه قام بما يتوجب عليه القيام به رغم  
أنفه هو والملك كرب، فكل شيء يهون إلا التهاون في أي شيء  
يمس الدائرة المقدسة، بعد شهر واحد وضعت هاميرا زوجة  
الملك كرب طفلة جميلة، فاكتظم قلب الملك كرب حين بُشّر بها،



ولكنه فرح بنجاة زوجته، وأطلق على ابنته اسم فردون. وجاء  
السادن شيزار ونقش على كتفها دائرة أصغر من دائرة رام.

\* \* \*

أرادت هاميرا أن ترضع رام من حليبها لكن الملك كرب نهاها  
قائلاً:

- دعي حلييك لفردون ولا تجهدي روحك بإرضاع  
طفلين.

أعادت ثدييها الأيسر إلى موضعه وقالت ممتعضة:

- بِمَ يتغذى رام اليتيم؟

- من ضروع المعز أو النوق، وسأجعل العبيد يجلبون له كل  
يوم ما يكفيه من الحليب..

عندها صمتت هاميرا بيأس، وتركت الحبل على الغارب.. إلا  
أنها ظلت تعتني برام وتسقيه بما يأتي به العبيد من الحليب صباح  
كل يوم وعند المساء. ولكن بعد أشهر قلائل شح حليبها فجأة،  
ولم تعد تجد في ثدييها ما تبلل به شفتي فردون.. فراحت تسقيها  
على حد سواء بما يجلبه العبيد من الحليب.. قالت لنفسها بتيه:  
" المقة عادلة وقد شاءت أن تدع الطفلين يشربان معاً من  
أثداء النوق "

مضت السنوات كالبروق الخاطفة، والملك كرب يزداد كل عام  
غماً على غمه. كان يود أن تلد هاميرا ولداً يخلفه من بعده. ولهذا اقترن  
بابنة قيل ذي ريدان، وابنة ملك أوسان.. لكن بلا جدوى..  
اقتنع أخيراً أن فردون آخر لقاح في صلبه، فراح ينشئها تنشئة  
خاصة لتكون ملكة عظيمة كبلقس بنت الهدهاد، ولأجل ذلك

كان يستقطبها إلى مجلس الحكم ورام، فتربع على كرسي صغير  
أعد لها آنفاً، أما رام فكان يقصيه إلى ركن بعيد في المجلس.. غير  
أن فردون كانت تفارق كرسيها وتذهب إليه ليلعباً سوياً  
ويتجاريا على سلام القصر ببهجة طفولية عجيبة.. وفي أحيان  
أخرى يتشاجران ثم لا يلبث أن يعود لهما اللوئام السابق.. بلغا  
السابعة من العمر، وصار لهما سيفين صغيرين صقيلين  
مشدودين على وسطيهما، ومدقوقين بمسارين إلى غمديهما  
البرونزين، بحيث لا يتمكن أي منهما من سحب سيفه، وذلك  
حرصاً من الملك كرب على سلامتهما ..

كان شنار ابن القيل دارم في الحادية عشرة من عمره، ومن  
الفينة إلى الفينة ينخرط معها ولا يألو جهداً عن تكسير الأسوار  
التي تحيل دون اقترابه من ذوي الدائرة المقدسة، ولم تكن فردون  
تُسرّ لمرآه، وانتقلت عدوى كراهيته إلى رام، فإذا هل عليها  
تتهدهده وتتوعده، وقد يصل بها الأمر في أحيان أخرى أن تجعل  
الحراس ينبذونه خارج القصر ..

في أحد الأيام اندهش الأقيال القابعون بالمجلس، ولم يكونوا  
يتوقعون أن طفلاً بسن رام يمكن أن يفتن إلى أشياء هامة كتلك  
التي سمعوها تنبثق بحدة من فمه الصغير، إذ سأل عمه الملك  
كرب يومذاك بغتة قائلاً بحنق:

- أين أبي يا عماه؟

ارتبك الملك كرب بفعل المباغته. لكنه ابتسم له وتظاهر بعدم  
الاكتراث رغم ما أصابه من هلع. في ذلك الوقت جاءت  
فردون، وجذبت راماً، وسارا صوب الخارج للعب والجري  
كالعادة. كان الملك كرب قد بدّل الخدم بعد مولد رام بأخرين لا

يعلمون نسبه إلى الملك شام، وصار يدّعي أن رام ابن شقيقه جندب، وإذا علم أن السادن شيزار قادم إلى المجلس، كان يأمر بإقصائه لئلا يفلت لسانه بما يدل على نسبه المزور، ومن ثم يغضب السادن ويهتك سرّه أمام القوم الذين يقدسونه ولا يجيدون عن رأيه، وليس لديه الشجاعة ليدخل معه في صراع..  
وفي يوم قريب اختلى الملك كرب بمستشاريه ويطانته الخاصة، وراح يفرز لهم ما يضايقه ويقض مضجعه، وقال وهو يحتسي كأساً من النبيذ:

- قد سمعتم ما قاله رام وهو بهذا السن المبكر فكيف إذا بلغ مبلغ الشباب؟

بادر دارم كبير مستشاريه قائلاً بشرود:

- الشائعة عند أهل مدينة جنات تقول إنك وراء مقتل الملك شام والجميع يعلم أن له ولداً وأن جندب قتل أعزباً في حرب الأحقاف..

- هذا ما يحيرني، وأولئك العبيد الأنجاس زعموا أني أمرتهم بإسقاط الحجر على رأسه.

تدخل أحد أقيال اللذة، وقال بجرأة:

- لن يظل رام جاهلاً بهذه الأشياء، وربما اشتد ساعده وقتك بك و...

- لا تبالغوا يا أقيال سباً، فهذا بعيد عن العقل.

قاطعته الملك بنزق، على حين ضحك القليل دارم وقال بسخرية مقرفة:

- معذرة يا جلالة الملك، فكما يقولون: " الأفعواني \* يموت

\* الأفعواني: الذي يقوم بتربية الافاعي.

بسم أحد أفاعيه" ..

-ماذا ترون بحق المقة؟

-اخذ أنفاسه، واسترح من وجع الرأس والغمم..

-لا لا.. لا!! فكروا بشيء آخر، فلن تطاوعني نفسي على قتل  
طفل في السابعة، وكما تعملون أنه معلّم بالدائرة المقدسة، وقد  
أحقها السادن بأدعية قاصمة.. قال الملك كرب عبارته مشمئزاً  
من تلك الفكرة، بينما استدرك دارم قائلاً بوحشية:

-لا تقتله أنت يا سيدي، فهناك من يتحمل وزر قتله ولعنة

المقة...

-عليك اللعنة يا أحمج الأقيال ما أخبتك، وكان المقة عاقبتك  
على خبتك ووهبتك غلاماً أسمر لا يشبهك، ياله من عقاب أن  
ترى له أذنين عجيبتين.

فهقه الأقيال ملياً، بينما انتضت ملامح دارم غلالة ملونة للعار  
والخرج. وقال غير مدرك فداحة قوله:

-شنار؟ آه، أنا الآخر أفكر في قتله، لكنني لست الوحيد الذي

تخذله امرأته ويرتاب من ولده..

-بئس الجواب يا بغيض.. أتعيرني وأنا أشبه الناس بأبي

شراح؟

قالها الملك وصفعه بقوة حتى جحظت عيناه، وانطبعت أنامل  
كفه على وجهه، وأطار بذلك الثمل من رأسه. ظن الأول أن  
الأخير يعيره بأمه " شبرا " التي تسرب شيء من علاقتها  
وفراش القصر كيهام، لكنه كان لا يقصد تعيير الملك كرب  
البتة، حيث كان رده مجرد تنويه عابر إلى نفسه نفثه ارتباكها، وقد  
ارتسم في ذهنه خطأ أن الملك كرب يرمي إلى عدم انتباه شنار إليه

كونه عقيباً. أمسك خده بكفه، وقال بتوجع:  
-تصفعني يا جلالة الملك وأنا المخلص الوفي؟  
-اخرس.. واخرج حالاً، فقد فضحت ذاتك ولا أحد كان  
يدرك سرّك..

خرج القيل دارم وجسده كاخترقة المنقوعة في الماء، وآب إلى  
قصره.. وهو في غاية الغيظ.. وفي طريق عودته رأى عبداً يدعى  
بدبد يعمل في زريبة الملك، ولح أذنيه اللتصقتين تماماً بصدغيه،  
فالتمعت عيناه دهشة، وقال هامساً ومدققاً النظر فيه: يا للمقة،  
أذناه شبيهتان بأذني شنار، وشرف المقة إنه أبوه..

دبّ شجار عنيف بين القيل دارم وزوجته وفاجأها بحكاية  
يدبد، فانهارت واعترفت بكل شيء.. بالصدفة كان شنار ساهراً  
في تلك الليلة، وسمع ما دار بين أبيه وأمه من حديث رديء،  
فأضمر لها السوء معاً، وكان وقتئذ في الحادية عشرة من عمره،  
لكنه كان صبيّاً حاذقاً، وأضحى رغم صغره طموحاً ينظر إلى  
كل شيء بحساسية، لذا دس السم لأبيه الذي أزمع أن يفتك  
بأمه، لكنه لم يكن فتاكاً وقد أودى به إلى المرض الزؤام  
فحسب.. وظل شنار يرقب نهايته ليتسنى له بعد القضاء على  
أمه، فمارس القتال في ميدان التدريب، وكانت الشكاية به لا  
تتوقف رغم أنه حصد جوائز عديدة في ميدان جنات، وصار في  
سته الخامسة عشرة بطلاً لا يجارى، على هذه الشاكلة مضت  
حياة شنار، أما رام فقد سارت حياته على نحوٍ مغاير.

\* \* \*

دعا الملك كرب كبير خدمه قاف، وهمس في أذنه بضع  
كلمات، ثم خاطبه مشدداً وهو يهيم بالخروج من مقصورته:

- اتنتني بأذنيه وأنفه، وحذار أن يراك أحد..

أخذ قاف "رام" وأردفه خلفه على ظهر جواد، وسار في الطريق المؤدية إلى خارج المدينة.. وراح يسليه ويضحكه خوفاً من صراخه ويكائه.. ومر به قرب المعبد، فرآه السادن شيزار، إذ كان حينها قائماً بالصدقة على باب المعبد، فاستوقفه صارخاً عليه بقوله:

- أين تسير بهذا الطفل الصغير؟

سكت الخادم وارتعدت أطرافه، ولما اقترب السادن منه تأوه

بشدة وقال:

- يا لفجيعة المقة !! هذا ابن الملك شام، وهو معلّم بالدائرة

المقدسة...

- أنا عبد قدر علي الإذعان. قال الخادم قاف بانكسار.

- ألا تفزع من سخط المقة وأنت تقود مخروم الأذنين ذا الدائرة

المقدسة إلى مصير مجهول؟

قال السادن شيزار عبارته الأخيرة، وقد شَفَّ الأذى المتألق في عيني الخادم قاف، وتأكد أكثر من خلال تذبذب ألفاظه. لم يلبث أن مال إلى جواره، واحتفن تراباً وحثاه على رأسه، ثم تمرغ على الأرض وراح يرطن بأدعية الآلهة، والرهبنة تهدد أشلاءه، حينها انكب الخادم قاف على رجليه يقبلهما، وقال بلهفة:

- أيها القديس !! ماذا أفعل وقد أمرت أن أعود بأذنيه وأنفه.

كف السادن شيزار عن ابتهاله، وأجاب بصوت صاحبه بحة

صغيرة:

- يوجد في المعبد ابن بغي، فاذبحه وجز أذنيه وأنفه، فطالما

أزعج المقة برائحة بوله وبرازه.

دلف الخادم قاف إلى المعبد، وعاد بسرعة حاملاً غلاماً أسود،

وقال باستياء:

- هذا الغلام أسود، وسوف ينكر الملك أذنيه وأنفه.

صاح عليه السادن شيزار قائلاً بضيق:

- أيها الأحق !! المقة تأمرك أن تلوثها بالدماء..

سارع الخادم وقام بذبحه، ثم قطع أذنيه وأنفه، وصبغها بالدماء، وآب إلى المعبد، وقال للسادن شيزار، وهو يودعه:

- اخفه يا سيدي عن عين الملك أو ادعُ المقة أن ترفعه إليها.

عندئذ نقش السادن شيزار عبارات عديدة على جلد جاف، ثم أناخ بعيراً له عالي القوائم أجدع الأذنين، ورفع رام إلى فوق سنامه، وشده بالحبال جيداً لكي لا يسقط، ودس الجلد المنسوخ في حجره، ونادى عبده، وقال له مشدداً:

- يا دربال، سر بهذا الغلام إلى قبيل صرواح، وساعتك حال عودتك.

فرح العبد بهذا العرض، وأخذ يذهب حاله، كان الوقت مناسباً له في تلك البرهة، إذ أن الليل قد بدأ يمضغ أرض جنات، والفرصة لازالت في بدايتها مهياًة للسفر وإن لم يتلغ الظلام كل البقاع تماماً في تلك الآونة.. وزوده السادن شيزار بسلة كبيرة بها مؤنة السفر، فسرى بالبعير مخترقاً أحراش نخيل قابعة شرق مدينة جنات، وهي طريق مختصرة غامضة لا يسلكها سوى الفارون من الطلب، وبعد سويعات من المشي الجاد لجأ دربال إلى الراحة، ثم أخذ يطعم رام حتى اكتفى، وتناول بدوره عدة أرغفة سدت جوعه، وقام على حيله وواصل الرحلة، وكلما تساءل رام عن وجهته أو همَّ بالبكاء أو همه دربال أن الوحوش قريبة تنصت على الحديث، وستهل عليه لتلتهمه إن هو عاد

للكلام، فيخاف ويلوذ بالسكوت مجبراً، ولكنه رغم ذلك لا ينجح في حبس أناته المخنوقة، فتظل تتصاعد مواكبة لدموعه المتسربة من عينيه الذائبتين.

وتنفس الصبح، وبزغت الشمس وولى النهار، ودربال يطوي الطريق ويتلوى هو والبعير كالحرباء المسافرة على شجرة ملتوية القروع، وفي الليل أراد دربال أن ينيخه في بقعة عميقة مقفرة تبرز على جوانبها تلال صغيرة مكتظة بأشجار القرص والصبار، ولكنه لم يخضع له، وظل يلح عليه مراراً حتى يش منه، وانتابه العجب من تلكؤه وكان بما جبل به من فراسة يمت عنقه الطويل ويرهف بكل حواسه إلى ناحية التلال، وجعل يهيج في موضعه ويصدر بعباعاً موحياً بدنو الخطر.. ومازال يرغبى محاولاً شدد زمامه، بيد أن الخادم أدرك ذلك حينما سمع عواء الذئب، فعلم للحظته أنه أخطأ وسلك وادي الذئاب، ارتد المسكين إلى الوراء، ولطم وجهه وراح يندب روحه ويلعن بخته الرديء، وذلك لأن في حوزته رمح عتيق قد أكلته السنون، فلا يصيب بمقتل إلا في الطعنة العاشرة، ويتم ذلك بعد جهد جهيد، إذا أحسن حامله الطعن، وإلا فلا يحدث هذا الرمح في هدفه سوى خدشاً بسيطاً قد لا تصل الدماء إلى سطحه..

وبينما دربال مبهورتاً يفكر في وسيلة تقيه من الذئاب، إذ هرعت إليه العشرات منها مستجيبة لنداء الذئب الضريع. فرفع رمحاً في وجه تلك الكائنات المتحفزة والمقتربة صوبه بخطى مخيفة.. وسرعان ما تكالبت عليه ونهشته بشراسة، حتى صار جسده مثقلاً كلوح الغريال، واستفاد البعير من لحظة انشغال الذئاب بالخادم دربال وإن كانت قصيرة، فألقى سيقانه للسريح،



وأخذ ينهب الوادي نهباً مطلقاً صوتاً مريعاً، ويرمي ساقيه الخلفيين في الهواء صافعاً وجوه الذئاب التي لحقت به، والتي سرعان ما انكفأت عنه وهي تقاذف اللعنات وراءه بأنيها الغاضب المتبعث من صدورهما المتحشجة. وظل يعدو غير آبه بسلة المؤن التي سقطت أرضاً، ولم يكفكف جريه حتى خرج من وادي الذئاب، ومع هذا استمرت خطواته شديدة إلى أن تنفس الصبح وجاءت الشمس دالقة أشعتها على الكثبان كالسائل الأبيض، ولاحت أمامه صحراء منبطحه كالمرآة، ورام لزال بيكي والبعر سائر به في تلك البداء لاحقاً مساراً نقشته الركبان بأقدامها النحيلة والعريضة على حد سواء..

فجأة ظهر على مجموعة من قراصنة الطرق كانوا يتمركزون في ذلك المكان لنهب وسلب القوافل التجارية الشحيحة الحراس.. وما إن رأوا البعير حتى أحاطوا به من كل جانب شاهرين رماحهم وسيوفهم المخضبة بدماء التجار والعييد، وبدا كبيرهم رجلاً قذر المنظر مكسور الأنف، وعلى جبينه كدمات ظاهرة عانقتها شفاه السيوف بحفاوة طيلة عمله في قطع الطريق زعيماً لهذه العصابة، فصار أشبه ما يكون بقرد تردى من شاهق ووقع على صخرة مفتتة ذات بروز مستنة، ومع هذا ولد له عمر جديد بعد أن كان ميئوساً منه، أما أصحابه فليسوا أقل حظاً منه في البشاعة، فترى أحدهم مطموس العين، وآخر يحمل رأسه أذنأ وحيدة، وثالث مسلوخ الذقن، وأما الوسيم منهم فهو رجل لا يتكهن أحد عمره، قصير القامة، ضاحل الصورة، عديم اللون، ذو فكين أمردين يذكرانه بيوم ولدته أمه ووضعته مقمطاً على طبق من الفخار، يزعمون أنه أشجع وأدهى قاطع

للطريق.. لا لشيء آخر وإنما لأن السيوف لا تراه لضآلة جسده.. وقد أخطأ رمح صرواحي ذات يوم وأطاح بأسنانه بعيداً عن فمه، ونثرها على أرضية المنحنى كاللول المنفرط من خيط رقيق، وهاهو في لحظة ثوران البعير ومحاولته الإفلات من الدائرة المضروبة حوله، يفاجئ نفسه ورفاقه بإصابته بسهم مشرئف من قوسه العاجي، فدار الحيوان المسكين حول ذاته سبع دورات، ثم انطرح على كثران الرمل مولياً وجهه صوب معبد المقة وسيد السادن، كأنه يجأ قائلاً:

«إلى هنا الرحلة، وقد وضعت رحالي في أرض لا ترحم عابرها».

شاب رام الدوار بفعل دوران البعير، ولما استلقى الأخير انضغطت قدمه اليسرى تحت وطأة جثته الضخمة، فتألم، ولم يلبث أن فارقه وعيه، حينها هبوا إلى ذلك القزم يعانقونه حتى أخفوه عن الأنظار، وصار القائل منهم يقول بحماسة وسخرية في آن واحد:

- هنيئاً، فعلتها اليوم يا من لم تصب رميتك صخرة عملاقة قط.

- أنقذوني من تحت أقدامكم يا حثال القوم، فعناقكم مشؤوم لا أطيعه.. انتشلوه للتو كما لو كان خرقة مطمورة بين الأنقاض، وقال قائدهم ويدعى طهمس:

- لم لم تبرز أشواكك ومن ثم تحول دون عناقنا لك؟

ضحك القطاع من سخريته السقيمة إلا مظموس العين ويدعى نسس حيث أوسعهم لوماً، وقال ملوحاً بذراعه:

- يا أشأم القطاع تكاد جيفة البعير أن تفوح، وأنتم تجاملون

قنفذ.

-أنتم من ستأفنون منها يا أرباب الأنوف المعوجّة، أما أنا فلا..

قال أحدهم ذلك هازئاً بنفسه وبهم، فأخيراً وجد أنه اكتسب من ذهاب أنفه فائدة مسبغة، إذ لا يشعر البتة بالروائح الرديئة، ولكنه بالمقابل أيضاً يخسر الروائح الزكية، وبهذا يكتسب بالقدر الذي يخسره في هذا الجانب، وعلى كل حال تراءى فوهتا بركانين انفجرا بمنتصف وجهه في يوم عبوس، وكان هو أول من وصل إلى جثة البعير وهم وراؤه كالغريان، واستدرك قائلاً بانبهار وهو يتشلله:

- غلام هزيل وقطعة جلد موثقة معه بالحبال المتينة.

اكتنفهم الذهول والصمت معاً، فأردف متسائلاً بجديّة:

-ألم تلمحوه قبل الآن؟

-نعم، ولكننا حين رأيناه مبطوحاً على متنه لم نأبه له، إذ كان البعير يحاول الهرب قبل أن يصرعه قنفذ..

أجابته مقطوع الأذن نيابة عن الكل، فتحسرك نسنس حركة قويهية بغرض إثبات ذاته وقال مؤكداً حدادة بصره:

-أنا أول من رآه، وقد أشرت إليه، لكنكم كنتم مشغولين بقنفذ..

-كيف تدّعي رؤيته يا أهور قبل أن نلمحه نحن ذوو الأعين الصحيحة..

لم يقبل نسنس سخريّة مبتور الأذن، ورد عليه بالمثل، وتبادلا التعمير بالفاظ بذينة، وفضّ قائدهم طهمس الشجار قائلاً بلهجة امرأة:

-هات يا نسنس قوتاً للغلام، وأنت يا بحبيح خذ الجلد

المنسوخ، واذهب الساعة إلى سادن صرواح ليقرأ ما كتب عليه،  
وحاذر أن يرتاب في أمرك.. انصاع الاثنان لأمر كبيرهم، وذلك  
درءاً للشقاق، ولئلا يقال على أحدهم مشاكساً إن هو خالف  
الأمر، ومن ثم يتكالب عليه البقية ويحاجونه بذلك، فاتجه  
كلاهما إلى عمله المناط به، بينما أسند طهمس رام على ذراعه،  
وجس صدره براحة يده، واستغرق قليلاً، ثم رفعها مستبشراً  
وقد تبين له إنه لازال حياً، وأن ثمة سخونة لازالت تنبعث من  
جسده... أمّا أنفاسه الساكنة فتنبئ بأمل طفيف للحياة.. وجاء  
نسب بحليب متخثر في إناء نحاسي غطاه الصدأ الأزرق،  
وأخذ يسقيه وآخر ممسك بشدقيه بكلتا يديه إلى أن فرغ الإناء،  
وفجأة صرخ قنفذ رانياً إلى رأس رام حتى أريك أصحابه،  
فرشقوه بنظرات ذاهلة، فسارع قائلاً:

-الفدية يا قوم، الفدية... سنصير أغنياء وشرف المقة..

- قُل.. ما الخطب؟؟ عَجَّل يا صاح.

تنافست ألفاظهم في وجهه على هذا النحو، فأجاب متدثراً  
بالفرحة:

-انظروا أذنيه يا حمقى، فلا شك إنه ابن ملك أو قيل..

ابتلعت عيونهم أذنيه وصعقوا من السعادة، وقال طهمس  
بنشوة:

-إنه قيل لأنه مخروم الأذنين، فاكشفوا عن كتفه الأيسر

لنرى...

انبرى أحدهم وأماط الرداء عن كتف رام، فلاحت عليه دائرة  
صغيرة، وراح طهمس يتراقص ويرفس كالحمار مبتعداً عن  
وقاره، وحين سألوه أجاب بهجة:

-الأقيال مخروموا الآذان فقط، وأما الملوك فتتميز عنهم بدائرة  
محفورة بالنار.

ثم طفق يحكي لهم حديث أبيه عن تلك الدائرة، وما إن أتم  
عبارته حتى انتقلت إليهم عدوى الرقص واللعب، وصاروا  
يتوقعون جزافاً مقدار الفدية.

\* \* \*

بعد يوم شاق بلغ بحبح معبد صرواح، ووجد السادن شلق  
لدى مصطبة عالية قرب المعبد، فأمال رأسه خانعاً، وناوله الجلد  
المنسوخ ولاذ بالسكوت.. تطلع السادن شلق باهتمام إلى الجلد،  
وسرعان ما اهتزت حدقتا عينيه بطريقة لاإرادية، وهو يتهجد  
بسكون تلك الأحرف الكبيرة، وما هي إلا برهات قليلة حتى  
شخص إلى وجه بحبح، وسأله بمكر:

-أين وجدت الجلد المنسوخ يا هذا؟

رد عليه بحبح بسداجة:

-ألفيته مرمياً بين الكشبان، وأود من قداستك أن تقرأ عليّ ما

ورد به.

-لا تفارق مكانك، حتى أبتاع للآلهة عبداً راشداً يحرق

النذور.

هز بحبح رأسه برهبة، وثبت في مكانه، على حين غاص  
السادن شلق عمق أرضية ملتوية اقتعدت بين دور مهجورة  
مبعثرة يكتنفها السكون. وما إن غاب عن محيط المعبد حتى ابتلعه  
زقاق طويل وسط المدينة... انحنى حُرَّاس قصر صرواح حال  
اقتراب السادن شلق من بوابته الواسعة، وهو الوحيد الذي  
يدخل على القيل الأكبر في أي وقت شاء، دون أن يستوقف أو

حتى تفحصه النظرات.. ولج إلى مجلس القيل حوف بن طاهم  
رافعاً هامته وعلى ملامحه كسوف حاد، واحتقان مشبع  
بالانزعاج. فاستقام الأقيال جميعاً تجليلاً له، وهتف القيل الأكبر  
حوف قائلاً بما يشبه الاستفسار:

- أهلاً بك يا روح المعبد... لم أجهدت نفسك بالمجيء إليّ؟  
أوماً له السادن إلى زاوية بعيدة في المجلس وخالية، ولما انفرد به  
سأله همساً:

- هل لشقيقتك ترا ولد من أحفاد الملك شراح؟  
- نعم.. رام ابن الملك شام، ماذا حدث له؟ وماذا جاء في هذا  
الجلد؟

قال القيل حوف عبارته باضطراب، ففض السادن الجلد وقرأ  
بصوت خفيض: " بعناية المقة آلهة سبأ الكبرى، تم إنفاذ رام بن  
شام على متن بعير يصحبه أحد عبيد المعبد الأكبر، إلى خاله  
حوف بن طاهم قيل صرواح، لأن حياته مهددة بالفناء في  
أرض جنات "

- أين رام الآن يا شلق؟  
قالها القيل حوف مبتعداً عن كلفته الزائدة، وأطلق آهة التبايح،  
فمضى السادن يسدي إليه خبر بحبح، فلم يلبث أن أمر قائد  
حراسه أن يتعقب السادن إلى المعبد، وأن يرغم قاطع الطريق على  
الاعتراف بمكان رام.

أذعن قائد حراسه وسار وفرقة كبيرة من الحراس إلى المعبد،  
ولم يشعر بحبح إلا والجنود تمسك به، والسياط تقترح ظهره  
بضراوة، وصوت قائد الجند يقرص أذنه الوحيدة بعبارات  
لاذعة، قائلاً:

- أين الغلام يا مقطوع الأذن؟ أجب يا مبتور الأذن.. هيا..  
- ماذا؟.. لا أسمع يا سيدي..

- عرّوه، وأوسعوه ضرباً حتى تنفتح أذنه، ومن ثم يعي  
الكلام.. صرخ بحجيج بضراعة، والجنود تمزق ثيابه بأسنة الرماح:  
- كلا يا قوم. سأدلكم على مكانه.

\* \* \*

كعادته يخلق المفاجآت المفرحة منها والمحزنة.. قنفذ ذلك  
القرم الصحراوي استوحى معضلة هويصة، ولكن بعد فوات  
الأوان، وقد مضى يومان على رحيل بحجيج صوب صرواح التي  
غدت قريبة من مكانهم. حيث قفز فجأة قائلاً:

- ماذا لو قبضوا على بحجيج؟ أتحسبون السادن سيسكت عنّا إن  
وجد في الجلد المنسوخ ما يشير إلى الدائرة المقدسة؟  
- أيها القنفذ القرفان، لمّ تلفت انتباهنا إلى هذا قبل مسير  
بحجيج؟

بصق طهمس في وجهه، وأردف زافراً بغضب:

- أيها الأوغاد، تأخر بحجيج، وأظن الخبيث مقبوضاً عليه أو  
لازال يمرح في أسواق صرواح.

وظفق يتحرك ذهاباً وإياباً في موضع على الكثبان يساوي ثلاثة  
أمتار، ويهرش قرن رأسه بطريقة تبعث على القرف، وجاءه  
صوت من ورائه:

- لو كنت أنا مبعوثكم، لصرت هذه اللحظة مائلاً بين  
أيديكم.

- اسكت.. أتذكر يوم بعثناك إلى...؟

بتر عبارته حين بان غبار كثيف في جانب بعيد من الصحراء،

فنفروا إلى ظهور جيادهم وصاح أحد العشرين من القطاع قائلاً:  
-أظنها قافلة تجارية، فهيا بنا نكمن على قارعة الطريق.

وتسارعوا للقاء القافلة المزعومة، وما إن اقتربوا حتى انقشع الغبار وظهرت من تحته فرقة كبيرة من الجنود، وأراد قطاع الطريق الإديبار إلى الخلف، لكن الوقت لم يسعفهم، حيث طوقهم الجنود بأسرع من لمح البصر، ورأوا بحبح راكباً على جواد صرواحي أشهب، فرمقوه باحتقار، ولطموا وجوههم بحسرة، وقالوا هامسين:

-خدعنا مجدوع الأذن لينفرد بالفدية..

بيد أن بحبح لم يستسلم للتهمة بسهولة، فألقى إليهم نظرة مغبوتة، وكشف ذراعه ليربهم الخطوط الحمراء التي نقشتها السياط على ساعده، وهو أدنى أعضائه إليه، ولولا الحياء لأماط قميصه عن جسده تماماً ليروا أنه معذور... وقال في سره لهم:

« لم أنس العهد الذي أبرمناه، ولكننا وقعنا في فخ قاسٍ لم تكن

نشعر به ».

وقبض عليهم الجنود بسرعة، وكبلوهم بالكلابش الحديدية، وساقوهم أذلاء إلى أمام قائد الحراس، وما إن حدثهم قليلاً عن الغلام حتى أدركوا أنه ابن شقيقة قبيل صرواح، وهذا ما لم يخطر لهم على بال، واستطاعت السياط بما تملكه من قساوة أن تجبرهم على الاعتراف، فأرشدوهم إلى حيث رام، وبعدها شدهم الجنود بالسلاسل على متون خيولهم، فتراهم مبطوحين على بطونهم ورؤوسهم فوق أذنانها.. وهنا أحسوا بأنه لم يقبض عليهم إلا لأن ذلك الصبي عزيز الشأن، فكم قد سلبوا ونهبوا من أموال القوافل والركبان في عهد الملك كرب، فلا يجدون من يردعهم في هذه



الورطة اعترفوا بكل جرائم القتل التي اقترفوها وبالقوافل التي اغتصبوها من أصحابها. آخر هذه القوافل قافلة صغيرة محملة بأحجار كريمة وأصناف نادرة من الأكسية والجوهر النفيس كانت بمعية التاجر زقم، أخذوها وأزهقوا روحه وفتكوا بأتباعه الخمسة، وفوجيء القليل خوف بهذا الخبر، ولم يجد سبباً يدعو زوج أخته للمجيء إلى صرواح إلا إذا كان قد ضاق ذرعاً من انقطاع أوامر العلاقة بينهما، فقدم بتلك القافلة ليهدبها إليه ويناشده أن يصفح عن تلك الخطيئة. فقد كان القليل خوف - على خلاف أبيه - غير متسامحاً معه ومع أخته تنرا الكبرى.

لذلك لم يكثرث لأمره، بل إنه وجد في هذه الحادثة مبرراً معقولاً، لكي يفسر لأهالي صرواح وجود رام، وبعد أن حكم بالموت على قطاع طريق المسانة الصحراوي شعر بنسوع ما من الارتياح، ولم يعد يشغل باله سوى الاطمئنان على ابن شقيقته، ومن أجل ذلك استدعى له حكيم المحمية، فجاء إلى المجلس وفحص حالة رام، ولم يلبث أن أكد أن الوعكة الملمة به بفعل الخوف، علاوة عن التواء طفيف في الكاحل، ولكنه بدأ يخف ويتماثل للشفاء، ومن قبيل الحرص ترك له عقاراً مدقوقاً في علبه، وشراباً منشطاً، وعدداً من النصائح المفيدة، ومضى إلى حال سبيله. في آخر النهار عاد القليل خوف إلى جناحه في القصر، وأدخل رام على زوجته زيبا، وأسرها أمره والخطر الذي يتعقبه، ثم قال بتأثر:

- أكرمي ابن تنرا، وضميه إلى ابنتنا أوزار واكتمي عنه وعنهما الخبر حتى لا يتقشى ويصل إلى الملك كرب، فيعيده إليه ويقتله بلا رحمة..

ثم قام لتوه وأرسل خلسة إلى السادن شلق، فأتاه مصطحباً معه قطعة جلد وريشة صغيرة، وراسب أسود للكتابة. ولم يلبث أن دوّن نسب رام على هيئة وثيقة خالدة يتعذر على أي امرئ فيما بعد أن ينكره أو ينفي دائرته المقدسة أو يدعي زيفها.. وذكر أيضاً كيف عثر عليه، ولم يتجاهل كذلك أهمية رسالة السادن الأكبر شيزار، فأضفاها إلى ما ابتدعه ذهنه من هواجس قد تحدث في المستقبل، وأرفقها ووثيقته الخالدة، وآب إلى المعبد راضياً عن عمله، وتوجس أن الآلهة بين لحظة وأخرى سترفعه إليها في ذلك اليوم، لأنه أنقذ الدائرة المقدسة من الضياع المحتمّ وأوثقها إلى الأبد، ويكفيه شرفاً أنه اضطلع والسادن الأكبر شيزار بهذه المهمة المجيدة، بل ويساوره غرور خفي لذيد لا يجروء أن يفكر به على الأقل. لأنه بهذا يسيء إلى قداسة الأب الروحي شيزار، ومن ثم يعد لدى نفسه والآلهة مذنباً، لهذا ردّ الفضل الجزيل إلى السادن شيزار بنفس قنوعة، وذلك بالرغم أنه كاتب الوثيقة، ناهيك على أنه سبب بارز أدى إلى العثور على رام وإنقاذ الدائرة المقدسة من التلف.. أما القيل حوف فقد حمل الوثيقة ورسالة السادن شيزار إلى مجلس الحكم.. وأخفاهما في خزانة الوثائق التليدة.. وهذه الخزانة حصينة قوية تضم في جوفها وثائق جميعها خالدة، أمّا الوثائق العادية وإن كانت بعضها سرية جداً وخطيرة، فلها خزائن أخرى أقل حصانة من خزانة الوثائق الخالدة، ولأهميتها المفرطة تقبع على حائط مجلس الحكم خلف كرسي القيل الأكبر، ولا يحمل مفاتيحها إلا هو أو السادن، ولا ينام أي منهما إلا وهي موثقة إلى وسطه.

بعد أيام قلائل وصلت رسالة من السادن شيزار يسأل خلالها

عن رام. ورد عليه القيل حوف برسالة ينبئه عن وصول ضالته  
بسلام، ويشكر لقداسته صنيعه، وأضاف أشياء أخرى إليه كلها  
تتعلق برام. وفي نفس الوقت استطاع أن يجيك لرام نسباً آخر،  
ويغرسه في أذهان أقبال صرواح، وكان ثمة رعب يجثم في صدره  
من أن يسترق أحد الأقبال نسب رام الحقيقي وينقله إلى أرض  
جنات، فيسمع به الملك كرب.

إلا أنه بعد مرور شهر تأكد من أن السر لم يتسرب، وأن عليه  
ألا يقلق بعد ذلك أبداً، بيد أنه واجه معضلة أخرى تهدد  
بانكشاف السر، فإزال رام يعلن أن أباه جندب، وينطق باسم  
الملك كرب وفردون وأشياء أخرى علق في ذهنه منذ أن كان  
في أرض جنات.. وبالكاد استطاع القيل حوف أن يمحو ما  
بذاكرته القديمة، وأجبره وبصعوبة على أن يتناسى اسم "رام"  
الذي يتعثر به لسانه، وهو آخر لفظ قديم مات في ذاكرته.

بدأت حياته الجديدة بحيادية تامة عن ماضيه. حيث عاش في كنف خاله خوف وأوزار تحت سقف واحد، والأخيرة هي ابنة خاله الوحيدة، وأول وآخر عنقود قطفه من رحم امرأته زيبا، وأصبح لا يعلم عن ذاته شيئاً إلا أنه ابن زقم أكبر تاجر للمجوهرات في مملكة سبأ كما قيل له، وأن اسمه "رياد" وتعني الصقر الجارح، وأن والده الثرى مات وهو رضيع وكذا أمه تنرا الكبرى، وكان خاله يرتهب من طلعتة إذا أقبل عليه، وكأنها يرى دماء شراح الذي قتل أباه في وجهه الصغير... ولم يكن يراه أو يعامله كما يرى أو يعامل الخال ابن شقيقته. بل إن علاقته به كانت أسمى من ذلك بكثير... لاغرو في ذلك، فرام منقوش بالدائرة المقدسة وهم قلائل المنقوشون بها، وهذا يعني أن الآلهة ترعى صاحب هذه العلامة التليدة، وتشد أزره وتنصره على أعدائه، كذلك تنتقم له، وكل أهالي مملكة سبأ يغبطون ذرية الملك نور عليها، وهي سبب الولاء والطاعة، ولولاها لأنقلب بأس السبئيين الشديد إلى عاصفة عاتية من النشوز، تطيح بهم من على عروشهم.

ولكن تراهم وديعين من أجل هذه الدائرة كالأرانب، لذا لقي رام في صرواح حضناً دافئاً مغموراً بالعطف والهناء، إلا أن أوزار هي الوحيدة التي كانت تستنقص منزلته وتهينه إذا أغضبها، ولا

تلبث أن تعيَّره بأبيه التاجر، وبدورها تتباهى عليه كونها من  
سلالة الأقيال، ولأجل هذا يبكي حتى تتفرح عيناه، ويقاطعها  
ملياً، إلى أن تأتي إليه صاغرة بإكراه من أبيها لكي تعتذر له،  
وحينها يهدأ باله ويخرج من مقصورته وينأى لتوه عن  
العزلة.. وهكذا نمت كراهيته لأوزار مع نمو جسده، وصارت  
عقدة نفسية تلازمه مع مرور الأيام... ولما بلغا العاشرة من العمر  
أرسلها خاله خوف إلى السادن شلق ليعلمها صلوات المقة  
وأدعيتها، لكنه كان ينسل من المعبد خلصة ليخالط أبناء العامة  
في صرواح، ويلعب معهم في الباحات والحواري، على حين تقبع  
أوزار وحيدة والسادن أغلب الأوقات. وجاء السادن شلق إلى  
القبيل خوف شاكياً غياب رام عن المعبد، وأوغر صدره بألفاظ  
حامية، فأزمع خاله على توبيخه.. ولأجل هذه النية المبيتة دخل  
عليه وهو في مقصورته، وقال له بصرامة:

- يقال أنك غير ملتزم بأداء الصلوات المقدسة وتخالط أبناء  
الأسواق..

أدار رام له ظهره، وأجاب بحنق:

- السادن يطيل الثرثرة ولا أحتمل الجلوس معه.

- لم لا تأتي إلى القصر بدلاً من أن تجالس أبناء المدينة؟

- هم أحبُّ إلي من السادن شلق وتباهيله المضجرة!!

- يا لهول ما تقول أيها السفهيه... غفرانك يا آلهة سبأ...

واستشاط غضباً، وأراد أن يبطش به، ولكن خيل إليه أن الملك

شام واقف بقامته الشماء ينظر إليه محذراً إياه، فعدل عنه، غير أنه  
هزه بعنف وقال:

- كيف تكلمني وأنت مستدير، وكأني أحد الخدم في القصر؟

أزاح رام كف خاله خوف عن كتفه، ومضى خارج المقصورة غاضباً. ضرب القيل خوف كفاً على كف، وسار هو الآخر إلى مجلس الحكم حانقاً... وفي المساء رأى خوف في منامه أن الملك شام قدم إليه على حصان عملاق وضربه بقضيب قرمزي اللون كان في يده، وقال له بصوته الخارق:

- رام وديعة في عنقك، فهو من سيدق الطبل.. الطبل...

الطبل...

وتردد صدى مفزع في منامه كأنه صوت الطبل.. فاستوى على فراشه مفجوعاً، وأزال نية شريرة كانت قد ركبت في ذهنه. وفحواها ترحيل رام بعيداً عن صروح إن هو تمادى في تكذيب السادن شلق أو أفرط في مصاحبة أولاد الرعايا. ورغم هذا اجتهد القيل خوف في تدليل رام أكثر من ذي قبل.

\* \* \*

ومرت على رام بضع سنوات وحياته هادئة رغيدة، ولما بلغ سن الخامسة عشرة بعثه خاله خوف وأوزار إلى المدرب فلح ليتمرسا على القتال وركوب الجياد، وكان رام في الخمس السنوات الأولى يسترق ورفاقه أياماً بل شهوراً كثيرة للتدريب.. وإن كانوا يصلون في الميدان راجلين ولا يجرون على الدنو من المقاتلين الكبار، غير أنهم اكتسبوا خبرة لائقة بمن هم في مثل سنهم الصغير... وفي تلك الفترة افتتل ساعده وشعر أن بؤسه الانخراط والمجيدن للطعان في عمق ميدان التدريب، بيد أن أترابه كانوا يشبطونه ويغرسون الوهن في قلبه المرتهب من هذه المغامرة اللامعقولة، فانكفاً عن رغبته الملحة تلك كئيباً، وجاءت الفرصة سانحة أخيراً، وصار المدرب فلح

يوليه وأوزار الاهتمام الكامل، ويستमित في تدريبيهما من أجل أن يظفر بنوال القيل حوف.. فكان يوسع لهما باحة عريضة من ميدان التدريب، ويقضي معها جل وقته. واحترف رام القتال سريعاً، وصار لا يفرقه عن صهوة جواده الذي أسماه الشهاب إلا الديجور، كما استهوته الرماية كثيراً، وبلا منازع برع في إصابة الهدف بالنشاب، ولفرط مهارته خيل إليه والمتدربين أيضاً أن بمقدوره أن يرمي مغمض العينين ولا يخطئ هدفة مطلقاً، بينما كانت أوزار تكره الفروسية والقتال بشدة وفي كل يوم تنسل خلسة من ميدان التدريب وتعود إلى القصر.. لذلك شكاهها المدرب فلهج إلى القيل حوف، ووصف له إحجامها عن الفروسية والقتال بالتنصل عن عادات سبأ التي جبلت عليها معظم الفتيات، لا سيما بنات الأقبال، فاعتاظ القيل حوف من ابنته أوزار، ودخل عليها متنمراً، وقال لها بتزق:

- لم لا تتمرسين على القتال مثل رباد؟

- أنا لا أحب الجياد يا أبي، وأشعر بالدوار عند ركوبها. فكيف

أطبق القتال؟

- الكثيرات من بنات الأقبال والملوك محاربات، وأنت أيتها

الكسولة لا تجيدين سوى التجمل وارتداء الحلل والصيفة.

- أف.. أف... لدينا جيش جرار يكفي لصد الأعداء عن

المحمية... قالت أوزار عبارتها زافرة في الهواء بضيق، وشعر

القيل حوف بالسخرية المندسة بين كلماتها المحتدة، فصفعها على

وجهها، وقال لها معيراً:

- لم تتذرع فردون ابنة الملك كرب بالجيش، وهي جديرة بأن

تقول ذلك، ولن يلومها أحد لأنها ملكة بنت ملك، وقد بلغني

أنها تصارع الرجال، وتجلس على عرش الحكم يوماً في الأسبوع.  
أمسكت أوزار خدّها براحة كفها، ونظرت إلى أبيها  
باستنكار، والدموع تطفو على سطح عينيها، فغادر مقصورتها  
بالحال، إذ لم يحتمل الوقوف أمام نظراتها المكلومة. فأخذت  
تولول بعد خروجه وتتوعد رام بالقطيعة والمكايدة.. إذ ظنت أنه  
من دس عليها لدى أبيها وجعله يهينها تلك الإهانة الشديدة،  
وكانت قد شرعت تلاطفه في تلك الآونة، وتبش في وجهه  
وتتخاجل أمامه كلما رأته في القصر أو خارجه، حيث نضح عود  
أنوثتها سمات البلوغ مؤخراً.. وضخ قلبها أحلام المراهقين،  
فأندت وجنتها احمراراً، وارتفع عنقا نهديها بشموخ ليلا مسا  
سطح قميصها الفضفاض بشكل مفر، ويضغطاه بعناد كأنهما  
يهبان بالمروق منه إلى الخارج، ليقولا لرام بلا وعي: هل تحب  
العبث بتفاح صدور النساء؟.

وبدت تتفرس تحت سرتها باهتمام، وترى العشب الأسود  
نابت على قاع أمرد أدناه عين غزيرة يتوسطها رشاً صغير يهتز في  
الطقس الحار، وتضحك وتعترها نشوة عارمة إذا امتدت يدها  
إلى الرشأ ومعكته مراراً عديدة... ولكنها تردم العين متي تلتطف  
الطقس وطفح الزئبد على حافتيها.. وكانت تستعين على إطفاء  
جذوة جسدها الملتهب باستدعاء خيالات الرجال إلى سريرها  
الوثير. ولكن لم يكن هناك أي خيال يعاشرها على الدوام غير  
خيال رام. يبتدى طيفه الرشيق يرمقها باشتهاء وولع عظيمين،  
وهي تصد نظراته بتدلل وابتعاد مقصود، وكلما زاد الصد زاد  
معه الجنون والانجذاب. إذ ليس هناك ما هو ألد إليها من سماع  
لهائه وتوسلاته الضارعة. وهي من النوع الذي يجد غضاضة في



نفسه من الوقوع السريع في درك الحبيب. ولكنها تريد من مطاردها أن يشق السبيل إليها بالعنف وأن يأخذها بالقوة، لأن الطريق إلى قلبها وعزّ للغاية، أما جسدها البض فإن أي همسة أو لمسة يمكن أن تؤدي إليه بسرعة وإن لمفاتها لغة تبوح بما فيها من أسرار، وتطفح بالإغراء والوعود الطيبة. إذن لماذا يزهد الناس عن قراءة هذه اللغة الوئيدة؟ تتساءل.

وتشعر بحاجز كثيب يفصل بينها وبين عالم الذكور، وفي وهلة من وهلات الاشتهااء تلعن في سرها من وضع هذه الحواجز. وهي تدرك إنها من صنع السدنة الذين تموت فحولتهم في خضم التماهي الروحي في المعبد. ولهذا لا يريدون للآخرين أن يتمتعوا بما حرموا منه. الآلهة العظيمة لا يمكن أن تمارس هذه الرقابة الدنيئة على عبّادها. ولا شك أنها تغض الطرف عن الخطايا الصغيرة، تلك التي تتعلق برغائب الجسد وهفواته. وصلت أوزار في تفكيرها إلى هذه القناعة المثيرة، رغم ذلك فهي تقيم كل شعائر المعبد ولا تتأخر عن مواعيد الصلوات، وكانت ترى أن جسدها مثل روحها لا بد أن يتشبع بالرغبات والمتع. كان لها ميقات معلوم تتملى جسد رام عندما يستحم. في البداية لم يكن الخرم الصغير على الباب الخشبي متسعاً بما فيه الكفاية. لكنها فيما بعد ألقّت إلى خادمها أمر توسيع هذا الخرم. وباتت ترى كل شيء مستور في جسده. رأت عرية كاملاً وعضوه نائماً ويقظاً. وألمت بأسرار كثيرة من خلوته تلك. كيف كان يزيل شعيرات عانته. وتابعت بشغف الجهود التي كان يبذلها لكي يدع عضوه يتصب. كانت تلك لحظتها المفضلة التي تحس بأنه يستحضر جسدها ويسارس معها الحب في خياله. وحين

ينتهي من مضاجعة خيالها يعود عضوه إلى الخمول فيريق الماء على جسده عدة مرات. وتكون أوزار في تلك الوهلة مشتعلة الرغبة، ولا تلبث أن تنسحب بحذر لتعود إلى مخدعها لتمارس معه الحب في الخيال. ولكن هذا لا يشبع نفسها المتأكله، ولا يخفف هدير الغضب في أعماقها، وتقف مع نفسها وقفات طويلة. لماذا لا يغتنم رباد فرص خلو القصر من أيها وأمها - وهي كثيرة - ليزاورها في مخدعها؟ لماذا يفضل أن يضاجع خيالها ويريق ذلك السائل الأبيض في مكان غير مكانه الخليق به؟ هل ينتظر أن تذهب إليه لكي تتوسل أن يسحقها في حضنه الدفيء؟ لم لا يقحم نفسه في مخدعها ومن ثم يغزوها كل ليلة، ويلج في كل ثقب جسدها؟ هل مكتوب على الفارس المحارب ألا يكون فحلاً؟ أليست ممارسة الحب على الفراش الوثير أمتع وأقل كلفة وخطراً من مقارعة السيوف في ميادين التدريب؟ ألا ينبغي أن يظفر رباد بلقب " الفحل " كذلك؟ ياله من سليل حقير لسلالة قدرة. وإذا حمَّ غضبها وأرعد، تنفوه بكلمات بذيئة، وتزجي وقتها في القصر، ولدى صومجباتها القبيلات الصغيرة، وقد تهرع إلى المعبد حين تدق الأجراس للصلاة.. أما القبيلة " زيبا " أمها فكانت تزجي نهارها في معابد صرواح تدعو الآلهة أن تمن عليها بولد. ومع هذا لم تكن تنسى حقها في ارتياد الاحتفالات الكبيرة والأعراس المرموقة، والازدهاء الدائم بمكانتها الرفيعة في مجتمع صرواح كونها قرينة قيل المحمية. لم يصل بها بأسها وطول انتظارها لمولودها الذكر إلى حد التبتل والعزوف عن مباحج الحياة. وقد ساعدها في ذلك أن زوجها القيل خوف كان يتظاهر بعدم اكترائه بهذا

الأمر. ويظل يضرب الأمثال متأسياً بملوك سبأ الذين لم يرزقوا  
 بذكور وفي مقدمتهم الملك كرب. والحقيقة أن فكرة الولد مخزونة  
 في نفسه وتبزغ من وقت إلى آخر، لكنه يتجاهلها مرغماً. لأنه لا  
 يستطيع أن يقترن البتة. ذلك أن الوثيقة التي ربطت بينه وبين زيبا  
 برباط الزواج في معين لا تسمح له بالاقتران مرة أخرى في حياة  
 زيبا. وهي قبيلة معينة حكيمة كانت ترى في اقتران الرجل بأكثر  
 من امرأة خطأً من أخطاء الآلهة التي لا تعد، ولا يمكن لأي  
 إمرئ في صرواح أن يتفوه بها. وهذه الفكرة بذرة من بذور كثيرة  
 زرعها الحكيم حانون الإغريقي في رأسها أثناء مروره على مملكة  
 معين، إذ جاء يومئذ إليها فاراً من ضجيج أجراس المعبد الأكبر  
 في أرض جنات، وفي معين أنزله القيل وقاح في داره وطلب منه  
 أن يلحق أولاده وبناته الآداب العامة والفضائل ودروس  
 الدين. واستطاع الحكيم حانون أن ينشئهم على قراءة لغة  
 المسند، واللغة الهيروغليفية والإغريقية، وألقى إليهم كثير من  
 المسائل الجدلية والوجودية، وأوصاهم أن يتأملوها بعمق وأن  
 يبتوا في أمرها. ولما فاحت أفكار الحكيم حانون في أرجاء الدار،  
 ويات الأولاد والبنات يجابهون القيل وقاح بهذه المسائل، عدَّ  
 ذلك انقلاباً خطيراً ينال من سيادته في القصر ويهدد كيان العائلة  
 الملتئم، ثم اكتشف أن دروس الدين لم تعط لهم، فجن جنونه  
 أكثر من أجل هذا وسرعان ما أعفى الحكيم حانون من عمله  
 وطرده دون أن ينفضه أجر الشهور الستة التي قضهاها في تعليم  
 أولاده. وتلقت زيبا دروس الدين من سادن صغير كان يتقاضى  
 أجراً باهظاً. لكن أفكار الحكيم الإغريقي وما تعلمت منه طغت  
 على دروس السادن الساذجة، وما فتئت تسترجعها من الأوراق

المهترئة والجلود غير المدبوغة التي خطت عليها بالمسند. ونقلتها معها إلى صرواح، وحاولت أن تنشئ ابتتها أوزار على هذه الأفكار والدروس إلا أنها لم تستسغ أي درس من تلك الدروس، ونفرت من أمها زيبا بسبب ذلك. فمالت إلى رام الذي وجدت لديه تقبلاً حسناً لدروسها وانفتاحاً على أفكارها. وكان لا يحتمل دروس الدين التي تقام في المعبد، وعلى عكسه أحببت أوزار هذه الدروس وتأهبت للذهاب إلى المعبد لتتعلم المزيد منها. وبهذا توسعت ثغرة الاختلاف في الميول بين رام وأوزار. إلا أن نتائج هذه الثغرة بدأت بالتفاقم بشكل جدي مذ شياً. لم تكن أوزار تخفي احتقارها لسلالة رام التي تمتهن التجارة، وما فتئت ترى في أذنيه المخروميتين علامة زائفة يتستر بها ليخفي حقيقة أصله الوضيع، كانت القبيلة زيبا والقبل حوف لا يتدخلان فيما يحل بينهما من توتر وشجار. إلا أنهما كانا ينيهان أوزار عن معايرة رام أو التباهي عليه، ولا يكادا يجروان على اخبارها عن حقيقة نسبه. إلا أنها عندما دخلت سنوات مراهقتها حاولت أن تكفر عن خطيئتها، وأن تتودد إليه، وأن تدع لطفها وصوتها الخجول رسولا الاعتذار. إلا أن نبرات صوتها المتعالية واللكنة الفخورة تفضحها. وهي تخاطبه حين يعود من ميدان التدريب: "كيف حالك يا بطل صرواح؟".

وقد كشفت في أحد المساءات أن عمتهاتنرا الكبرى قد جلبت العار للعائلة عندما اقترنت بالتاجر زقم الأدنى منها شأنًا. ونسيت أنها تتحدث عن أهل رام. غشي العرق وجه رام، وانتكأت جروحه القديمة وشعر بقوة الإهانة فقال بارتباك: "أنا كذلك لن أقترن بقبيلة، ولا أكثرث بهذا الشأن". "أوه. رباد،

لم أقصد... " قالت بصوت مخنوق.

لم تتم العبارة، لأن الخجل أطبق على فمها، ولم تجد ما تبرر به  
فلتة لسانها أصدق من البكاء. ونسي رام هذا الأمر في زحام  
الحياة، أو بالأحرى عمد إلى تجاهله وكتمانه. ومع الأيام شعرت  
أوزار بحاجتها إلى الجسد الذي تراه يستحم عقب عودته من  
ميدان التدريب. تشتتبه لإرواء غلة جسدها المتهيج الظامئ.  
ولكن كيف السبيل إلى ذلك دون المرور على قلبه! هي تعلم أنه  
يمقتها أكثر من أي شيء آخر، ويفعل أي شيء يحول دون أن  
يلتقيها، ولا يرمقها إلا في أوقات نادرة في المساء حين يتحلقون  
حول مائدة العشاء. إلا أن حركاته وسكناته وأحاديثه تبدو هادئة  
وموزونة لا تشي ببغضه. وحدها تعلم ما يعتمل وراء ذلك  
الصدر الذي يواجه هجمات الرماح والسيوف المثلومة كل  
يوم. أدركت أن بقاؤها هي ورباد في قصر واحد من  
المستحيلات. بل تحس أن ثمة أمور غامضة تعجيزية يتحتم أن  
تسوى وتحل. هناك هوة ساحقة بينها يجب أن تردم، والأدهى أن  
كل تسوية قد تحدث تنشق عنها مناهات لا حصر لها. قليلة  
وسليل تاجر! كيف لها أن يلتقيا أو يتفقا على أمر ما. إذن المعركة  
ناشبة بين طرفين غير متكافئين. ولا بد أن يسقط الطرف  
الأضعف مضرراً بدمائه. والمسألة هي حياة أو موت. وعلى هذا  
عزمت أوزار أن تكون هي البادئة بالهجوم.

\*\*\*

كان رام يؤوب إلى القصر متأخراً، وينزوي في مقصورته  
يداعب أطراف الأسنة الخارقة، ويحمل سيفاً على وسطه تلو  
سيف، ويرتدي درعاً عوضاً عن درع وهكذا دواليك. وكأنه

مقبل على معركة مصيرية سوف تمنحه الخلود.. وعلى هذا النحو صارت مقصورته أشبه ما تكون بمتحف حربي يحوي أنفس وأحد وأثقل السيوف البتارة والرماح الخارقة والدروع والأقواس العاجية والخشبية والأسهم والتروس الصرواحية والريدانية والكثير من الأسلحة المتنوعة.. وكانت أعين الفتيات تتسكع على النوافذ لتراه حال عبوره ورفاقه كل يوم إلى ميدان التدريب.. أضحى مسبح القناة خارج المدينة متنفساً ينفسون فيه إنهاكهم من حين إلى آخر، ويزيلون بهائه المتجدد ما ركذ على أجسامهم من أوساخ التدريب، وفي أحد الصباحات البهيجة دعي رام إلى الذهاب صوب المسبح للاستحمام والسباحة.. فترك مكانه في مجلس الحكم، وسار ورفاقه، والنسمات الأولى المبكرة تلع وجوههم، وتمتزج رقتها وبرودتها مع حرارة ألقاظهم وضحكاتهم المتعالية في الهواء..

وصلوا سريعاً إلى المسبح ورأوا جمالاً كثيرة مثقلة بالبضائع مناخة حوله. وعبيداً يتزودون بالماء، يملأون جرارهم وقنانيهم والبعض منهم يغسل وجهه الكابي وأطرافه الخشنة، أما رام فانشغل بحصانه الشهاب، وراح يبحث له عن مكان آمن بين الأشجار ليعقله عليه، فيما هرع رفاقه إلى المسبح، وأخذوا يحرون أولئك العبيد ضرباً، ويطيحون بجرارهم وقنانيهم إلى الأرض، فابتعدوا مرعوبين، وراحوا يستغيثون بشخص بعيد عن المكان لم يره الفتيان، فأقبل رجل أصفر الوجه، أزرق العينين، اختلط سواد شعره بالبياض، وملاحه الضامرة توحى أنه في الخامسة والأربعين من عمره، أو أكبر قليلاً، ووقف جامداً على جانب المسبح يتأمل وجوه الفتيان والسخط جلي على قسامته.. وهم

يذرعون صفحات الماء، والبعض منهم يسد أنفه ويغوص إلى الأعماق، ويصعد بعد لحظات وجيزة لاهثاً.. وجاء رام وأماط ثيابه ماعدا سرواله القصير، وقفز إلى الماء.. وبعد مدة كافية من السباحة صعد وبعض رفاقه إلى شط المسبح، وجعلوا يرتدون ملابسهم بينما لا زال البعض يشقون عباب الماء.. وتصفح أحد الفتيان وجه رام، وهو يلبس آخر أرديته، وخاطبه بتطفل قائلاً:

- ماذا تعرف عن هذه الدائرة المحفورة على كتفك الأيسر.

- كلما جئنا إلى المسبح لا تنفك تسألني عنها وأنا أجيب عليك.

نطق رام عبارته مهتاجاً، فيادر أحدهم قائلاً:

- رباد لا يكذب، قال إنه لا يعرف عنها شيئاً.

- أنا أستبشر له خيراً.. فإن كانت الدائرة المقدسة فهو ليس ابن تاجر المجوهرات...

حانت منه التفاتة، فبتر كلامه فجأة، حين رأى رجلاً شاخصاً إليهم بإنصات تام. التفتوا إليه، فتنحج الرجل وقال لهم بحدّة:

- لم زجرتم عبيدي عن السقاية وأوسعتموهم ضرباً؟

حدج رام وجوه أصحابه بنظرات فاحصة، فأخذ البعض يلقي اللوم والتهمة على البعض، والآخرون ينفون ويلقونها عليهم.. فقال رام معتذراً:

- المعذرة أيها الغريب على ما بدر من رفاقي في غيابي.. وهالك الماء خُذ منه حاجتك واملأ قربك ولن يعترض طريقك أحد، لأن المسبح من أملاك الآلهة..

- لست غريباً أيها الفتى الكريم. أنا فالوس الروماني تاجر الملك كرب. في تلك الأثناء سُفي غليل التاجر فالوس وشعر بالارتياح وهو يرى رام يوبخ رفاقه بشدة.. فمضى إلى حال سبيله وقافلته.

في تلك الفترة زادت ضراوة التدريب، وصار رام في السويعات الباقية من النهار يلحق برفاقه إلى ميدان فسيح خارج مدينة صرواح.. فيقارع أقرانه واحداً تلو الآخر.. ثم يعود إلى مقصورته متخناً بجروح طفيفة على جسده، وأحياناً لا يعود إلى القصر إلا بعد أسبوع.. إذ يقيم ورفاقه في الليالي المقمرة بميدان التدريب.. وفي يوم عاد مجروحاً على ذراعه الأيسر بجرح بسيط مشدود بالضما، وقرب باب مقصورته اعترضت أوزار طريقه، وجدائل شعرها منشورة كسنايل القمح على جنبات متنها، ونازلة بانسياب مثير إلى فوق مؤخرتها البارزة.. وقالت له بلهجة شديدة المرارة والسخرية:

- أين كنت يا أفرس فرسان المحمية؟

أجابها قائلاً ببرود:

- لم تسألين؟

- أخشى أن تقطعك أطراف السيوف.

قالت عبارتها باستهانة محض، فسارع إلى القول بإجتهاد:

- أنت لا تخافين على أحد، فعودي إلى مقصورتك يا سيدة

القصر.

- نعم.. لست خائفة عليك، لأنك ابن تاجر رخيص و...

ثم سكتت وقد أزعجها فتور حديثه، لكنه أوصد الباب في وجهها غاضباً، ولم ينبس بينت شفاه، واحتجب عنها داخل مقصورته..

وفي يوم آخر ذهب إلى ميدان التدريب، وأمضى فيه ثلاثة أيام، ثم عاد، فاعترضته أوزار ثانية، وملابسها الخفيفة تكشف بياض جسدها، وعاجلته قائلة بتطفل:



- رباد، أود أن تصطحبني غداً إلى مسبح القناة..  
أشاح بصره عن جسدها شبه العاري، وقال بصوت خاجل:  
- كم يروق لي أن أرافكك إلى المسبح، ولكنك تعلمين انشغالي  
بالتدريب.

- أتضرع إليك يا أجهل فتيان صرواح أن توافقني الرأي مرة  
واحدة فقط..

واقتربت منه حتى التصقت به وبدت من عينيها المحملقتين  
إليه ونظراتها الشهوانية كأنها تمهم أن تعتنقه أو تغتصبه قسراً  
فأجاب بوجل متعشماً ذهابها:

- في وقتٍ آخر.. في وقتٍ آخر..  
وأقفل باب المقصورة سريعاً، وتركها بالخارج تشتعل كالفتيلة  
الترعة بالزيت، قالت باهتياج كما لو تخاطب المجهول:  
- لن أذهب معك بعد الآن!! وأتمنى لو مزقتك الرياح  
وأكلتك نسور جبل هبار.

وآلت بالمقة أن تخاصمه إلى الأبد، ولكن خصامها الشديد لم  
يلق انتباهاً من رام، ووضح لها من خلال تصرفاته أنه لا يعلم  
أنها محتضة منه بالأصل. أو إنه يتجاهل ذلك عنوة، فأدركت  
ساعتها أنها كالتي تضرم النار في ورق الشجر الأخضر، فتعاضم  
هوسها ولم تعد تهناً بمأكل أو مشرب، ولم تعد تتلذذ بنوم.. أما  
الجواري فكن يتجسسن عليها ويرينها حين تقفح الجناح  
الخاص برام في القصر، وتتحين الفرصة لمحاادثته، ويقلن  
غامزات:

- لقد أضحت سيدتنا أوزار منسجمة ولينة، ولم تعد تحدثنا  
بقظاظه كما كانت تفعل، والسر هو أن سيدنا رباد قد شغفها

حياً، وأطفأ نيران مناخيرها المضرمة بحسنه وجماله وكبريائه.  
في آخر الأسبوع أتى رام من ميدان التدريب، ودخل القصر  
بتباهٍ واعتزاز، ففي ذلك اليوم قارع الفرسان وأطاح بهم واحداً  
تلو الآخر، فمنحه المدرب فلح بطولة المحمية وأعلى شأنه عند  
التدريب، وسار به إلى خاله القيل حوف محمولاً فوق أعناق  
فرسان صرواح، لقد نزع النصر بجدارة من قائد شباب المحمية،  
حيث صرعه رام في غمضة عين، ومن ثم احتل مكانه، واستحق  
لقب بطل أبطال المحمية.. سار إلى مقصورته فرحاناً، فوجد  
أوزار متسمة عرض الباب، معيقة بذلك دخوله فقال لها  
بارتباك:

- ما حاجتك؟

- لن أنفك من مكاني حتى تعدي بالنزهة سوياً.

أجابته عليه باستماتة، فرد عليها ضاحكاً على غير عادته:

- في الغد نسير معاً إلى مسبح القناة.. والآن تنحني عن

الباب...

عندها قفزت بسرعة متنحية كالمهرة المفزوعة، وهي تنظر إليه

بارتياح يشوبه الحذر، فأضاف قاتلاً شكها:

- في الصباح الباكر.. إياك أن تتقاعسي عن الموعد..

تمدد قلبها بين أضلعها من فرط سعادتها، وشكرته واتجهت

فرحانة إلى مقصورتها، وفي الصباح سارا إلى القناة وجلسا على

الموضع الذي التقى به والده الملك شام وأمه تنسرا، وتراءى لهما

هدهد زاهٍ على غصن ركيك في شجرة قريبة وهو يصيح: يُب

يُب... يُب يُب...

وآخر يجيب عليه من شجرة نائية: وش.. وش.. وش.. وش...

مضت أوزار تصف حسنه وخذوية صوته، وتتساءل عمّا يقول الهدهد لصاحبه! وما يبعثه في النفوس من شوق وحنين! وقالت وعيناها لا تفارقان صورة الهدهد:

- لو كان لي جناحين كهذا الطائر لرافقتك كل يوم إلى ميدان التدريب.

كان رد رام أن نزع نشاباً من كنانته، ورمى به الهدهد، فهوى إلى الأرض، وصار يرجف قريهما إلى أن خمد أخيراً وفقد الحركة.. صاحت أوزار باستياء:

-ماذا فعلت؟

ثم أضافت بصوت متقطع وكئيب:

- لقد وصفت لك الهدهد لتستلهم منه السلام لا القتل.

-أتستائين من أجل طائر يسيب كالمعتوه؟ نطق رام عبارته باستغراب، ولكنها أجابت عليه بحددة:

- لا تستهن بالهدهد، فهو منقوش على حجر عظيم في المعبد الأكبر والمقة تشاهده كل حين..

-يا للمقة!! لم أكن أعلم بذلك.. لأنني لم أر معبد أرض جنات قط..

فجأة حط غراب على شجرة الرس التي كان الهدهد متربعا عليها، وأخذ ينطق ويتلفت حوله كالمسعود.. قالت أوزار مشيرة إليه:

-المقة تمقت هذا الطائر الأسود، فعليك به..

حينها قذفه بنشاب، لكنه أخطأه، وطار بعيداً، فوجم رام، في حين قالت لذاتها وقد ساورها شجن غريب:

"طائر الحب أصيب، وطائر الشؤم نجا من النشاب و.."

قطع رام صوتها المكتوم حين قال بانهباز:

-ويلاه !! هذه أول مرة أخفق فيها بإصابة الهدف بالنشاب !

ماذا دهاني؟

-هيا إلى المعبد لنصلي صلاة الندم، فالأمر أخطر مما

نظن.. قالت أوزار.

سلكا الطريق المؤدية إلى المعبد وأوزار شاردة الذهن ضجرانة،

حيث أوحى إليها إيجاء زائر أن رام برميته تلك قد قذف حبيها

في الصميم، وأراق دمه على أغوار الأيام القادمة.

في المعبد وجدا هدهداً على حجر وثيد في ركن يلفعه ظلام

خفيف، فاعتجبا لأنهما لم يرياها من قبل البتة، بدا لهما مرسوماً

بدقة، ويرمق بعينين جامدتين أحجار المعبد الأخرى

بوداعة.. صلت أوزار وتلت تباهيلها باستغراق عميق.. أمّا رام

فقد سرت صلواته على حيطان المعبد كالومضات المذعورة، ولما

فرغ من صلاته أخذ ينتظر أوزار بقلق، وأخذ يروّج عن نفسه

بمشاهدة ذلك الهدهد الصامت..

خضع المصلون وانزلت هاماتهم إلى الأسفل عندما ولج

السادن شلق إلى المعبد، ماعدا رام.. إذ جعل نفسه جاهلاً

بقدومه، وأحدث صوته رجّة متكررة جوف المعبد، فرفرت

الأذان كأجنحة النوارس متأهبة لساع كلام السادن، وكانوا قد

لمسوا إشارة من كفه بالإنصات والتلقي، وكما جرت بهم العادة

انسلخوا في صف مستقيم، في حين غمزت أوزار راماً موعزة إليه

بالانسلاك في الصف، فلباها وانسلت في آخر القطار، والضجر

يفترس ملاحه المنكمشة..

قال السادن شلق بإرهاق:

-أيها المصلون، غفوت قليلاً فرأيت الجراد تأكل الأشجار

حول المعبد، وكأني بالقبيل الأكبر عريساً والناس وراءه حليقو  
الرؤوس. فدقوا أجراس المعبد لتصلي صلاة المخافة..

ودقت أجراس نحاسية معلقة في سقف المعبد، وكان صوتها  
شديداً فأقبل القبيل حوف والأقيال جميعاً، وأتت أهالي صروح  
تباعا، ونصبت مضارب كثيرة وخيام على قاع مستوي قرب المعبد،  
مما ينم عن نية للمكوث هناك فترة قد تطول، وجيء بالحكيم  
شلش الذي لديه خبرة مجرّبة في تأويل الرؤيا.. وبعد أن ألقى عليه  
السادن شلق تفاصيل ما رآه، انسدلت على وجهه غمامة سوداء  
من الكدر، ثم قال مفسراً:

-جنود تغزو المدينة وتلحق بالضرر بالقيعة المحيطة بالمعبد..

اكتفى بهذه الكلمات، ولم يزد عنها شيئاً، ولكن أهالي صروح  
بما فيهم الأقيال لازالوا يتطلعون إليه، وكأن للتأويل بقية لم يأت  
بها الحكيم شلش، بل وأحسوا أنه أحجم عنها عنوة، فشرع  
القبيل حوف بالكلام قائلاً له:

-أكمل يا شلش، ماذا عن رؤيتي عريساً في الحلم والناس  
حولي حالقون.

-لا أجد تأويلاً لهذا الشق من الرؤيا، ولكنه يشير إلى الفرح  
وانجلاء الكرب.

قال عبارته الحكيم شلش تطبيقاً للخواطر المتوجسة بسوء  
نبوته، ثم مضى وهو يخاطب أعماقه المتطيرة قائلاً بشرود:

-العريس في الرؤيا مقتول.. والحالقون الرؤوس موتي.. يا  
لتعاستنا يا صروح...

\* \* \*

جذب رام كف أوزار بقوة، ولم يدعها تنضم إلى صفوف النساء اللواتي شرعن بالصلاة حين أعلن السادن شلق دنو مياعدها، وشرع يمهد لها بالأدعية المألوفة.. ولكنه قادها في طريق العودة إلى القصر، ولم تند منها أية مقاومة أو حركة استنكار، سارت على غير رغبة بدليل تغضن وجهها وانكساره وهي تمشي معه على الطريق، غير أن أعماقها تتكبد نشوة لا توصف. لأنها المرة الأولى التي يلح عليها أن ترافقه. ولكنها تمت لو جاء هذا الإلحاح في وقت مريح لا تغضب فيه المقّة، لا سيما ذلك اليوم الذي صرخت فيه أجراس المعبد داعية إلى صلاة المخافة..

إغراء حقيقي أن ترى نفسها تحت إشفاق كفه، وأن تجدها صارت محط اهتمامه فجأة، وقد تعذّر عليها الوصول إلى تلك اللحظة، وضاعت بها السبل آنفاً حتى أحبطت في اجترار عاطفته إليها، وفي تلك البرهة قالت في سرها وهما سائران بلا توقف:

"لعل ثمة ما يريد فعله في القصر، آه كم حلمت بمجيء هذا اليوم". وهكذا ظلت ترفع خيالها قُدماً، وتفكر بموقفها حين يطوق خصرها بذراعيه، وبما ستفعله إذا استلقت على صدره، وانصهر خدّاه بفعل حرارة التقبيل والهمس الخافت، ودفء الزفرات المتفاعلة مع بعضها. انطوت الطريق سريعاً، وبلغا القصر ودخلت ورام إلى جوفه، وقلبها يرتج ويتمايد بمرح، وذلك لروعة ورهبة ما تخيلت حدوئه عما قريب.. ولكنه عند باب مقصورته نسف أملها وأخيلتها الحرّى بهدوء حين ودعها هناك، وواساها بألفاظ لا تقال إلا للأصدقاء ذوي العلاقات الهشّة، فانفجرت كالصاعقة قائلة:

-ظنتك جئت بي إلى القصر لنخلو سوياً ونتحدث!!

- الحديث لا يفيد، وما حدث اليوم يشير الفزع، وعلي أن  
أرتدي ملابس الحرب..

رد عليها بذلك متذرعاً، ولكنها هجمت إلى الداخل وقالت  
وقد تجاوزت الباب:

- سأدخل مقصورتك وأساعدك على انتقاء عدتك..

- أوزار !!

وسكت على مضض، ثم دلف وراءها، وسرت في جسده رعدة  
شديدة حين أوصدت باب المقصورة عقب دخوله. وحينئذ تملكته  
الحيرة، ولم يدر ما يجب أن يفعل.. وبسرة رمت جسدها المنهار على  
فراشه ثم استرخت تماماً، وفرجت قدميها عن بعضها،  
وتزحزحت عنوة بموضعها، فأنكشف ساقاها، وبدت مشارف  
فخذيها الأمردين ناصعة البياض، وهي تنقشع رويداً رويداً من  
تحت عتمة رداءها.. وأخذت تحدث حديث الزوجة المشتبكة بين  
فخذي زوجها في وقت بلوغ الاهتياج ذروته، ولما رآها رام على  
تلك الحالة كاد السيف المرتكز في يده أن يسقط على قدمه، ولكنه  
استجمع قصارى جهده وإبائه، ومانع عينيه، واتكأ على السيف  
فوق فخذه وقصفه، ثم ألقاه على أرضية المقصورة قائلاً:

- سيوف خفيفة لا يحملها إلا العاجز..

ثم استوى ماشياً صوب باب المقصورة، وأضاف متذرعاً  
للخروج:

- سأجعل الحداد يصقل لي سيفاً لا ينكسر على التروس..

- أيها الجبان.. تخاف من الجلوس مع فتاة طيبة تحت سقف  
مقصورتك..

قالت عبارتها والدموع تترقق من عينيها. وأدرك رام مقدار

بؤسها بالرغم أنه لم يرها، فقال قبل أن يتواري:  
- أوه أوزار.. أنا لا أخاف منك.. انتظري حتى أعود من  
المحدادة.

- تكذب. فأنا أخيفك لكنك ستجدني أثراً بعد عين..  
لم تصل كلماتها الأخيرة إلى مسمعه، حيث كان قد ابتعد عن  
المقصورة وبلغ سلام القصر منحدرأ ناحية البوابة ومن هناك اتجه  
إلى اصطبل الخيول، ووثب فوق حصانه، وأسرع غائصاً وسط  
أزقة صرواح.

وصل رام إلى سوق الحدادين، ووقف على رأس أكبر حداد  
بالسوق، وخاطبه بلهجة ثابتة:

- اصنع لي سيفاً يزن سبعين أوقيه.  
حجبت النار المشتعلة صورة رام عن الحداد المفتول الأذرع،  
والمنهمك على عمله بجهد، ولكنه قال ضاحكاً دون أن يرفع  
بصره:

- كم عمرك يا غلام؟

رد رام بعبارات متنمرة:

- لست غلاماً أيها الحداد.. أنا رباد ابن القبلة تنرا..  
عندها ظهر الحداد، ورأى رام عن كئيب، وقال وأطرافه  
ترتعش:

- السباح يا سيدي القيل.. لقد جهلتك لأنني لم أرك يا بطل  
صرواح..

ثم أضاف ملصقاً البشاشة على ملامحه:

- لدى سيف ذهبي بالحجم الذي طلبت، وقد صنعته بإتقان  
لترغيب تجار السيوف بأسلحتي..



وغاب قليلاً جوف المحدادة، ثم عاد حاملاً سيفاً عريضاً يكاد يسقط من كفه لثقله، ومد به إلى رام، فتناوله بشوق وهزه هزات متوالية في الهواء ممرناً ساعده عليه، ثم قذف للحداد صرة ذهبية، وانطلق يجتاح أزقة المدينة على ظهر جواده، والسيف القشيب مسلول في يده والناس يرمقونه بإعجاب. والفتيات يشرن إليه بالبنان من مناظر وسطوح ونوافذ قصور صروح العالية، كان رام في السابعة عشرة من عمره، وهذا ما جعلهم يعجبون بجسارته، ولاسيما بعدما صار بطل المحمية. وعندما وصل إلى القصر سار بحماس إلى مقصورته ليري أوزار سيفه الجديد، لكنه وجد باب مقصورته موصداً من الداخل، فقرع الباب وتريث قليلاً، بيد أنه ظل على حاله واقفاً ولا أحد في المقصورة يحرك ساكناً.. فصاح بصوت رافع:

- أوزار !! أنا رباد. افتحي لأريك السيف..

وتملكه الخوف حين لم يجبه أحد، فألصق أذنه على شق صغير في الباب، فسمع صوتاً متقطعاً وأنيباً خافتاً ينبعث من الداخل، ففرغ، وأدرك لتوه أن ثمة شخصاً يتألم جوف المقصورة، وحدث أن أوزار قد ألحقت بنفسها الأذى، وبسرعة خاطفة سل سيفه وضرب به مغلقة الباب الخشبي، فشقها نصفين، وانفتح الباب على مصراعيه، فخف إلى الداخل، وندت من فمه صرخة قوية أفرغت من في القصر، وجعلتهم يهرعون إلى المقصورة مذهولين.. كانت أوزار تتلوى من فرط الألم، وجسدها متكوراً، وكفأها قابضين على أخص بطنها وكأنها تشعر بمغص حاد، وعيناها مقفلتين، وشفاتها أيضاً، أمّا الأئين الصادح في المقصورة فليس إلا همهمات توجع تأتي من صدرها الساخن.. أمسك رام

ذراعها ورفعته إلى الأعلى والهلع سافر على وجهه، وقد ضرب  
حوله العبيد والجواري حلقة مزدحمة، في حين اندفعت امرأة  
خاله " زينا " إلى أوزار، وانحنى عليها، ثم نظرت إليه قائلة:

-ماذا فعلت بابتني؟

أخرس الخوف لسانه، فغدا في تلك اللحظة كالمذنب،

فأضافت بجزع:

-لعله فضَّ بكارتها بعنف، ودنس إيمانها بالمقعة..

وبعد لحظات قلائل أقبلت زوجة السادن شلقى على عجل،

وضربت فوق الفتاة ستارة داكنة اللون، ثم أماطت سرواها

والقت نظرة فاحصة إلى خواء فخذيها، فلم تجد غير المنى الحار

اللزج، وسرعان ما طفا الارتياح على تقاطيع وجهها المتجمدة،

واستقامت قائلة:

-لا أثر للدماء.. اطمئنوا، وعلى ما يبدو أنها قاومت بشدة..

-أيها العمي.. احضروا الحكيم، إنها توشك أن تموت، وسلوا

الحراس أين كنت، فقد جئت من سوق الحدادين وكسرت

الباب كما ترون..

وجاء القيل حوف من المعبد بعد أن علم بما حدث، وفض

الزحام بمنكببيه حتى وصل إلى أوزار، وجثا بجانبها عابس

الوجه، ولما استفسر واستمع إلى تلك الأحاديث المتضاربة، رنا

إلى رام وقال للعبيد باهتياج:

-خذوه إلى وكر العقارب أيها الحمقى، حتى يتطهر من

جرمه..

وأمسك به العبيد بعد صيحة خاله القيل حوف، فلم يقاوم،

لكنه قال بصوت جياش بالحزن:

- اذهبوا بي إلى عرائن الأسود، وستعلمون أني بريء مما  
وصمت به..

- لم تطلبها للزواج أيها البغيض؟ وما كنت لأرفض طلبك.  
- وشرف المقة لن أقترن بها لو كانت الوحيدة الباقية في  
المعمورة.

قال عبارته الأخيرة وبكى متأثراً، وهم يجررونه بفضاظة لم  
يألفها.

وكر العقارب كوخ مظلم في جبل هبار القريب من المدينة، له بابٌ حجري صغير، وبه مئات من العقارب الكبيرة والصغيرة السامة، وهو معد للمارقين عن دين الآلهة وللزناة وللعبيد الناشزين عن طاعة الأقيال، وكان مغلقاً في سنوات حكم الملك شام، وافتتح في أول أسبوع صعد فيه الملك كرب العرش، وكان الأول قد حظر على السدنة في سبأ أن يبارسوا أنشطتهم خارج المعبد، وحجب عنهم الأموال والماشية المأخوذة بأمر الآلهة، وعطلت غالبية أعمالهم خلا إقامة الصلوات. أما الملك كرب فقد أرجع كل شيء إلى السدنة، حتى مقاعدهم في مجلس الحكم..

وعند الكوخ تم تجريد رام من سلاحه وقذف جوفه، ولدغته عقرب ملتو القرنين على كتفه، فصاح من شدة الألم وأمسك به وسحقه بكفه، وفي تلك الأثناء سمع أئيناً في جزء بعيد من مكانه، فعلم لساعته أنه متسع وأن ثمة أشخاص غيره يواجهون نفس مصيره.. وجعل يسألهم عن ذنوبهم، فقال له أحدهم إنه شتم المقة في ساعة غضب، وقال آخر إنه بصق ذات يوم فوقعت بصقته فوق رأس أحد الأقيال لدى عبوره أسفل منزله، وثالث زعم أن امرأته أبت أن تعطي السادن جاموساً تملكه ليتقرب به إلى الآلهة، فجيء به إلى الكوخ عوضاً عنها. ضحك رام عند هذه الجناية حتى وقع على ظهره، غير أن عقرباً كبيراً لسعه في وركه

وكانت الأخيرة عنيفة الوجد، فتحسس موضع اللدغة مترنحاً  
متذمراً، وبينما هو كذلك عثر على خنجر صغير تحت ثيابه، فقال  
لمن حوله باهتمام:

- هل لديكم زيت وفتيلة؟

جاءه صوت واهن:

- هناك سراج عتيق في الركن الآخر للكوخ، وقد ألقيته الليلة  
الماضية وأنا أنخبط في الظلام، ولا أدري لم تسأل عن الزيت  
والفتيل !!

ساعتها أوحى إليهم أن العقارب تكره أدخنة الأسرجة، ومن  
ثم ستوارى في الشقوق أو تموت بوخزات الخنجر. وأحس  
بحركة غير عادية تدب قربه جوف الكوخ، وفجأة أتاه صوت  
أجش قائلاً له بحماس:

- هاك السراج المعبأ بالزيت، ولكن يجب أن نعرف من تكون  
أيها السجين الذكي..

- أنا رباد ابن شقيقة القبل حوف، وقيل أني أردت  
اغتصاب ابنته.

قال رام عبارته هازئاً، ومد يده جزافاً في الظلام إلى أن تناول  
السراج، وأتاه صوت ركيك من القرب يبدو منه أن صاحبه شائب:

- إذا كانت أمك هي تنرا ابنة طاهم، فلا شك أن أباك هو الملك

شام، فقد أحيينا قرانها العظيم في صرواح منذ أعوام ماضية.

فغر رام فاه بدهشة، لكنه رد نافياً:

- "الأسماء المتشابهة كثيرة" \* كما تعلم.

\* يقصد بالعبارة الشقيقتين تنرا الكبرى وتنرا الصغرى.

واستوى يصب الزيت على حجر تحسسه بكفه، وجعل يقدح بالخنجر ولكن الزيت لم يحترق.. حينها لجأ إلى حجر آخر، وقدح بالخنجر عليه فلمعت شرارة محرقة، على إثرها اشتعل الزيت وأضاء أجزاء الكوخ بضوء باهت.. وفي تلك البرهة رأوا بعضهم البعض لأول مرة.. وأخذ رام يوخز بالخنجر ما يصادفه من العقارب وحذا الباقون حذوه مستخدمين الأحجار الحادة، حتى قتلوا عدداً هائلاً منها، والجزء اليسير اختبأ في الشقوق والكوات الضيقة بالحيطان..

خمسة عشر رجلاً في الكوخ، متفاوتو الأعمار والذنوب غير أن أصغرهم سناً هو رام.. انتعشت نفوسهم بالأمل في تلك الليلة، وناموا نوماً هادئاً خالياً من لدغات العقارب، وهكذا كانوا يفعلون يوماً بعد يوم حتى أفنوا العقارب من الكوخ.. كان الحارس يفتح الباب الحجري من حين إلى آخر، ويمدهم بزنبيل به عشرون رغيفاً في كل وجبة.. وكان رام يمنح كل واحد منهم قسمه دون تمييز، وينال كغيره نصيب واحد.. ومر شهر لم يصب أي منهم بلدغة ماعدا الكهل الذي تجلد جسده، وصار مرناً كالمطاط، ولم تعد لدغات العقارب توقظه من نومه.. وجاءت أوزار إلى الكوخ لتزور رام، وأرادت أن تقابله لتعتذر له، ولكنه أبى أن يخرج إليها وكاد أن يفتك بحارس الكوخ الذي ألح في طلبه من أجل خاطر القبيلة أوزار التي عادت مكتئبة إلى القصر، ولامت نفسها لأنها السبب في ما حدث له.. وكانت قد احتست سماً فتاكاً بعد أن ذهب إلى سوق الحدادين.. وبعد أن قذف به إلى الكوخ جيء بالحكيم ليفحصها. وما إن فحصها حتى أكد أنها لم تتعرض للإغتصاب، وقال الحكيم "فشار" إن المسموم لا

يتداوى إلا بالسم ، وجزم أنه السبيل الوحيد لإنقاذها من الموت.. فوافق القيل خوف على مداواتها بالسم رغم خوفه الشديد عليها، فأسقاها الحكيم فشار شراب العلقم، ففتيات السم الأول وشفيت تماماً بعد أيام.. واعترفت لأبيها أن رام لم يقربها أو يتحرش بها، وأنها هي الجانية على نفسها حين دخلت مقصورته وأثارت حوله الشكوك.. فندم القيل خوف أشد الندم على تعجله بالحكم على رام.. ولولا أنه آلا بعزة المقة على أن يسجنه في وكر العقارب شهراً كاملاً لأطلقه فوراً.. وفي آخر يوم من الشهر أمر حوف بالإفراج عنه. وخرج رام برفقة حارس الكوخ ولما جاوزا الباب أراد الأخير أن يوصده، لكن رام طعنه بالخنجر فأرداه قتيلاً، ثم فك الباب الحجري بعنجهية وغضب، وأسدى إلى الذين في الكوخ بالهروب منه.. وتسارع الحراس الآخرون صوبه مستعظمين ما فعل، فخطف سيف صاحبهم الصريع، وأوسعهم به ضرباً، فلاذوا بالفرار إلى القيل خوف يشكون إليه ما أحدثه رام.. أما هو فسار بخطى سريعة إلى إسطنبول الخيول، وما إن رآه حارس الإسطنبول حتى أحنى رأسه إجلالاً له، وصهل حصانه الشهاب بصوت عارم ووثب حالماً رآه قادماً إليه... ففك رباطه وأمعن النظر فيه، فوجده ملجماً مسرجاً كما تركه قبل دخوله وكر العقارب.. وحينها مسح وبر منته قليلاً ثم اعتلاه وسار به إلى خارج الإسطنبول.. وهناك أرخى مقوده، فعلم الشهاب ما يراد منه، فانسل من تحته بسرعة كبيرة، وصار يجوب الشارع المرصوف بالأحجار الملساء لا يلتفت إلى شيء.. ولحقه خاله حوف والأقيال وجل أهالي صرواح إلى خارج المدينة، لكنه ترك لهم غباره ليصالحوه، أما هو فكما أضمر

لن يعود إلى قوم خذلوه، ولو كانوا من أقرب المقربين إليه.. سار  
 رام في طريق لا يعلم إلى أين ستصل به، في اليوم الأول سلك  
 فلاة مقفرة أودت به إلى أرض جرداء ليس بها ما يدل على  
 الحياة.. وندم بشدة لأنه لم يأخذ معه ما يملأ كرشه من الزاد  
 والماء، وفي اليوم التالي رأى يبدأ مدَّ بصره، فأوجس بالهلاك،  
 وأحس أن نهايته وشيكة ولا سبيل للنجاة إلا بالإسراع في السير،  
 فلم يخذله الشهاب، إذ شعر هو الآخر بالخطر المحيق به  
 وبصاحبه إن هو تلكأ في الخطو الجاد.. فلملم شعث قواه المنهارة  
 بفعل الزمهرير والجوع والعطش، وانطلق ملقياً للريح قوائمه،  
 وصار يعدو كالمجنون، ويطوي الصحراء طياً حتى وقف به على  
 عين ماء تتزود منها قوافل التجارة، فنهل رام من ماء العين  
 وأسقى حصانه الشهاب ثم تركه يملأ بطنه بالعشب النابت  
 حول العين، وراح يبحث له عما يقات به.. وبعد هنيهة من  
 الوقت تمكن من اصطياد غراب أسود كالليل.. ثم أماط ريشه  
 وجعل يلتهمه نيباً، وقد أضناه السغب، لذا لم يتمهل حتى يشويه  
 على نار، ثم عاود السير.. وكان ضوء القمر يدغدغ وجه البيد  
 بأشعة قرمزية باهتة اللون، إلى أن محأها صباح اليوم الثالث  
 ببياضه الشديد.. تراءت له على البعد حاضرة عتيدة ذات أسوار  
 طينية، ومن حولها أشباح بشرية لا تحصى لفراط كثرتها.. ولما دنا  
 من الحاضرة انقضت عليه مجموعة من الفرسان انسلخت من  
 تلك الكتلة من الجند. وحاصروه في دائرة متحركة وسط غبار  
 متكاثف وصهيل زاعق. وكاد أن يسلم سيفه ليقاومهم لكن أحد  
 الفرسان ضخم الجسد وشى إليه أنه لن يمس بمكروه،  
 وخرجت إبتسامته غريبة من بين شفثيه الجامدتين الجليديتين



وهو يشير بيده مفسحاً له الطريق. وبسرعة أحاط به الجند وساقوه إلى رجل كبير الهيكل، صغير الرأس، متربع على كرسي يبرق بريقاً حاداً، وقد ظللته أقمشة من الخبز لتحجب عنه أشعة الشمس الحارة.. وقف رام رابط الجأش، ولكن كان يسيطر عليه العجب لما يجري حوله من أفاعيل غامضة. وحده الرجل بنظرة ثلجية ثم سأله:

- هل تجيد الحرب يا فتى؟

أجاب رام بصوت حاد قائلاً:

- نعم.. أنا أجيدها كما تجيدون أنتم شرب الماء ومضغ اللبان.

- سنراك حين تحكم بين المقدمين قنس وعصعوص.

- ما اسم هذه المحمية؟

قهقه من حوله ساخرين، بينما أجاب عليه الملك مبتسماً:

- ليست محمية يا فتى، إنها حاضرة معين وأنا الملك قضاع..

- أرى يا سيدي أن يقاتلني المقدمان ومن يغلبني يكون الأثير

بالنصر..

- لا ريب في أنك فتى شجاع، ومع هذا كان بوسعك أن تكون حكماً.

ثم أردف بصوت خشن:

- إن التحدي قائم بين هذين المقدمين، وأود أن يموت أحدهما وينجو الآخر.

برز من جانب الملك رجل طويل، ضخم الجسد، وقال للملك بصوت مترخ:

- دعه يا جلالة الملك، فسيُفني يتحرق إلى رأس هذا الحكم..

لوح الملك قضاع بيده أمراً بإفساح دائرة القتال، في حين تقدم المقدم قنس بفتور الواثق إلى رام، وأخذ ينازله نزلاً خالياً من

الحماس، ولكنه تلقى في الوهلة الأولى ضربات عنيفة جعلته يدور في دوامة من الجدية والحذر، ولم تمض سوى برهات خاطفة حتى ضربه رام بعقب رمحه، فوقع على الأرض.  
صاح المعينيون هاتفين باسم آهتهم ود، وقال الملك لمن حوله باندهاش:

- عصعوص لاحق بقنس لا محالة، وكما ترون هاهو الفتى لم يستحضر كامل قواه، ولم يند جبينه بقطرة عرق..  
وفي تلك الأثناء اقترب المقدم عصعوص ساحباً رمحه الطويل، وراح يضارب رام بالسيف ويناوشه باحتراس بالغ.. ورام يزوغ عن ضرباته... وظل كذلك حتى أنهك، ثم نظر رام إلى الملك، وكأنه يوحي إليه باقتراب نهاية النزال، وبخطرة واحدة صفعه بعارض السيف على رأسه، فأرداه على الثرى، فضج المعينيون فرحاً لاسيما الجنود، ذلك أن المقدمين قنس وعصعوص كانا جائرين، أنانيين، وكل واحد منهما يعتد بنفسه ولا يعترف بالآخر..

نهض الملك قضاة حين رأى رام متجهاً إليه، وقال له:

- باركت فيك ود العظيمة.. أنت منذ اليوم مقدم جيش

معين..

ثم التفت إلى الجند، ورمق قنس وعصعوص بتقزز، وقال مضيفاً:

- خذوا هذين الحقيرين إلى مأوى النمر، وأتوني بالسادن

سيرالك..

ذهبوا بهما إلى مأوى النمر، وهما يصرخان ويستغيثان ولا أحد يلتفت إليهما، وبعد أن قدموهما للنمر وجبة دسمة عادوا

والسادن سيراك إلى الملك قضاع.. وفي تلك الأثناء خاطبه ليمسة  
بنتابها الارتباك:

- أمرك أن تخرم أذنيّ هذا الفتى الشجاع ليكون قبلاً خالصاً  
لمعين ومقديماً على الجيش، لأننا في أمس الحاجة إليه..

- ستغضب الآلهة يا جلالة الملك، وتشريعنا يقول أن....

لم يتم عبارته، إذ وقعت في وجهه نظرة نارية من عيني الملك  
قضاع الملتهبين، فسارع إلى سنارته المقدسة وأخذ يصليها  
بالتار، ثم حاذى رام ورمق أذنه اليمنى، لكنه انفجر صائحاً  
بذهول:

- إنه قيل يا جلالة الملك، أذناه مخرومتان كما يجب.

- من أنت أيها الفتى بحق ود؟ سأله الملك قضاع باهتمام.

- اسمي رباد وخالي هو قيل صرواح حوف بن طاهم، وقد  
هربت للتو من سجنه.

تغضن وجه الملك قضاع حين سمع منه ذلك، ومال إلى  
الأقبال يهامسهم بجديّة، وبعد برهات وجيزة التفت إليه، وقال  
بخطابه بحذر:

- نحن في طريقنا إلى قتال الصرواحيين.

- أنا أمقت حوف لأنه أهانني، وسوف أطح بدمه أحجار  
معبد صرواح..

تفكر الملك قضاع قليلاً، ثم نطق قائلاً بقناعة:

- ستقود جيش معين إلى صرواح، وعيوننا ترصد حركاتك،

وإياك أن تفكر بالخيانة، فنحن قوم لا نرحم..

هز رام رأسه مدعناً، وطفت على وجهه هالة من الهدوء  
والاستكانة، في حين أب والملك والأقبال إلى القصر، واستضافه

و تخبه نه جان را

تخمینیه که... و تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

...

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

۲۰۰ تخبه نه جان را

-نعم.. أنت أمي وشرف المقة..

وبعد أن انطفأت حرارات الأشجان، أخذ رام يحدثهم بكل شيء يعرفه عن نفسه، ومع أن المدة التي قضها قصيرة إلا أن شيئاً في أعماقه صرخ قائلاً: "لا تبتئس بعد الآن، فقد وجدت أهلك ولم تعد يتيماً" ..

\*\*\*

أمر الملك قضاع ابنه «معن» أن ينضم إلى رام، ويسير معاً لغزو صرواح، فتحرك جيش معين ذارعاً باطن الصحراء، ومن يرى رام ومعن أمامه يظن أنها شقيقان لتقارب سنهما وملاجهما وائتلاف طباعهما.. وكانت صداقتهما السريعة التي نسجها اللقاء الأول في قصر معين باعث اطمئنان لدى الملك قضاع.. بعد أربعة أيام بلغ جيش معين مشارف صرواح، وشاهد رام نيراناً تندلع في المدينة، وسمع صراخاً وقرقعة شديدة، فتملكه الاندهاش، وما هي إلا لحظات حتى عاد المخبرون قائلين:

- لقد سبقنا إليها القتبانيون والحضر موتيون، ولقد رأينا الصرواحيين يفرون ناحية القناة.

استاء رام لذلك الخبر، وتفكر قليلاً ثم خاطب معن قائلاً بثقة:

- المعركة دائرة الآن، والقتبانيون والحضر موتيون منهكون، والصرواحيون هاريون، والآلهة ود تشع لنا ضوء النصر الأكبر..

-ماذا تقصد بحق الآلهة؟

-في هذه اللحظة نهجم على الغزاة، ونسترق النصر من بسيوفهم المثلومة..

في تلك الساعة هجم جيش معين على صرواح ودارت المعركة

في أزقتها، وتكاثف القتبانيون والحضرموتيون على باحة قصر  
صرواح لحمايته، لكن المباغثة جعلتهم يرتكبون ويفقدون  
توازنهم.. فتخطفتهم سيوف المعينين، وتبعثروا كالقطا المذعورة  
في محيط صرواح، وقتل عدد كبير، واعتلا رام عرش خاله خوف  
بن طاهم وقبع معن إلى جواره، وارتص حولهما الجند ذات  
اليمين وذات الشمال.. ثم أمر رام أن يلحقوا بالصر واهيين  
الفارين ويعيدوهم إلى المدينة قبل أن تأتي جيوش سبأ  
العظيمة.. وبينما هو كذلك إذ تناهى إلى سمعه صوت نواح نسوة  
آت من الجناح المحاذي لمجلس الحكم، فاتجه إلى جوف القصر،  
فإذا به يرى خاله خوف ممدوداً على محفة مهترئة، وهو يصارع  
الموت إثر ضربة قاتلة على عاتقه، وأتت أوزار وهي تنشج وثلة  
كبيرة من جواري القصر وكُن على وشك السبي، أما أمها زيبا  
فقد تاهت خارج المدينة، ولا أحد يعلم بمكانها ولا  
بمصيرها.. رآهن رام حاسرات الرؤوس، في حال لا يحسدن  
عليه.. ورمقته أوزار قرب جسد أبيها المكسوم، وتلوثت  
بالدهشة، وصرخت عليه بثورة والدموع تنخرط من عينيها:

-أهذا جزاؤنا يا ابن تاجر المجوهرات حين آويتك وربيناك؟

حملك رام في وجهها وقال بصرامة يشوبها الأسى والرثاء:

-ويلك.. أنا من أنقذكم من الغزاة، وهذا الجيش الذي معي

هو جيش مملكة معين..

ثم استدعى رام الحكيم لخاله خوف، لكن جرحه كان بالغاً،

ولم يتمكن الحكيم من إيقاف نزيف دمه. وقال خاله خوف وهو

يجاهد أنفاسه المتصاعدة:

-أعلم أنك أتيت بجيش معين لتنال مني، ولكن سبقك إلى

بغيتك القتبانيون وحلفائهم.. فطب نفساً الآن..  
- كأنك تتجاهل اسمي يا خال عنوة!! وشرف المقة أن الحزن  
يكاد يقضم صدري..

ودحرج القيل حوف كفه بصعوبة وتناول رزمة كبيرة من  
المفاتيح كانت على وسطه ودفعها له، وقال بصوت ذابل متقطع:  
-اسمك ونسبك في الخزانة، وقد... داريت ذلك عنك  
و.. وعن كل الناس... و..

انقطعت نبرات عبارته، ولكنه بعد برهة استقطب أنفاسه  
ثانية، و شهق شهقة قصيرة ثم قال:  
-أنت.. أنت رام حفيد.. الملك شر... شراح قاتل أبي، وأبوك  
هو.....

-خال.. خال. من هو من أبناء شراح؟  
غمضت عيناه، ولفظ أنفاسه تاركاً لرام مهمة التعرف على أبيه  
بنفسه تباكت أوزار وقالت وهي تنظر بأسف وغبابة إلى وجه رام:  
-لم يا أبي دفنت نسب رام في صدرك المكين طيلة هذه المدة،  
وهو حفيد شراح ناطح الجمال ملك سبأ؟ يا للمقة! كم  
استرخصته وأهنته.

-احشروا الجوارى جوف المقصورات فهن يثرن الحزن،  
وأحضروا السادن شلق من المعبد..

قال رام عبارته بكبرياء رغم حزنه، وآب إلى مجلس الحكم  
بخطى متثاقلة.. وسأله معن:

- ما لي أراك كاسف الوجه، شين الحال؟

- مات خالي حوف متأثراً بجرحه، وخلف لي أحزاناً لا  
أحتملها.

تأوه معن بحزن لكنته أخذ يسليه بكلام جانبي، وفجأة قال:

- أحيذ أن نواصل الزحف صوب أرض جنات.

- لا تتعجل، سترى جيوش سبأ تندفع صوب صرواح

كالسيول الجارفة..

- قل ما لديك من الرأي !!

فرك رام أصابعه وانفجرت شفتاه عن بسمة حزينة حينما سمع

اسمه القديم. وقال بثبات:

- سأبقى في صرواح، أما أنت فعد إلى معين وإن شئت الغزو

عليك بقتبان و حضر موت قبل أن تستردا عافيتها..

- وماذا أقول لأمي، وقد أسدت إلي أن أعيدك إليها؟

- أوه، أُمي الملكة فادي، نعم، سأعود إليها لاحقاً، وهذا وعد

سأفي به حتماً..

وشدد رام على مصداقية وعده، وألح على ذلك مراراً حتى لان

معن وارتضى.. في تلك الأثناء صدر الضجيج من المعبد، وبعد

قليل جاء الذين ذهبوا لاستدعاء السادن شلق وقالوا إنه قتل

وجميع عبيده، ولم يبق إلا ولده الوحيد قابط وهو من يحق له

تجهيز ودفن القيل خوف.. ثم تحرك رام مسرعاً صوب مقبرة

الأقبال وتبعوه جميعاً بما فيهم المعينون.. وواروا القيل خوف بين

أجداث كثيرة وآبوا إلى القصر وقت الظهيرة..

غادر معن ابن الملك قضاع وجيشه صرواح عائداً، ولازال

هوس الغزو يراوده... فشحذ همته وسار لغزو قتبسان

وحضر موت.. أما رام فقد أرسل إلى الملك كرب يخبره بأن

الأحوال ساكنة، وأن صرواح قد دحرت الغزاة وعادت إلى

حضيرة مملكة سبأ، وذكر له كذلك أن القيل خوف قد قتل، وأن



المحمية أضحت بلا قبيل... بعد ذلك فتح عشر خزائن ولكنه لم يجد فيها ما يشير إلى نسبه.. فارتاب من صدق كلام خاله القبيل حوف.. ثم بحث في الخزائن الكبيرة، فلم يعثر على شيء، وكان يرى خزانة الوثائق الخالدة وقد نسجت العناكب على بابها نسيجاً عريضاً من خيوطها، ويقول لذاته: "هذه الخزنة العتيقة يجب أن تزال من على حائط المجلس لأن منظرها مؤذي، ولم تعد تجدو لشيء..."

لم يفكر رام ولو مرة واحدة أن يفتحها، أو يلقي نظرة على محتوياتها، ولم تثر انتباهه مطلقاً.. ما أرق مضجعه هو أن امرأة خاله زيبا اختفت يوم الإغارة على صرواح.. ولم يُجد البحث الطويل عنها، ولا أحد يعلم أهي حية أو ميتة، وقد كان يأمل أن يلقي لديها خيطاً رقيقاً يمكن أن يمسك به ليهتدي إلى أبيه، ولكن هذا الأمل خاب..

هذا اليوم أيضاً سمح لنفسه أن يقتعد على كرسي القبيل الأكبر، الكل صامتون، وهو يحاور الهدهد السبئي الكامن في جسده.. ويهمس همساً خافتاً: «جدى شراح وأبي أحد أبنائه الملك كرب والملك شام!! ولا أعلم هل لديه أولاد غير هاذين؟ يا للمقة! جمجمتي تكاد أن ترتج بسبب الحيرة وفرط الالتباس».

فجأة وثب من مكانه قائماً، وكأن شيئاً في أعماقه شدّه للأعلى وأجبره على الوقوف.. ارتبك البقية المتبقية من أقبال صرواح حين رأوه على تلك الحالة، وحلّق الذهول والسكون على أجسادهم المصعوقة بالخوف، ولم يجسر أحدهم على مخاطبته، تركوه يشخص ببصره إلى باب المجلس، ظنوا أن النكبة هي السبب الفعلي لتوثبه وشروده.. تذكر رام أنه سمع الكهل الذي التقاه في

وكر العقارب يقول أن الملك شام اقترن بفتاة صرواحية اسمها تنرا.. وهي ذاتها تنرا ابنة طاهم وشقيقة خاله خوف.. وهذا يعني أنها أمه، ومن ثم يكون الملك شام أباه..

أيقن رام أن ما توصل إليه هو الحقيقة، ولكنه وجد أن هذا لا يمنع أن يستجدي ما يعزز يقينه أكثر. وأن ينهل الماء الزلال من منبعه، وألا يكتفي بهاء صاف في كوب يقال له مراراً أنه من ماء ذلك النبع... وتذكر أول يوم أدرك فيه بوجود دائرة محفورة على كتفه.. وأول يوم عرف فيه أنها ذات شأن عظيم، ويمكن لها أن تهز عرش الملك كرب فيما لو ظهرت وثبت أنها حقيقية... وكان هو يثور على رفاقه في مسيح القناة إذا حدثوه عنها.. ويقسم بالمقة أنه لا يعلم عنها شيئاً، أما الآن فقد صارت مثار اهتمامه ونصب عينيه وناموسه الوضاح الذي سيرشده إلى الحقيقة.. قفزت الفكرة إلى ذهنه سريعاً فالتفت إلى أقبال المجلس قائلاً بتوتر:

-ماذا تعلمون عن الملك شام؟؟

أجاب عليه قيل خالط الشيب سواد رأسه:

-ذاك أصغر ملك في سبأ.. وبالرغم من صغر سنه كان أشجع وأعدل الملوك.. وقد دوّخ جيوش الأحقاف، وأعاد المملكة عزها وهيبتها ونعمنا في عهده بالأمان والمساواة والحرية..

-ما اسم قرينة الملك شام؟

-إنها شقيقة أمك، وتدعى تنرا الصغرى، وقد اقترن بها في صرواح، ولكنه قتل تحت قلعة مدينة جنات وهو في طريق عودته.

-هل أنجبت تنراله ولداً؟

سأل رام واغرو رقت عيناه بالدموع، فهز القيل رأسه وقال

متشككا:

- قيل أنها وضعت غلاماً ثم ماتت، وبعد سنوات سمعنا أنه مات مريضاً..

-وأمي من تكون؟

ضحك قيل آخر هازئاً، وقال بخبث:

-أولم تعلم أن أمك هي تنرا الكبرى امرأة زقم تاجر  
المجوهرات؟

-أخرس أيها المخبول.. من قال لك ذلك؟

اختبل جسده وسل من عقيرته عبارة ناشفة وقال رافعاً كفيه:

-السماح يا سيدي رباد.. هكذا قال لنا خالك خوف..

بعد ذلك تناوب الأقيال في الحديث.. وذكروا حكايته وقطاع  
الطريق والجلد المنسوخ الغامض الذي يجهلون محتواه. وانكشف  
الستار أمامه، وبدأ خلال الحكى يسترجع في ذهنه بعض ملامح  
قطّاع المسانة، وكان هنالك سبب وجيه لبقاء تلك الصور  
مدفونة في رأسه لا تبارحه طوال عقد ونصف، ذلك أن قبحها  
أكبر من النسيان..

حبذ رام أن يبقى السر مكبوتاً جوفه.. وآمن أن عمه الملك لن  
يتورع عن قتله إن هو كشف النقاب عن نسبه.. ورغم هذه  
الظروف ظلت أوزار تناغيه كما تناغي الأطيّار صفارها... فكان  
لا يبالو جهداً عن إتخافها بابتسامات رقيقة.

وفي آخر الشهر وردت ردود السلطة المركزية في أرض جنات  
وتمثلت بمرسوم ملكي به تكليف بحكم صروح لأحد الأقيال،  
وهو القيل كوهار.. أتى الأخير والحجر المنقوش بالمسند أمام

موكبه وبه أمر الملك كرب..ولما التقاه رام سلم له كرسي  
صرواح طوعاً ومفاتيح القصر بما في ذلك الخزائن..فولاه القليل  
الأكبر كوهار قيادة جيش المحمية..ومرت ثلاثة أعوام كالبروق  
الخاطفة لكنها كانت تحمل الكثير من الهدوء..وفي خلالها أوفى  
رام بوعدده الذي قطعه لمعن بن قضاع، إذ زار مملكة معين ولبث  
فيها شهراً كاملاً، وبعدها آب إلى صرواح بعد أن أشبع عينيه  
بالنظر إلى وجه الملكة فادي، والتي لفرط حنوها وطيبة قلبها  
أخذها أمأ له..بيد أنه لم ير شهد أخت معن، إذ قيل له أنها كانت  
في محمية نائية لدى حكيم معالج..ولم يلتق بمعن أيضاً..إذ كان  
منشغلاً بالحرب في أقاصي حضر موت..

زقزقت أماصير شنار فرحاً ورفرف قلبه متهيئاً للتخليق في فضاء السعادة الغامرة.. وقد غدت فردون ابنة الملك كرب تهيم بحبه. كان قد استلب النصر بنصل سيفه في ميدان التدريب من بطل أرض جنات، ومن ثم استحق أعلى منصب في سبأ كلها بعد منصب الملك كرب، ألا وهو منصب قائد جيوش المملكة السبئية. وصار يعد من أبرع الفرسان. يقاتل راجلاً أو راكباً بسيفين صقيلين يزانان معاً مائة وخمسين أوقية. حتى فردون التي تقهر الرجال في عرض الميدان اعترفت ببراعته في القتال ووجدته تداً عصياً صعب المراس، وأي منها إذا صال أو جال في الميدان امتنعت أبطال مدينة جنات عن النزول، وحينها يتعاركان إلى أن يحل الليل، ثم يعودا من حيث أتيا متهللين. ومع كل يوم يمر تصنع قرعات سيفيهما حباً متيناً لهما فحواه الإثارة والمتعة..

في بادئ الأمر كان يظنها قطعة قدت من جبل صمصام.. أما تلك الفترة حين جاهرته بإعجابها به وبصولته الشديدة في القتال فقد بدت كالإسفنجة المبللة بماء الورد لينة رقيقة.. فصارا من فينة إلى أخرى يتنزهان في المزارع ويذهبان إلى المعبد سوياً، ويؤوبان سوياً، ولا يطيق أحدهما الابتعاد عن الآخر، وكأنهما خلقا لبعضهما.. كان لا أحد يضاهي شنار في شجاعته ولا منافس له على فردون.. ما المانع أن يفتح الملك كرب بأمله في

الاقتران بها؟ ولأنها ابنته الوحيدة فلن يكرهها على الزواج بمن لا تحبه، ولو كان ملكاً أو إمبراطوراً عظيماً، ناهيك أن الملك كرب أضحي بحبه إلى درجة التيم.

بهذا فكر القائد شنار ذو الربيع الرابع والعشرين من عمره، وهو مختل ونفسه في مقصورته بالقصر.. أزمع أن يسدي إلى السادن شيزار هذا الخبر.. وما إن سمع السادن أول حديثه وفهم فحواه حتى نصحه أن يستدرجها إلى المعبد، ومن ثم يعقدا وثيقة مقدسة كمقدمة للاقتران وتمهيداً له.. ويمزجا دمهما عليها، ومن ثم لا يستطيع أحدهما التنصل منها أو التكر لها فيما بعد.. وقال له مضيفاً:

- لن أكلّم الملك حتى أرى الوثيقة عالقة على المعبد، وبهذا تكون الآلهة شاهدة عليها.. وسوف يدعن الملك لما جاء بها.. فهو لا يجروء على مخالفة التشريع المقدس ولا يعرض عن رأيي..  
وبالفعل حبك شنار ألعيبه في عقل فردون، وجرجها بلسانه المعسول الألفاظ إلى المعبد، وعقد معها تلك الوثيقة بحضور السادن ومزجا الدماء.. وبنشوة بالغة تلقى من السادن شيزار خبر قبول الملك كرب بطلبه، وقد وعد بتلبيته إلى حين تنقضي مشاغل المملكة.. في تلك الفترة وصلت أخبار سيئة إلى الملك كرب، وهو منتصب على كرسيه كالنخلة الكبيرة، وفردون على يمينه كالزهرة النظرة، وعلى يساره شنار كالثور الضخم والأقيال على يمينه ويسرته كالتماثيل الجامدة ذات الألوان المألوفة. ثمّة رسول رث الثياب يقبع بإعياء بين يدي الملك، وقد وصل لتوه من أحد الثغور الجنوبية لمملكة سبأ، وصار يلهث كلهات النافخ بالكير، ولم يلبث أن أتخف المجلس

برائحة كريهة من الأنبياء..

غضب الملك كرب، وحجج الرسول بنظرة هائلة كادت أن تفقده وعيه.. وقال له باهتياج:

-ماذا قلت يا هذا؟.. أأحتلت معين محمية ذي ريدان؟

-نعم يا سيدي.. بجيش كبير، وقد ضموا إليهم قتبان وحضرموت وصاروا قوة لا تقهر..

لوح الملك بغضب لمن حوله، وصاح على المشرّع قائلاً:

-اكتب إلى جيوش المحميات والثغور بالتنفور إلى ميدان جنات..

وصمت الملك كرب قليلاً، وبدا وجهه أشبه ما يكون بنافورة دماء محترقة ثم أردف رانياً إلى شنار:

-وأنت انقري بجيش أرض جنات، لكي توقف تقدم الغزاة نحو المحميات الأخرى.

وباء طلب فردون بالفشل.. إذ كانت تصبو إلى اصطحاب شنار لكن الملك كرب وعدّها باللحاق به وجيوش المحميات..

## (١٢)

خرج رام وأوزار إلى أحراش الجوفاء النائية للصيد.. وكان قد بدأ يميل إليها ويترجم لها بعض أفعاله إلى لغة حميمية غريبة.. وأوزار آخر فرد أبقّت عليه الحياة من عائلة خاله خوف بن طاهم.. وهي الوحيدة التي تعلم سر انتسابه إلى شراح.. وبقدرة عجيبة تمكنت من إعدام النزعة الحيوانية الكامنة في جسدها الحار، وأحلت محلها سمات شريفة خالية من شوائب النفس.. أحس رام بذلك التحول المفاجئ بما يملكه من فراسة.. فلم يتهاون عن إبداء ابتهاجه من هذا السلوك الجاد، موحياً بقرب انفتاح كتاب حياتها الجديد، وميلاد عنوان جميل له حافل بالحب والأمل. في حين تمكن رام من اصطيد لبؤة ضارية.. وبعد مدة ليست قليلة أضاف إلى رصيده ذكر وعل ظل عن قطيعه.. في تلك الأثناء مالا إلى الراحة وجلسا على غدير ماء يترقق كالسلسيل، معشوشب ما حوله.. وتضوعا نفحات طيبة جلبتها تيارات هواء سارية من صوب شجرة كافور قريبة.. تأملت «رام» بحنو وهو يشق صدر الوعل، ويتزع قلبه ويلتهمه بدمائه ملطخاً شاربه الصغير وذقنه برذاذه الأحمر. ويلقي بجسد اللبؤة جانباً غير مبال بها.. غمغمت قائلة له بفضول زائد:

- كلما خرجنا للصيد أراك لا تأكل قلوب إناث الوحوش..



-ليس لديّ ما يمنع ولكنني اعتدت على قلوب وأكباد  
الذكور..

قال رام عبارته، ومشى إلى أن وقف على حافة الغدير، ورمق  
إلى سماء أرض جنات وأعقب بشرود رهيب:

-صدري متقبض، وكأن شيئاً ما ينقصني ولا أعلم به.

-لعلها الملكة فردون التي تنقصك، وربما اشتقت إلى  
رؤيتها.. قالت ذلك بصوت غيور، فتجهم وجهه وصاح بضيق:  
-كلا! كيف أشتاق إلى ابنة قاتل أبي.

وهاج على سطح الغدير، في حين قالت بصوت مشوب  
بالقلق:

-الأفضل أن نعود إلى صرواح، فأنا مثلك أحس بالضجر.

-سنعود الآن ولكن إياك أن تعيدي سيرة فردون.

حينها عادا تاركين الوعل واللبؤة للطيور.. استحثا جواديهما  
على الإسراع، إلى أن بانص صرواح بقصورها المزخرفة، ودورها  
المتلاصقة، وسورها القديم يتنسم حولها صلابة وعنفواناً، ولا  
زال قوياً متماسكاً ولا يعيبه شيء عدا فجوات محدودة على أجزاء  
منه أحدثتها عليه السنوات الغابرة، والجيوش المغيرة من  
الدويلات المجاورة لمملكة سبأ.. وأولئك الجنود ذوي الوجوه  
البسمر والأزياء المتنوعة، مبعثرون كأطباق الفاكهة حول  
السور، ويبدون متكئين بكثرة على جانب تلك البوابة ذات  
المصارع الحديدية الكبيرة والمغالق الثقيلة..

الاحظ رام حركة دائبة غير عادية حول البوابة، فثارت  
شكوكه، وجدّ وأوزار في العدو بالحصانين.. وما إن عبرا البوابة  
ورآهما الجند حتى هبّ الجلوس منهم واقفين، وكذا الوقوف

تسمروا ملقين له التحية بتهيب وإجلال، وظلوا على حالتهم عندما وقف رام مستفسراً عن سر تلك الدوشة والاستعداد العالي الملحوظ، اقترب كبير الجند من رام.. وبدأ عليه الارتباك وهو يقول باحترام جم:

- أمت يا سيدي بعد خروجك للصيد رسالة طارئة من أرض جنات تطلب النفير إلى هناك على وجه السرعة..

-هل هناك شيء آخر غير هذا؟

-لا شيء يا سيدي القائد سوى أن الكل ينتظر، لاسيما القليل

كوهار..

حينها لم يجد رام بُدأً من الخروج على القليل كوهار في ذات اليوم، حيث كان جسده منهكاً إثر أسبوع الصيد الذي قضاه وأوزار على بعد خمسين ميلاً من المدينة.. وكان يمني نفسه بنوبة وافرة من الاستجمام والراحة.. لكنه أدرك أن العناء الجدّي في طريقه إليه.

دخل رام القصر فتسارع الحراس أمامه لإبلاغ القليل كوهار بقدومه، وما إن رآه الأخير حتى أطلق آهة ارتياح، وقال له بلهجة ذات إيقاعات متسارعة:

- احشد الجيش وعسكر به اللحظة خارج المدينة، ثم غادر به إلى أرض جنات بعد يوم.

-ماذا حدث يا سعادة القليل؟

طوح القليل كوهار بعينه إلى أسفل المجلس، وأجاب بعناد:

- الأعداء عادوا مرة أخرى إلى غزو المحميات النائية، وعلى ما يبدو من رسالة الملك كرب أن الجيش المغير يشكل خطراً فعلياً على المملكة..

- للمعرفة يا سيدي !! من تظنه يجروء على قراع جيوش سبأ  
المدرية؟

- لا تقل هذا يا قائد رباد !! فمعين قد قضت على قتبان  
و حضر موت، وصارت بذلك أقوى مملكة في الجنوب..

عقد رام حاجبيه بدهشة.. وقال لنفسه هازماً رأسه: "صديقي  
معن بن قضاع يعلم أنني سبئي، ولا أظن أن جيشه هو الذي  
أغار على ذي ريدان" ..

انتبه إلى صوت مصحوب بيحة مصطنعة عن قصد، فأدرك أن  
بقاءه قد يجرحه إلى غضب القيل كوهار.

فتحرك خارجاً من المجلس بوتيرة عالية وحماس شديد، وتبعه  
القادة الصغار.. وما هي إلا لحظات حتى صاح بوق صرواح  
معلناً النفير... فسارت كتائب الجيش إلى بطن العراء الممتد  
خارج المدينة. وهناك انتظر رام حتى تتكامل جميع الكتائب  
وتأخذ نسقاً منتظماً وتشكيلة سوية.. واجتهد في تنسيق  
الصفوف، ولم يعبأ بالإجهاد الذي أصابه بفعل ذلك.. فوازاها  
ببعضها، وفي تلك الأثناء خطرت برأسه خاطرة فريدة من  
نوعها، لم تخطر في رأس ملك أو قائد من قبل، فأمر الجند بارتداء  
أزياء موحدة صحراوية اللون، وحمل أعلام حمراء غامقة، وأطلق  
على جيشه اسم "الجيش الأحمر"، وأوحى إلى الكتبة أن ينقشوا  
هذا الاسم بأحرف المسند على ظاهر الأعلام. فصار المنظر مهيباً  
يبعث في الأنفس الأخرى الرعب والإعجاب على حد سواء، في  
حين انتشى الجنود ودب الحماس بين صفوفهم المرتصة بدقة،  
وكان يوماً مشهوداً في تاريخ صرواح، إذ انتشر الأهالي في عرض  
البيد المنبطح خارج المدينة، وأخذوا يرنون بازدهاء إلى الجيش

وأرديته وتلك الأعلام المبتكرة التي أثرت خواء المدينة رونقاً ونشاطاً، وركب بعض المغامرين السور، وراحوا يصرخون قائلين بافتتان:

- أقامت المقة مجد صرواح وأطالت عمر رباد بطل المحمية..  
قضى الجند ليلتهم الأولى خارج صرواح، وفي الصباح تآهبوا للرحيل إلى أرض جنات.. في ذلك الوقت أتت أوزار فوق جوادها، ضاربة على وجهها قناعاً فضياً.. فاستوقفتها الجنود، وهم يجهلون من تكون.. أحست بالخبجل أمام رام لأنه كان لا يود اصطحابها وفي القصر أعرض عنها أيما إعراض.. اتقت نظرتة العاتبة قائلة:

- طالما حلمت بشيئين، كل منهما أجمل من الآخر.. الشيء الأول هو رؤية أرض جنات، والثاني هو القتال إلى جانبك !!  
- أهذا كل ما تحلمين به؟ أم أن هناك شيئاً خفياً وراء مجيئك؟  
- لا أكذبك القول إذا قلت لك أني أصبو إلى رؤية الملكة فردون..

امتقع وجه رام، وتطلع إلى وجهها بتوتر، وقال لها بلهجة حادة:

- لا أملك أدنى رغبة بالنظر إليها.. ومع هذا يتابني شعور رهيب لا أعلم فحواه..

- أنتم معشر الذكور تقولون ذلك دوماً، لكنكم تسقطون في شرك الملاح بسهولة..

أحس رام بلهجتها المريرة وأدراك ما يقلقها.. فسألها بجدية:  
- أهي جميلة إلى الحد الذي تعطيها الآلهة قدرة خارقة على إيقاع القلوب؟

- يقولون ذلك.. ناهيك أنها تخالط الرجال وتقاتل الأبطال..  
- وأي سيف يسمح لصاحبه أن يصرع أي فتاة؟  
- الملكة فردون رجل قبل أن تكون امرأة، وأنا لا أقبل منك  
هذه اللهجة، لا تستخف ببنات جنسي أمامي..  
- بيخ.. بيخ.. كُفِّي عن الهذر.. ولا تزجي بي في غمار الغضب.  
وانحرف عنها وراح يراقب حركة الجنود ويستعجل خطاهم  
من أجل الوصول إلى أرض جنات في أسرع وقت ممكن..

\* \* \*

غداة اليوم الثالث وصل رام والجيش الأحمر إلى ميدان  
جنات.. وهناك نادى المنادي بأعلى صوته:  
- جاء جيش صرواح، تتقدمه أعلام حمراء عجيبة، وفارس  
ممشوق القوام تلوح الشجاعة على صفحة وجهه الجميل..  
تمهيب الملك كرب وجيوش المحميات من هيئة جيش صرواح  
وطريقة تنسيقه.. وحدث رام وجه عمه كرب بنظرة طويلة  
وعميقة، وقال لنفسه:

"ما زال عمي كرب محتفظاً بحيوية الشباب رغم أن الشيب قد  
خط عارضيه وذقنه".. في تلك البرهات أخذ رام لجيشه وضعية  
جيدة على يمين الميدان، وراح يجول يبصره إلى كل ما حوله، لكنه  
فوجئ بالمدرّب يجار بصوت عالٍ قائلاً له:

- لقد تأخرت كثيراً يا قائد جيش صرواح، وقد شفّع لك  
حسن تشكيلك للكثائب، والزي الموحد والأعلام الحمراء..

رد عليه رام قائلاً بصلاية، وعيناه لا ترتدان عن عمه كرب:

- ماذا تنتظرون يا سيدي، وقد وصلنا الآن؟

- إننا ننتظر الملكة فردون لتقود الجيوش..

احتقنت الدماء في وجهه وانطلق صارخاً بغضب:

-أتقودنا فتاة يا مخنث وكأننا قطع من النساء؟

- اخفض صوتك يا وبش الأوباش!! إنها فارسة لا يصمد

أمامها أحد..

عندها استشاط رام غضباً، وهمّ أن ينقض على المدرب،

وأوشك أن يسلم سيفه، ولكن أوزار تثبثت به قائلة:

-هل جننت؟ ماذا تفعل؟

فاكتفى بالقول مهدداً:

-سأنشق عن الجيوش بجيش صرواح، وسأرى ما ستفعلون

من دونه!!

وفي تلك اللحظة حدثت هرجلة وشوشرة غير عادية بين الجند

والجند والقادة والقادة.. وصار القائل يقول لجاره:

-قائد جيش صرواح يود الانشقاق بجيشه، إلا إذا أقصى

المدرّب الملكة فردون عن قيادة الجيوش، وهذا هو مبتغاه..

-إنه على حق، ولكن الملكة فردون معلّمة بالدائرة المقدسة

ولولاها لتمردنا..

-اصمت يا هذا.. فالملك كرب سوف يسحق من يقف في

طريق أبتته..

بعد ترده وصمت للحظات وجيزة لوى المدرب عنان

حصانه، وقال يخاطب رام بامتعاض وحنق:

-ابق في موضعك يا سعادة القيل حتى..

بتر عبارته بغتة.. إذ رأى فردون قادمة على حصان خفيف

ومقنعة بقناع داكن، فقال باضطراب مشيراً إلى رام:

-قائد الجيش الأحمر يكره الانقياد تحت لوائك يا صاحبة

الجلالة..

ألقت نظرة استهتار وكبرياء إلى وجه رام، ولمحت أوزار  
بكراهية، وقالت:

- أخبر الملك بما يجري، وأنا سأندبر أمر هذا العاصي..  
انصاع المدرب واتجه صوب الملك كرب.. في الوقت الذي  
اقتربت فردون من رام. واضعة كفيها على مقبض سيفها.. وقالت  
له بصوت محتقن بالغطرسة والحنق:

- أتحسب نفسك أمرس مني بالقتال يا أشأم القادة؟

- ابتعدي، الحرب سوف تقرر من هو الأمرس من الآخر..

نطق رام عبارته بحياء، وارتد إلى الوراء متحاشياً الاصطدام  
بها، فانقضت عليه بشراسة وهي تصرخ بشدة:

- أيها الوقح.. تخاطبني كما لو كنت جاريتك..

اشرأت أعناق الجنود إليهما، وأخذ رام يزيغ عن ضرباتها  
المسددة إلى صدره ويناورها بكراهية.. خيل إليه أن الجيوش  
تحتقره وتستنقص قدره لأنه يبارز فتاة.. لكنه وجد نفسه أمام  
صاعقة نارية تكاد أن تحرق جسده بطعنات نافذة.. شعر أنه لم  
يقاتل ذكراً ممن لاقاهم من قبل في صرواح يملك ما تملكه فردون  
من صلابة ومهارة.. وقد أنقذ روحه بأعجوبة من سنانها اللامع  
عدة مرات.. عند ذلك احتاط على نفسه وأحس أنه مقتول لا  
محالة إن هو تقاعس عن استجماع كامل قواه لمواجهةها... نازلها  
رام بإخلاص بحت، ولاح جبينها الأبيض نقياً لم يتفصد عرقاً  
بعد.. أما هو فصار كغريق أنتشل من بحيرة عميقة.. وكان الخجل  
هو الشلال الذي يغذيها والجزء الآخر كان الجهد  
والإعياء.. حجبتها الغبار عن العيان.. وفجأة ارتدت فردون إلى  
الوراء بطريقة مذهلة تخلو من علامات التقهقر، ونظرت إلى

خيمة أبيها، ثم إلى الجيوش، وبدت وكأنها تتحفز لحسم القتال.. بعدها هجمت على رام مصوبة رمحها إلى صدره. وصاحت بصوت أذهل الجميع قائلة:

- خذ هذه يا قائد الجيش الأحمر لتعلم من تكون فردون.  
ثم قذفت الرمح بقوة. فقفز من على حصانه باللحظة الأخيرة.. ووقع إلى الأرض على رأسه.. فأصاب الرمح أحد جنوده في مقتل.. وخرج حصانه الشهاب من تحت الغبار منكسراً، وأرادت فردون في تلك اللحظة أن تطارده وتطعنه قبل أن تزول دهشته.. ولكنه أطلق من فمه لحناً منغوماً، وسرعان ما هرع الشهاب إليه، فاعتلاه قبل أن تصل فردون إلى مكانه، وقد اكتسى وجهه بكتلة ضخمة من الغضب، وشعر بالخزي والذل يجرحان كبرياءه.. عندها نزع نشاباً من وسطه ودار على الميدان دورة كاملة إلى أن عاد إلى موضعه الأول.. وهمّ أن يرمي النشاب على نحر فردون.. في الوقت الذي رأى حدأة تحلق فوق رأسها.. فسدده إليها في آخر لحظة.. واشتبك النشاب في صدر الحدأة.. في تلك البرهة جاء المدرب مسرعاً ودنا من فردون وقال لها باستعطاف:

- درءاً للانشقاق رأى الملك أن تكون القيادة مناصفة بينك وبين قائد الجيش الأحمر..

سكتت على مضض وبدأ عليها الرضا والتسليم.. وأراد المدرب أن يمشي إلى رام.. لكنه ألقى الحدأة مقتولة أمامه، فقال بانذهال:

- من قتل هذه الحدأة ولقد رأيتها محلقة وأنا في طريقي إليكما؟  
أشارت فردون بإصبعها إلى رام وقالت بلغة الطفل الحائق:



- هذا من قتلها وكان نشابه مصوباً إلى صدري..  
- لقد رأى الملك قتالهما.. ويأمرهما بالمثل بين يديه.  
دفع رام حصانه وسار وفردون إلى الملك كرب، إلا أنها لم تحاذه  
حال وقوفهما أمام أبيها فحسب.. بل أظهرت النفور  
والامتعاض، فقال الملك كرب وهو يتأمل جسده النحيل:  
- أنت وشنار الوحيدان اللذان ثبتا أمام ابنتي فردون..  
- ومن هو شنار يا جلالة الملك؟

- إنه قائد الجيوش السبئية، وهو بطل مغوار لا نظير له..  
لاذ رام بالسكوت، وتابع الملك كرب حديثه مضيفاً بنبرات  
صارمة:

- لست عاجزاً عن قطع عنقك، ولكننا أحوج ما نكون إلى  
شجاعتك.

وراح يتفوه لهما بتعليماته.. وشدد على عدم الإختلاف وألزمهما  
بالاتفاق المسبق على كل صغيرة وكبيرة والخروج برأي واحد من  
شأنه أن يعود على سبأ بالفائدة.. ثم رمق المدرب قائلاً لهما:  
- إذا اختلفتما في الرأي.. فردا الأمر إلى المدرب شعسان..

بعد ذلك أذن لهما بالمسير.. وصاح البوق وتحرك جيش عظيم  
من ميدان أرض جنات يتقدمه رام وفردون والمدرب شعسان  
وأوزار، وحدث أول خلاف خارج مدينة جنات.. حيث أمرت  
فردون أوزار أن تنضم إلى مؤخرة الجيش مع مئات الجواري  
المعدات للطباخة والاعتناء بالجرحى متى نشبت الحرب.. ولكن  
رام نقض أمرها وخاطبها قائلاً بحدة:

- يجب أن تبقى أوزار إلى جانبي لأنها قبيلة وقد جاءت برفقتي  
من صرواح، ولن أَدعها تغادر إلى الجواري وعبيد الطباخة..

- أنا لم اصطحب معي أحداً يا قائد الجيش الأحمر.  
كان رد فردون بعصبية، فانبرى قائلاً بعصبية مماثلة:  
- لم أمنعك يا ملكة فردون.. ولك الحق في رفقة من تشائين..  
وتدخلت أوزار قائلة لها بجرأة:

- لقد أضمرت لك الحب قبل أن أراك، وأظنني كنت واهمة  
في رسم صورتك الحقيقية يا جلالة الملكة..

- صه يا قبيلة صرواح. أنت أحسن منطقاً من رفيقك.

بعدها أطرقت إلى الأرض وكأن الخجل أطبق فمها، رغم ذلك، جذبت تلك المشادة المدرب شعسان إليهما، إذ كان بالقرب يسدي للقادة بعض التعليمات، وسمع بعض ما دار بين رام وفردون من نقاش حاد، وفهم ماهية الخلاف.. لذا لم ينتظر حتى يعيد عليه رام ما حدث، بل عرج إلى فردون وقال لها بلطف:

- يا جلالة الملكة أنت راجحة العقل، وهذا الخلاف لا يستحق الاهتمام..

- لقد أجبرني بعناده على العناد، ولكنني عمّا قريب سأنضم إلى  
شئنا..

وبعد عبارتها ابتعدت إلى الناحية الأخرى وهي حانقة أشد الحنق وغيرانة من وجود أوزار قرب رام، في حين هي وحيدة لا تجد من تجاذبه الحديث.. ورغم أن وقت المدرب شعسان يشكو من الفراغ المتقطع، إلا أنه ليس الوجه الذي تهفو إليه عيناها وتشتهيه جوارحها... وليس أي وجه بمقدوره أن يحصد أكبر قدر ممكن من بسيمات شفتيها النضرتين.. بل إنها تود وجهاً يطغى على وجه رام المدور لا سيما في تلك اللحظة التي برز فيها الخلاف

الأول... حتى وجه شنار انطمس وصار لاقيمة له في ظل وجود رام..

"هذا الساحر، ما أخبت نظراته وعينه السوداوين، والحمرة التي تلتحف خديه حين يغضب أو ينجعل.. تباً له ولتلك الفتاة الرعناء"

هكذا قالت فردون لنفسها، وهي ترمقها شزراً من بعيد.. مضى المدرب شعسان يسرد لهما ما غمض عليهما من حياة فردون.. وفهم رام من خلال حديثه أنها مُدلة دلالاً زائداً.. لأنها وحيدة والديها.. وقد عاشت في مهد رغد بين أحضان النعمة، والطاعة تحف بها من كل جانب... وقال المدرب أيضاً أنها قتلت عبدين من عبيد الإسطبل في أحد الأيام، لا لأنها تأخرا عن موعد إطعام جوادها العليق.. بل لأنها أغلظا لها الرد.. أحس رام أن هناك ثمة سمات تشركه وفردون، ولعل العناد والمكابرة لبَّ الاشتراك في ذوي الدائرة المقدسة، لذلك لا لوم على فردون..

شيء ما شرع يمحخر روحه، وراح الميل من ركن قصي في قلبه يهز علماً شفافاً لم يكتمل بياضه.. فظل شارداً أمام الجيوش المسرعة الخطى، ومن حين إلى آخر يلوح ناحيتها والأسف لائح في عينيه كتلك الأعلام الحمراء التي تحملها جنوده، بينما انتصرت رغبة فردون واعتبرت ذلك الألق الذي مازج نظراته إليها ورقة رابحة في يدها.. فتهدت في عنادها أكثر.. وأثر في نفسه أثراً بالغاً أنها كانت تشيح وجهها عن مكانه، ولا تحفل بألق عينيه الأسف، وكأنه جزء من المجهول. خالطه شعور مفرط في الرغبة وتمنى أمنية حارة أن تميط فردون القناع عن وجهها

ليتسنى له رؤيتها على حقيقتها. لأن الناس سجعوا بالحديث عنها  
أبداع الأوصاف والأمثلة.. وياما أوجعت أوزار أذنيه في صروح  
وهي تنتقل في ثنايا جسد فردون وتنتشل من الطبيعة المحيطة بها  
أسمى التصويرات لتلحقه بها.. أمّا فروسيتها فقد أفردت لها  
باحة عريضة لا تدرك العين آخرها... وكان رام يرى ذلك منها  
من قبيل المفاخرة بجنسها الأنثوي. لكن أوزار انداحت عن  
المباهاة بالملكة فردون بعد أن عرفت أن رام هو ابن الملك شام،  
وكأنها شعرت أنه سيتخلى عنها بفعل صلة قرابته بها، وكذا  
إطرائها الشديد عليها.. لذا لم تعد تذكرها إلا نادراً، وإن فعلت  
فذاك من قبيل جس النبض لديه والتجسس على نواياه.

وفي اليوم الثالث بات الجيش نصف الليل الأول في قاع  
الجوف. وهنالك أمر المدرب شعسان بحضور قادة الجيوش  
العشرة للاتفاق على خطة موحدة عند القتال.. وبعد أن جاء  
القادة إلى خيمته جعل يأخذ آراءهم حول الطريق الأقرب إلى  
محمية ذي ريدان.. حيث لا زال أمامهم سير يومين ونصف حتى  
يصلوا إليها.. وقد أتت الرسل في نهار ذلك اليوم بأخبار لا  
تسر. قالت إن شنار والجيش الذي سار معه محاصرون خلف  
أسوار المدينة بعد انهزامهم إليها في معركة غير متكافئة وجيش  
معين.. حفر المدرب شعسان بإصبعه مسارين على قبة الخيمة  
المغروسة فوق رمل ناعم كابي اللون، وقال مشيراً إلى أحد  
المسارين:

- هذه طريق غرب الجوف، وهي قصيرة لكنها وعرة تتخللها  
هضاب صغيرة وارتفاعات وانخفاضات.. ثم استرد أنفاسه  
قليلاً وأعقب مشيراً إلى المسار الآخر:

- وهذه صحراء رملية شاسعة وقاحلة وطويلة، ولكنها مستوية.

بعدها كف المدرب شعسان عن الحديث تاركاً للقادة فرصة للنقاش وإبداء المشورة.. واستهل قائد جيش محمية يمنات الحديث، وقال:

- الجياد والجمال لن تقوى على السير في طريق غرب الجوف...

وأبدي آجر قائد جيش محمية حريب رأيه قائلاً بصوت متألق:

- لا يا نقفل.. لا تنس أن طريق الغرب قصيرة، لذا فهي الخيار الأمثل..

وقال قائد آخر:

- لا فرق لديّ بين الطريقتين، ولكل منهما جانب يسير وجانب عسير..

وهكذا تضاربت آراء القادة.. ولم يتفقوا على رأي واحد بشأن الطريق الأفضل للعبور.. وأخيراً ابتعدت فردون عن صمتها، إذ قالت بصوت يملأه الحماس:

- أرى أن نقسم الجيش إلى فرقتين، وكل فرقة تسلك طريقاً، ثم تلتقيان في مكان معلوم.

ناهض معظم القادة هذا الرأي، ولم يتحمس له أحد، وتذرعوا بذرائع شتى مبررين سبب رفضهم قال نقفل مختلقاً خطراً فادحاً:

- سوف نتوه إن تفرقتا، ولا أجد لهذه الفكرة أدنى ميول لديّ.

- المعذرة يا صاحبة الجلالة.. هل لديك رأي آخر غير تفريق

الجيش؟

قال آجر هذه العبارة بإشفاق.. فأطرقت إلى الأرض باستياء،  
وقد احمرت وجتهاها وبدت محبطة تماماً، ثم لم تنبس بينت شفة.  
وتحول الحديث إلى منحى آخر... وغاصت فكرة تفريق  
الجوش جوف الجدل الهادر... لكن رام أعاد فكرة فردون إلى  
عقله ليستسيغها مرة أخرى... وبينما هو يوشك أن يلفظها فطن  
إلى شيء غاب عن أذهانهم جميعاً في الفكرة.. صاح بصوت رافع  
أدهش القادة وجعلهم يتبهون إليه بأبصارهم وأسماعهم قائلاً  
بتأكيد:

- رأيي الملكة فردون هو عين الصواب لكنكم لم تدركوا  
مغزاه.

- كيف يا قائد رباد؟ تحفنا بما جهلناه. قل أيها الفطن ما  
لديك..

على هذه الشاكلة تقاذفت الألفاظ الجادة والساخرة من أفواه  
القادة فحملت فردون في وجه رام والذهول يرعش تقاطيع  
ملاحظها رعشات عنيفة.. حيث كانت تظنه آخر من يتصر لها أو  
يساند فكرتها مهما صابت أو سمت.. هذا إن لم يعارضها جهراً  
ويكشر أمامها أنيابه الخفية، أرهصت السمع غير مصدقة، فقال  
بثقة عمياء:

- أصحاب الجياد والإبل يسلكون الصحراء تتقدمهم الأدلة،  
والراجلون يعبرون طريق غرب الجوف الوعرة، وملتقي على بعد  
أميال من مرار..

هتف المدرب شعسان قائلاً بفرح:

- رأيي سديد.. لا أشفت المقة بك غليل حاسد أو شائن.

- إنه رأيي الملكة فردون، فاشكروها على كياستها.. قال رام.

-شكرتك الآلهة يا صاحبة الجلالة، وأحاطتك عيون المعابد.  
وابتسمت والقادة يمطرونها بالثناء والشكر.. هذه المرة رنت  
إلى رام بنظرة امتنان حارة كادت أن تذيبه وتخلع قلبه.. وفي  
الصباح تم تفريق الجيوش على الطريقة التي خطط لها رام وفسر  
بها فكرة فردون.. الفرقة الراجلة وفرقة الخيالة، وقال المدرب  
شعسان يخاطب رام:  
- أنت قائد الفرقة الراجلة، ولكن إياك الاصطدام والعدو إن  
وصلت مبكراً..

-وجلالة الملكة على رأس الخيالة.. وأنا والقادة معها.  
عند ذلك اتجه رام وفرقته صوب الغرب مودعاً فردون  
بابتسامة كثيفة في حين سلكت هي وفرقتها الصحراء. وجاء  
صوت ذو صدى خفي من أعماق رام، قال: " أنا الحنين فذق  
مرارتي، فلا زالت مرار بعيدة وبعيدة. وهاهو الفراق جاء ليتوكأ  
على نحولك ويرحل معك في وقت سئيم " ..

\* \* \*

كان رام وأوزار الوحيدين اللذين لهما جوادان من دون  
الفرقة.. وجاءت الفرصة مواتية لأوزار لكي تؤنبه وتتهمه بالميل  
إلى فردون، ولم تكتف عند هذا الحد، بل هددته بكشف سره  
المصون، وهو نسبة الذي لو علم به الملك كرب لن يتنجو من  
سيفه.. غير أن رام اتشح بصمته ووجومه، صار بجانبها  
كالأصم، وهي تثرثر حتى ينشف الريق في فمها، ولا تلبث  
بعدها أن تصمت يائسة من رده، ظل السير دؤوباً في اليوم  
الأول، وفي اليوم التالي مروا على مواضع وعرة جد شاقة، فأمر  
رام أن يخلدوا للراحة بعض الوقت.. وفي صباح اليوم الثالث

وصلوا إلى بر طويل انكشفت في آخره منازل مدينة مرار لامعة كسطايا المرايا المهشمة، ولاحت الجنود المطوقة لها كقطعان النمل الأسود المتجمعة قرب مخازن الغلال.. توقف رام وفرقتة على بعد أميال وأنفذ من يتفقد أحوال القائد شنار والمحاصرين معه جوف المدينة.. ووضع على أجزاء شتى من البر تكتلات صغيرة من الجنود، لإرشاد جيش الخيالة إلى مكانهم حال وصوله.. عاد الجواسيس في زمن قصير:

- شرع الأعداء يتسلقون الأسوار، وتوشك مرار أن تُقتحم.

اغتم رام، ووجد أنه من الصواب أن يباغت الأعداء بالهجوم قبل أن تسقط المدينة رهينة بأيديهم، ومن ثم سيعتذر على السبئيين استردادها.. وسرعان ما هاجم السبئيون الجنود المنبثقين حول الأسوار، ورشقوا المعتلين فوقها بالنبال، فسقطوا بين قتيل وجريح وأما الذين كانوا حول السور فلاذوا بالفرار، إذ كانوا آمنين وكانت المباغته غير متوقعة.. وحصل لهم ما حصل رغم أن عددهم كان هائلاً يثير الفزع في النفوس، وخرج شنار ومن معه من الجنود والنقوا بالفرقة الراجلة قرب البوابة، وفي وسط الظهرية قدم الخيالة السبئيون، فوجدوا المدينة مفتوحة والجثث متناثرة حول سورها، وأقبل شنار إلى الملكة فردون وسلم عليها أرق سلام، ورام يرمقه بغیظ ولا يكاد يجروء أن يبدي ذلك خوفاً من غضب أوزار.. لكنها قوضت لقاءها وشنار سريعاً، وشقت والمدرب شعسان الطريق إلى رام.. لحق بهما شنار ممتعضاً، وما إن التقياه حتى صاح المدرب شعسان باغتباط:

- هنيئاً يا قائد رباد.. لقد عملت عملاً عظيماً وحسنت نصف

الحرب.



وبادرت الملكة فردون قائلة بنبرات منتشية:

-إنك أنقذت شنار وجيش جنات من قبضة الموت.

طفق شنار يقول بصوت متهدج:

-ماذا أفعل؟ الملك زجّ بي وسط أعداد ضخمة من المعينين.

-لم يعد أمامنا سوى ذي ريدان وربيا تكتلت حولها جيوش  
معين منتظرة وصولنا.

قال ذلك المدرب شعسان ورد عليه رام بتلهف:

-لا بد أن نتعقب الأعداء.

ووافق الجميع بما فيهم شنار وفردون... وفي ذلك اليوم آمن  
رام أن الأعداء هم المعينون وليسوا سواهم كما كان  
يظن.. وعرف أن صديقه معن هو قائدهم.. وكان قد استنطق  
الجرحي فأخبروه بكل شيء.

بعدها سار والملكة فردون التي حاذته حتى صارت ركبتها في  
بعض الأحيان تحتك بركبته. أخذت تحادثه وتضحكه وأوزار  
ترقب ما يدور بينهما باهتمام، كانت على يمين رام ترهف  
السمع، ومن حين إلى آخر تتدخل في الحديث، ولكن ألفاظها  
انحصرت في التلميح له بدنو افتضاح سرّه، غير أنه لم يبال بتلك  
الإنذارات المتفاقمة، بل ظل يقرص قلب شنار المتربص أيضاً  
لحديثها بألفاظ ندية يرميها في أذن فردون لتقع كالشهد الصافي،  
حدق رام في وجه أوزار فألفاه متصلباً كالحأ كالحصير الأسود،  
والدماء تغلي فيه غلي الزيت على النار، أراد أن يخفف عنها ما بها،  
فقال لفردون مشيراً إليها:

- ترعرعت وأوزار في قصر صرواح، فكنا ننام على خصام  
ونصحو على صلح..

- لا أعلم بعد الكثير عن صلتك بها.

- إنها ابنة خالي القيل حوف.. وكنت أكرهها بشدة ولكننا

الآن صرنا أليفين..

قالتها رام مبتسماً، فأشرق وجه أوزار إلى أن قالت فردون:

- دعك منها، فقد كنت أكرهك، وكم تمنيت لك الهلاك في

ميدان جنات، ولكن لا أدري ماذا جرى لي بعد ذلك.

- وأنا كذلك.. وقد كدت أن أهلك ولولا قفزت و..

قاطعته بنزق كأنها جرحت من ذكرى الماضي:

- ولكنك نشزت عن الولاء للدائرة المقدسة وقذفت الشباب

صوبي..

- كفى يا جلالة الملكة، لقد صار ما صار وفدتك الآلهة

بالحدأة.

- ما أشأم لقبى حين ينطق به فمك. خاطبني الآن بلا لقب كما

فعلت في أرض جنات.

انطلقت أوزار لتقول بشماتة ولكن بصوت خافت:

- يا للممقة.. الدماء تحن في العروق، والعتاب بداية سيئة.

جلجل صوت رام عالياً مصوباً نظرات التحذير إليها، وكانت

فردون قد بعدت عنه محنقة، ولكنها عادت بعد أن رأت الظفر

يسطع في وجه أوزار، ووصل إليها شيءٌ من كلماتها الخافتة،

فقوت عليها تلك اللحظة المشتهاة، واحتلت مكانها الأول قرب

رام وسألته:

- ماذا قالت هذه الفتاة؟ وهل أسعدها حقني؟

- هي هكذا تهذي أحياناً منذ أن قتل أبيها.

عند ذلك مالت أوزار إلى شنار، وراحت تحادثه لعلها تغضب

بذلك رام، وهذا غاية مناها، فاستجاب شنار إلى عشمها مضمراً  
 نفس النية، راح يناجيهما بانبساط تام، وحرص كل منهما أن يغيظ  
 صاحبه، ويرمقه بين لحظة وأخرى لسرى انفعالات  
 ملاحظه.. تعالت ضحكاتها حتى ارتج محيط المكان.. ولكن رام  
 وفردون كانا في تلك البرهة طافين فوق نهر صغير يجري بهما  
 دون توقف.. كأن لا أثر للجنود من خلفهما، ولا وقع للحوافر،  
 ولا حرب، ولا حتى كائنات حية تقيم معها على هذا الكوكب،  
 حتى الجوادين اللذين يقلاهما صارا يمحمان لبعضهما كأن ثمة  
 ألفة قديمة رجعت إليهما في ميقات سقيم من زمن الحرب.. نفر  
 اليأس إلى وجهي شنار وأوزار، إذ لم تنفع أحاديثها شيئاً في لفت  
 انتباه صاحبيهما، فتشككا من مصداقية الصحبة، وحدثا أنها  
 يعيشان في وهم، بيد أن شنار لجأ إلى المدرب شعسان وقد أنهكه  
 الحقد، وألح عليه أن يدعو القادة للاجتماع من أجل خطة  
 تبادرت إلى ذهنه.

لبي المدرب شعسان سؤاله، ودعا القادة إلى المجيء، وليس  
 لديه علم بما يهدف إليه شنار.. وجاء إلى رام وفردون من جذبها  
 من لجة النهر الصغير الممتع.. وبهذا نجح شنار في صرفهما عن  
 بعضهما بخطة المزعومة.. وفي اليوم الثاني كرر حيلته، وكذلك في  
 اليوم الثالث.. وخلال ذلك أوهم القادة بأن تشكيلة رام للجيش  
 خاطئة.. أما رام وفردون فقد رأيا أن هذه الخطة غير صالحة في  
 الظروف القادمة.. لكن المدرب شعسان أقرها لحصولها على عدد  
 أكبر من أصوات القادة.. كانت الخطة تتمثل بالهجوم الأهوج  
 على جيوش معين ودك أسوار المدينة، وقد بدت لهم أسوار ذي  
 ريدان، لكنهم فوجئوا بخلو محيط المدينة من الجنود.. حتى

البوابة الصلدة مفتوحة ولا اثر لوجود حراس أو خيول قربها  
وبدا شنار والقادة يتحفزون للهجوم واقتحام المدينة فصاح رام  
قائلاً بصوت صاعق:

- تمهلوا يا معشر سبأ حتى نرسل فرقة صغيرة للاستكشاف..

فنهره بالفاظ قبيحة مشوبة بالسخرية، وقال شنار:

- دعوا هذا المتعاس يترث، فهذه الجولة لي ولن أفوتها له..

وانطلقت من حنجرة المدرب شعسان صرخة فظيعة، وقال

بحيرة أكيدة:

- كفى يا شنار.. كفى يارباد.. لقد فات الأوان ولا فائدة

للتلكؤ..

- « هجوووووم »..

اهتزت الأعلام الحمراء، وكأن العواصف الكاسحة  
اجتاحتها، ولكن بإشارة من ذراع رام وقفت جميعها، وكان  
العاصفة سكنت بمجرد أن رفع كفه في الهواء دون أن يلتفت إلى  
الجيوش التي تداخلت وامتزجت بفعل خطة شنار. صارت  
حينها الأنساق المختلفة والكتائب في كتلة واحدة مختلطة  
تتنازعها العشوائية.

أركن رام جانباً وصرخ بملاء الصوت ومازالت ذراعه

مرفوعة:

- إليّ أيها الجيش الأحمر.. أنا القائد رباد..

استجاب الجنود ذوو الزي الصحراوي والأعلام الحمراء،  
وانسلوا إلى ورائه، وكذلك انسلخت فردون وفرقة غير قليلة من  
جيش أرض جنات، وانتقلت عدوى الانشقاق إلى بعض كتائب  
المحميات المتفرقة، فانسلخوا خلف رام وفردون، وظلوا

جامدين يرمقون المهاجمين بقلق. لحظتها التفت رام فرأى ما يقارب نصف الجيش لم يهاجم والقادة.

تدفق الجيش المهاجم على بوابة ذي ريدان المفتوحة، وسرعان ما دخلوها بسلام، وشعر رام بأرق شديد وتملكه شعور مفرط بالخجل.. وشك أن اعتقاده كان في غير محله، وأن المدينة خالية بالفعل من جيوش معين وقال لنفسه بانكسار: "سيعقد شنار لسواء النصر فوق رأسه ويحظى بمكانه لدى عمي كرب وفردون" ..أحسقه هذا الهجس، وجعله يطلق آهة متعبة. وعاد إلى نفسه متفكرًا: "كيف ترك جيوش معين ذا ريدان ييسر! وقد صاروا الأعتى، وصديقي معن ليس بالساذج حتى يفعل ذلك، وليس معن ينكصون عمًا يقدمون عليه وهو معروف بعناده".

قاطعت الملكة فردون خواطره السريعة قائلة له بدون كلفة:

- ما بك؟ اهجم.. ألا ترى أن شنار قد خطف منك الشجاعة؟

- اللعنة على شنار!! إنه يريد أن يحصد ما زرعه ويُدعي أنه الزارع..

قال رام عبارته بامتعاض.. في حين تقدمت فردون مع من بقي معها من الجيش، فركل حصانه بكعبيه ولحق بها وهو يصيح:

- لا تكوني عجولة.. انتظري ذا الدائرة المقدسة..

- إنك تتخبط كالغريق، ولا تمتلك الشجاعة لتكشف نفسك.. قالت هذه العبارة أوزار، وسلت سيفها وتبعته والجنود، فحدها بنظرة فتاة قبل أن يسبح به جواده الشهاب في الموجة الأولى المندلقة نحو السور.. ما إن كادت الملكة فردون تبلغ السور الملتصق بالبوابة الفاقعة اللون، حتى انغلقت من الداخل،

وطلع عليهم جُند مجهولون من فوق السور وسطوح المنازل القريبة منه، وأمطروهم بوابل من النشب والنبال.. وتساقط الفرسان الأوائل من جيش أرض جنات من على جيادهم قتلى مشكوكين بسهم وسهمين وثلاثة.. أمَّا الجيش الأحمر فكان أقل تضرراً رغم أن الذهول قد أفقده تماسكه.. وأدرك رام بالفخ المتقن الذي نصبه المعينيون لهم، وأيقن أيضاً أن النصف الأول من الجيش السبئي في مأزق عويص وسط المدينة.. هذا إن لم يكن المعينيون قد طحنوهم طحناً وأبادوهم إبادة جماعية. وهكذا تشتت جيش أرض جنات بفعل المفاجأة، وسرى ذلك إلى الجيش الصرواحي الأحمر، وشرع البعض بالإدبار إلى السور المتسع. وظل رام يلف بحصانه في دائرة رملية صغيرة، وقد أخرس الهول لسانه وشعر بمخزون هائل من القهر يربض في قيعه نفسه المثخنة بإيلام هذه النكسة الخاطفة..

مر وقت قصير وهو على تلك الحالة، مغلول اليدين، مشلول الجسد. وبعد هنيهة تلملم عقله المبتوث هنا وهناك، وانفكت عقدة لسانه، فصاح على أصحاب الأعلام الحمراء:

- انتشروا عن يمين ويسار السور في مسار مستقيم، وارموهم بالنبال والأسهم، لا تتكثفوا بمكان واحد فتصيروا هدفاً سهلاً للأعداء.

انفض رام إلى اليمين وتبعه قطار طويل من الصرواحيين، لاسيما الفتيان الرماة، ونزع سهماً حاداً من كناته، وقذف به المعتلين السور، فأسقط أول قتيل من جنود معين، وشاركه جنوده وانهالوا بالسهام والنشب على جنود السور، والتمركزين على السطوح.. فأوقعوا الذين على السور إلى أسفله من الداخل

والخارج، بينما استتر عنهم الذين على السطوح.. ورغم الإصابات البالغة التي لحقت بهم فقد استبسوا ولم تعقبهم الحجارة المنهمرة عليهم من أعلى المنازل عن التقدم إلى البوابة، إذ حملوا حملة قوية، وتزاحموا حولها وراحوا ينهالون على عتباتها الغليظة بالحجارة الثقيلة وزبر الحديد والفواريع والمعاول، واستمروا لحظات حتى انكسرت وتقطعت.. فاقتحموها وأجهزوا على الكامنين في الدور المحاذية للصور وعاثوا فساداً بما حولهم.. وعبروا الزقاق الكبير متجهين صوب وسط المدينة وقلعتها العظيمة، وبدوا في جريهم وغوغائهم كالمجانين الفارين من نفق أرضي مظلم متى رأوا الضوء فاندفعوا ناحيته بلا شعور، وما إن رأى المعينون طلائع السبئيين قادمة والأعلام الحمر بأيديهم تموج كألسنة النيران المرتفعة، حتى ارتدوا عن جيوش القادة.. وسرعان ما انهزموا إلى القلعة وتحصنوا داخلها.. ووقف رام بالمكان الذي دارت فيه النكبة على رؤوس السبئيين، وخنقه الأسى، والتأثر. وصعدت إلى حلقه غصة مؤلمة.. كانت أشلاء القوم مكدسة في الطرقات والممرات، وقد صبغت الدماء الأحجار والتراب وكل شيء بمحيط المكان، بدت الأرض كأنها مرصعة بأجساد البشر قتلى وجرحى. وغشي الأسى كذلك وجهي فردون وأوزار، ووجم السبئيين، وراحوا يلتقطون قتلاهم ويوارونهم، ويسوقون الجرحى إلى الجوارى والمضمدين..

\*\*\*

جاء سنار منهكاً وثيابه كالأرجوان أو الشعب المرجانية الحمراء وأتى كذلك ما فضل من القادة وجيوشهم وهم في حالة

تدعو للشفقة.. وترنحوا أمام رام مطأطي الرؤوس... وانبرى  
شمار يقول ولازال يلهث كمن به الربو:  
- كانت المدينة خالية، حتى مررنا بين هذه الأزقة والممرات  
الضيقة اثالت علينا النبال والحجارة من سطوح المنازل، ثم  
هاجمنا المعينيون..

- واحسرتاه عليكم!! ألم أنذركم من قبل؟  
نطق رام عبارته بغبن، ورمق البقية المتبقية من المغلوبين من  
قومه فرثى حالهم، ومد بصره عالياً إلى قلعة ذي ريدان المعانقة  
للسحب، وقال بصوت ذي نبرات يائسة:  
- لا سبيل إلى إخراجهم منها ولو بعد عام من الحصار إلا  
بالتفاوض.

بعث رام رسوله إلى القلعة المحاطة بثلاثة أسوار عاتية، وصعد  
الرسول إلى القلعة شاهراً علماً أبيض على طرف رحمه المنزوع  
السنان... ففتحوا له البوابة بحذر وقد عرفوا أنه رسول من  
السبئيين إلى قائدهم، وأوصدوا البوابة خلفه، وقادوه إلى القائد  
معن بن قضاع.. وقال الرسول السبئي برصانة لما مثل أمامه:  
- القائد رباد والملكة فردون يدعوانكم إلى القتال خارج المدينة  
أو الاستسلام دون قيد...

ذهل معن بشدة، وامتقع وجهه، وسأل الرسول:  
- من يكون القائد رباد؟ أهو القليل الصرواحي؟  
- نعم يا سيدي، إنه هو قائد الجيش الأحمر كما يسميه أهل  
صرواح..

خطا معن عدة خطوات سريعة حتى أشرف على النافذة وألقى  
نظرة إلى الخارج، وجال ببصره في السبئيين المحاصرين للقلعة،



فشاهد رام على بُعد ركباً حصانه ويومئ بكفه لمن حوله.. وقد  
اهتدى إليه رغم امتزاج الفرسان. فاستحيا وغشاه العرق،  
وخاطب الرسول السبئي:

- سألقاكم وجيشي صباحاً، فانتظرونا خارج ذي ريدان..  
عندها قفل الرسول راجعاً، بينما ظل الوسواس يساور معن،  
وقال بصوت يُسمع:

- أين أخفي وجهي من أخي رباد؟.

وفكر كيف يبعد هذا الخطر المترص به وبجيشه، حتى أهتدى  
أخيراً إلى أن يطلب منزلة أبناء ملوك سبأ، ولا بد أن تستجيب  
فردون، وعندئذ يستطيع أن يأسرها ومن ثم يساومهم على العودة  
من حيث أتوا والإعتراف بمعين أقوى مملكة في الجنوب.

\* \* \*

همد كل شيء بمحيطه ما عدا أشجانه الأليمة وأفكاره  
الموجوعة.. المقة لم تفعل شيئاً لحقن دماء عبيدها السبئيين.. كانت  
الجثث متناثرة كالأعلاف المبعثرة في حظيرة الأبقار..  
"تباً لمن أقام هذا الفخ القذر.. لقد أفرغ كل طاقة خبثه في هذا  
المكان، ولكنه لن ينجو".

هكذا قال رام بصوت لم يسمعه أحد سواه... ولا زال الرسول  
يفاوض المعينيين في القلعة، والأخيرة تربع على أكمة عالية، لها  
طريق وحيدة، وقد أطلق عليها الريدانيون قلعة السحاب  
لعلوها الكبير، أمّا مدافن الجبوب فيها، فإن كانت مشحونة إلى  
النصف، فهي كفييلة بإعاشة الآلاف لعام كامل.. وكذلك عين  
الماء إن كانت مدرارة هي الأخرى يصبح الهارب أو المتحصن  
فيها قرير العين. ويمكن للأعمى إذا كانت كنانته مليئة بالسهم

أن يذود المئات عن القلعة.. أحس رام في ذات صميمه بشيء ناقص يلح على ذاكرته بشدة، ولكنه لا يدركه لأن صوابه طار من رأسه، ولم يعد يميّز بين الأقرب والأبعد إلى حواسه.. فجأة طرق الشيء باب مخيلته، فتذكر المدرب شعسان فانبرى يسأل عنه مخاطباً قائد جيش ذي الجامش:

- أين المدرب شعسان يا حُدمل؟؟

لم يجب حُدمل الذي نجا من الموت بذكائه ومكره.. إذ كان في تلك اللحظة يعيد على روحه لقطات سريعة من مغامرته والموت. دخل أول الأمر إلى المدينة وكان هو وشنار أول قائدين يعبران البوابة.. سار بعدها إلى آخر الزقاق الكبير متوغلاً في عمق المدينة، وهو يحلم كغيره باستلاب أجود تاج تناساه ملك معين بجانب عرشه في قلعة السحاب، لكن أمنيته غادرت مضجعها الوثير في نفسه حين هجم عليه فارس معيني غارق في دروعه، ووخزه بالرمح أسفل بطنه وأسقطه أرضاً.. ثم اقترب منه ملاك الموت ليلقي القبض على روحه، ولكنه رد عليه قائلاً ببخل شديد:

- اذهب إلى غيري ممن يشرفون على الهلاك.. فهم أحوج إليك

مني..

- ولكنه طعنك برمح له سنان كنان الفيل..

قال الملاك عبارته الأخيرة بانبهار، فرد عليه ضاحكاً:

- كأنك لا تعلم بالدرع الذي أهدته لي أمي في ستة عجفاء. وكانت

رحمتها المقة متزوجة بحداد ماهر يصنع الدروع والسيوف..

جس الملاك بطنه ليتأكد من صدقه، ولما وجد الدرع تركه

وراح يزهق أرواح الآخرين، ويضرم نار المعمة بغناوي تشبه

أهازيج العمال.. فتهاوت الرجل ولوث أطرافه وشدقيه بدم نازف من جرح قتيل بجواره.. وأخذ يرخي جفنيه المنطبقين بحذر بالغ، ليرى بعض أصدقائه يتهاوون كالجذوع الجوفاء، وملاك الموت يمر عليهم واحداً واحداً ويوغل يده الثلجية في حلوقهم ويسل أرواحهم بقساوة.. فيقول لنفسه: " أظن أصدقائي ليس لهم دروعاً وربما أمهاتهم كُنَّ متزوجات بتجار وفلاحين .."

وحمي القتال وداسته حوافر الخيول.. وربما انزلق حصان متعثر ووقع بكامل ثقله على جسده الممدود.. إلا أنه لم يمست، وكان ملاك الموت حين زاره وارتد عنه أعتقه إلى الأبد أو أكسبه مناعة وقائية من الموت. سمع أحد جنوده يقول لآخر، وهو يدفع الضربات بترسه النحاسي:

- لقد عدت لتوي من البوابة لأنها مقفلة، وسهام السور تحصد من تراه، ولكنني كنت محتماً خلف جدار مخلخل أنظر من أحد شقوقه..

لحدمل كامل الحق بأن يزهو على الجيش المفخوخ لأنه الوحيد الذي سلم من الكلوم العميقة خلا جرح واحد على دبره.. حيث وخزه أحد جنود معين بذياب سيفه ليثق من موته، لكنه تجلد ولم يصدر أقل حركة رغم تألمه، فيئس الرجل منه ومال إلى جريح آخر، فألفاه يتحرك، فزجه بسيفه من مفرق فخديه.

ارتج صوت رام كما لو سقط برميل أجوف على صخرة صماء. أخذ يحملق إلى وجه القائد حدمل باستغراب.. بعد ذلك لكزه قائلاً:

- حدمل.. يا قائد حدمل أنا أسألك منذ لحظات عن المدرب شعسان..

حينها أفاق حدمل وكأنما أخرجه صوت رام من كابوس مريع، فقال:

- شعسان؟؟ شعسان قتل بسيف شاب يشبهك بعض الشيء، وقد استرق ملاك الموت روحه أمام عيني..

- ويلكم أيها الحمقى أنتم سبب هذه الفواجع الرهيبة..

جزع رام جزعاً شديداً على مقتل المدرب شعسان، إذ كان ذا خبرة بالحرب وله معرفة تامة بمداخل ومخارج تلك البقاع. وليس وحده الذي شعر بخسرانه.. بل شعر القادة جميعاً بذلك، وتحسروا عليه بشدة.. في تلك الأثناء أراد شنار أن يُحصي القتلى، لكن رام نهره عن ذلك وصرخ في وجهه قائلاً باقتضاب:

- نصف الجيش المهاجم طريح الأرض، وهذا بفعل خطتك الغبية..

- سأقطع شفقتك إن لم تأخذ جوادك وترحل للتو إلى

صرواح..

انتفخت أوداج رام غضباً.. واقترب كل منهما من الآخر شاهراً سيفه ورام يقول بغضب:

- أنا القائد هنا، لا تجهل ذلك يا فاقد الولاء..

حالت فردون دون اصطدامهما.. وقالت مؤنبة شنار:

- خطأك فادح ولست مسؤولة عنك إذا عاقبك الملك..

- أنسيت يا جلالة الملكة عهد المعبد ووثيقة السادن؟

همهمت فردون بحزن قبل أن تطرق إلى الأرض قائلة بإذلال:

- أذكرها جيداً، فهي ذنبي الوحيد وقيد حياتي..

" يا للماكر !! لا شك أنه مزج دمه ودمها على الوثيقة.. اللعنة

كيف يحدث هذا !! "

قال رام في سره. وصار جسده يرتجف حثداً على ستار، بل رأى أن قتله أصبح سبيلاً لا مفر منه لينمحي دمه من الوثيقة المقدسة، إذ لا شيء آخر يمكن أن يبطل ما جاء بالوثيقة غير موت أحد أطرافها.. حتى الملك و السادن لا يستطيعان محوها، لأن الآلهة شاهدة على ما جاء بها، وواقفة بالمرصاد لمن يحاول نقضها.

فكر رام بأوزار من قبيل الترويح على نفسه المنكسرة، ولكن أفكاره تأففت منها وقالت لجوارحه ييقين نادر: "إنها أليفة وليست حبيبة.. أما الملكة فردون فلها نكهة لبان الملوك والطيب".

ووصل الرسول في تلك اللحظة، وأقبل على رام وأخبره بما أزمع عليه المعينيون، فمشى رام من بقعته كالتمل متوجهاً إلى خارج المدينة، فانحدر خلفه الجنود كالشلالات الضخمة حتى وصلوا إلى العراء.. وهناك نصبوا الخيام متأهين لحرب طويلة، وعندما ترجل رام عن حصانه ونزل إلى الأرض أحس بثقل جسده وألم يقرص ساقه.. فانكب ناظراً إلى موضع الألم على ساقه.. فرأى بقعة متجمدة من الدماء وخذشاً كبيراً أحدثه سهم طائش خفيف الضربة.. سار وهو يعرج، وألفته فردون وأوزار ورآه شنار وهرول إليه وأعماقه تضحك بارتياح.. سارعت فردون وأتت بقماشه بيضاء وماء نقي في إناء نظيف وطلبت منه الثبات، ثم انكبت على الجرح وأخذت تبلل القماشة بالماء وتزيل بقع الدم الجامدة.. فقال شنار مستهولاً ذلك:

- ماذا تصنعين يا جلالة الملكة؟ هذا العمل شأن الجواري الخبيرات..

- لا تفزع ولا تغير.. فأنا لك يا ثور سباً..  
ضحك شنار رغم أنفه، في حين هرعت أوزار غاضبة  
وجذبت القماشة من كف فردون بعصبية، وقالت بشورة:  
- أنا أعتني برباد لأنه أليفى... أما أنت فسيري وراء خطيبك  
شنار..

انتضت فردون رمجها وقد تبدد جمالها في هوس انفعالها العارم:  
- وقحة.. قبيحة.. ابنة بغي..  
وأعقت قولها بطعنة نافذة إلى نحر أوزار، فخرت الأخيرة إلى  
جوار رام مخضبة بدمها. فخف إليها وأسندها إلى صدره وهو  
يستغيث، والفرع يقطع أحشاءه.. وصاح في وجه فردون:  
- لم طعنت المسكينة أيتها القاسية؟ لقد قتلت فتاتي الجميلة..  
جاء صوت أوزار متقطعاً بأنين خافت، نظر إليها، فوجدها  
تبتسم بعسر وتقول له بوهن:  
- تغزلت في أخيراً وأنا على وشك الموت.. ولعل الآلهة  
تجمعنا..

- سنلتقي وشرف المقة..  
- أحبك يا ذا الدائرة المقدسة...  
توقفت الحروف في فمها، وفاضت فيها الروح، وحينذاك قبلها  
رام على مفرق جبينها وأوحى إلى الجنود الصر وحين يحملها إلى  
خيمتها.. وانسل هو إلى بقعة قاصية في خواء الصحراء، ومكث  
هناك وحيداً يتأمل إلى كل شيء حوله بمقت.

\* \* \*

أخذت فردون تذرع بخطاها الخيمة الخاصة بها.. رأت أنها  
أذنبت في حق الخليفة حين قتلت أوزار، والأشد هولاً أنها

أساءت رام كثيراً وخسرته إلى الأبد حسب ظنها. تفكرت بما  
نطقت به قبل موتها وشعرت بإشفاق لا حدود له. حُيِّلَ إليها أنها  
القتيلة الناطقة بتلك الألفاظ المأساوية.. تناهت إلى مخيلتها عبارة  
" ذو الدائرة المقدسة " ورسّت في قرارة رأسها المصدوع..

جاء المساء كثيباً حاملاً معه آلامه وظلامه، فارتقت فردون  
سُلّمه المخيف ولم تهجع على الفراش.. ظلت قائمة ترعد رغم  
جسارتها وقوة جأشها.. لكن الأمر كان مهولاً لا يقاس بضعف  
أو بأس.. بل إنه يفوق الخيال.. كل هذا الذنب ارتشفته كالقيح  
في إناء متسخ مجلوب من بيارة مفعمة بالنجاسة جلبته الشياطين  
مكافأة لأفضل إجرامي في الأرض.. كان ذلك شعور الملكة  
فردون.. لكن الإبلis الأكبر أتاها متنكراً بقناع يحمل وجه  
شنار.. ظهر كالأفعوان من باب الخيمة وعلى ملامحه إعجاب  
جارف.. قال لها بلهجة بهلوانية:

- طاب مساؤك يا صاحبة الجلالة، وأدامت المقة سلطانتك..

لكنه سمعها تقول وكأن تحيته لم تصل إليها بعد:

- قالت مخاطبه: يا ذو الدائرة المقدسة.. أيعقل هذا..؟

- لا.. لا.. كلام ما قبل الموت ينطق به ملاك كاذب هو مُحصي

السيئات..

التفتت فردون إلى مصدر الصوت الذي قاطعها، فرأت شنار  
مرتسماً على باب الخيمة كالومياء، وقد ضاعف الدجى  
قبحه.. فانتشقت جزءاً غير ضئيل من كراهيته.. عندئذ طمر جو  
الخيمة شهيق بكائها وآهاتها الدخانية.. وبعد هنيهة حبست  
دموعها وقالت له بجلد:

- شنار.. ألا ترى أنني أذنبت وأغضبت القائد رباد وأوهنت

حماسته للحرب؟

- لو أنك قتلتها بدلاً عنها، ولكنك اعتنيت بجرحه..
- كيف أقتله أيها الأحق. وهو من أتى بالنصر لسبباً بعد خطتك الحمقاء.

تبسم شنار ورد عليها قائلاً بخبث:

- زعم رباد أن دم أوزار غالٍ، وأنه لن يذهب هدرًا..
- أنت حاقد عليه و..

قاطعها شنار مقسماً بعزة الآلهة، ثم أضاف محتدًا:

- سمعته خلسةً يتحدث بذلك إلى الصرواحيين الغاضبين..
- ما يكون منك إذا أراد رباد أن يثار للفتاة الصرواحية؟
- خاطبته وقد بدت موقنة بصدقه، فدلّف إلى الداخل واقتعد على فراشها ببجاجة وعيناه لا تغادران مقبض خصرها الدقيق،

وأجاب:

- حتمًا سأبتر أطرافه وأجعله أخرسًا أطرشًا أعمى إذا مسّ شعرة واحدة من خصلاتك المتدفقة كمياه القنوات العشر.
- مجنون لأنك تطمع بما لن تناله إلا على تشريع المقة..

- أنت على صواب.. فعما قريب ستكونين في قصري..

ثم انسحب إلى خيمته وعبارته تشد الخناق على الملكة فردون.. في حين صبّت اللعنات على ذاتها وعلى اليوم الذي مزجت دمها بدمه على الوثيقة.. وهمست بجنون:

"أأتزوج ببعير؟؟ ويحي.. كيف انخدعت به وذهبت وإياه إلى المعبد ولكن إذا أصر السادن وأبي على الاقتران به، سأقتل من يكبت رغبتني ولو أحرقتني الشمس المتقدة آلهة الضياء".

وفي الوقت الذي كان الخوف قد زرع بذرتة الأولى في قلبها،



ترأت فردون في الليلة الظلماء وهي تهدد بيتاً واكياً ابتته  
لنفسها حتى تسامى، وصار مزخرفاً بصنوف بهيجة من  
الزخرف، ولكنها سمعت أن ثعباناً يسكنه، فانبرت لتهدمه،  
لكنه أسس على الصخر، فاستعصى عليها هدمه، ولم تلبث أن  
انزوت بفنائها وراحت تبصره بامتعاض.. قالت بنبرات لاهثة:  
عجباً.. كيف أقطنه والخطر كامن في جوفه، ولكني أجه وهذا  
ذبي الذي أصبته ولم أشعر بفداحة عاقبته.. ثم غمغمت بمرارة:  
"كان يجب أن أتركه وشأنه، وقد آليت أن أهجره  
وأتناساه.. ساعديني أيتها المقة، فأنا حائرة في أمري".

في الصباح الباكر، أعاد رام تشكيل الجيش إلى ما كان عليه في  
مرار وما إن فرغ من عمله حتى أقبل جيش معين واصطف  
للمقاتل.. ودارت معركة عنيفة، وشوهد رام يقاتل في كل جزء  
من تلك البيداء، حتى هبى للفرسان المعينين أن هناك ثمة  
فرسان يشبهون القائد رباد الصرواحي.

في اليوم التالي قفز فارس معينى مقنع الوجه إلى عرض البيد  
وصاح بصوت هادر:

- فلتبرز لي أبناء ملوك سبأ إن كان بهم حمية ونخوة لنرى من  
الأقوى..

أرادت فردون أن تخرج إليه لكن رام سبقها مارقاً بحصانه  
وقد اجتاحه غيظ شديد بسبب ذلك التحدي اللاذع، ثم دار  
كعادته دورته الكاملة على الميدان، وجاء صوته محتقناً بحشرة  
قوية:

- أنا ذو الدائرة المقدسة ابن أعظم ملوك سبأ... فمن لي يا  
معشر معين؟

- يا للملقة ! ماذا يقول رباد؟ هذا زيف وافتراء ..  
لم تكن الملكة فردون الوحيدة التي ذهلت من قوله، ولكن  
الجيش السبئي ذهل برمته وأصدر همسات استغراب وعجب ..  
ارتد الفارس المعيني إلى الوراء كما لو خاف أو وجد عائقاً  
أمامه. لكن رام انقضض عليه بقوة، ولما أوشك أن يصطدم به أماط  
المعيني قناعه وتسمر في مكانه وكأن حصانه شدَّ بسلاسل قاسية  
إلى الأرض وراح يحدق في وجه رام بتودد.. ساد السكون بعض  
الوقت إلى أن خرج رام عن صمته وقال بنبرات واهية:

- معن بن قضاع !! كدت أن أصيبك بسوء.

- رباد !! هذا أنت يا أخي.

- لم أصدّق أنك من أنكل بلادي وأراق دماء قومي.

اعتلا احمرار الخجل وجه معن.. وقال بنبرات ضريرة:

- اغفر لي.. فقد طغى عليّ أمر الملك وجئت مُرغماً، ولكنني

الآن لن أخالف رأيك. أشر عليّ بالقول الصائب.

شعَّ وجه رام فرحاً حين فوضه معن الأمر، وعدَّ ذلك اعترافاً  
بحكمة السبئيين وسداد رأيهم، ورضوخاً لهم وجنوحاً للوئام  
والسلام.. وسارع معن وألقى سيفه إلى الأرض بفرح صادق،  
ولكن رام لم يرم سيفه كما فعل معن، بل أغمده في مكانه والتقاه  
حتى التحم الجوادان ببعضهما.. ووقعا في عناق حار.. دهش  
الجيشان وصار الأمر أشد التباساً وفردون وشتار أكثر  
انبهاراً. وجهر جندي سبئي في الصفوف الأولى بصوته قائلاً  
بلوعة:

- لم يحدث هذا العناق قبل مقتل أخويّ جفار ومعيل؟

- هي الخطة اللعينة التي أفسدت العناق وأورثت الويل..

بهذه العبارة أجاب سبئي آخر في نفس الصف..ضحكت فردون حين سمعت ذلك القول..أما شنار فقد انشدت عضلات وجهه، واستشاط غضباً، وسار أمام الصف الطويل متصفحاً وجوه الجنود. وما إن رأى جندياً مصفر الوجه، أطرافه ترتعد حتى فلق رأسه بسيفه. فسل الجنود سيوفهم ساخطين، وساد الصياح والصخب، فارتد شنار إلى الوراء حتى احتمى بالملكة فردون التي قالت له بسخط:

- قتلتك المقة.. ألم تكتفِ بمن زججت بهم وسط المدينة؟

-لست أول قاتل عند الغضب. وأنتِ قبلي قتلتِ الصرواحية.

-لا أنكر ذلك، لكنني أثرت غضب شخص واحد، أما أنتِ

فقد أغضبت بفعلتك جيش سبأ برمته، ولولائي كانت السيوف تمزقك الآن.

عاد إلى مكروه قائلاً بسخرية:

-رباد بمفرده يساوي شعب سبأ، ناهيك أن القتيلة هي قيلة

مخرومة الأذنين..

-لقد صدقت لأنك تدافع عن نفسك ولولا ذلك ما اعترفت

برباد.

ما لبث أن عاد إلى الجيش السبئي سكونه، وهدأ روعه بعد الالتهاب..وكان شيئاً لم يكن، إذ أهتته حركات رام ومعن في الميدان عن الرد بالمثل على شنار..صار يرقب الفارسين بأمل جيش مبتغياً الصلح..لأن الحرب قد أنهكت قواه بشدة، وكذلك جيش معين تملكه نفس الأمل..تساءلت الملكة فردون عما يجري في قلب الميدان..لكنها لم تتلق تفسيراً أو نبأ..غير أن جيش معين أدرك أغلب جنده ما حدث، فهم يعرفون رباد

الصرواحى الذي قادهم قبل سنوات وهزم بهم جيشي قتيبان  
وحضر موت.. لذا أحنى الجنود هاماتهم حين أشرف رباد عليهم  
برفقة معن.. تهلل وجه رام وحيّاهم ملوحاً بيده، فردّوا بالهتاف  
والفاظ الاحتفاء، ثم اتجها ناحية جيش سبأ وحالما أشرفا عليه  
انحنى الجنود إكراماً لمعن وترحيباً به ما عدا فردون  
وشنار.. وتساءل معن قائلاً بفضول:

- من تكون الفتاة ذات القناع الأبيض والعينين النجلوين؟  
ومن ذلك الفارس المجاور؟

- هي الملكة فردون ابنة الملك كرب، وذاك شنار قائد الجيوش.  
- إنهما يلوحان كعاشقين مغمورين بحب نادر..

كشرت ملامح رام، لكنه تجاهل عبارته، وأفضى إليه بأن  
الصلح الأبدي بين سبأ ومعين قد حان ميقاته ولا يجب أن يتأخر  
برهة واحدة..

رحب معن توأ واكتسى وجهه بأمارات السرور، لم يلبث أن  
التفت إلى المعينين وصاح:

- يا معشر معين.. أزمعنا على الهدنة الأبدية، فالقوا سيوفكم  
وعانقوا معشر سبأ..

وزعق رام على الجيش السبئي:

- يا معشر سبأ ارتضينا بالصلح فضعوا سلاحكم واحتفوا  
بأبناء عمومكم.

كان مشهداً مثيراً، عندما التقى الجيشان السبئي والمعيني إلى  
قلب الميدان، وهم مجردون من أدوات الحرب.. أصبح الفارس  
يعانق الفارس والراجل يحتضن الراجل.. ونشج البعض بالبكاء

ولاحوا كأنهم أبناء رجل واحد كانوا في سفر، والتقوا فجأة بعد زمن طويل..

خيم على المهادنة ود ملائم، إلا أن شنار حاول جاهداً تعكير صفو الجلسة ببعض مداخلته السقيمة، ولكن بعد لحظة حلقت غمامة من الوثام فوق رؤوس الجانبين. كان معن قابلاً قرب رام، وبين الحين والحين يراقب فردون بحذر ويخاتلها النظر، ورغم أنها مقنعة فقد استهوته عينها وأزاحت لُبّه، فراح يتقفاهما متحِيناً غفلتها عنه، ولاحظ أن طرفها لا يشبع من النظر إلى وجه رام، وتلك النظرات ليست كالتى تلقىها في وجه رجل آخر في الجلسة، بل إنها غريبة الأطوار، ووراؤها سر خفي لا يتكهنه الرقيب، وفي تلك الأثناء مال معن إلى رام، وهمس في أذنه قائلاً:

-إنها تنظر إليك بغضب ليس كالغضب، وحب ليس كالحب..

-لسنا على وئام، فلا تلفت انتباهها بهمسك، إنها شديدة النباهة والتأثر..

همس رام له بخفوت، ولمح عيني فردون، فوجدهما تلتمعان بالظن، وهي ترنو إليهما بامتعاض، وسرعان ما فارقت المجلس متمرة كرد فوري على ذلك التعريض الهامس، وقال رام بصوت جهور:

-القادة يلزمون الجلسة..

-لقد استأثرت بكل شيء يا قائد رباد، ولم يعد لوجودنا

جدوى.

قاطعته بعبارتها، وابتعدت خارجة من الخيمة، فأصيب القادة السبئيين والمعينيين بنوبة إحباط عجيبة.. لكنها بعد لحظات عادت

متخذة مكانها، وخرج الطرفان بينود مُرضية، خمسة بنود واضحة، لا حرب بين سباً ومعين، عودة طريق التجارة بين المملكتين، تحويل السدنة فض النزاعات إن حدثت، وأد الأحقاد الماضية إلى الأبد، والنجدة عند الطلب في ظل الدفاع عن الذات..

وأبطل رام ومعن بنداً دعا إليه شنار، ويقضي بإدراج النجدة عند الهجوم وبسط النفوذ، قال رام معللاً رفضه:

- سوف تتشابك أطماع المملكتين وتلتصع شرارة الصراع، ومن ثم تتقوض المهادنة..

قبل القادة هذا التبرير وأحسوا بخطر ذلك البند، فحادوا عنه وأقروا البنود الخمسة بالإجماع. بعد ذلك أقسم السبثيون بالمقة أن يعملوا بتلك البنود، وأقسم المعينيون بأهنتهم ود على ذلك.. ثم مزجوا دماءهم جميعاً على وثيقة خالدة تحوي بنود المهادنة.. وبعدها فغر رام فمه بارتياح، ولكن لم يلبث أن وجد في خاطره ما يدعو للانتقاض، فقال كاشفاً عن أرقه:

- كان من الأحرى أن نأخذ رأي الملوك في الوثيقة..

- إذا علقت على حيطان المعابد، فلن يكن منهم إلا القبول بها قسراً..

قال هذه العبارة قائد سبئي لا يكاد يتكلم من قبل البتة، ولكن حماسه كان لا حدود له، وهو قائد جيش محمية الجبجب ويدعى حمش آل وهد.. ساد صمت مفاجئ إلى أن رمى أحد قادة معين على الجلسة صاعقة مدوية حين قال بتهمك مخاطباً رام:

- أولم تزعم يا سيدي أنك من ذوي الدائرة المقدسة؟

- هاه.. كنت في شوق إلى قتال معن، وقد كذبت كي أصل

إلى مبتغاي.

أجاب رام بلا وعي، وقد أصابه حرج عظيم، ورنت الأبصار  
إلى وجهه بنظرات ثلجية ونارية، قالت الملكة فردون بحسب  
شخصاً آخر:

- المقة تكره الكاذب، ولا تقبل أن يلبس العبد ثوباً لا ينطبق  
على جسده..

- أعظم من ذلك أنها تغضب من القاتل وتتوعده بالعقاب..

غمز شنار وهمس لها مستغلاً موجة من الشوشرة:

- هل سمعت ما قال؟.. إنه يضمرك الشئ ثأراً لحبيته

أوزار.

- حبيته! رباد لا تهواه إلا الشياطين والجان!!

لمح رام انحناءة شنار، واسترقت أذناه بعض كلمات فردون

الساخرة، فقال بتوهان وغيظ:

- الواشي له ضربة سيف..

- خذ سيفك واتبعني إلى العراء.

قال شنار عبارته متحدياً ونهض، ورد رام قائلاً بصدر رحب:

- الحكم معن بن قضاع..

- بل الملكة فردون ابنة الملك كرب..

- الاثنان معاً..

جاء بالرأي الأخير قادة سباً ومعين وصاح معن بصوت

يغلب عليه الاندهاش:

- لا أفهم هذه الطلاسم في وقت الصفاء، فماذا يجري بحق

ود؟

- اطمئن يا صديقي.. ثمة عداء قديم بيننا، وقد آن الأوان

لحسمه...

قالها رام وانطلق خلف شنار قابضاً على مقبض سيفه

بعصبية..

وارتص جند سبأ ومعين في البيد كالبيان الدائري لمشاهدة  
العراك بين رام وشنار.. وثمة تآلف وأمان عجيبين يتغلغلان في  
أوساطهم.. بدا التعاطف كله يذهب إلى رام الرشيق القامة، وكذا  
أدعية المقة غشت المكان مستجدية له الستر والنصر.. أمّا حظ  
شنار من ذلك فكان قليلاً للغاية.. لم ينتبه له غير زمرة صغيرة  
من رفاقه وعبيده، ناهيك عن تعاطف مصطنع ضُبط مشبوهاً  
على الملكة فردون، وأوحى تغضنها إلى عدم قناعتها بما تقوم  
به.. بدأ القتال بصرخة أطلقها رام، قابلتها صيحة انبثقت بوحشية  
من فم شنار المثقل بجسد عملاق متورم، وبدا الأخير طاغياً على  
رام، وهو يضرب بسيفين صقيلين يبعثا الذعر بحدديهما  
المرهفين.. وأقبل الليل فاصلاً بينهما ومتيحاً لهما وقتاً للراحة  
والنوم.. أحس رام في ذات نفسه أنه في خضم قمار مع الموت قد  
لا ينقضي بسلام.. تمكّلت له فردون ساخرة وشامته على غير  
عادتها.. ما أنكى لقاء فردون وشنار في سمر ليلي ثنائي وهما  
يتبادلان القبل وأحاديث العشق، بل إن الموت ألد من أن يرى  
بسمة غنجاء تتخاف مشرقة في وجه شنار.. سأل روجه لِمَ يقاتل؟  
وعلام؟ وفردون سلّت قلبه وهربت تاركة له طيفها في سراب  
الصحراء.. وجاءه المحال فاغراً فمه ليقبّل موضع ضعفه، لكنه  
زجره بامتهان وجردّه من مسؤولية مقتله، قال: إن كانت المقة قد  
ألقت آخر أيامه إلى كف شنار، فلا حرج عليها في ذلك، أما هو  
فلن ينخذل أو يوليه دبره وسيقاوم حتى آخر رمق في  
جسده.. أفاق رام على وقع أقدام تقترب من خيمته.. فإذا به معن



الذي دلف من بابها بهدوء، وجر جر جسده بلياقة حتى اقتعد جواره، وقال له:

"احذر.. فقتالك أصيل اليوم أفرح أحقاد فردون ولو أن ثمة فزعاً خفياً كان يشوب عينيها السوداوين لاسيما في الأوقات الحرجة التي تعرضت لها، وقد فطنت إلى هذا محض الصدفة.. ومع أنني أفترق إلى دليل قاطع لإثبات ذلك، ولكن إحساسي لا يكذب. أقسم لك. قُل يا صديقي ما يجول بخاطرك. فضفض لي، فسرك مصون في بئر".

- "هل تجبها"؟ سأل معن بحزم.

ترك لشفتيه حرية الحديث، في وقت تماهت ذاته إلى عالم آخر، وتوغلت في البعيد.. رأى معن شفتيه تهتان، فاستفاد من غيابه وأصغى إلى أسراره بقدر كبير من الاهتمام.. ورغم اندهاشه وانزعاجه مما سمع.. إلا أنه أفصح لرام عن ابتهاجه كونه سليل الملك شراح ومن ذوي الدائرة السبئية.. وعبر عن استيائه من ظروف مقتل أبيه وإخفائه لذاته.. ثم نصحه بالجلد أمام شنار لكي تزدان هيئته في قلب فردون، ولا تجد سواه جديراً بحبها، وأضاف قائلاً قبل أن يفارقه:

- قيل أن أحد أبناء أجدادي رفعته ود إليها، وكان في سجن محفور عمق جبل شامخ أملس..

"لو كان الموت يملأ زيراً في الخيمة لنهاته جرعة جرعة، وليقتلني طفل زانية خير لي أن أقتل بسيف شنار على مرأى من فردون".

بعد أن خاطب نفسه، نفض هدهد سبئي ريشه ونثر حبيبات ماء على الخيمة.. وكان قد اغتسل بمياه سد أرض جنات، وجاء

متربصاً كالطيف الحارس لشيء ما، غير مبال ببرد مُرجف يهطل وظلام الليل الدامس على جسده من طبقات في الجو حبلى بالصقيع، وهذه الأخيرة مضمخة بشذا حزن عقيم تحتكروه عينان لا يفصلهما عن الموت إلا خيط رهيف أسود، من وقت يسري كومض البرق صوب الصباح، اقترب الطائر السبئي من وجه متغضن لم يفرق بعد جماله، ولثمه بمنقاره، وجعل (يوشوش) و(يبيب) في أذنيه حتى نام.

وفي الصباح ذهب وشنار والقادة إلى العراء، ودار القتال ضارياً عن اليوم السابق.. ولكن بعد برهة تمكن شنار بالخدعة أن يقطع رقبة الشهاب بسيف يمينه، فسقط ورام على الثرى، وهرع شنار إليه بفرح غامر وراح يطعنه الطعنة تلو الطعنة بالرمح، وهو يتلوى ويتقلب زائغاً عن طعناته باستهاته.. كانت فردون بحركة لا إرادية ترتد إلى الوراء مكشرة الوجه، كما لو كانت هي الأخرى تتحاشى الطعنات والفجيجة تلوح بجلاء على عينيها المحمرتين.. تقاربت صفوف الجنود من الجانبين المتوازيين حتى ضربت حولهما دائرة ضخمة مركزها الإشفاق على رام، وأوشك معن أن يتدخل لإنقاذ رام الطريح على الأرض من الموت المحتم، ولولا الحرج لتدخلت الملكة فردون. ولكن رام اغترف بكفه حفنة من الرمل ورمها في وجه شنار، فأصاب عينيه ولوث كامل وجهه.. راح الأخير يصيح متذمراً.. وفي لحظة انشغال شنار وهو مغمض عينه كان بوسع رام أن يسدد إليه طعنة قاتلة، وهذا ما توقعته فردون والقادة، لكنه لم يفعل، بل جمد مكانه مُمهلاً نذَه حتى يرتد بصره إليه، ومدَّ نظره إلى أعلام صرواح التي لا زالت ناكسة هاماتها، وصاح على

صاحب أول علم أحرر قائلاً:

- ارفع العلم عالياً يا باك.. وهات جواد خالي حوف وسيفي  
الثقيل.. وبسرعة رفعت الأعلام المنكسة، وجيء له بجواد القيل  
حوف بن طاهم، وهو جواد لا يقل مهارة في الزوغان والكر عن  
جواده الشهاب الذي صرعه شنار.. وخيّل إليه وهو يتناول سيفه  
الصر واحي أن طيف أوزار يقدمه له، ويقول كما قالت ذات يوم:  
- اذكرنى كلما حملت هذا السيف، وأرى أن لا تقاتل  
بغيره. ليس لأنه مُدَّهَبُ المقبض والغمد ولكن لأنني أوّمن به.  
فتأوه رام وقال مضمراً لنفسه وقد غاب الطيف عنه:  
- آه.. سأجرب إيمان أليفتي أوزار، فطالما ألبستني هذا السيف  
بيدها..

وجرت دمة أسنة من عينه اليسرى، فاعترضت كفه طريقها  
وأزالتها أنامله سريعاً لسئلاً يحسب المتجمهرون حوله أنه  
خائف.. في الوقت الذي تخلص فيه شنار مما علق بعينه صار  
يرنو إلى رام بنظرات ساحقة توامض حنقاً وظغينة، وهمس في  
باطنه همسات شتى قال في إحداها: كيف أسعفه الحظ لينجو من  
طعناتي !! وكان بمقدوره أن يقتلني ولكن المشئوم أراد أن يقال  
عنه فارساً لا يغدر.. وسأقتله ألف مرة..

هصر شنار نفسه بحدة، والتقاء رام بإنقضاضة عنيفة وصار  
ينهكه بطعنات قوية وذكية، وبعد لحظات شرع الجبن يدق قلب  
شنار، وبدأ يتدبر ذريعة للارتداد إلى الخلف فأخذ يتضحك  
كأنه مخمور، والبكاء قاب قوسين من عينيه المبلودتين وفمه  
المفغور.. وسرعان ما عاجله رام بضربة جريئة أطاحت ترسه من  
يده، فأضحى مكشوفاً جلياً أمامه كالصفحة البيضاء.. وقتئذ

ماج السبئيون والمعيون وتعالت صيحات الفرحة.. راود رام  
 إحساس مُلح بأن يعجل قتله، ومن ثم تزول وثيقة الزواج من  
 المعبد إلى الأبد.. إذ صار شنار يضرب بالسيفين ضربات طائشة  
 في الهواء لكن رام خشي إن هو أجهز عليه أن يغضب الملك  
 كرب، ومن ثم تنقضي الهدنة بين سبأ ومعين. لاسيما إذا وقعت  
 الوثيقة في يده قبل أن تعلق بالمعبد..  
 حذر رام أن يهزأ به ويُزهق كيانه عوضاً عن روحه، ويجعله  
 مسخرة للساخرين.. ولتنفيذ مرامه دار كعادته دورته عند  
 الغضب وما إن قارب من شنار حتى قذف بنشاب حاد اشتهى  
 عمداً أن يسدده إلى رأسه، فوقع النشاب في قمة خوذته التي  
 هوت متدحرجة فوق كشبان الرمل، واستمات الجند في الضحك  
 حين انحسر رأس شنار وبرزت صلته الدميمة لامعة بفعل  
 أشعة الشمس الباهتة، مانحة الأبصار مؤخرة قدر معدني  
 مُستعمل.. تناثرت النكات من الأفواه حتى انقلبت بعد برهة إلى  
 عبارات رثاء جادة، توحى بأنه مازال لدى الآدميين قلوبٌ تحفق  
 في الضراء. بقيت على وجه شنار لطخات ملونة السائد فيها  
 السواد.. فأسرع خلف خوذته المتدحرجة كالذي يطارد ذكر بط  
 شقي.. ولما أمسكها ارتداها للتو، والتفت إلى القوم فرأى العيون  
 تتأمله بازدراء ورثاء في آن واحد.. فكاد أن يتناثر إلى قطع صغيرة  
 من شدة الخجل.. ما لبث أن اعتلى حصانه وابتعد عن دائرة  
 القتال متلفظاً بألفاظ بذينة في حق المقة.. شق بطن الفيء وحيداً  
 في طريقه إلى أرض جنات.. وبعد مُضيّه انقشعت غمامة التبلد  
 التي غشيت وجوه القوم، وسار رام ناحية القادة، واستقبله معن  
 قائلاً بتندر:

-لو انكشفت عورته كان أهون عليه من صلته المقرفة..  
 -الحق أنه فارس جسور، ولكن الآلهة لم تتحفه بسهام القادة..  
 اعترف رام بذلك ضاحكاً، فانحشر أحد القادة السبئيين في  
 الحديث، وقال بخشعة:  
 -مسكين كم بدا منكسراً وقانطاً.

\* \* \*

تجاوز رام القادة، وجاس بين الخيام ناشداً الملكة فردون  
 فألفاها وثلة من قادة أرض جنات قرب أحد المضارب.. ارتجفت  
 بشدة لما رآته قادماً صوبها وصارت تهتز كقصبه تصارع عصف  
 الريح.

أخذت ترمقه رمقات المجلود إلى الجلاذ، وما إن داناها حتى  
 قال متسائلاً بدهشة:

-لم تنظرين إليّ هكذا وكأني سفاح أو شرير؟  
 لم تنبس له بكلمة، فعاود الحديث مضيقاً:  
 -جئت من أجل الوثيقة يا جلالة الملكة.  
 -جلالة الملكة؟

قالتها بانهباء، وعيناها تبرقان ظناً عجبياً، فقال بذهول:  
 -أستحلفك بالمقة لم تر تعدين؟

ناولته وثيقة المهادنة ولم تزد على ذلك شيئاً، فأردف بضيق:  
 -لا.. لا.. أنا غاربُ إلى صرواح، وأتوسم أن تصلحي ما  
 سيفسده شنار وأرى أن تُعلّق الوثيقة بالمعبد قبل أن تصل إلى  
 الملك.

-أهذا كل ما لديك؟

كانت لهجتها جادة لا تخلو من الارتياب فهز كتفه

متعجباً وقال:

- عجباً منك يا ملكة فردون.. وهل تعلمين لمجيئي سبباً آخر؟

- يقال أنك تعتمزم قتلي ثأراً لأوزار..

- ليس الواشي سوى شنار الكاذب.. آه، لو مزقت جسده

لرفعتني المقة إليها..

صاح رام بحسرة بالغة، ثم استطرد بكآبة:

- لم أقتلك لسبب تجهلينه، وكانت أوزار وحدها عالمة به

وكانت تهددني بالبوح كلما رأته أحدثك، لأنها كانت تغار عليّ

بشدة..

نظرت فردون إليه بتطفل، لكنه أشاح وجهه إلى الغروب،

وعندها سأله غير ما كانت تصبو إلى معرفته.. قالت بنعمة

أسف حزينة:

- وأنت، أكنت تُحِبُّها؟

- حبٌّ من نوع آخر غير ما تعنين.

- كل يوم أنجذب إليك أكثر، وليس خصامي لك سوى كذبة

بيضاء.

- وشنار والوثيقة والدماء الممتزجة و..؟

قاطعته بغيظ جارف قائلة:

- كلها أوهام حتى السادن شيزار أحق.

- يا للهول!! سأمضي قبل أن ألتمس من غضب المقة عليك..

- لا تذهب حتى تنبئني بالسبب الذي أجهله، فلا أظن النوم

سيطرق عينيَّ الليلة..

تحرك رام وشدَّ خطاه مبتعداً عن مكانها وهو يقول باضطراب

مريع:

-أنا حزين، تعيس، سجين، حائر وأكاد أختق و..  
انقطعت عنها البقية إثر ابتعاده، فصاحت بصوت عالٍ مفعم  
بالوعيد:

-سأقوض المهادنة لعل الحروب تجمعنا ثانية..  
-لا تفعلي، سنلتقي من دون حروب، أعدك بذلك.  
بدت منذ أن فارقها في حال مأزوم، متفعلّة عاطفياً، وغير  
قادرة على استيعاب ما قد يجري لها لو رحل دون أن يسوح  
بحبه.. صارت في تلك الليلة تقدح كالجمرّة المتقدّعة، وتتحرّك  
حولها كالشاة التي فقدت وليدها.. ثم راحت تمر بين نيران  
المضارب كالمجنونة حتى تصل إلى قرب مضرب رام، وهناك  
تحس بالرهبة والخجل، فتعود إلى مضربها مقلقة ولا تلبث أن  
تعاود الكرّة وتسدي إلى حرّاس صرواح اليقظين عذراً معقولاً  
لمجيئها، هامسة لهم بخفوت، ذلك أن الوقت قد خلّف متصف  
الليل، ومعظم الجنود في تلك اللحظة يغطّون في نوم عميق،  
وهي تحشى أن يفيق النمامون ويجدوها في ذلك المكان قرب  
مضرب رام.. ومن ثم ينقلون الخبر، ويلوثون عرضها بالأقاويل  
الدنيئة.. لكنها أخيراً غامرت ودنت من الحرّاس كي تنبئهم بما  
تصبو إليه..

شيء ما أرق رام وأشهد عينيه المتعبتين في ذات الليلة..  
وأضحى على فراشه يتململ، وينبطح على بطنه ثم على متنه ولا  
يقر على جنب واحد.. والمهدد السبئي يُصفق بأجنته على موطن  
نابض في جسده المتداعي، ويقول بصوت غائر لا يكاد يُسمع:  
"ثمة عين تراقب المكان وآهات تندلع في القرب من أعماق  
محشورة بالألم.."

حجب القمر ضوءه عن الآكام ولم تبق إلا نيران تتراقص  
أهبتها الزرقاء بين المضارب على إيقاعات صوت صرار  
الليل.. والقلة من الحراس تجوس الممرات بإرهاص وحذر  
والبعض منهم يوشك أن يُسلم الدجى سيفه ليختلس له برهات  
لذيذة من الكرى.. وقتئذ بلغت سمع رام نغمات حديث دائر  
ينبعث ليس يفصله عنه سوى ثلاثة أو أربعة مضارب، وكأن ثمة  
زائراً إذا وجاهته زج بنفسه بين مضارب القادة أو عله قائد  
مسطول ساقته قدماء بلا شعور إلى هذا الموضع، ولو كان زائراً  
وضيعاً أو سكيراً مبتدلاً لعجل الحراس قتله، ولما أمهلوه برهة  
واحدة، كان هذا ظن رام الذي تبادر إلى أعماقه في أول وهلة،  
لكنه انسل إلى الخارج ليتحقق بنفسه من جليلة الأمر.

كانت أضواء النيران تلمح وجه فردون المقنع. شاهداها رام،  
لكنه أنكرها وشد الخطو ناحيتها، ثم تجمد على مقربة منها  
ذاهلاً، راح يتفحصها بعينين مجهدتين من السهر. خفضت رأسها  
إلى الأرض بحياء، ثم رفعت، وقالت ببركة واضحة:

- ألم تنم حتى هذه اللحظة يا قائد رباد؟

أجاب متجاهلاً اضطرابها:

- لا... لم أنم، فقد كنت مؤرقاً أمّني نفسي بإطالة على وجهك

قبل الرحيل..

زعمت أنها هي الأخرى كانت سهرانة تُسائل نفسها عنه.. ولما  
أجهدتها التفكير عرجت لتتنسم الهواء الطلق، ولم تدر إلا وهي  
في ذلك الموضع تتوسط الحراس.. وافقها بهزة جادة من رأسه  
متفادياً أن تشعر بأنه قد عرف ما يخالجها بشأنه.. بعد برهة  
استقطبها إلى جوار النار وجلسا لحديث لا محدود أهاج جماحها،



وأطاح بوجهها إلى أعماق بعيدة في العراء، هلّ الدفء على مسامها المشعرة بفعل القرّ القارس واستقبل جسدهما مزيداً من الحرارة وفكر رام بشيء من الامتعاض: هل مرام فردون أن تتنكر؟ أم تود التميز عن فتيات سبأ بهذه الميزة التي تحوي قدراً كبيراً من الغرابة؟ أم إنها ترمي لفت الأنظار إليها فحسب؟.. بعد تودد كثير، وملاطفة مريرة أسقطت قناعها، وكانت أول مرة يرى وجهها سافراً.. ودقق النظر في قرص نير فائق البهاء. ظن أن الأقمار كلها اتحدت وجاءت لتغويه متنكرة في إزار فردون.

وهمس الهدهد السبئي في اغتلاء وعنفوان: " هذه الآلهة، وقد أتت لتريك أن الإناث هنّ مفاتيح الإغواء والجنون، واللائي يهرقن ماء الرجولة بين أفخاذ الرجال قبل الالتحام " ..

بلع رام ريقه المتدفق في فمه، وقال لها بجرأة مفاجئة:  
- أحبك الحب كله، ولكن لم تضعين هذا الوجه المقدس وراء القناع؟

ولمّا لم تجب عليه، استدرك بيقين:

- لا عليك! دعيه محجوباً عن العيون، فربما تصارعت بسببه الممالك..

- اذكر الآلهة، فلعل عينك صائبة وخبيثة.. فأنا لا أحجبه إلا إيان الحرب، لكي لا أكلم بسهام النظرات.

- أنا الوحيد الذي لن يصيبك بالعين، وأنت تعرفين السبب..

ابتسمت لكنها قالت متحاشية إظهار الغبطة الثائرة في باطنها:

- لو رحلت دون أن أراك لخاصمتك إلى الأبد..

- أحبك! ألا تسمعين ما أقول؟

ابتعدت ثانية عن مصايد كلامه، وردت بنبرات خجولة:  
- أشعر قريك بالأمان، وأحس أن هذه النار تتقد في أحشائي..  
- أنتن هكذا غامضات.. كلكن هكذا أيتها الفتيات.. دعيني

أذهب و..

- أنا أحبك أيضاً، ولولا ذلك لن تراني أبادلك الحديث في

وقت كهذا، ألا تدرك هذا؟

قالتها خشية أن يذهب، فضحك بارتياح وتساءل عن سبب إحجام الفتيات بصورة عامة عن البوح بهذا الشعور النبيل من أول وهلة يسكن قلوبهن.. وبدورها ردت متسائلة عن سبب إلحاح الفتيان على سماع اعتراف الفتاة بحبها!! ولم لا يكتفون بأمارات هذا الحب! وأضافت أن التكتّم لدى الفتيات هو نتاج حرج فطري يترعرع مع أجسادهن، ويحل معهن أينما حللن.. وليس للشجاعة أو اللباقة أو المخالطة أن تمحوه، ومهما كان فالمرأة تظل امرأة لها جانب وإه يغشاه الحرج، حتى لو ارتدت ثياب الرجل أو تمرجلت بطباعه، فجأة انتبه رام إلى شيء بالغ الحساسية، إذ أحس أن عليه أن يقيس مدى صدق هذه السالفة، ودفعتة سداخته أن يقول لها سائلاً:

- وأنت، كيف استطعت أن تبوح لي بحبك من أول وهلة؟

- أحسبك مصاباً بالحمى... أنا لم أبح لك بشيء مما تدعي..

أجابته بجدية وعناد، منكراً أنها باحت له بحبها، قهقه رام ثم

جعل يهدئها، ويتلطف إليها، وبالكاد راقت وصفت.

انفلق الصبح وخمدت النيران، وكأن الليل كان فتيلها

والديجور زيتها المغدّي، حين ذلك خبّت أحاديثها، ثم آب كل

منها إلى مضربه، بعد برهات نعق بوق صرواح آذناً بالرحيل،

ونعقت الأبواق الأخرى...ومرّت مراسيم الوداع بسرعة، ومضى رام وجيشه صوب صرواح...ووقفت الملكة فردون بحصانها وسط الصحراء، وثمة نزوة للبكاء تراودها بإلحاح.. ما أقسى النأي! وما أشد مرارته على قلب غر حديث العهد بالحب! قليل الخبرة في حالاته الصعبة! اكتشفت فردون أن هذا هو الحب، لأنها بكت عندما غاب خلف الكتمان، وهي المرة الأولى التي تبكي فيها من أجل رجل. واعترفت أن حياتها الطويلة ومسيرتها وشنار لا يمكن أن تقارن بساعة من سويغات ذلك المساء، وإن حياتها بالكاد بدأت. اكتشفت أن بين أضلاعها عضواً يخفق ويرسل إشعاعاته الخفية إلى كل مواضع فتتها وأنوثتها. انبثق الخفر في ثنايا جسدها وتنبهت لأول مرة إلى ما يجب على الأنثى أن تهتم به لتجذب إليها فتاها. ابتسمت فردون لهذا الخاطر ابتسامة حزينة، وسرعان ما أخلت مكانها قافلة بوثيقة المهادنة وما تبقى من الجيش إلى أرض جنات وعاد كذلك معن إلى معين، وكذا قادة الجيوش عادوا إلى محمياتهم..

## (١٣)

كان أول ما قام به رام في صرواح هو تشييع أوزار إلى مقبرة القبيلات، ونخبة من الأقيال وعدد كبير من أهل المدينة. في تلك الليلة استلقى على فراشه متعباً محزوناً، فغلبه النوم سريعاً. وبينما هو في خضم سباته إذ رأى أوزار آتية إليه، مرتدية لباس الحرب.. ووقفت بجواره وبشّت في وجهه، وقالت:

- هل تذكر ذلك الهدهد الذي قتلته بنشابك في مسبح القناة؟

أجاب بلا تذكر ولكن باهتمام:

- نعم.. أذكر ذلك الهدهد جيداً ولقد أغضبك مقتله.

- ذاك الهدهد هو حظي في الحياة.

- يا للمقّة.. لكنني لم أقتلك..

- أعلم ذلك، لكن قاتلتي هي حفيدة جدك، وأتمنى لها أن

تحزن وتألّم كثيراً قبل أن تتزوج بك.

قال بصوت جياش بالفرحة:

- ها أنت ما زلت حية.

- كلا...

- أوزار...

ابتلعها المجهول، فمد ذراعيه عبثاً في الهواء، ثم أعادهما بفتور وحزن وهو ذاهل وحائر ومستقيم في مكانه، وفي تلك الأثناء جاءه صوت أجش غامض:

- احترس يا هذا، فأيام بؤسك قد دنت ...

صحاح رام من نومه والرجفة تهزه بعنف، ومعك عينيه، وتطلع حوله منصتاً على أحداً يناديه، لكنه لم يسمع شيئاً، حينها كان الصبح قد انبثق، وبدت الشمس تتهدى كالخجلى من وراء قصور صرواح، قاذفة حزماً من أشعتها البلورية إلى مقصورته عبر نوافذها العلوية الضيقة.. لتوه ارتدى ملابسه وانتضى سيفه، ثم اعتلى حصانه، وسار مغموماً تائهاً حتى وقف أمام دار الحكيم شلش وما إن لمح الخادم حتى ذهب ليلغ سيده، وهمس رام بارتجاف:

"بحق نور المقة أن يكون خيراً" ..

وما هي إلا لحظات حتى تبادى الحكيم شلش، خافضاً رأسه الشائب بإجلال، والغرابة عالمة على تجاعيد وجهه.. وقال بخضوع:

- خيراً يا قائد الجيش !

- رؤيا مخيفة، لازالت تطن في رأسي وصدري، ولا تكاد تفارقني ..

ثم سارع رام يقصصها عليه، ولما أنهى حديثه هز الحكيم شلش رأسه، وغمرت ملامحه السكينة واللامبالاة، وعاجله قائلاً بانسجام:

- لا تكثر بأمر هذه الرؤيا، فهي هواجس خادعة ناجمة عن التفكير ..

- والصوت المجهول...؟

- أحاديث الموتى لا تؤوّل، وكذا الأصوات المجهولة ..

قال الحكيم شلش عبارته بثقة عمياء، فتركه رام ومضى

مكتتباً، غير مقتنع مطلقاً بتأويله.. تراكمت الأفكار في أعماقه  
والوساوس.. وخاطب نفسه سرّاً بما يشبه اليقين:  
"لعل الحكيم شلش وجد نفسه عاجزاً عن تأويل الرؤيا،  
فلجأ إلى إبطائها أو إنه شفّ منها وعيداً مشثوماً، فبادر بإخفائه  
رفقاً بي" ..

ودلف رام إلى مجلس القيل الأكبر كوهار وحيّاه بفتور، واتخذ  
مكانه المؤلف في صدر المجلس. كان مهموماً وثمة رعدة غريبة تهبُّ  
رقائق أحاسيسه في أعماقه.. شعر بزحف كربه قادم على حاضره،  
وتابع مخاطبة نفسه: "إن الصوت المجهول قد أكد ذلك ولكن  
الحكيم شلش صار شيخاً خرفاً، ولا دراية له بكل الأمور" ..

تأمله القيل كوهار بنظرات طويلة وامضة، ثم التفت إلى  
الأقيال غامزاً غمزة خفيفة وهمس في أذن نائبه مدغل قائلاً:  
- انظر إلى وجه القائد رباد، إنه عابس ومتغضن. ولعله أدرك  
أننا عثرنا على وثيقته الخالدة..

- هذا ما يبدو يا سيدي، وأحسبه يخشى أن يصل أمرها إلى  
الملك كرب.

- الوثيقة قديمة، وإلى جانبها رسالة في جلد غزال تخص  
السادن الأكبر شيزار أرسلها إلى خاله القيل حوف.

- يبدو أن له قصة عجيبة، ولا ندري كيف تمكن السادن  
شيزار من تهريبه إلى صرواح، بحيث لازل الملك كرب غافلاً  
عنه إلى الآن..

انضم قيل مجاوز إلى المهامسة وهو البطين أنهار وقال بخبث:  
- لديّ خطة مجدية سوف تؤدّي إلى التحقق من الدائرة  
المقدسة..

- قُلْ خَطَّتْكَ يَا أَنهَار وارْتد سريعاً قبل أن يفتنن إلى تدييرنا ..  
وبعد عبارته الأخيرة أرهص القليل كوهار السمع، ولما فرغ  
أنهَار استوى جالساً باعتدال، وكذلك مدغل، واستحسن القليل  
كوهار الخطة، وشرع يفكر بعمق، وينتظر بروية مجيء الوقت  
المناسب الذي ينبغي فيه أن يبدأ بها. كانت الغمزات والهمسات  
تدور على كُتب من رام لكن شروده المطبق حجب عنه الإدراك  
بأي شيء حوله، وليس على الكرسي غير جسد ساكن كالخشبة  
المسندة، وإن ارتفع صدره وانخفض فذلك بفعل تنهيدات قوية  
تعتريه من حين إلى حين.. فجأة ألبس القليل كوهار وجهه حلة  
سوداء من التجهم، وقطب جبينه بقلق، وترك عرق الغضب  
يرفُّ فوق أنفه المقيبب.. ثم انبرى صائحاً بانزعاج:

- ثمّة شخص سطا على قصر القليل أنهَار ليلاً، وأراد أن يتسلل  
إلى مخدع ابنته العازبة لغرض خسيس ..

انتبه رام إلى صوت القليل كوهار وتضمخ وجهه بالدهشة،  
لكنه ظل صامتاً، في حين قال أحد الأقيال بصوت جاد:  
لعله لص أجنبي ممن يسعون للبحث عن الدنانير الذهبية في  
أوقات الجذب ..

قاطععه أنهَار:

- بل هو قليل سبئي، يلبس ملابس الأقيال في صرواح،  
ولكنني لم أميزه بسبب القناع المضروب على وجهه، وخفوت  
ضوء السراج ..

- يا للعار !! أحد الأقيال !! لا.. لا.. هذا محال !! خانتك  
عينك بلا شك ..

تعالت مستنكرة أفاظ الأقيال لا سيما أولئك الجاهلون بالحيلة

ونظر رام إلى أنهار بعين محمرة.. وأخيراً تطوع قائلاً بسخرية:  
- لطالما الأقبال تغدق على الناس المال والحلل قشبية وغير  
قشبية..

- برهاني جلي يا سعادة القيل الأكبر، فقد جرحته على صفحة  
كتفه الأيسر. قبل أن يفر من النافذة ويقفز إلى حديقة قصرى.  
قال أنهار عبارته بانكسار الشاكي، فهز القيل كوهار رأسه  
ثم قال:

- لا مناص من فحص أكتاف الأقبال، لنقيم عدالة المقمة، وإن  
لم نجد الجرح سيلقى القيل أنهار العقاب نظير هذره السخيف...  
رمق الأقبال بعضهم البعض بتقطيب وانبهار، وحذج القيل  
كوهار وجه رام بنظرة ثاقبة، فوجده على كدره الأول، لم يتغير  
كما كان يظن أن يحدث.. وما انطبع على ملاحظه. وتجلى بصيص  
منه أمام ناظره لا يثير الاهتمام، وهو قلق طبيعي كذاك الذي ثار  
في وجوه الأقبال المستهولين للأمر.. فأضمر في نفسه بتشكك  
وقال: " كان ينبغي أن يهتم ويريد وجهه. أكون غير آبه  
بانكشاف أمر الدائرة المقدسة، أم أنه لا زال طيلة هذه الأعوام  
جاهلاً بها؟ سنرى ما سيصدر منه الآن".

وصاح بنبرات حازمة:

- يا قائد رباد، قُمْ لتفحص أكتاف الأقبال فحصاً دقيقاً.

- حالاً يا سيدي..

واستوى رام قائماً، ومشى بضعة أمتار بثبات، فأماط الأقبال  
جلابيهم عن أكتافهم اليسرى، وهم ساخطون ومشفقون من  
هذا العمل الشائن. فجعل رام يمر عليهم بالترتيب واحداً تلو  
الآخر ملقياً نظرته الدقيقة على صفحة الكتف الأيسر.. كان



هادئاً جداً في الفحص، وهو يترك قليلاً ويمضى إلى غيره، ولم يتبادر إلى ذهنه أي إيجاء للخبث يتبطن هذه الشكوى.. وقد كان انشغاله بشأن الرؤيا والصوت المجهول هو سبب سهوه وغفلته عما يحاك ضده من استدراج واجترار إلى ذك يخشاه بشدة.. وعندما خلص رام إلى فحص آخر قيل في آخر المجلس ارتد صوب مكانه، فمال إلى القيل كوهار وقسمات وجهه الباردة تفصح عن إخفاقه في مهمته تلك.

ارتسم رام أمام القيل كوهار كالصنم، وهمّ أن يتكلم، لكنه عاجله قائلاً بصوت متضخم:

- لاشك أنك لم تعثر على الجرح المزعوم..

- نعم يا سعادة القيل الأكبر، ولم أترك قليلاً واحداً..

قالها رام بتأكيد بحت، لكنه فوجئ بالقيل كوهار يميظ جليابه عن كتفه ويهتف قائلاً باهتمام:

- أنا قيل، ويتحتم أن أكشف كتفي..

وحيثُ فقط سارت يد رام إلى صفحة كتفه الأيسر بفجعية.. وتلبد وجهه بالسواد واجتاحته موجة مزلزلة راعشة وهدر صوت الهدهد السبئي من جوفه قائلاً بذعر:

" العلامة مكنوزة على كتفك يا غافل.. يالها من زحلقة شيطانية "

- جاء دورك يا قائد رباد؟... أقول أرنا كتفك... قال القيل كوهار.

- لا يجب أن أريكم كتفي، فليس به الجرح اللعين..

دوى صوته في المجلس بقوة، فندت من فم القيل أنهار آهة انتصار، وقال:

- وجدت ضالتي، رباد هو من اقتحم قصري ليرتكب  
الرديلة..

نفش الهدهد السبئي ريشه، وحكَّ بمنقاره زغب رقبتة،  
وهدهد بصوت بائس.. وقال على لسان حاله:

"شمر ساعدك ولا تجبن، وإلا عشت لصاً أو عاهراً في عين  
صرواح والصرواحين".

اعترته اضطرابات عصبية قبل أن يرخي جلبابه، ويصرخ  
بقوله:

- هاكم كنتفي وليكن ما يكن.

- ها هو الجرح و..

- كلا.. هذه علامة مستديرة تشبه الدائرة..

سكت المتحدث عن الجرح، ونكس رأسه بانخزال، بينما خنع  
الأقيال وانحنوا إجلالاً أمام الدائرة المقدسة، خاشعين ذاهلين،  
وهتف القليل كوهار قائلاً بتأثر:

- أيقنت الآن وبلا ريب أنك لست رباداً.

- عمّا تتكلم يا سيدي؟

قال عبارته بصوت متقطع، ولم يقدر أن يجبس موجة حمراء من  
الدماء دقت إلى وجهه، وخوفاً جراراً اجتاح عينيه بوضوح. رد  
القليل كوهار بنبرات صريحة، وهو يرنو إلى الأقيال باطمئنان:

- ممّ تفرع؟ ها هم الأقيال لن يجروا أحد على الكيد بك؛ لأن  
الدائرة المقدسة مهوراة بالأدعية والتعاويد.

- لا أظنها كذلك..

قالها بقنوط، ثم ارتد إلى أعماق نفسه، وجعل يبحث فيها عن  
ذرة إيمان بالآلهة، وقدرتها الخارقة على حماية ذوي الدائرة

المقدسة. أين كانت هذه المعبودة عندما مات الملك شام غيلة تحت القلعة؟ هل كانت نائمة في بقعة معتمة من السماء؟ أم كانت تصرخ متأوهة من اللذة تحت نزوة فحل من الآلهة؟ وهل عليك الركون إلى حماية هذه الآلهة بعد الصوت المجهول؟

وهكذا صار متخوفاً في أعماق نفسه، بدال له الوقت يدب برتابة وبطء وسأم ويحبو صوب أيام البؤس الموعودة.. بعد ثلاثة أيام وبينما هو قاعد قرب القيل كوهار في المجلس، إذ برز الحاجب "عاف" من باب المجلس. وتسمر محله وانطلق يقول رانياً إلى قلب المجلس:

- أربعة من الفرسان يستأذنون بالدخول على قائد الجيش رباد..

- ماذا؟ يودون الدخول عليّ أنا؟ من هم؟

عقد الحاجب عاف حاجبيه بحيرة، واكتفى بذلك عن الجواب، فحدس رام أن الفرسان لم يفصحوا عن شيء لأن ما يحملونه يستدعي الخيطة والسرية، وسرعان ما ردّ بصره إلى القيل كرهار، فأشار الأخير آذناً بدخولهم.. دلف إلى المجلس أربعة فرسان في لباس الحرب. ومن خلال أزيائهم المذيّلة عرف رام أنهم من مملكة معين.. وتقدم أحدهم بحيوية شاهرأ بيده رقعة جلدية منسوخة وانحنى قائلاً:

- باركتكم الآلهة ود.. أيكم القائد رباد؟

مد رام كفه ناشداً الرقعة، وفي نفس الحين مشيراً إلى نفسه دون كلام، فسلمها الفارس إليه مضيفاً:

- هذي من لدى القيل المعظم معن بن قضاع.

دقق رام النظر إلى الرقعة، متهجياً ما فيها بعسر، إذ ألفى أحرفاً

مكسرة، تختلف اختلافاً طفيفاً عن أحرف مُسند سبأ، بيد أن هذا الإختلاف لا يكاد يعيق القارئ المتمرس عن التهجي، وتلاشت أسارير وجهه وهو يقرأ ما سُطِرَ على الرقعة: " أنا معن الوريث المنتظر لعرش معين، لقد سجت ثلاثة أيام بسبب وثيقة المهادنة، ثم فُكّ وثاقي، والمعاهدة سارية والوثيقة معلقة على جدار المعبد. وأنت هل لديك أخبار عن الوثيقة من أرض جنات؟ باركتك ود .. ابتسم ثغر رام، وانتعش أمله لسريان وثيقة المهادنة في معين رغم شعوره بالأسف لما عاناه معن من أجلها.. ثم طلب رام أدوات الكتابة فجيء له بها، فكتب على جلد غزال: " أنا رباد.. أيامي الحالية تشكو من البؤس والأحلام المزعجة، وقد عثر القيل الأكبر لصرواح على وثيقة نسبي في خزانة الوثائق الخالدة.. وكاشفني بالأمر أمام الأقبال، ولكن المقة قدّرت أن يكون من أحد أعضاء مجلس أبي القدامى، لذا رأف بي ووعدني بالتكتم، ولا زالت أخبار الوثيقة خافية عني، ولم تصل إليّ بعد. باركتك المقة "

وطوى الرقعة طياً جيداً، وسلمها للفارس المعيني، وعرض عليه ورفاقه الضيافة، لكنهم تذرعوا بالعجلة وانصرفوا شاكرين وقال رام قاتلاً فضول القيل كوهار والأقبال الآخرين:

- لا شيء يثير القلق وكل ما في الأمر أن القيل معن بن قضاع يسألني عن وثيقة المهادنة.

## (١٤)

لم يدر الملك كرب إلا والقائد شنار داخلاً عليه بمفرده  
وصورته شعناء نكراء فاسود وجهه وتضاءلت هامته حتى  
انقلب رغم بدائته وارتفاعه إلى قزم فاقد الحركة، أو كدمية  
صلدة غابرة اللون. ثم اهتز هزة مذهلة في صمت، وواكب  
صوته الزاعق نذير من الفزع.. وثمة حطام من الغضب لازال  
متناثراً بكثرة على قسامات وجهه المقطب، وقال قاذفاً سهاماً من  
عينيه:

- أنهزتم؟ وأين فردون..؟

أتبع شنار ارتعاشة شفتيه الجافتين صوتاً مفرقاً:

- لا.. لا يا جلالة الملك، لك بشرى النصر، والملكة فردون في

أحسن حال..

- أين هي؟ لا تقل حدث لها مكروه..

- لن أجرؤ على الكذب يا سيدي، وسأحكي لك ولتشهد

المقة على صدقي..

قالها واستوى جالساً على كرسيه المهجور، ونفخ في الهواء  
إعياءه وأخذ يسرد الأحداث بزيغ صارخ، وتلاعب بالألفاظ  
حسب هواه. صاغ ما فعله رام إلى تصويرات بديعة دقيقة ألصقها  
بنفسه، وزاد خياله وقائع لم تحدث البتة، ولم ينس الملكة فردون  
كذلك.. إذ ألصق بها أفعالاً هامشية وإن كانت أقل أهمية من

أفعاله اللصيقة به، لكنها على كل حال تثير الإعجاب  
والفخار. قال: إن الملكة فردون هاجمت ببسالة الجيوش المعينية  
المطوقة لمدينة مرار. وأنقذته والجيش السبئي المحاصر في آخر  
لحظة. وما إن وصل متأخراً القائد رباد المنفوخ المتباهي بأعلامه  
الحمر حتى رأى المدينة محررة من المعينين. انتشى الملك كرب  
فراح يصغي باهتمام وشوق إلى تنمة حديثه، وشنار يضيف:

"بعدها نفخت الشياطين في عقل القائد رباد خطة بليدة،  
وغرّه أن مدينة ذي ريدان مفتوحة، ومنافذها مقفلة توحى  
بخلوها من جيوش معين... وقد أكدت له أن ثمة كميناً منصوباً  
جوف المدينة لكنه أهمل فكري الرامية إلى إرسال كوكبة صغيرة  
من الجند إليها فانشققت والملكة فردون بنصف الجيش، وبقينا  
خارج المدينة نرقب بهلع ما سوف يلقاه القائد رباد من عواقب  
تهوره. ولكن حدث كذا وكذا....

ومن حيث بلغ الحديث هذا المنحى بدأ وجه الملك كرب  
يعتصر ألماً وغيظاً في آن واحد..

مضت برهات ثقيلة الوطأة، وشنار لم يتته بعد من تشدقه  
ولغظه.. وعند إحدى فواجع الحديث استوقفه الملك كرب و  
صاح بأسى محض:

- وامصيتاه.. ما أفدح خسارتنا بمقتله..

- نعم يا جلالة الملك، المدرب شعسان كان أدهى مدرب  
عرفته سباً...

- أكمل أكمل...

فتابع حديثه واصفاً كيف اقتحم والملكة فردون البوابة حالما  
انغلقت فجأة، وكيف انتشل رباد من الفخ المكين، ومن ثم حول

الهزيمة إلى نصر باهر، ثم حاصر القلعة وكادت أن تسقط لولا أن تدخل القائد رباد عارضاً عليهم المهادنة.. وكم كانت فرحة المعينين حين عُرض عليهم الصلح، فرج ما بعده فرج.. إذ كانوا في مأزق حرج، ويوشكون أن يستسلموا.. ومضى يرتجز بالحديث عن الوثيقة، وعاد الملك كرب إلى مقاطعته قائلاً بغضب عارم:

- من يظن نفسه القائد رباد حتى يعقد الهدنة ويبرم الوثيقة دون أن يبعث إليّ ويشاورني في الأمر!!

- إنه غشوم متعطرس، لم يدع لنا رأياً أو مشورة..

قالها شنار متظاهراً بالحسرة والقهر، وأخذ يعض شفته السفلى بمكر.

- وعزة المقة لألطن بدمائه أعمدة المعبد.. ولازلت آخذاً

عليه ما كاد يحدثه من انشقاق حال وصوله من صرواح..

كان يود شنار أن يضيفي إلى علم الملك ظروف مقتل أوزار ووعيد رام بأخذ الثأر من الملكة فردون، ولولا كان له بالمرصاد لقام بتنفيذ وعيده، عبارات مختلفة كثيرة كان بوسعه أن يشير بها بركاناً متأججاً بحممه في جبل هيلان، ولكنه اكتفى بمجرد سماعه للقسم، وهو يدرك عز الإدراك أن الملك سيبير بقسمه، حتى وإن تحقق من زيف كلامه، إذ أنه لم يحدث في يوم من الأيام بها أقسم قط، خيّل إلى شنار أن بمقدوره في تلك اللحظة، أن يوغر صدور الكواكب السيارة على بعضها، ويجعلها تتراشق بالشهب والنيازك، فكيف لا يقدر على إثارة رجل سريع الغضب، بالغ الثورة كالملك كرب وهو بما يعتمل بباطنه من حقد وإجرام لن يذر نزواته تقف عند أي حد، فمنذ أن عرف التاجر فالوس السخي عليه وعلى الأقبال بالعبيد، وهو يرتاب في

هذا السخاء، ويحاول أن يتكهن مغزاه، ولكن بلا جدوى، لا يسعفه التفكير الجاد، فيطوي هذا الأمر طي النسيان، وهاهو يستأذن الملك ليؤوب إلى قصره كي يريح جسده من عناء الحرب وكدح الصحارى.

وسمح له الملك غفير بالعودة إلى قصره في وقت مبكر لينال قسطاً من الراحة، فعاد يجرجر نفسه، وصورة فراشه الوثير لا تكاد تفارق مخيلته المضناة، بدت له الطريق من قصر الملك إلى قصره طويلة، وتفصلها عنه وهاد شاقة وتلال شائكة متجعدة، وقصره قابع بمشارف المدينة يأنس بأشجار الرس واللبنان، وثمة مزارع تحيط به من اليمين واليسار، وترجع ملكيتها إليه، وقد أهداها الملك كرب له قبل شهور قلائل، وكما منّ عليه بهذا القصر القاصي المنقطع قليلاً عن المدينة، منّ عليه بالمزارع، وكانت هدية الملك الأخيرة من أجل خاطر فردون.. لأنها ستصير قريته عما قريب، والوثيقة التي أبرماها ومزجا الدماء عليها وطّدت العلاقة أكثر بين الملك وشنار، وأيقظت روح الصهار المتوخاة في الأجساد..

وهاهو الآن يقترّب من قصره وفي خاطره وسواس عجيب، ما لبث أن أحس بالوحشة تلفح محيط القصر، وكأن لا خدم ولا حس لإنسان بداخله. همس في سره مستنكراً: "ما بال بوابة فناء القصر مغلقة على غير العادة، وأين الحركة النشطة التي يعهدا المكان" ..

وحاذى البوابة وأرهف السمع قليلاً عساه يظفر بهمسة أو وقع أقدام في الداخل، ولكن لم يتحرك ساكن.. تقدم وطرق الباب طرقات هادئة.. فسمع شيئاً يتقرقع داخل الفناء على عجل



وكان ثمة شخصاً ألقى ما بيده وجاء إليه سعياً ، ثم أتى إليه صوت أحد عبيده وهو يقول بنبرات عاتبة من الداخل :

- التاجر فالوس والزعيم مرج ينتظرانك يا خثعم..

بسرعة فائقة انفتح الباب، وصافح وجهه وجه عبده مطير. ذهل الأخير وبدا كالمصعوق وهو يرى سيده شنار أمامه محوقلاً يرنو إليه بغضب لأنه لم ينحن وكأن الشياطين أمسكت به وشلت حركته، قبل أن ينطق بجملته الوحيدة ويعدو إلى السوراء ناحية باب القصر المفتوح:

- ياللمقة.. سيدي شنار.. ما جاء بك اليوم؟

- هاه ، مطير انتظر، أيها المعتوه، القصر قصري. ماذا يحدث؟ قال شنار عبارته، وحث حصانه وحمل خلفه غاضباً مذهولاً، وقذفه بنشاب حاد انتصب عمودياً وسط متنه، فهوى صريعاً قرب عتبات باب القصر، مشى شنار وترجل عن حصانه، ونزل عن متنه وتركه بلا عقل، ثم داس جثة مطير وصعد السلم باحتراس وهو يخاطب ذاته همساً: ماذا يجري في قصري حال غيابي؟ وما هو سر التقاء فالوس بمرج؟ لكم ارتبت من عبدي مرج في السابق؟ ومع أنه مخلص ووفى وغير أبق إلا أن كياسته تخيفني..

تسمر شنار قرب باب مجلسه الكبير، وقد ارتمى إليه حديث بين أشخاص كثر... أصوات متفرقة غليظة ومبحوحة، ولكنه اهتدى إلى صوتين لهما الريادة في الحديث، ولا أحد يقاطعهما البتة.

صوت فالوس وصوت مرج، سمع الثاني يقول بحدة:

- إلى متى سنظل نترث؟ خثعم قد لا يأتي هذا اليوم لأنه

مرتبطة بعمله لدى سيده القيل جفير، وهو كما تعلمون متعجرف  
متسلط...

- بوسعك يا مرج أن تختار غيره نائباً لك، ولكن ممن  
يتحركون في المدينة بحرية، فنحن قادمون على مهام دقيقة،  
بحيث لا ترمقنا العيون بالشك، وأنتم الآن طلقاء، ومدينتكم  
مفتوحة ومدينة جنات مفتوحة أيضاً لكم، وكنتم في عهد الملك  
شام تنذرون ببقائكم طيلة الليل محبوسين جوف مدينتكم  
الطينية، أما الآن فالأحوال مواتية لإحداث القلاقل وقد طال  
المطال وربما ضاق صدر الإمبراطور من سكونكم، ومن ثم  
ينكص عن وعده، وإقطاعكم هذه الأرض الثرية الرخية لتبقى  
سكناً لكم وتدينون للرومان بالسمع والطاعة.. ماذا قلت؟  
جاء صوت آخر شاحب مخاطباً فالوس بأرق:

- ما هي المهام يا سيدي؟ قل فنحن أطوع لك من أناملك.  
- كل رؤساء المجموعات على تأهب للمهام أيأ كانت، وهذا  
من أجل الحرية والعيش بأمان في أرض نملكها ونديرها  
بأنفسنا..

قال مرج عبارته بإيمان مطلق، وتطلع إلى فالوس بعينين نابهتين  
وأرهدف الجميع متأملين إلى فالوس.. بينما ارتعدت فرائص شنار  
على رغمه.. وهو يسمع كلام فالوس المهول، لم يخطر له على بال  
أن الأحباش ينحون هذا النحو في سبأ، وأن لهم ارتباطات  
ووعود مع الرومان، فومضت في رأسه فكرة خبيثة.. لم لا يستغل  
هذه الحركة لصالحه، فهو قائد الجيوش السبئية، وقادم على زواج  
يحسد عليه، وعماً قريب يصير صهراً لجلالة الملك، ولن يبق بينه  
وبين العرش إلا سنوات لا يتكهن عددها.. لكنه الآن لن ينتظر

حتى يموت الملك كرب ليصفو له الجو ويصير ملكاً.. فقد جاء  
الفرج مع هذا الغشاء الهائل من الأحباش، فليكونوا مطيته  
السريعة إلى عرش سبأ، في وقت قصير قد لا يتعدى العام أو  
العامين على أكبر تقدير.. امتلأت نفس شنار بالغبطة حين جالت  
هذه الأماني الطاغية في رأسه، وبينما هو في خضم انسجامة  
وتعقبه لأطراف الحديث إذا بذياب سيف يلتصق بمؤخرة رقبته  
وصوت أجش يقول من خلفه:

- أيها السبعي المتربص.. ارفع يديك، فقد قتلت  
صديقي. وجئت لتتهتك سرنا.. قل يا هذا من أنت ومن أرسلك؟  
رفع شنار ذراعيه متقمصاً الارتباك، وبسرعة مذهلة دفع قدمه  
إلى الوراء برفسة شديدة، فأطاح به بعيداً عنه وسل سيفه وهوى  
به على رأسه. أفاق فالوس ومرج وبقية رؤساء المجموعات على  
صوت خشم وصيحته المتأللة فحفوا إلى الدهليز الخارجي.. فرأوا  
القائد شنار والسيف مشهور في يده وثمة قطرات من الدماء  
طرية لا زالت تتقاطر من نصله الحاد.. فاندهلوا ووقفوا جامدين  
برهة من الوقت، وبعدها قبض رؤساء المجموعات على مقابض  
سيوفهم وهموا أن يسلوها وينقضوا عليه، لكنه صرخ في  
وجوههم بصوت جهور:

- الزموا أماكنكم.. أتظنون أنكم ستصمدون أمام سيفي؟  
نظروا إلى بعضهم بحيرة فغمزهم فالوس بيأس، فارتدوا إلى  
مواضعهم، فدلف شنار إلى الداخل، وأعقب بسخرية رانياً إلى  
فالوس ومرج:

- المعذرة يا قوم، ما كنت لأشهر سيفي في وجوهكم، لأنكم  
نزلاء قصري، وأضياف عبدي مرج.. ولكن أحد المناحيس

غدرني من الخلف.

طأطأ مرج إلى الأرض باستحياء، وغمغم فالوس مبتسماً بسمه  
صفراء:

- جئت إلى قصرك لكنني فوجئت بغيابك، وفي حوزتي هدية  
تليق بك.

- كلا.. ليس هذا ما حدا بك إلى قصري.. لا تحسب يا فالوس  
أنني غافل عمّا يدور في سبأ منذ زمن بعيد لكنني حبست سرّكم  
مترثاً لمثل هذا اليوم وها قد جاء وفي نفسي هوى ورغبة لما  
تخططون له..

امتص فالوس دهشته المتخذقة في ملامحه المحطمة، وقال  
بفتور:

- ليس لي دراية بما تقول، ولعلك يا سيدي أسأت الفهم..

- لا تحاول تضليلي.. فقد سمعت كل شيء وإن استمرت في  
المرواغة والإنكار، سأدع الملك كرب يفعل كما فعل الملك شام  
من قبل، فينفيكم إلى الحبشة بلاد الجوع والعلل، هذا إذا انتابته  
الشفقة وكان سلباً هادئاً، وإلا فستعودون أجساداً بلا أرواح.  
ابتدر أحد رؤساء المجموعات، وقال يخاطبه بلهجة شيطانية  
خبثة:

- لا تقسو علينا يا قائد الجيش.. نحن أقاربك وأبناء  
عمومتك، وكان بدد يحدثني عنك ويكي بكاءً مُراً، ونحن  
مختليان في الزريبة القريبة من قصركم القديم.. وكان موته مقتولاً  
فاجعة كبيرة..

لم يفاجأ الحاضرون بهذا الكلام، لأنها شائعة قديمة يرددها  
العبيد وقد أسدوا هذه المعلومة إلى فالوس، عساه يلقي بالسر إلى

شئنا أو يستميله إلى تنظيمهم السري. لأنهم رأوا أنه ذو كلمة نافذة في مجلس الملك، وسطوة شديدة، وأحسوا أنه من الصنف الذي يستمال وأن له وجوهاً عديدة، وطموحاً لا محدود، ولكنهم قبلوا برفض مطلق من فالوس الروماني إذ رأى أن شئنا قريب من قلب الملك، وسيصاهره في وقت من الأوقات، وإن عرف ما يأمرون عليه، لن يتردد البتة عن هتك سرهم والفتك بهم، لأنه سيرى أنهم بما يقدمون عليه قد يعيقون طموحه في الاقتران بفردون، ولكن شاءت الظروف أن تأتي الأمور عرضاً لا كما أراد لها فالوس أن تكون، وها هم أمام شئنا وجهاً لوجه، وها هو يمتقع ويرتبك ويتلعثم، ويعود بذكرته إلى الوراء ثم يطرق واجماً.. هذه هي المفاجأة الحقيقية التي التقاها كالصفعة الرهيبة.. كيف ترسخ في أذهان الأحباش أن أباه هو بدبد وليس دارم؟ الأمر جلي للغاية، وكما زعم رئيس المجموعة في تعريضه اللئيم، بدبد أفشى له هذا السر وهو يبكي، ثم تفشى إلى بقية الرفاق الأحباش. وجاءت لحظات صامته كالموت، استغلها الجميع بالتفكير الدقيق.

كان أول من خرج عن دائرة الصمت هو مرج.. جاء صوته هادراً مصحوباً بنزق جاد وكيد مقصود، وهو يقول مخاطباً ذلك العبد الذي تحامل على سيده شئنا:

- إياك يا عزيزان أن تجازف مرة أخرى وتنطق بهذا الكلام الخطير حتى وإن كان صحيحاً، فهذا هو القيل شئنا سيدنا وتاج رؤوسنا..

فوجئ شئنا بالعبد عزيزان ينحني مرتين في خنوع وضراعة أمامه وأمام مرج، وكل انحناءة على حدة.. ويقول بأسف:

- اغفر لي يا سعادة القليل، لن أعاود هذا اللغو القبيح..  
وبلا تفكير مضمّن أدرك شنار بالأسلوب الذي ينبغي أن يتخذه  
في معاملته والأحباش فليس خليقاً به أن يلقاهم بالشدة والقسوة  
بعد ذلك اليوم، والسبيل الوحيد له هو الوضاعة والمكر.. فقال  
بصوت منكسر هادئ:

- أنا ذراعكم، ولكن إياكم أن تحيدوا عن رأبي أو تقدموا  
على عمل ما دون علمي..

- لك ذلك يا قائد شنار.. على أن تمد لهم يدك وتحشرهم وسط  
الجيش، وفي أحشاء القصر.

- بمستطاعي أن أحشوهم بكثرة جوف القصر، بل وأجعل  
لزعيمهم مرج مقعداً في مجلس الحكم لكنني لا أقدر أن أضم  
جندياً حبشياً واحداً إلى الجيش، لأن الملك شديد الاحتراس  
وعيونه كثيرة، وسوف يصله النبأ في ذات اليوم.

بعد ذلك تصافحوا وألح فالوس الروماني على أن يبرموا وثيقة  
عهد بذلك، ففعلوا ثم تفرقوا وراء أعماهم. وفي الصباح الباكر  
صعد القائد شنار إلى مجلس الحكم.. ومعه عبده مرج.. لم يلبث أن  
قدّمه للملك كرب، وتوسل إليه أن يجبوه مقعداً. لأنه ينوب عن  
أحباش المدينة الطينية، فسمح الملك لمرج بمقعد وضع في آخر  
المجلس، وما كان ليفعل ذلك لو لا معزة شنار لديه، ووثوقه به.

\* \* \*

" العبرة في الحي وليس في الميت، لا يهم من يكون  
أبي.. والمعمول على الظاهر المرئي وليس على الباطن الخفي.. هأنذا  
في عيون السبثيين ابن القليل دارم العقيم الشاذ وفي عين ذاتي وعيون  
الأحباش عبد ابن عبد.. ولكن لا ضير من ذلك ما دمّت قائد

الجيش. أنا.. لا شأن لي بأب أو أم ولا ذنب لي في ما جنوه من ذنوب وردائل.. ففي ذات يوم فتحت عيني على هذه الأرض النضرة، ووجدت نفسي أسعى بين الصبية، وقد كنت محظوظاً ولازلت كذلك، ولن أتنازل عما حبتني به الآلهة من سعادة وسؤدد، لن أفعل ذلك بأي حال من الأحوال، ولن يؤنّبني ضميري حين أقترن بصاحبة الدائرة المقدسة، ولن أفقد كبريائي المعهود، فأنا عبد أصيل مخروم الأذنين، وأتحدّى أي فتى من السبئيين أو الأحباش أن يبلغ شأواً كشأوي ..

وهكذا ظل القائد شنار يناجي روحه وهو يرتقي بتأن سلام القصر حتى استوى على كرسیه في المجلس.. بعد برهات جاءت الرسل تُبشّر بدنو الملكة فردون والجيش من أرض جنات، فأحس شنار بانقباض حاد يطبق على صدره.. كانت الأيام الثلاثة الماضية حافلة بالمفاجآت والهموم، مما جعله ينسى الملكة فردون وما ألصقه بأحداث الحرب من بهتان وزور.. ولا زال الملك كرب يود أن يسمع ما ستأتي به فردون من أنباء.. ولم يكن القائد شنار ليجرؤ على تلك الرواية الزائفة إلا لظنه أن الشرخ الذي أحدثه بين الملكة فردون والقائد رباد قد اتسع وأن الجرح لم ولن يلتئم. ضحك من أعماقه وقال لنفسه:

"الرعب والعناد إذا سبكنا قلب فتاة من سلالة ملوك سبأ، فلن تتورع عن الفتك بأبيها، إن كان مصدر قلقها يأتي منه، فما بالك بغريب كرباد.. ذلك الصرواحي النحيل، الذي استغل طيبة فردون ورقة قلبها، فاستمالها إليه بعد أن كنت معبودها الوحيد، ذلك الصرواحي اللعين، ما أبرعه في القتال! وما أخبثه في الرماية!! لشد ما أكرهه، فقد أطاح خوذي بنشابه،

وجعل الجيوش تسخر مني وتتضحك عليّ ملء الأفواه، لكن هيهات أن أغفر لك ما فعلت. فها هو الملك غاضب منك، ساخط عليك، والملكة فردون تركتها غاضبة ساخطة، وستوغر عليك صدر أبيها.. وفي البغد تكون تابعة في مجلس الحكم، وتجود بما يؤدي إلى هلاكك" ..

ثم آب شنار إلى قصره، وانتظر المساء بفارغ الصبر، ونام تلك الليلة نومة هائلة، وهو لا يشك البتة في أن الملكة فردون ستؤيده، وتعيد على مسمع الملك كرب نظير حكايته الزائفة.. وقد أزمع أن يلقاها في الصباح خارج المدينة، ويفضض لها ما حاكه من أحداث لتأتي هي الأخرى بعينه، ومن ثم لا يكون التناقض سبباً لارتياب الملك..

في الصباح دخل شنار إلى مجلس الحكم في أجمل ملبوس لديه والطيب ينفج منه إلى بعيد.. طلب من الملك أن يأذن له بالذهاب إلى خارج مدينة جنات ليستقبل فردون والجيوش ولكن الملك كرب قال له: "سنذهب ونلاقيها جميعاً" ..

وخرج الملك كرب والأقيال ولفيف عظيم من أهالي مدينة جنات، وبدا مستاءً بعض الشيء لخروج الملك معه، ولكنه ما زال يتسلى بأمل الانفراد بالملكة فردون في طريق العودة إلى القصر.. والتمعت السيوف من بعيد ففرح الملك كرب، واجتاح السبئين زهو عجيب واغترباط غامر، وبعد برهات أقبلت الملكة فردون فوق حصان جامع والقناع الضارب على وجهها يكسبها شراسة جميلة، ويجعل عينيها ذوات الرموش المسهبة الطول تشعان جنوناً أنثوياً قاتلاً..

وحياها الملك فالأقيال فالأهالي، ثم انسربوا في موكبها عائدين



حيثاً وشنار يقول في سره متمنياً: ليتها ترنو إليّ.. ستلتفت الآن.. ستنفرد بعد برهة.. لكنها ظلت ملازمة لأبيها الملك ضاربة بأمانيه عرض حيطان أزقة مدينة جنات.. مروا قريباً من المعبد ولما رأته فردون تذكرت أن رام أسدى إليها في ذي ريدان أن تقوم بتعليق الوثيقة على حائط المعبد قبل أن تقع بيد الملك كرب..

لحظتئذ ناشدت أبيها الملك أن يسمح لها بالعروج إلى المعبد لكي تلقي السلام والتحايا على الآلهة، فأذن لها وعلى ملاحه أمارات البشر وهالات الانشراح، وأضمر لها الإعجاب والرضا، فأسرعت فردون إلى جوف المعبد وأخرجت الوثيقة من تحت رداءها، ونشرتها ثم ألصقتها على حجر الآلهة، وآبت في لمح البصر إلى القصر. وقال شنار في سره مستغرباً:

"يا للمقة، لم أر فردون نافرة مني كما هو حالها اليوم". لكنه عزا ذلك إلى خفر الفتيات لاسيما ذوات وثيقة الزواج..

واتخذت فردون مكانها في المجلس وقال الملك بسعادة بالغة:  
- لقد أخبرني شنار بكل شيء، لذا سأبني لكما قصرًا لا نظير له في الدنيا..

حينها رمقت شنار بنظرة مؤلمة فغمزها بعينه راجياً صمتها، لكنها قالت للملك بانزعاج:

- بِمَ أخبرك يا جلالة الملك؟

- لم الانزعاج؟ النصر هو الأهم ولو بلغ عدد قتلائنا المئات..

خاطبها الملك مهوناً عليها، فردت بهدوء مخيف:

- القتلى في معركة القلعة عشرة آلاف فارس، النصف من

جيش أرض جنات..

-ماذا؟ عشرة آلاف؟ لم يبلغ القتلى ربع هذا العدد في حرب الأحقاف..

ثم في التفاتة مفاجئة إلى قائد حراسه دوغار أردف بصوت خارق:

- خذ ألفين من الجند وامض إلى صرواح وأتني بالقائد رباد مثقلاً بالقيود، وإن عصي عُذِّ إليَّ برأسه..  
تقهقر دوغار إلى الوراء في انحناء كاملة، محاذراً أن يولي الملك دبره ثم فارق توأ المجلس.. على حين جارت فردون قائلة لأبيها بدهشة:

-ماذا فعل رباد يا أبي حتى يأتوا به مكبلاً بالأغلال؟

- أليس من تسبب في مقتل جنودنا، ومن أبرم المهادنة دون إذني؟

- من الذي أنباك هكذا يا أبي؟

- شنار...

- لا تدفعي عنه يا جلالة الملكة، فهو يستحق الذبح..

قال شنار عبارته مقاطعاً، ورائياً إلى فردون في عشم ورجاء بعد أن صرَّح الملك باسمه، لكنها استقامت بتوتر وخطت خطوات حثيثة حتى توسطت المجلس، والكل يرمقها بتوجس وانتباه.

وبعدها استدارت بخفة وأشارت بإصبع واحدة إلى شنار، وأخذت تطعن في دعواه ببلاغة ولباقة عاليتين.. وكمحامية للدفاع عن القائد رباد استطاعت أن تزيل الزيف الذي لصق في ذهن الملك والأقيال، ومضت تحكي من بدء الحرب إلى ختامها.. فاتضح الحقيقة وضاحة كضوء النهار، وصارت

النظرات الحارقة تسحق جسد شنار سحقاً وتوشك أن  
تبتلعه.. في تلك البرهة تمنى لو عاد إلى رحم أمه ثانية، أو تهوي  
فوقه السماء لتساويه بالعدم، أو تمضغه الأرض، وتذكر ثم تذكر  
ما سلف من زمانه، يوم أنكره القيل دارم ونفى أنه من صلبه،  
ويوم صفع أمه. وهو يسألها عن جنسية أبيه.. فأجابت باكية:  
مادمت مخروم الأذنين. فلم تخاطبني عنه؟.. طوق عنقها بيديه  
وضغط بقوة. لكنها تخلصت منه حين رفعت ألساناً متعثرة مجهدة  
تعلن فيها استسلامها لإرادته، ثم قالت له بانهايار:

كان أبوك لا يحسن الجماع وفوق هذا كان عقيماً شاذاً، وطالما  
أوسعني ضرباً متهماً إياي بالعقم، فسلمت نفسي مرغمة لعبد  
أسمر اللون يدعى بدبد كان يعمل كناساً في زريبة مواشي الملك  
القريبة من قصرنا.

ما إن أتمت اعترافها حتى كسر عنقها ورماها جثة ميتة عمق  
بئر قديم قرب القصر، وتذكر حين سار محتدماً إلى الزريبة وسأل  
عن بدبد، فوجده جاثماً على الأرض كالبعغل الضخم المفاصل  
والأوراك، ورأى أرنبتى أذنيه الصغيرتين ملتصقتين تماماً برأسه،  
وليس لهما مساحة تذكر فقال لذاته بغيظ: ما أخبثه من أب.. لقد  
تعب السادن كثيراً، وهو يبحث عن مكان يخرم فيه أذني، فاضطر  
أن يخرمهما من أعلى.. عند ذلك استدرجه إلى رواق خالٍ قرب  
الزريبة، وطعنه طعنة قاتلة.. ومضى..

وهكذا آمن شنار أنه ضحية ذنوبه، فقد أمهلته المقة ليسفك  
دماء الأبرياء ويبحر فوق لججها حتى أضحي قياً مهاباً في بلاط  
الملك، أما الآن فقد حان لها أن تقيم عليه حكمها العادل فقال  
هامساً بالتياغ: ما إن تتم اللعينة حديثها حتى أصبح نزيل

السجن، هذا إن لم ير الملك بُدّاً من قتلي، وقد كنت على وشك  
الارتقاء في أحضانها والعبث بجسدها اللدن، الناعم.. عندها  
أضمر سوءاً، وتآكل صميمه حقداً على رام. وهو يرى الملكة  
فردون تستميت دفاعاً عنه.. وخطرت في رأسه الوشاية التي  
تقض مضاجع ملوك سباً وتجعلهم لا يبالون في الفتك بالموشى  
به إن صدقت الوشاية.. هي الدائرة المقدسة بلا شك، علامتهم  
العظيمة والخالدة، وما زال حديث الملكة فردون في أوج ثورانه،  
وهو غائب العقل، لا يسمع لها بأذن، ولا يراها بعين، ولا يدرك  
وجودها بحس، كان يمهد فقط لتلك الصاعقة الجبارة وقتاً  
متاحاً ومكاناً غنياً حساساً يمكن أن تلحق به أضراراً هائلة متى  
اجتازت فكيه وانفجرت وسط المجلس.. بعد برهات آبت  
فردون محامية الدفاع إلى كرسيها، وقد أدت أدلتها وأدلت  
بأقوالها في ذات الوقت كشاهدة، واستفسر الملك كرب من القادة  
الذين آبوا معها من ذي ريدان، فلم يزيدوا عن حديثها شيئاً...  
تفرس الملك كرب إلى وجه شنار، وضحك بغضب وقال له:

- ما ردك على كلام فردون؟

- إنها معجبة يا سيدي بالقائد رباد !! لذا فهي تجامله..

قالها شنار مطرقاً إلى الأرض، فرد عليه الملك بحدة:

- إلى ما ترمي بقولك؟

شحب وجه شنار وتصيب العرق من صفحة جبينه وأجاب:

- لقد صرخ القائد رباد بأعلى صوته زاعماً أنه من ذوي السدائرة

المقدسة وابن أعظم ملوك سباً.. ومن ثم صارت الملكة فردون

ترافقه كظله، ولا تكاد تفارقه لحظة، وتركني وحيداً والجيش..

- يكذب كعادته يا جلالة الملك، وما من صلة تربطني بالقائد

رباد سوى الحرب.. قالت فردون عبارتها بترفرز و حرج.. والملك  
كرب لازال دائخاً من هول ما سمعه من شنار.. ثم نظر إلى  
فردون مرتاباً، ثم نقل بصره إلى شنار بريب أكبر.. وقال متنمراً:  
- ما من أحد في عائلتنا فقدناه صغيراً كان أو كبيراً و...

بتر عبارته فجأة، فمنذ سنوات عدة دلف عليه التاجر فالوس  
الروماني، ووهبه هديته المعتادة عشرات العبيد بصفتها أتاة  
لتجارته في سبأ كما يزعم دائماً.. ثم اقتعد قرب الملك، وشرعت  
ثرثرة الأقيال تنشر ظلالتها على الأبهة وطرائف الملوك، وعلاماتهم  
المأثورة.

فقال فالوس يخاطبه باهتمام شديد:

- بينما كنت أستسقي في مسبح قناة صرواح إذا بي أسمع نقرأ  
من الصبية يزعمون أن الدائرة المقدسة على كتف أحدهم، وهو  
فتى صرواحي نحيل يظهر عليه أثر النعمة ورغد العيش ويبدو  
فيهم كالسيد المطاع يأمر، ويزجر، وكأنه ريبب عرش..  
فرد عليه غير أبه باهتمامه وجديته:

- هل رأيت الدائرة المقدسة بأمر عينيك يا فالوس؟  
- كلا يا جلالة الملك.. ولكنني ظننت الفتى أحد أبناء  
أشقائك..

- لا.. لا يا فالوس.. السبئيون الصغار يثرثرون ويمنون  
أنفسهم بها فحسب..

قالها الملك كرب باسم، ولم يزد على ذلك شيئاً فلزم الصمت  
يومها.. انبترت خواطر الملك كرب وعاد إليه وعيه الضائع فقال  
لنفسه بذهول:

"يا للمقة!! ما هذا الإنفاق العجيب!! حكاية الصبية في

مسيح قناة صرواح، والقائد رباد الصرواحي، أيكون رباد هو ذلك الفتى الذي زعم فالوس أنه يحمل الدائرة المقدسة ورآه في مسيح القناة؟" في تلك الأثناء انتبه الملك كرب إلى الوثيقة، وقد كاد يسهو عنها لفرط الجدل الصاحب حوله، فحجج فردون بالتفاته سريعة وقال:

-هاه... وثيقة المهادنة... أين وثيقة المهادنة؟

-نعم، وثيقة المهادنة يا جلالة الملك، لقد تركتها بالمعبد عندما مررت لألقي السلام على الآلهة.

كانت فردون مضطربة، ولكن الملك كرب انبرى قائلاً بتأنيب:

-هذا خطأ فادح.. ومن أين لي أن أعرف ما ورد فيها، ولعل بنودها تخدم أعدائنا المعينين، أكثر مما تخدمنا.

-لا يا جلالة الملك إننا أبرمناها حسب هواننا، وكان القائد رباد هو صاحب الكلمة النافذة عند إملاء البنود، وأما معن ابن الملك قضاع فكان لا يحرك ساكناً.

هدأ روع الملك كرب، وسردت له فردون البنود، فقال بثبات:  
-إنها لا تخدم أحداً، ولا تجحف أحداً، وقد تكون ذات جدوى فيما بعد.. وكنت مزماً على نكثها، ولكنها الآن تحت ذمام المعبد وحماية المقة..

ثم أطبق جفنيه، وتزحزح عن كرسيه مسترخياً، وغرق في التفكير، بعد برهة حرر جفنيه من بعضهما، ورمى صولجانه إلى قيعة لمجلس، وحملق في وجوه الأقبال، وأمر باعتقال شنار والقادة في سجن القلعة.

وقبيل الغروب ذهبت فردون إلى المعبد، جلست في ضجر

تتفكر مستندة إلى عمود حجري. انتفض الهدهد السبئي في أعماقها، ثم طار إلى قمة أحد أعمدة المعبد الستة، وراح يحصي أحجاره ويرنو بقلق إلى الغروب المائل للسواد. لاح الشفق من بعيد متمازج الألوان، يمنح المعبد والمُسلم ظهره للأعمدة المكشوفة إيحاءً خافتاً يشجع على النحيب. ومن وراء العمود السادس رمقت فردون الشفق المتأرجح بين ألوانه الباهتة كالطيف الراحل.. مدت بصرها طويلاً إلى الأفق المتواري خلفه، فعادت عيناها مغطاتين بغشاوة كثيفة مما تحمله الفضاءات البعيدة للمؤرقين.. ترامى إلى مسمعها ديبب أفكار مجهضة في القرب، وصوت متناهي الرقة يتهجي لغة مركبة من حرفين، ينطقها طفل يتزمل في خواء الصدر، وتنفرط دموعه الحمراء إلى أوعية في جسد مشلول.. هاهي ربة هذا الجسد تضغط مجرى اللغة المكبوتة في صدرها الضيق، وتزم شفيتها هامسة: "أيها القادم صوب آخر أيامه، تمهل فالنهاية تنتظرك على حافة سيف وحشي، أنت أيها الرجل المشوق قوامه، هلا تريت حتى يصلك عبدي سناك، ثم تفر إلى ملاذ آمن. كم هي الحياة غريبة رتيبة من دونك وكم سيتعمر ألمي إذا مت ورأيتك شيئاً من العدم بعد أن كنت طافحاً بالحياة والشباب.. لقد استمت ذوداً عنك. لكن الملك زجرني كما يزجر العدو عدوه. يا غريب الأطوار !! أنت.. كيف لك أن تحمل الدائرة المقدسة؟ ولا شك أن الملك ناقم عليك من أجلها ولا شأن للمهادنة في غضبه.. لكنك الجاني على نفسه عندما ادعيت امتلاكك للعلامة التي تخصنا.. لذا أنا غاضبة منك أيضاً، ومحزونة عليك كذلك، خذ قلبي أو جسدي أو خزائن سبأ أو ما شئت ولكن لا تقرب

من دائرتنا الأثيرة. لأنها هبة من الآلهة، وليست خليقة بالمساومة  
أو التعريض، كأني أرى الآلهة وهي تتهاج، وتأهب للنيل منك،  
ولكنى سأدعو لك وأظل ليلتي هذه أصلي في المعبد من  
أجلك.. فلترحل إلى مكان مجهول، ومُتَّ فوق بساط بعيد، وهذا  
أهون عليّ من أن تموت قتيلاً على بساطي، ولا أقدر أن أحملك  
من السياف البشع و..".

لم تتم فردون ما يجيش في باطنها من نجوى أليمة صامته، إذ  
سالت عبرتها وقاطعتها الدموع بنراتها الساخنة وانتابها نشيج  
خائق.. طار الهدهد من قمة العمود المستند عليه ظهرها، ودبَّ  
صوته مذعوراً وعلى لسان حال الغيب قال: لقد خرج الأمر عن  
يدك وهامو الشفق يتوارى ساحباً معه الضياء، وها قد آن أو ان  
العودة..

في ذلك الوقت آبت إلى مقصورتها، في حين شرع الظلام  
يركض في أصقاع أرض جنات بعنف.. ويتلمس من سواده أرقاً  
للمسهدين..

ثم لم تلبث أن عادت إلى المعبد لتصلي، وتقضى ليلتها هناك،  
وراحت تدعو المقة أن يصل عبدها سماك ومعه رسالتها، قبل أن  
يصل دوغار وجنوده إلى صرواح وظلت تدعو حتى شحب  
صوتها وأشرق وجه الصباح، فعادت إلى مقصورتها بالقصر  
منهكة القوى..



أفاق رام من نومه وارتدى ثيابه ثم اتجه صوب مجلس القليل  
كوهار.. أخذ يموج فوق حصانه كما يموج الطفل على مرجيحة  
سريعة.. وعند باب قصر صرواح فوجئ بجنود كثيرة ينقضون  
عليه ويطوقونه تماماً.. وظهر القليل كوهار تحيط به حراسه  
وبعض الأقبال المبكرين في المجيء.. اقترب منه والجنود قد  
شرعت تكلبشه بالقيود. وقال له بانكسار:

- لا تظن بي سوءاً، أقسم بالمقة أن الحزن يغمرنى من رأسي  
حتى أخص قديمي، وأجهل ما يجري..

رد عليه رام متسائلاً، وعلى وجهه هالة من الغرابة:

- من هؤلاء القوم يا قليل كوهار؟ ومن أمرهم بالقبض عليّ؟  
أطرق القليل كوهار إلى الأرض ولم يجب، وبدت لحيته الوقورة  
مبللة بما تسحّه عيناه من دمع، فهو يعرف السيف غردق  
بصورته المريعة وسيفه العتيق، وانتاب الأقبال إحساس وارف  
بالحزن والتشاؤم، بعد ذلك أعلوه فوق جمل قصير مشوه،  
وأوثقوه بالخبال، وساروا بين الأزقة، وهم في طريقهم للخروج  
من بوابة المدينة، فتعقبت أهالي صرواح، وعيونهم تقطر دموعاً  
وأفئدتهم تكاد تنفطر.. أراد دوغار أن يزجرهم عن اقتفاء أثره،  
لكنهم سلوا السيوف للذود عن أنفسهم فتركهم يتعقبونه  
مرغماً، وانهالت الزغاريد صادحة من شرفات الدور في صرواح،

وصارت الفتيات يرمين عليه القبل من النوافذ ويقذفنه بالطيب  
 السائل والورد على امتداد طريق سير الركب في الأزقة، حتى  
 صار ذلك البعير القرفان كيخت انغمس في بحيرة من  
 المسك. التفت رام إلى وراءه، فأجاش شجنه مرأى أهالي المدينة  
 وهم جامدون يلوحون بأيديهم ويهتزون بجانب البوابة كأعلامه  
 الحمر المبتكرة، وما جمدهم غير الأسى، وما هزهم سوى  
 الخوف، وكما كانوا ينفرون معك عند الحرب، ها هم يخرجون  
 لمواساتك على مصابك.. هي هكذا صرواح يا صاح حارة ممطرة  
 في الصيف، جافة قارسة في الشتاء، تشور إن ثارت وتحمد إن  
 خمدت، ولكن الخطب هذه المرة أكبر من حجم المدينة بكثير،  
 فهم يدينون بالولاء لأرض جنات، وللدائرة المقدسة التي  
 باركتها المقة، ولو أنهم أدركوا أن واحدة من هذي الدوائر  
 المقدسة تتهادى كالحجلى على كتفك الأيسر لتوثبوا وذادوا عنك  
 بكل طاقتهم، ولكنهم لا يعلمون!! في تلك الألفاظ المتوترة  
 نعب الهدهد السبئي الكامن في جوفه ورثى بها حاله، مرّ الجمل  
 الحامل لرام بأجنحة القطا البرية رغم هزاله في طريق "المسانة"  
 الصحراوي، وهو يتوسط الجنود كقارب تتقاذفه الأمواج وتسير  
 به صوب الشاطئ، وتراءى العبد سماك للألقي من الجند كالوشن  
 المتحرك السريع، والحصان يجري به باطراد، ولما دنا عرفه قائد  
 الحراس دوغار وفغرفاه بذهول، وقال في سره: هذا عبد الملكة  
 فردون راكباً على متن حصانها، ترى أين تكون وجهته؟  
 وخطر في رأس دوغار أن العبد قد فر من الخدمة في القصر  
 فاستوقفه، وصاح عليه بتهكم:

- إلى أين أنت ذاهب؟ ومن أي إصطبل نشلت الحصان؟

-أنا قاصد صرواح برسالة، وهذا هو حصان سيدتي فردون..

-أرني الرسالة إن كنت صادقاً في القول !!

-ولكن جلالتها أمرتني ألا أسمح لأحد أن يطلع عليها..

قال العبد سماك عبارته وأطرافه ترتعد، فهجم عليه دوغار وألقاه على الأرض، وأخذ يفتشه ويوغل يده في خبنة ثيابه، فألقى الرقعة ونزعها ومضى يبحث بين الجند عن قارئ، ولكنه لم يعثر على بغيته.. وهتف رام قائلاً بصوت شاحب:

-أنا أقرأ يا مقدم الجند !!

عندها هرع إليه دوغار ممتطياً حصانه، حتى حاذاه، ثم نشر الرقعة أمام عينيه ووقف جامداً، فتصفح رام الرقعة بإمعان شديد، وقد سكنه الريب، وأدرك من حديث العبد سماك أنها- أي الرسالة- موجهة إليه من فردون، وقرأ: "اهرب من صرواح بأقصى سرعة، اختبئ في مكان آمن. رسل الموت متجهة صوب صرواح للقبض عليك، لا يسعني أن أحكي لك السبب، لقد أوغر عليك شنار صدر الملك ولكنني فندت أقواله، ابتعد ولا تنس أن تهديني إلى مكانك. لا تبتس، فهناك من يجبك وينتظر عودتك في الوقت المناسب".

تغيرت ملامح وجهه، وغاب في دوامة من الحزن حتى ارتاب دوغار، ولكنه هز رأسه، وقال:

-هذه من الملكة فردون إلى القبيلة نورهام ابنه القيل كوهار.

-ما أراها إلا مرسله إليك، فقد كانت تشفع لك لدى الملك

حتى نهرها.

لم يجهد رام نفسه في الإنكار والنفي، لأن دوغار بدا على يقين تام، ولم يلبث أن دس الرقعة بين ثيابه وهو يضحك بشهامة ثم

ابتعد عنه، فقال رام هامساً بجزع: "وهذا يؤس آخر، يا للمقمة! بأي ذنب أساق مكلبشاً بالحديد. وأظن أن الملك كسب غير راض عن وثيقة المهادنة بين سبأ ومعين، ولكنها كالت لسبأ فوائداً لم تكلها لمعين، وإن كانت هذه الفوائد غير مرئية. ويكفي سبأ زهواً أن اسمها يسبق اسم معين في الوثيقة، وكان الأحرى أن تكون معين هي المحظية بهذا الشرف لأنها صارت الأقوى والأوسع نفوذاً". وهكذا استمر السير حتى برزت للعيان مشارف مدينة جنات، وقد انسلخ اليوم الثالث من زمن العودة. فأحس رام بخيفة ورهبة شديتين..

\* \* \*

كاد قلب الملكة فردون أن يهوي إلى أرضية صدرها، وذلك عندما ظهر رام من باب المجلس، وهو مغلول الكفين والجنود قابضون على رداثه بطريقة مشينة تبعث على الرثاء، وتمثل لها وهو يقود الجيوش شتماً رافعاً رأسه.. يصول ويجول عند الحرب ويزوغ في خفة ومهارة، فتراه يضرب بالسيف، ويرمي السهام ولا يخطئ، ويومئ لهذا القائد وذاك، ويتراءى حيناً في الميمنة، وفي حين آخر يظهر في الميسرة، ثم الوسط والخلف.. وعيناه تتبعان أماكن الوهن في جيشه، ولدى الأعداء، فيعمل ما ينبغي عمله لا يزل ولا يغفل عن الثغرات المفتوحة والفرص السانحة، يدير المعركة بحكمة وتبصّر، ويمسك على خناقها بقوة، فتبدو مثل مطية مطيعة أو كسلسلة آخرها في يده، فإن شاء أرخاها وإن شاء شدّها..

هذا هو رام بن شام، أو رباد الصرواحي حسبما يطلقون عليه، وما تعارف لديهم. هاهو أضحى كسيراً ذليلاً منزوع السلاح

كالعبد الأبق، والأعين تتأمله بازدراء وتقزز، وكأنه مرق عن التشريع. حارت الملكة فردون وحاز الأسى والألم على حيز ضخم من مشاعرها المترققة.. فأضحت على كرسيتها أشد انكساراً منه، ولولا الحياء والملام وخشية الملك لسعت إليه وارتمت في أحضانه مولولة، ولكن ما بوسعها أن تفعل! فما كان عليها أن تفعله من أجله قد فعلته وهو رسالة تحذره فيها وتذره بعدم البقاء في صرواح.

أظهرت فردون الصبر، ووقفت موقف المتفرج الحائر.. في تلك الأثناء دنا قائد الحراس دوغار من الملك. وأحسنى رأسه بإخلاص، ثم مدَّ له برقعة منسوخة، فتناولها الملك كرب، ورنأ إليه بعجب، فهمس دوغار بضع كلمات في خفوت، ومضى.. تأمل الملك كرب الرقعة الجلدية هنيهة، وبدأ العيوس جلياً في وجهه، والتفت بعدها إلى ابنته فردون وأزمع أن يوبخها، بيد أنه وجدها مصفرة شاحبة اللون تنتفض كالمحمومة، فلم يهن عليه أن يضاعف ما ألم بها، وغمرته الشفقة، فحوّل بصره عنها وحدج رام بنظرة ثابتة قبل أن يقول له بصوت عارم:

- هل بلغت بك الجرأة أن تصالح أعدائي وأكون أنا آخر من يعلم؟

- لو لم أفعل ذلك لأهلكنا المعينون عن بكرة أبينا، فبعد فاجعة القلعة الدامية فقد الجنود حماسهم، ووهنت عزائمهم.

قال رام عبارته بثبات، فعاد الملك إلى لهجته الغاضبة:

- كنت سترسل إليّ كي أمدك بمن تبقى من رجال سبأ!!

- كان الوقت أضيق من أن أفعل ذلك، وكانت الوثيقة هي خيط النجاة الوحيد لنا، ومع هذا طغينا عليهم فيها، وجئنا

بأغلب بنودها.  
تفكر الملك كرب قليلاً، وانتشى في الباطن، ولكنه قال بصوت  
أشد غضباً من سابقه:

- ولكنك زعمت أنك من ذوي الدائرة المقدسة.

أمال رام رأسه نحو زاوية خالية، وطفق يراود نفسه على  
التحلي بالجرأة للكشف عن دائرته المقدسة، ولكن أين الوثيقة  
المقدسة؟ وأدرك حينها أن احتمال نجاته أكبر، مما لو عرف الملك  
كرب بأمرها، وتمتم الأخير:

- أقسمت على أن أقتلك بسبب ما اقترفت، وهب أنك قتلت  
بسيف فارس معيني، وليس بسيف غردق.

اهتز جسد فردون بشدة، كأنها قوة خيالية رعشتها بلا هوادة،  
ونظر رام إليها بضراعة، لعلها تفعل شيئاً يحول دون موته، فوجد  
عينها مغرورقتين بالدموع، وتوشك أن تنهمر تلكم الدموع  
وتفضحها أمام الملك والأقيال.. واشتم رائحة الموت من سيف  
السياف الأسود المشمر ساعديه عند مصطبة خشبية تجز عليها  
الرؤوس، ملونة بالاحمرار، وعابقة بنفحات الدماء... والتقت  
عيناه بعيني العبد، فلمح فيهما نذيراً خبيثاً، لكنه رد بصره إلى  
وجه الملك حين قال موجهاً إليه الحديث:

- اختر حكمي أو حكم الأقيال والجنود..

- الأقيال والجنود يا سيدي، لأن البعض شاهد على كفاحي من

أجل مملكة سبأ...

قالها رام دون أدنى تردد.. فالتفت الملك كرب إلى الأقيال

والجنود وقال بحزم:

- احكموا له أو عليه يا معشر سبأ، فقد وهبت لكم دمه..

عند ذلك أحنوا رؤوسهم في إذعان، ونظموا أحكاماً قاسية،  
ولاسيما أصحاب شنار من الأقبال الخونة الذين لا يجيدون عن  
رأيه.

-مائة جلدة وبتر لسانه وأنفه وأذنيه..

-ألف جلدة وبتر يده اليمنى ورجله اليسرى..

-مائتي جلدة وبتر رجله من منبتها..

-أ.....و.....

-اقتله يا أبي ولا تُثْمَلْ بجسده حياً...

قالت فردون حكمها بصوت صاخب، وكان هو آخر  
الأحكام الكثيرة التي أبرمت ضده وأحبها لديه، فانبجست  
دموعه في قهر ومرارة، وقال للملك:

-اقتلني يا سيدي، هذا هو حكمي أيضاً، أتوسل إليك أن

تفعل..

-أتبكي يا قائد الجيوش خوفاً من الموت؟

-كلا يا سيدي، فالحياة في ظلكم هي الموت، وهاكم جسدي

تروه مُثَقَّباً كالغريال، وقد صنعت ألسنتكم في نفسي المألم تصنعه

الرماح والسيوف والأسهم على جسدي..

-اقطع عنقه يا أسود اللون، وأرحنا من تبرمه وثرثرته..

قال الملك كرب عبارته باهتياج، فقاده الجند إلى المصطبة

الخشبية واقرب السياف، وأراد أن يسند رأسه على خشبة بارزة

ذات رائحة كريهة توضع عليها الرؤوس راحة، ولكن رام

أغمض عينيه وأبى الركوع، وبقي جامداً كالجذع الميت، وصرخ

في وجهه:

-اقتلني واقفاً يا هذا، وواروا جسدي قرب الملك شام...

-من أنت يا حثال السبئيين حتى تتخير ميتك، وتود أن تحشر  
جثتك اللعينة في مقبرة الملوك..

وسل العبد سيفه وأخذ يشحذه على حديد المصطبة، فسيا  
غطت فردون وجهها بقطيفة خز مدارية دموعها المنهمرة، ثم  
ولت خارج المجلس وهي تنشج بحرارة.. اقترب العبد وأخذ  
يدعو أذعيتة المألوفة التي يجأر بها قبل أن يهوي بسيفه على  
الرقاب، وزعق الهدهد السبئي في المجلس، ونقر بمنقاره قلب  
الملك كرب الصلند، وجعله يمد على كرسيه بعنف، ويخضل  
صدره ويخفق بلا انقطاع، كان في تلك البرهات يتذكر أخاه  
الملك شام، وما حدث له تحت القلعة، وصورة رأسه المفلوق،  
والحجر الثقيل الملقى بجواره، وزوجته تنرا المغشية والعييد،  
ومشاهد كثيرة جاءت من الماضي وضغطت على روحه فجأة  
بقوة خفية..

شيء ما انبطح في قيعة نفسه.. ضيق، أرق، قشعريرة التهمت  
بدنه، جو خائق يحوط به، حزن جنائزي، حرارة تنبعث من  
الجحيم، عرق دافق يطمره كلياً، وأشياء أخرى محسوسة غريبة،  
وها هو أسود اللون يهوي بسيفه في الهواء، وهذه الضربة كما هو  
معروف لديه تقع على عاتق الشيطان عدو الآلهة، كل هذا وحالة  
الملك تسوء أكثر فأكثر، وهامي حيطان المجلس توشك أن تنهار  
فوق رأسه، لا.. إنها تتزحزح، تتصدع، تنحني، السياف يهيم أن  
يهوي بالسيف على رقبتة، فجأة دفع الملك كرب ذراعيه في الهواء  
بحركة مفاجئة أذهلت الأقبال والجند، وصاح:

- لا تفعل يا غردق.. تقدم يا جلاد وأجلده حتى تكل يداك..  
أوقف العبد السيف في الهواء وتنحى جانباً، فتنفس الملك



الصعداء واعتدل في جلسته مسنداً ظهره إلى السوراء، وطلب الماء، فجلب له العبيد كوزاً فخارياً، ففتق ريقه بجرعة باردة وأعاد الكوز إلى متناول أيدي العبيد، فانصرفوا، وساد هدوء مريب كهدهوء المأتم برهة من الوقت، وفتح رام عينيه، وجعل يتلفت حوله، والسياف قابع بانكسار على المصطبة كالقط المترث للعظمة، أثناءها أقبل ناحيته رجل غليظ الساعدين، مفلطح الجبهة، متنفخ الكرش، وجذبه بقسوة وأراد أن يطحبه أرضاً، فحاول الرجل مرة ومرتين وثلاث، لكن رام التحيل ظل واقفاً لا يتزحزح.. ولما أعياء جعل يضربه -وهو قائم- بسوط مفتول ومظفور ببعضه عدة مرات.. وترنح الهدهد الكامن في جوفه متألماً، وقال بلسانه حاله متأوهاً: آه.. آه.. آه..، اقتلونني يا معشر سبأ، هذا هو حكمي..

وخبا صوته بعد برهة وجيزة. وصار جسده يتقوس، وهو يحاول جاهداً الاحتفاظ بتوازنه وثباته.. تمزقت ثيابه وانكشف متنه، وقد علتة طبقة من الدماء، ونقل الجلاد السوط إلى كتفه، ولازال يهوي به إلى أن تمزق قماش الكتف أيضاً، وبرزت الخطوط الحمراء الدامية.. وفجأة سقط السوط من كف الجلاد، ودوى صوته دويّاً شديداً، وراح يدور حول محور جسده، ويصبح مولولاً:

-يا ويلى...يا ويلى من عذاب الآلهة، الدائرة المقدسة يا قوم. إنها هناك تلمع مثل وجه (المقة).

في تلك الأثناء هوى جسد رام أرضاً، وخفتت أنفاسه، وأضحى بلا حراك كعجف النخلة الخاوي. خف إليه الملك كرب بفزع، ولحق به الأقيال والجنود، ورأوا الدائرة المقدسة بين

الخطوط الحمراء المتوازية منقوشة مدورة كأصغر دينار ذهبي تتداوله مملكة سبأ.. فانحنى الأقيال في تهيب ورهبة، وانتابهم العجب والذهول، حيث أن الدائرة المقدسة هي البقعة الوحيدة في كتفه التي لم تقع عليها السياط، فقد استقلت داخل مستطيل صغير بين الخطوط الحمراء، فأطلق الملك كرب آهة أسيانة وقال لنفسه بريبة:

"إذا صدق ظني، فهذا الشاب هو الصرواحي الذي زعم صبية المسيح أنه يحمل الدائرة المقدسة.

احترار الملك وتاه عقله، وبعدها صاح في ضيق:

- ائتوني بالسادن شيزار، وفردون..

تسارع الحراس صاعدين بأمر الملك، بينما ساحت دموع الجند والأقيال بعد أن أفاقوا من الصدمة، وشعروا أن المقة ستوردهم الهلاك..

جاءت فردون ملبية دعوة أبيها وملاحمها تعكس حزناً كبيراً، وما إن رأت رام مسجى ببردة سوداء حتى صعقت وخرت إلى الأرض، فانكب الملك على رأسها، وجعل يواسيها ويستحثها أن تفيق حتى أفاقت، وصارت تقول بأسوة وقهر:

- لم تقتله يا أبي وهو أجسر قائد عرفته سبأ؟

- لم أقتله يا ابنتي، ولا أدري ما هو الذي جعل بدني يقشعر ويسخن وقلبي يوجف بحدة حالماً. دنا منه السيف، فأمرت الجلاد بجلده بالسوط..

قال الملك عبارته الأخيرة، ثم نزع البردة عن جسد رام، وأراها كتفه وأمرها أن تُشمّر جلبابها عن ساعدها، ففعلت وفمها مفعور من الدهشة، وراح الملك يدقق النظر إلى دائرتها، وإلى

دائرة رام، ولم يلبث أن قال في يقين:

\_واحدة صغيرة، وأخرى أكبر قليلاً، لكأنا حُفرتا بمسما  
واحد...

-ماذا يعني هذا يا أبى؟

هزّ الملك كرب كتفيه في أناةٍ وصمت، وحرّك شاربه متعجباً،  
ولكن قبساً مشتتلاً من الحيرة طغى على زرقة عينيه، ومن أول  
وهلة يبدو للمتطلع إليه أن ثمة سرّاً يخفيه في صدره.. بعدها جاء  
السادن شيزار يمشي ببطء، إذ أصبح شيخاً في التسعين من  
عمره، إلا أن بصره لازال حديداً، وما يعيه شيء سوى صمم  
طفيف انتاب أذنيه منذ أن دق شنار الطبل لقتال المعينين، وكان  
يومها عابراً في طريقه إلى المعبد.. ولا يفرقه عن مخدع الطبل غير  
عشرات الأمتار..

ودوى صوت الطبل على حين غرة، فشعر بدوار في رأسه  
واعتصار حاد في أذنيه.. واكتشف بعد أن خاطبه خادمه أنه  
أضحى أصماً.. وظن أن الآلهة قد نالت منه بسبب تأخره في منزله  
عن ميقات المعبد المحدد.. ولامه يومها الملك:

- لم تحش أذنيك بالعطب الخام عندما نادى المنادي؟

- هذه إرادة المقة، وقد كنت أستحم وقت النداء..

قال عبارته بإيمان خالص.. وكفّ عن التنكيل بعبيد المخدع  
وشنار بأدعيته القاصمة.. وذلك رحمة بهم من عقاب الآلهة.

هاهو السادن شيزار رغم شيخوخته بخطوبلا تعثر أو لهات،  
ويقف فوق جسد رام مستفسراً عما أصابه، وما إن لمح الدائرة  
المقدسة على كتفه حتى قال بتسرع:

- وعزة المقة أن هذه الدائرة من عمل يدي..

-انقش الدائرة بمسبارك المقدس، فإذا دار سِنَّه الحاد بإحكام  
فهي حقيقية، وإن لم ينطبق عليها فهي مزيفة..  
قالها الملك كرب بصوت مخيف.. فأخرج السادن من جرابه  
المسبار الذهبي والدائرة الذهبية، وقام بالصاق الأخيرة على  
الدائرة المحفورة وأدار السن عليها، فدار دوراناً محكماً وسألت  
فردون:

-ماذا يجري في القصر يا أبي؟

نهرها الملك بإشارة من يده، وقال يخاطب السادن شيزار  
بصوت مرتفع:

-من هذا الشاب يا خادم الآلهة؟

-إنه فاقد الوعي يا ملك، ولكن ما اسمه؟

-كان قائد جيش صرواح، واسمه رباد !!

-رباد؟

نطقها السادن شيزار الإسم منزعجاً، وأضمر قائلاً لنفسه وهو  
مطرق إلى الأرض:

"يا للمقة.. هذا رام بن شام، وقد جاء في رسالة خوف أن

اسمه رباد" ..

أعاد الملك كرب سؤاله على السادن مرة ومرتين وثلاث،  
ولكنه كان يزوغ عن الرد الشافي، فصاح الملك بشورة عارمة:

-أتجاهلني يا أشر السدنة، ولا تجيب عليّ؟

-بادر إلى التوبة يا ملك كرب، فإن المقة غاضبة.

قال السادن هذه العبارة بحزن بالغ.. ووقعت ركبته إلى

الأرض.. وكبَّ رأسه وصار يرتعد، ثم شخص بصره إلى

الجدار المستند عليه كرسي الملك، وشفته تتذبذبان بأدعية

الآلهة.. غير أن هذا لم يغيّر شيئاً في صلف الملك ولهفته اللاذعة،  
وملاحه المتغضنة..

في تلك الأثناء دخل لاهناً أحد خدم زريبة الملك، وهو يولول  
، وثيابه مبتلة والطين يخضب ساقيه، ولما توسط المجلس عاجله  
الملك كرب قائلاً بفرع:  
-ماذا حل بك؟

-احترقت الزريبة يا سيدي بما فيها من مواشي، ولا نعلم من  
يكون الجاني..

رد الخادم بتلعثم، حينها هرول الملك وعيناه تسيحان الدموع  
الغزار، وانكب على رأس السادن شيزار، وجعل يقبله ويقول:  
-اصفح عني يا روح المعبد، وادع المقة أن تغفر لي..  
-اقطع لي عهداً بأنك لن تمسه بسوء، وأقرّر أمام الملأ من سبأ  
بأنه من ذوي الدائرة المقدسة..

-كيف أجازف بهذا يا روح المعبد، وأنا لا أعلم من يكون هذا  
الشاب!

بدا وجه الملك كرب مصفراً وهو ينطق هذه العبارة، وثمة  
خزون ضخم من التحايل يعتري كلماته الركيكة المتكسرة، فتأوه  
السادن وقال برهبة:

-المقة تشي إليّ بأنك تراوغ، وها هي تلقي عليّ أمرها  
المقدس..

ثم سارع السادن شيزار وخلع نعليه وعمامته، وجلس  
القرفصاء مطأطئ الرأس، واستغرق في الصمت متمسكاً يهز  
رأسه في تسليم وتذلل، فيما القوم خافضين هاماتهم خاملين،  
ومترئين حلول الضياء والبركات العميمة أو الهلاك. وما إن

ألقى السادن شيزار على نفسه همسات منغومة مرتلة حتى أفاق واستوى على الأرض في خشعة، وفي داخله يقين محض بأن ما همس به لذاته هو وحي المقة، فقال للقوم إنها أمرت أن يبحثوا عن العبد قاف، لأنه من قاد الغلام ذا الدائرة المقدسة ليذبحه خارج المدينة، ولكن عنايتها حالت دون ذلك..

بهت الملك كرب، ولم يشك البتة في الأمر المقدس بالبحث عن الخادم قاف.. فأرسل نفراً غير قليل من الجنود لتقتني أثره، عملاً بأمر الآلهة، وبعد برهات وجيزة انفضَّ المجلس وتفرق الأقيال.

\* \* \*

في الصباح غصَّ المجلس بالحضور، وفردون لازالت جاهلة بما يدور في المجلس، أما الأقيال فصاروا يرقبون ما يصير ولا يجرون على الانخراط في الحديث العامر بين الملك والسادن شيراز، ورام على حاله منبطح على الأرض، وقد أزاحه حراس المجلس بعيداً عن المصطبة الخشبية. وألقوا جسده برفق على سجاد زاهٍ في ركن قريب من مكان الملك والأقيال، وكان الملك كرب قد أمر له بحكيم يعتني بجروحه. فصار الحكيم رهد يدهن الخطوط الحمراء بدهن مختلط بعصارة نبات الخروع وذرار ناشف من براعم شجرة (العُثرب). وبالرغم من غيبوته الحادة وقروحه المتقيحة، إلا أنه بعد برهات صار يئن أنيناً متقطعاً دون أن يفتح عينيه أو يحرك أياً من أطرافه.. اكتسى وجه الحكيم رهد بأمارات الانشراح، فهرعت إليه فردون متسائلة فقال: سيفيق ولكن بعد يومين في ظل العناية الدائبة.. ثم ترك الحكيم وعاءً متوسط الحجم مملوءاً بالدهن ومضى. فباتت فردون بجانبه تلك الليلة وجعلت تُمرّضه، وتمسح بالدهن القروح

العالمة على امتداد ظهره وكاهله وكتفيه، وكان الملك كرب يظن أنها نائمة في مقصورتها، ولكن حالما دلفت في الصباح إلى المجلس كانت عيناها محمّرتين وارمتين بفعل السهر والإرهاق، وبدت تتأب وتنداعى على كرسيها ببطء، وتحاول جاهدة أن تمنع زخات النوم المتدهمة كالضباب من إطباق جفنيها الكسولين، فلمحها الملك وعاجلها قائلاً بارتياح:

- أراك تتأبين، وعينيك تنعسان، يا هل ترى أين كنت ليلة البارحة؟

ثم أضاف عاقداً حاجبيه باهتمام وكأنه يتذكر:

- نعم.. أنا حقاً لم أرك في المساء على غير عادتي..

أجابت عليه بتلبك:

- أملت بي وعكة خفيفة، فقصدت الفراش مبكرةً، ولكنني لم

أنم !!

- أشك في غير ذلك، وطالما تغاضيت عن كثير من هفواتك

وطيشك، ويبدو أن الكلب شنار كان على حق...

تممرت فردون، ونفت بانكسار، فعاد الملك إلى تهكمه قائلاً:

- وماذا عن الرسالة التي ألقاها دوغار في طريق صروح

و....؟

حانت من الملك كرب التفاتة فبتر حديثه فجأة.. إذ جاء العبد

قاف في تلك الأثناء تحمله الجند. وكان مصاباً بالمالط، فبدا صدره

العاري أشبه ما يكون بقص خروف منزوع الجلد. وقد أخفى

المالط سواد جسده واحتل فيه طبقة كبيرة حمراء، ولم يعد يحتفظ

ببشرته الأصلية إلا وجهه.. ألفاه جند الملك قرب ساقية ماء

منبثقة من إحدى القنوات على بُعد ميل من قلعة المدينة.. وقد

تخلى عنه رفاقه الحارسين معه القلعة، بعد أن يتسوا من شفائه،  
فنبذوه في اليوم الماضي خوفاً من المألط.. وكاد الجوع والعطش أن  
يقضيا عليه لولا أدركه الجنود بما سد رمقه قبل أن يحملوه إلى  
القصر.. وسأله الملك كرب عن ذلك الطفل الذي أمره أن يذهب  
به إلى مكان ما خارج المدينة، ولم يفصح الملك في سؤاله عن نيته  
المبيتة يومذاك.. رد الخادم قاف بوهن:

- لم أعد أخاف يا سيدي بعد المألط. ولولا ذاك الغلام هلكت  
قرب الساقية..

ولمح رام مستلقياً دون حراك.. ورأى الدائرة المقدسة المرتسمة  
على كتفه، فأعقب منتجباً مشيراً إليها بسبابته:  
- ها هي الدائرة المقدسة وشرف المقعة، وهذا البلاء الذي بي هو  
العقاب..

وسكت هنيهة، ثم عاد إلى القول في صوت متحشرج:  
- ولكنني لم أذبحه يا معشر سبأ.. سلوا روح المعبد عن  
ذلك. وما تلك الأذنين وذاك الأنف إلا لطفل بغي كان في المعبد.  
ثم أخذ يتشدد بكلمات مجردة من المعنى، ويحملك إلى السقف  
وكأنه يناجي شخصاً ما لا أثر له.. وقال جملة مفيدة قبل أن يعود  
إلى هذيانه، مومئاً إلى السادن شيزار بخشوع:  
- قداسة السادن لديه البقية ولا أظن مثله ينكر العلامة المقدسة  
للموك سبأ..

أدرك السادن شيزار لحينه ما يرمي إليه الخادم قاف.. فقال  
بحرج:

- لقد أرسلته صغيراً بأمر الآلهة إلى خاله حوف بن طاهم قبيل  
صرواح..



-لازلت مرتاباً يا روح المعبد، وأصبو إلى برهان دامغ يعزز هذا..

حار السادن شيزار ولم يدر كيف يفعل، ثم عاد إلى المعبد مكتتباً يدعو بالنعمة على الملك كرب، وفي اليوم التالي جاء رسل من صرواح يحملون الوثيقة الخالدة ورسالة السادن شيزار المقدسة. كان القيل كوهار قد أقدم على إنفاذ رسله بتلك الوثيقة والرسالة خشية أن يقوم الملك كرب بقتل رام وهو لا يعلم أنه ابن أخيه الملك شام، ورأى أن الدائرة المقدسة سوف تحميه من الموت... وأخيراً استقام الملك كرب وصاح في انكسار وكآبة:

- أيها الملأ اشهدوا أن هذا المجلود بالسياط، ذو الدائرة المقدسة هو رام بن شام. ولينادي المنادي بذلك الآن..

ذعر الملأ من القوم حالما أتم الملك شهادته تلك، وكانت فردون أشدهم اندهاشا وفرحة.. وقالت مازحة وهي تضحك بارتياح:

- يستحق الجلد، لأنه أخفى عني اسمه الحقيقي ونسبه عندما التقينا في الحرب..

. ما إن سمع السادن شيزار عبارتها حتى استدار صوبها، وقال بصوت مبجوح:

-لديّ هجس أكيد بأن القيل حوف كتم عن الفتى نسبه إلى ذوي الدائرة المقدسة.

- أقصصوا عليّ ما جرى له، فلا زلت أجهل أخباره و...

قاطعها الملك كرب فاضاً المجلس بعبارته المألوفة، وبدا منهزماً مصدوماً جلي التأفف والشروء، واكتفى بقوله لها قبل أن يلوذ هارباً:

-حين رأيته يصارعك في ميدان التدريب تذكرت عمك شام،  
ولكأنها استعار منه جسده وزوغانه ووثبته..

\* \* \*

انفرط أسبوع، وتعافى رام من آلامه، وصار يخرج وفردون إلى  
الصيد والقنص، وإلى ميدان التدريب، وإلى قلب الصحراء  
والمعبد والمزارع الغناء الساحرة.. وفي أحيان أخرى يقبعان مع  
الملك كرب في القصر، ويشهدان المحاكمات التي تدور في  
المجلس فيسعيان إلى إصلاح ذات البين، ومع كل يوم يمر تزداد  
فردون تعلقاً برام وتيباً، وكان ثمَّ قلق يتتاب الملك كرب بشأن  
علاقتها المتنامية، لكنه لا يلبث أن يشعر بالسكينة إذا اعتدل  
مزاجه وذهبت عنه وساوس الندماء، ومفعول الحمرة المعتقة  
التي يعكف عليها ليلاً ونخبة من الأقبال. وعندها لا يجد ضيراً  
من بقاء رام في قصره وفردون ما دام لا ينازعه على العرش.

في تلك الفترة طفحت مكابد الأجباش وزادت شهيتهم  
للشروع والنقم، إذ اتصل بهم شنار سراً وهو في سجن القلعة،  
وأوعز إليهم الشروع بالانتفاضة والدمار في مملكة سبأ عامة  
وأرض جنات خاصة.. وضاق صدر الملك كرب، ومضَّ الأرق  
والغم وهو يرى زرائبه تلتهمها النيران، وبعض مزارعه، بل إن  
أغلبها أضحت عرضة للاقتحام بالفؤوس الحادة، والفواريع..  
فلا يكاد يمضي يوم واحد دون وقوع جناية شنيعة.. وهكذا  
صارت القلاقل تدب في كل أركان المملكة، ولا سيما في أرض  
جنات.. فقتل بعض الأقبال في ظروف مجهولة، وساد الغموض  
أكثر حالما توارى عدد آخر منهم بغتة، وكأن الجان غارت بهم في  
أعماق الأرض، أو تبخروا عن وجهها المتعرج.. فصار الباقون

يحتاطون على أنفسهم، ويكثفون العبيد حولهم.. وهم لا يعلمون أن أولئك الأحباش هم الجناة، لذلك ظل عددهم يتقلص يوماً تلو يوم وأسبوعاً بعد أسبوع حتى كادوا أن ينفدوا.. عند ذلك امتاز الملك كرب غيظاً، وارتطمت حياته بالصدمات المتكررة، ومع هذا جعل السيف غردق قرب المصطبة الخشبية، رهناً للإشارة، فغداً يجز الرؤوس دون حساب، متوثباً كالديك المتحفز للشجار، فبات لا يغمد سيفه الذي لا تجف عليه الدماء، ولكن القتل كانوا من الأبرياء الذين ليس لهم جناحة صغيرة أو كبيرة في ما يدور في سبأ. وفي الغالب يكونون من المسافرين أو الغرباء الذين تتخطفهم الجنود من ضواحي مدينة جنات أو من بين أزقتها.

كان العبيد يتسللون ليلاً من مدينتهم الطينية إلى مدينة جنات، ثم يتقرصنون في الأزقة والممرات، فيقتلون ويحرقون ويسلبون، حتى إذا شعروا بالطلب من عسس الملك وجنده عادوا إلى جحورهم سالمين، حيث صار في أرجاء سبأ خمسة وأربعين ألف عبد حبشي، وأرض جنات تحوز بمفردها نصف ذلك العدد.. وأصبح في قلعة جنات المئات والمثل في قصر الملك، والبقية ينتشرون كالجراد في قصور الأقيال، وبيوت الأثرياء والإقطاعيين الكبار والتجار، وفي المعبد، ومخدع الطبلى والأسواق، وفي كل مكان حساس أو مهممل.. حتى قيل على ألسن العامة في سبأ هذا المثل الذائع:

" اقلع حجراً تجد عبداً حبشياً " ..

وآنذاك صار مجنون زقاق الهدهاد يهيم على وجهه في الحارات والأسواق، وألفاظه المخيفة تشتد ضراوة يوماً بعد يوم، وبدأ

الأهالي في مدينة جنات يعجبون من تصرفاته الأخيرة ومن زيادة  
حدتها.. ويرمقه أحد التجار ويقول لرفاقه بأسف:

- هذا الرجل كان يملك أكبر قطيع إبل في المملكة، وفي أحد  
الأيام جرفت المياه الفائضة من السد قطيعه وأتلفت بعض  
مزارعه، فمسه الجنون عندما ضمت أملاكه إلى...

ويسكت، ثم يرمي له بكسرة خبز، فيشيع وجهه عنها بتأفف  
على غير عادته.. ويتكرم تاجر آخر ويحذف إليه ديناراً ذهبياً، لكنه  
يركله بعيداً عنه، ويمضي مهتاجاً، وهو يصيح:

- الجذام الأسود يلطخ جسد المدينة.. الماء.. الماء،  
الفرار.. الفرار...

ثم يسير حتى يصل إلى المعبد فينهره المصلون فيصرخ بصوت  
طويل مريع: لن تبقى إلا الأعمدة الستة..

ويمر حتى يبلغ مخدع الطبل، ويزعق بصوت هادر:

- قارع الطبل في المدينة.. قارع الطبل في المدينة...

وهكذا دأبه كل يوم، لذا لم يعد أحد يأبه لقوله.. وفي ظل هذه  
المخيمات والغوغاء التي سادت في أرض جنات، تشجعت بعض  
المحميات على الاستقلال عن مملكة سبأ، فقطعت عن أرض  
جنات الأناوى التي كانت تدفعها لها كل سنة، واقتدت  
المحميات الأخرى بالمحميات المستقلة وحذت حذوها ماعدا  
محمية صرواح التي ظلت تدين بالولاء للحاضرة الأم. كان رام  
محل ارتياب الملك كرب، ولهذا راح يراقبه عن كثب حاسباً أنه  
وراء ما يجري من فوضى ونشوز، ولكنه آب إلى عقله فوجد أن  
رام لا يكاد يبعد عن ابنته فردون لحظة واحدة، حينها أبعد النظر  
عنه واتجه به إلى جهات أخرى متشعبة.. ثم قام وقد نفدت حيلته

بإرسال رسائله إلى المحميات المنشقة عن المملكة، وناشدها بالخنوع والأوبة إلى كنف سبأ.. ولكن بلا جدوى باءت محاولته بالفشل الذريع، ولم تدعز له محمية واحدة على الأقل، أو حتى تجيب على رسائله اللاهثة.. التفت الملك كرب إلى من حوله من الأقبال والقادة فلم يجد أجدر من رام لقيادة جيش الردع، فلبى أمر عمه كرب، وسار على جيش كبير إلى المحميات التسع وجعل يفتحها محمية تلو أخرى حتى دانت جميعها للملكة السبئية بالسمع والطاعة، وحينذاك عاد إلى أرض جنات ظافراً، فاستقبله الملك كرب استقبالا مهيباً، إلا أنه غار منه غيرة شديدة حين رأى أهالي مدينة جنات يهتفون باسمه، ويقذفونه بالورود والقبلات، وهو قربه جزءاً من العدم لا أثر لوجوده، فأضمر الملك كرب قائلاً في سره: "سيمحوني رام كما محاني أبوه من قبل، وهاهو شعب سبأ يهتف له ويلقبه المنقذ" ..

وكان قد عقد النية في نفسه آنفاً أن يجعله قائد الجيش.. ولكنه طرد تلك الفكرة بعد أن طحنته الغيرة..

لم يهدأ الوضع رغم عودة المحميات إلى مملكة سبأ، ورغم انتعاش الأمل في نفوس عامة السبئيين، فما زال العنف يتجدد من وقت إلى آخر، وما أشبه الحال بالبركان الذي يثور ويخمد ثم لا يلبث أن يثور ثانية ثم يهدأ وهكذا دواليك..

وأوعز بعض الأقبال المختارين للملك كرب أن يطلق شناراً من السجن، وقالوا له ناصحين:

- شنار هو الوحيد من يقدر على كبت القلاقل الداخلية، وإيقاف موجات العنف.

فأطلقه الملك كرب، عملاً بنصيحة أقرانه المتأمرين مع

الأحباش، وأعادته إلى المجلس ولكن دون أي منصب.. أراد الملك أن يقذفه في وجه الثائرين المجهولين، وهو يظن أنه حتماً سوف يخفق في وأد الثورة المتفاقمة. ولكن شنار أطفأ فتيل القوضى وأنهى أعمال الشغب في أسبوع واحد.. حيث سار سراً إلى مدينة العبيد والتقى بعبده مرج في داره الطيني، وقال له باحتداد:

-جئت من أجل إنهاء أفعال التخريب والعبث بأملاك السبئيين..

عند ذلك رد عليه مرج بصوت مفعم بالعناد:

-لا يمكن ذلك أبداً، وهذا مخالف للعهود المبرمة..

-أنسيت أنك لازلت عبدي، وأنني القائد السري؟

قالها شنار بصوت فظ، فأجاب مرج باستكانة:

-أعلم ذلك يا سيدي، ولكن لن يعتقنا الرومان إن نحن

أوقفنا الغوغاء..

-أنا أعتقك أيها المخبول.. وأجعلك ثرياً...

-لقد جئتك هدية، وأنا أنشد الحرية لي ولبني قومي، وهي

أغلى من خزائن الملك كرب برمتها..

وانفجر شنار صارخاً بغضب:

-حتى لو كانت حريرتك البغيضة هذه تمتهن السبئيين وتؤذيهم؟

هزّ مرج رأسه متشبثاً برأيه.. فأضاف شنار متلطفاً:

-لا شأن لنا بالرومان يا مرج.. دعنا نلبي أهدافنا المنشودة

وأعدك...

-ما هذا الذي اتفقنا عليه.. وأنت تطمع بالعرش، لذا تفكر بما

يفيدك..

بهذه العبارة قاطعه عبده مرج، فهب شنار خارجاً، وهو يقول  
بسخط:

- وشرف المقة لأجعلن فالوس يعيدك إلى سوق الرقيق..  
- الحرية أسمى من مآربك الشيطانية..

أتبع مرج عبارته وراء شنار بصوت أجش حازم.. والشـر  
يلتمع في عينيه بشدة.. في حين آب شنار نحو قصره من مدينة  
العبيد متخذاً طريق المستنقعات المائية وذلك خوفاً من الكمائن  
التي وضعها الملك كرب لرصد فاعلي القلاقل.. وقال لنفسه  
بدهاء، وصوت الضفادع المزعج يؤرق أذنيه:  
"الغد آخر أيامك يا مرج، وسوف أعتقك من الحياة يا عبدي  
العزير" ..

وفي الصباح الباكر خرج مرج وعشرون من رفاقه في طريقهم  
إلى قصر الملك لأداء واجب الخدمة، وبينما هم وسط أحراش  
الرس المكثفة المكدسة على بعد أربعة أميال من شرق مدينة  
جنات.. إذ باغتهم شنار ورفاقه وجندلوهم بين الأشجار.. ثم  
قذفوهم إلى عمق بئر ناضب قديم وقفلوا راجعين إلى  
القصر.. ومنذ ذلك العهد صار شنار هو الرئيس الفعلي  
للأحباش، وأضحى من وقت إلى آخر يلتقيهم في مدينتهم  
ويأمرهم وينهاهم، فلا يخالفوه البتة.

وهكذا سكنت الأحوال في أرض جنات، وفي مملكة سبأ  
كلها.. فأمن الأهالي وعاد حراس المزارع والبساتين المثمرة  
والزرائب إلى بيوتهم.. وزال إثر ذلك أرق الملك كرب، وصار  
ممتناً من شنار، وازدانت مكانته في نفسه رفعة، ووثوقاً، فأعاد  
إلى منصبه القديم قائداً لجيش سبأ.. وعاد رام وفردون من رحلة

الصيد بعد أسبوع.. ودلفا على الملك كرب باكرأ.. احثقن وجه  
رام غضباً حين رأى شنار قابعاً على كرسيه الخاص قرب الملك،  
في حين اقتعدت فردون على كرسيها في اليسار.. وأخلى أحد  
الأقيال كرسيه لرام، فقعده وسط المجلس متنمراً. ورآه الملك  
كرب في تلك الحالة المكدرة فقال بخسة مشيراً إلى شنار:

- هذا المنقذ، وقد وليته منصبه القديم، فلا تمتعض...

- هذا شأنك يا جلالة الملك...

قال رام هذه العبارة بحنق، فقاطعه الملك قائلاً بنفس الموال:

- أنت ولدي، وفردون شقيقتك...

بقرت هذه الألفاظ قلب رام وأذمته، وتكنه بلا تخطيط أو  
تفكير مدى مرارتها، وما يتغلغل فيها من معنى ممض، فتطير منها  
ورنا إلى فردون بنظرة ملتزمة لا تخلو من القلق، ثم خفض رأسه  
إلى الأرض وراح يرمق حشرة صغيرة تنهب أرض المجلس  
بخطى عجولة وتحاول أن تتسلق قائمة المقعد بلا هوادة. بينما  
ازدرد شنار الريق السائل في فمه رانياً إلى فردون في اشتها  
وتمني، فأشاحت وجهها عنه بتقزز. لكنه حوّل بصره إلى السادن  
شيزار وقال متجاهلاً إعراضها:

-ماذا ترى يا روح المعبد، وقد أضحت أرض جنات وارفة

بالأمان والهدوء؟

-لقد طال أمد الوثيقة وأخشى أن تغضب المقة، لذلك

يتوجب تعجيل القران.

وأشار السادن شيزار إلى شنار وإليها، فقالت مزججة بصوت

لا يتناسب مع جمالها المفرط:

- لن أتزوج بشنار، وأفضل أن أظل عازبة مدى العمر..



- الوثيقة محفوظة على حائط المعبد، وأنا شاهد والآلهة عليها..  
وبعد عبارة السادن شيزار انطلق الملك كرب يقول لها  
بصرامة:

- لقد امتزجت دماؤك بدمائه يا ابنتي، وسنصبح مارقين عن  
ديننا لو خالفنا شريعة المقة...

- ولو.. وهاكم جسدي قطعوه قطعاً، لكي أصير قرينة  
شنار...

- لا أنكر أن رام خليق بالزواج بك، ولكنه تأخر وأتى بعد  
الوثيقة..

وانبرى شنار قائلاً بوضاعة مصطنعة:

- لا أقل عن رام في شيء خلا الدائرة المقدسة..

- أنا السماء وأنت الأرض، وأخلاقك أخلاق العبيد...

تظاهر شنار بالحلم، وابتسم، رغم أن الجزء الأخير من عبارة  
رام قد أصابه بالهلع، ربما يكون سره قد انكشف، لكنه أزال هذه  
الخطرة وقال للملك:

- إنه يبينني على بساطك يا جلالة الملك!!

- اصمت. وإلا طردتك من قصري.

وظفق السادن شيزار يقول بأسى:

- أنا أعزك وأقدمك على شنار، ولكنه التشريع، إنه التشريع..

خرج رام من المجلس مغتاضاً، والدموع تتزاحم في سواد  
عينيه، وأحس بأنه رخيص ومهان، فقال قبل أن يتوارى:

- لا تشريع ولا عدل في سبأ، لقد رحل مع الملوك العظام...

- لا.. لا.. لا يا أبي.. لن أتزوج بأي رجل..

- أقسم بالمقة والندور والقرايين أن شنار قرينك هذا العام..

حينها انفجرت باكية بمرارة، وأعماق شنار تضحك  
ضحكات متوالية.. وتشمتم من حالها المزري.. وما لبثت أن  
مرقت إلى خارج المجلس، واتجهت إلى مقصورتها لترتمي على  
فراشها بلا وعي، وتنوح على بختها مدثرة وجهها بلحاف  
غليظ..

\* \* \*

ولج الملك كرب إلى جناحه الخاص بالقصر، وهو متجهم  
الوجه، متنفخ الأوداج، ونادى ابنته فردون حتى مثلث أمامه  
طائفة، وقال لها بصوت حام:

- لقد ربيتك كما ينبغي لمثيلاتك من بنات الملوك، وأعددتك  
لتكوني ملكة عظيمة، ولكنك صرت تنسكعين والمعنوه رام في  
الصحارى، وتركين كرسيك في المجلس خالياً..

وقبل أن تتفوه بالرد عليه، تدخلت أمها هاميرا قائلة للملك  
بعتاب:

- رام ليس دخيلاً علينا، فهو ابن عمها، وقد ريبا معاً في  
القصر..

- منذ اليوم سأكسر ساقها إن رأيته برفقته..

- لا تقتل قلب فردون، فقد أجازت الآلهة للفتاة أن تتخذ لها  
خليلاً..

- وأنا أمنعها من رام فقط.. ولا بأس أن تصطحب شناراً لأنه  
خطيبها.

- دعها يهيمان...

- اخرسني يا هاميرا فقد أقسمت بالمقة.. وأنهاك عن الجدال...  
صمتت زوجته هاميرا على مضض، وانبرت فردون قائلة

بنغمة حزينة:

- سأمتنع عن الخروج ورام، لكنني كذلك لن أقبل بشنار  
زوجاً...

- أيتها الوقحة...

وصفعتها على وجهها، فأمسكت أمها هاميراً على خدّها بألم  
وكأنها المصفوعة..

في حين هرولت فردون فائزة من أمامه مجهشة بالبكاء... ولما  
هدأ غضب الملك كرب تحسر حسرة شديدة، حيث إنه لم يعاقبها  
البتة خلا تلك المرة.. وشعر بالضجر يطبق على صدره، وورغب  
في الانفراد بنفسه، فخرج من جناحه الخاص وسار بخطى  
متناقلة إلى مجلس الحكم على غير عادته، وفي مثل ذلك الوقت  
يكون المجلس خالياً هادئاً بعد انفضاضه، وقد تأتي العبيد  
لتنظيفه وكنسه وفتح نوافذه، ثم ينصرفون ليسود بعد ذلك  
هدوء تام..

ظهر الملك كرب من باب المجلس، وهو في أسوأ حال، فإذا به  
يرى عبده دمساً جاثماً على كرسي الملك، والقضيب الذهبي  
الخاص بملوك سبأ يهتز في كفه الأيمن بزهو، والتاج في يده  
اليسرى ولازال يشجع نفسه ويراودها على ارتدائه.. أصيب  
العبد دمس بحالة من الذعر وغاب عن وعيه حالماً رأى الملك  
كرب واقفاً بباب المجلس يتفرس إلى وجهه بقسوة.. لم يمهل  
الملك كرب حتى يفيق من ذهوله، بل فصل رأسه عن جسده  
بضربة من سيفه مزقت بساط المجلس.. وصاح على العبيد،  
فجاءوا فزعين وسحبوه إلى الخارج، والملك يهمس في سره  
غاضباً:

" لقد أصيب العبيد بالجنون، وصاروا يجرون على الجلوس فوق كرسي الملك "

وجاء رام صباحاً، وانتظر مجيء فردون على باب القصر وطال انتظاره، ولكنها لم تأت.. حينها انتابه العجب وقال لنفسه: لعلها لا ترغب في القنص اليوم، ولا شك أنها في مجلس الملك.. عبر رام من بوابة القصر، وصعد إلى المجلس، ودلف إليه ولم تقع عيناه على شيء آخر حال دخوله غير موضع فردون، فوجده خالياً منها، وألقى الملك والأقيال منشغلين بشرثرة تافهة، وشعر بالجفوة تعشعش في وجوه القوم، ولم يلتفت إليه أحد أو يعباً بوجوده، ولم يُنجل له أي من الأقيال كرسيه كما كانوا يفعلون من قبل، فغمره شعور بالامتهان والضعف والذل والغربة، فجلس على كرسي بالٍ وضع في آخر المجلس كان يخص كبير الأعباش مرج، وأخذ يرمق الملك كرباً باستكانة عله يرمقه، ولكن بلا جدوى.. بعد برهة دخل الحاجب يستأذن للتاجر فالوس وعبيده، فأذن الملك بدخولهم وظهر فالوس بوجهه الأصفر وحلته الرومانية المسترسلة إلى كعبه مانحاً الجلوس بسمة فاترة، والدهاء يبرق من عينيه الغائرتين في محجرين متسعين، ونثر أمام الملك ما يساوي نصف جراب من اللؤلؤ والجوهر والأقراط والأعقاد الفضية.. ثم قال محنياً هامته:

- هذه الهدية لا تقاس بما انتقيته لجلالتك من عبيد الحبشة

النجباء.

- كم ترجو ثمناً لعبيدك يا فالوس؟

- وهل أصبو إلى شيء غير رضاك يا سيدي.. لا.. لا.. هذه

أتاوة تجارتي..

قالها التاجر الروماني فالوس ككل مرة، باسطاً جناح الأدب  
والوضاعة، بينما رد الملك قائلاً:

- أهديتني آلافاً من العبيد خلال سنوات خلت، وقد أعجز  
عن رد صنيعك.

ابتسم فالوس بطراوة، وصمت متقمصاً الحياء، وأردف الملك  
ملصقاً الرضا على قسبات وجهه:

- أرني العبيد، فلا شك أنهم ملاح الأعناق..

لم يفهم فالوس مغزى هذه العبارة، بل صاح على عبيده،  
فظهروا من باب المجلس كالديبة، وملاؤا المكان.. ونادى الملك  
كرب السيف غردق القابع عند المصطبة الخشبية المخصصة  
للدماء، فمثل العبد الأسود لديه، والسيف العتيق يتدلى على  
وسطه جوف غمد أكله الزمن، فصار شكله مشوهاً بلون بني  
ماثل للاحمرار.. قال له الملك بأعصاب هادئة:

- جز أعناقهم على التخشبية، واترك فالوس لي..

سارع العبد بالتنفيذ تساعده مجموعة من الجنود، وأخذ  
يسوقهم كالخرفان إلى المصطبة، ويقطع رؤوسهم رأساً بعد  
رأس... فيما التفت الملك كرب إلى فالوس، فألفاه مصفراً مبهوتاً  
مما يرى، ويذا كحجر مشقق في قرار بئر عميق.. قال له بصرامة:

- عُد إلى بلادك ولا تطأ أرضي ثانية، فقد لوثتها بأولئك  
المناحيس...

- ولكن يا جلالة...

- يا أسود اللون...

نادى الملك السيف، فأقبل، ولكن التاجر فالوس هرول خارج  
المجلس حانياً هيكله المرعوش، مؤثراً السلامة والفرار بجلده.

فزع شنار أشد الفزع، وظن أن الملك كرباً قد علم بالمؤامرة التي أقحمه الأحباش فيها، بل وجعلوه ركنها الركين.. ولكنه قال لنفسه: " لو عرف الملك خبيثة الأمر لأطاح برأسي ولكن ثمة شيئاً كدر صفوه وأغضبه "...

تأمل شنار السيف بغيظ، والأخير يميظ قطرات الدماء العالقة بنصل سيفه بواسطة ثوب خلق.. ولا يبدو عليه الانتهاك أو الارتباك.. بل لاح هادئاً خاملاً على المصطبة، فأعقب شنار في سريرته بتوتر:

" اللعنة عليه، كأنه لم يرق قطرة دم واحدة، وقد قطع مائة عنق من أعناق بني جنسه، وليس الإخلاص للملك هو الذي يجعله يجز الرؤوس على المصطبة بكل برود، ولكنها شهية الدماء التي لازالت تسري في عروقه منذ عهد الملك شراح، وهو من العبيد القدامى.. والوحيد الذي لا ينشد الحرية التي دفع زعيمهم مرج ثمنها المؤلم.. كان عبداً وفيماً فظناً، ولكن فالوس الروماني أفسد عقله وزرع فيه بذرة الحرية، فلم تثمر غير قتله، وسوف أعبر فوق رقاب الأحباش حتى أصل إلى عرش مملكة سبأ، وأنا أهتف بالحرية، لا لشيء غير أنني في الحقيقة عبداً من نسل عبد، ولكني مخروم الأذنين، وعماً قريب أصير ملك سبأ وذوي ريدان واليمنات وأصبح قرين ربة الصون والعفاف والحسن الملكة فردون وأنجب منها، وليمت رام بن شام كمدأ وغلاً... "

انقطعت أفكاره حالما أعلن الملك انتهاء الجلسة، ثم قال وهو ينفخ بحنق:

- تناولت العبيد على ملوكها يا قوم، حتى أن البعض يقبع على عرش سيده دون وجل أو رهبة..

عندئذ عرف شنار جلية ما حدث.. ولما عاد إلى قصره وجد  
التاجر فالوس في انتظاره.. وهو متنكر بزى سبئي.. وما إن لمح  
شنار حتى عاجله قائلاً:

- عبداً أحقماً رآه الملك كرب قابعاً على كرسيه، وهذا هو سر  
غضبه اليوم..

تلعثم فالوس قائلاً:

- اسعفني يا قائد شنار.. كيف أعود إلى الإمبراطور؟ كيف؟

رد عليه بتهكم:

- عُدْ بقدميك أو فوق حصان أجرب، أو على متن بعير

هزيل..

طوح فالوس بيده إلى الأرض بقوة، وقال بتشاؤم:

- لا زال هناك خمسة آلاف عبد يود الإمبراطور أن أنقلهم بحراً

من الحبشة إلى أرض جنات..

- لا تكن جزوعاً، فالمعمول على التدبير وليس على الكثرة.

- كيف لا أجزع وأنهار وألوية الموت السوداء قادمة بعد

سنة أشهر..

- يا للمقة!! ما أفرحني بسماع هذا الخبر، ولكن لم أخفيته

عني؟

- لا تكثر بهذا الأمر.. فأنا مثلك كنت جاهلاً به..

قال شنار بسعادة:

- ارحل يا فالوس، وثق بي، فأنا أتحرق شوقاً إلى مجيء ألوية

الموت السوداء..

خرج رام من مجلس الحكم مقهوراً وضاق صدره ذرعاً من غياب فردون عنه. مر الأسبوع ولم تطل عليه إطلالة واحدة! ولم تقع عيناه عليها حتى عفو الصدفة.. استغاث بوصيفتها ماساً لتأنيته من لدى فردون بأسباب احتجاجها ونأيها عنه، فظلت هذه الوصيفة الرومانية تسعى بينهما جيئة وذهاباً، وفي كل مرة تؤكد لرام بأن سيدتها في غاية الأسي، ولا تستطيع أن تخاطر بالمجيء إليه، لأن الملك قد أقسم بالمقعة أن يكسر ساقها إن هو رآها معاً أو بلغه ذلك... عندها أزمع رام على الرحيل من أرض جنات، فامتطى حصانه ولبس ملابس الحرب وسار حتى انتصب أسفل مقصورة فردون، وناداهها بملء الصوت غير مكترث بالحراس والمارة، وكرر النداء ثلاث مرات فأطلت عليه من النافذة، وأشارت له بكفها صوب المعبد فذهب تَوَّأ إلى المعبد، وانتظرها هناك. أسند ظهره إلى العمود السادس ومدَّ قدميه باسترخاء على قاع مرصع بأحجار ملساء من البازلت، وبعد لحظات أقبلت فردون عليه متنكرة بزّي جارية من جوارى القصر، وتحمل فوق رأسها آنية بها بخور وطيب لتشيح عن نفسها الأبصار المتربصة بها، ولما دنت أَلقت الآنية بعيداً، وانزوت جواره، فقال لها:

-أذلني الملك، وعليّ أن أفارق معشر سبأ...

وجرت دموعه على عارضيه، فصعب عليها حاله، وقالت

بتوسل:



-خذي معك، فلن أصبر على ابتعادك وسأموت أو أُجن..  
-لا يا سيدتي، لقد ألقت الغربة وترعرعت يتيماً في قصر غير  
قصر أبي، ولم أعلم بنسبي إلا في سن الشباب، لذا عودي إلى  
قصر أبيك..

آلتها لهجته الجافية، فقالت بصوت متقطع:  
- ألا تشعر أنك تقتلني الآن بكلماتك القاسية؟  
لفعها بصمت رهيب، فأضافت بخوف بحت:  
-وهل تتركني لشار..؟  
- لأجلك تركت كل شيء أملكه، وأنا وريث المملكة بعد  
أبي، والآن لم أعد أملك سوى روحاً متهنة في جسدي.  
-وأنا، ألا تكثر بي؟  
-أنت تملكين نفسك، ولك أن تأخذي من الحياة ما  
يطيب لك!!

-ولكن لماذا وقفت تحت مقصوري وهتفت باسمي؟  
-أقلقني غيابك، فأردت أن أقف على حالك..  
-هل أهون عليك؟  
-كلا، فلست حجراً من أحجار السد، ولكن الحياة تأبى أن  
تعترف بي.

-أنا أعترف بك وحسب..  
-ما برهان اعترافك؟  
-هذا برهاني..  
وفي سرعة البرق خطفت خنجرها، وبرت به إحدى أصابع  
قدمها اليسرى.. فنزفت الدماء نزيهاً حاداً..  
- ألا يكفيك هذا أم لا؟ أضافت.

انشلَّت حركة رام لفرط ذهوله، وعندما لم ينطق رفعت  
الخنجر لتغرزها في صدرها، فخفَّ إليها وأمسك ذراعها، ونزع  
الخنجر من يدها، ورماه بعيداً وجعل يعالج جرحها النازف  
ويؤنّبها على فعلتها تلك، وما أن أتم الاعتناء بالجرح، وأحس  
بأن الألم قد تلاشى عنها، حتى قبلها في قمها قبلة صادقة بشفتين  
واجفتين.. فبهتت فردون كما لو تجلت لها الآلهة واحتضنتها بلا  
ميعاد. وجست بأناملها المضطربة موضع القبلة على شفيتها  
فأحست بدفئها يتحفّر روحها برفق، ويسكب في أعماقها فيض  
حنان وحُب.. فأخفضت رأسها وبكت بكاءً مرّاً، وجاءت  
ألفاظها خافتة:

-هل أنت مصر على الارتحال عن سبأ؟

-نعم، ولن أغيّب طويلاً، وهاهو برهانك يعيد إليّ أنفتي...

وأبدى رام الجلد، وامتطى حصانه، ورنّا إلى الجرح وأثار  
الدماء بتوجع، وسمعها تجأر:

-لا تنأ ملياً، أنا مريثة لك وأصلي للمقة من أجل عودتك

سالمًا إليّ وأعاهدك على أن أحيالك.. وأنت؟

-وأنا كذلك، أهب حياتي لك.

وانطلق يسابق الريح، لا يلتفت إلى خلفه، بينما انتفض الهدهد

السبئي في مكمنه، وقال بصوت مكروب:

"فلتشهد الأعمدة الستة لهذا الاعتراف، وسترى كيف

يجفل حصانك، ويتكسر جلدك حين تتوارى أسوار المدينة عن

عينيك!!"

الريح تزار من بعيد، والغروب يوشك أن يودع المدينة

ويرتحل، فيما خال إليه أنه سيخترق الآفاق البعيدة قبل أن يجن

الليل، ولكنه أدركه في ضواحي مدينة جنات، ومازال بين أشجار الرس والسدر الملتوية والمزدحمة.. لقد اختار طريقه بكل عناية، وهاهو الليل يلف خواصر البقاع بذراعيه السوداءوين، ونقيق الضفادع يمنح الساري موسيقى صاخبة غير منتظمة، ولكنها تدله على بقع المستنقعات المائية والفجوات المحجوزة بالأشجار والوحل والظمي، راح رام يحاذر أن تقع قوائم حصانه في الحفر العميقة، ولم يلبث أن سلك المستنقعات وخرج منها بسلام إلى باحة تغطيها الصنوبر والسدر والنخيل.. وهناك بوغت بأصوات جشة تأتي من مكان قريب ولاح له قبس صغير من الضوء يتسلل من فتحة خافضة على قبو طيني.. فعقل الحصان قرب إحدى الأشجار، ومشى بأطراف أصابعه إلى جانب القبو، وألقى نظرة فاحصة من الفتحة المنبثق منها الضوء، فرأى عبيدين يحتسيان الخمر، وثمة عبد ثالث محتجب عنه يقول:  
- لعل الخمرة قد دارت في رأسك لذا لا تدري يا عزان بما تنطق..

- هذا أول كأس أحسسيه، ومتى كانت الخمرة تجعلني أهدي..!!

وانبرى العبد الثالث قائلاً له بتبرات مستنكرة:

-القبيل شنار من سلالتنا، كيف حدث ذلك؟

-كنت أعمل وبدبد في زريبة الملك، وكانت أم القبيل شنار

تأتي إلى الزريبة، فيصاجعها كالثور، وأنا أختلس إليهما النظر..

-نعم لقد قتل شنار أباه بدبد ثم قتل أمه، وتخلص من القبيل

دارم أيضاً، وقد عثرنا على جثة بدبد قرب الزريبة، وقد رأى

أحدهم شنار يحادث بدبد قبل أن نجده مطعوناً..

عض رام شفته السفلى مستهولاً ذلك الكلام، وأخذ يرهف  
السمع، وهو في غاية الاندهاش.. وبعد هنيهة من الصمت قال  
أحد العبيد:

- اختفى مرج أيضاً، وأظن شنار قد قتله ليتسنى له قيادتنا..

- الأهم أنه مخلص للأحباش...

- هنالك خبر مفرح، ولعل شخصاً ما يترصد خلف القبو..

اختبأ رام للتو في ردهة مظلمة، فخرج أحدهم ودار حول  
القبو متلفتاً هنا وهناك، وأنصت قليلاً، ثم عاد إلى أصحابه  
قائلاً:

- لا أحد.. قُل ما لديك..

- التقينا مساء أمس وشنار في مدينتنا، وقال إن ثمة ألوية  
رومانية عظيمة آتية من مصر بعد ستة أشهر لغزو سبأ...

- صُبَّ في الكأس، باركتك المقة..

ثم أخذوا يقهقهون ويرقصون بنشوة عجيبة، في حين ذهب  
رام إلى حصانه والهلع يفترس أعماقه، وينهش قلبه المتسارع  
النبضات. امتطى الحصان، وأخذ يدور به في منعرج يؤدي إلى  
سبيلين متعاكسين. فكر بالعودة إلى أرض جنات ليخبر الملك  
كرب عن الزحف القادم، ولكنه تذكر غطرسته عليه وامتهانه له  
فشق طريقه صوب مملكة معين.. وفي ذهنه حلول شتى أزمع أن  
يتخذها بنفسه..

كانت الكآبة مخيمة على وجوه المعينين، لأن داء الملوك قد اختطف منهم الملك قضاع والملكة فادي، وهذا الداء يأتي بغتة ليقضي على الإنسان دون سابق إنذار. فيموت وهو يمشي في ردهات منزله أو في أي مكان آخر، ومعظم ضحاياه من الملوك والاقبال والأغنياء من الناس. أما الفقراء المعدمين فقلما يصابون به، ولكن حظهم الوافر يكون من الأمراض التي تبطحهم شهوراً وأياماً على الفراش فيذقون الآلام الشديدة وتذبل أجسادهم وتمزل حتى تنطفئ أرواحهم في آخر المطاف.

اجتاز رام بوابة المدينة. عرف من الناس الخبر، ثم عرج إلى قصر الملك ودخل على صديقه معن بن قضاع الذي استقبله بحفاوة. وخرجت ألفاظ المواساة والعزاء في مستهل الحديث. وأبدى رام حزناً ما عليه من مزيد. ولكن سرعان ما تتلاشى الأحزان وتخبو بسبب تثبث الإنسان بالحياة. شرع رام يتحدث عن الألوية الرومانية التي سوف تغزو ممالك الجنوب لكي تمنح سبأ للعبيد الأحباش.

ابتسم معن بكآبة، وقال كأن لم يأبه لكلامه:

- أخبرني عن أحوالك..

- مطرود من سبأ.. وهي مهددة بآلاف العبيد، ولولا شنار

لقتلوا الملك وبسطوا أيديهم عليها، ولكنه يود الاقتران

بفردون...

وسرد رام تفاصيل كثيرة، وفي آخرها استدرك قائلاً بامتعاض:  
- بعد ستة أشهر سترى طلائع ألوية الرومان على مشارف  
معين بعد أن تقضي على مملكة سبأ المتضعضة..

-أنا وبلادي معك، وأنت منذ اليوم قائد الجيوش..  
-تذكر يا معن أنني الوريث الوحيد لعرش سبأ، ولا بد أن  
أستعيده لو كان ذلك آخر ما أفعله في حياتي..

قال رام عبارته الأخيرة، وقد شعر شعور المتشرد عن أرضه  
حتى وقد أضحى قائد جيوش معين.

لقد صار له جناح كبير في قصر صديقه الملك معن بن قضاع،  
يطل على جنينة تثير في النفس البهجة والسرور.. ويصل إليه من  
خلال شبابيك مقصورته شذى مضمخ بأريج البنفسج  
والياسمين والريحان.. محيط رائع ولكن النفس المتشظية لا تشعر  
بجماله، كان رام يقضي جل نهاره في الصيد والقنص أو تدريب  
الجنود، وقلما يرتاد مجلس معن، ولا يرتاده حتى يعاتبه عتاباً رقيقاً  
ليناً لا تشويهه الغطرسة ثم يأخذه إلى مأدبة الطعام.. وفي أول يوم  
من أول شهر له في معين أطل من نافذة مقصورته على الجنينة،  
وقد جذبتة جلبة خفيفة، وحذاء منغوم شجي يصدح بلكنة  
أنثوية من الخارج... رأى فتاة تتأرجح على مرجيحة بحجم  
السرير الخشبي، والجواري يحطن بها من كل جانب ويغنين  
لها. كان جمالها فائقاً أخذاً ورداؤها الملوكي المزركش يشير إلى  
بحبوحة من العيش.. صعّد رام النظر إليها، وبدت قسامات  
ملاحظها مزروعة في ذهنه منذ زمن بعيد، ولكنها تحسنت  
وترونقت ونضجت، وامتلاً جسدها وامتشق طولها كأحسن ما  
يكون، وما ينبغي أن يكون لدى الفتاة المحسودة

والمصطفاة.. الشيء المحزن، والذي لا يمكن أن يكون عيباً في خلقتها هو أنها لا زالت تشكو من ألم المفاصل المزمع والذي لم تبرأ منه بعد.. عرف رام شهد شقيقة معن والتي كانت قد آبت لتوها من حمام طبيعي ساخن يقع خارج مملكة معين، إذ أوصى الحكماء بذلك، وألزموها الاستحمام شهرين بالتمام، وقد تكدر رام واعتصر قلبه ألماً حين رأى الجوارى يساعدها على النهوض من على المرجيحة.. وهمس لنفسه برحمة: هذه الفتاة آلهة جمال ولكنها عليلة وتدعى ش.. شهت نعم.. المسكينة شهد...

بالكاد حضره اسمها. وكان قد رآها في أول زيارة له إلى معين، عندما جاءها هارياً من وكر العقارب، وقد مضت سبع سنوات مليئة بالبؤس والشقاء جعلته ينسى أشياء كثيرة.

وهو في خضم تأمله، وفي ذروة إشفاقه على الفتاة، ضرب كفه على حافة النافذة بقوة، فاهترت وجلجلت حلقاتها الحديدية، إثر ذلك طارت ثلة من الحمام تسكن أعلى سجف النافذة في كوات مفتوحة على الشرفات القريبة، ولا يفصل بينه وبينها إلا سقف النافذة، غير أنه لم يرها من قبل، لذا اندهش حين بوغت بها تطير وتصفع الهواء صفعات سريعة ومتتابة... رفعت شهد بصرها إلى حيث رفرت أجنحة الحمام، فرأت رام على النافذة، ثم ابتسمت بعجب.. أشارت إليه بيدها طالبة منه النزول إلى الجنية.. ونفدت حيلته واحترار بين النزول وعدم النزول.. أخيراً نزل وعبر البوابة المؤدية إلى الجنية متوجهاً إلى الفتاة.. سيطر عليه خوف شديد وهو يدنو من المرجيحة، انضم هذا الخوف إلى خجله المترسخ في قراره، وكوناً مزيجاً من ارتباك وذهول، خيل له أن كل الفتيات هن فردون، وأن كل الرجال هم عمه الملك

كرب، وأن لا أمان له إذا التقى بامرأة.. أو مات له شهد بالجلوس  
قربها على المرجيحة دون أن تتكلم، لكنها قالت بعذوبة بعد أن  
رأته متردداً:

- اجلس يا هذا، وقُل من أنت ومتى نزلت قصرنا؟

- أنا صديق الملك وأقيم في القصر منذ شهر..

بدا رام متوتراً وهو يجيب، فعادت لتسأل بإلحاح:

- ما اسمك يا صديق الملك؟

- رام بن شام..

- يا للآلهة ودا، ولكنك تشبه رباد الصرواحي الذي نزل

قصرنا قبل سنوات خلت، وكانت أُمي تحبه كثيراً.

ارتسم الأسي جلياً على ملامحه.. ورد بنبرات مختنقة:

- أنا رباد ورام، وما أشأم ذو الاسمين !!

- ماذا تقصد يا هذا؟ سألت شهد.

لاذ بالصمت، فأضافت بتودد:

- اجلس على المرجيحة، ثم أتخفني بالحديث..

جلس رام حيث أشارت، وسرت في جسده رعدة قوية، وراح

يقص عليها بعض أحواله مبتعداً عن شؤونه الخاصة.. وتوقع

حديثه حول علاقته ومعن. فانشرح صدر شهد حين أيقنت أن

الجالس قربها هو رباد القديم، فضلاً أنه من ذوي الدائرة المقدسة

واستطردت قائلة:

- صرت قائد جيش معين وأظنك وجدت في بلادك ما

أساءك.

اكتسى وجه رام بحمرة الخجل وانكسرت نظراته صوب

قدميه والجواري يركن المرجيحة مع إيقاع الحديث، فينبعث من



اهتزاز جسديهما لحن عذب موسقته الفتاة بشفتيها، فأصبح  
حزيناً ويبدأ في زوح سامعه، أمّا هو فصامت يتذكر أرض جنات  
وابنة عمه فردون.

لاحظت شهد حيرته وامتقاع وجهه فأمرت الجوّاري أن  
يوقفن المرجيحة، ثم قالت له باعتذار:  
-سأخني.. لقد أشعرتك بالغبرة..

فجأة طلع عليهما معن من صوب بوابة القصر، وكان قد بحث  
عن رام في مقصورته فلم يجده، وعندها سأل عنه الحراس قيل له  
أنه - أي رام - هبط إلى الجنينة..

داهمه شعور مُحجل وهو يلمح صديقه معن قادماً، فهب واقفاً  
من على المرجيحة وخطا خطوتين إلى الأمام فضحك معن وقال  
مداعباً:

-من يراك وشهد على المرجيحة يظنك شاباً لاهياً..

-اغفر لي، فقد دعنتني إليها و..

-دعه يا أخي يحادثني، فقد تضرّج وجهه بالدماء حين رآك..

بهذه العبارة قاطعتة شهد، وعلى شفتيها ابتسامة مرحة، في  
حين رد معن مخاطباً رام بنبرات ودية جادة:

-أهنتنا أعطت الفتاة في سن الثامنة عشرة حرية اللسان  
والقلب، ولم تعطها حرية الجسد، وبدلاً عن ذلك وهبتها حُبّاً  
من تشاء..

-والمقة كذلك، ولكن الملك كرباً يضمن عليّ بفردون.

عند ذلك سأله معن بألفاظ كوخزات الإبر:

-أليست وشنار مرتبطين بوثيقة لصيقة بالمعبد مزجا عليها

الدماء؟

ثار رام، وأجاب بصوت صلب:  
- نعم، حدث هذا، ولكنه عبد آبق، ولسوف أجعل حياتي  
مهراً لها...

- ستصيبك اللعنات، وتصير مارقاً عن دينك. وقد يقتلوك..  
- أنت لا تدرك قداسة الحب وسطوته. لأنك لم تدخل محرابه  
بعد.. فردون أهتي التي اتخذت دينها نهجاً، فهي معبودتي المقة !!  
اغتاظ معن في الباطن، واعتبر كلام رام سفاهة وظلماً كبيراً،  
لكنه كبت غيظه، وأخذ نفسه ومضى متذرعاً بالعجلة، أما شهد  
فبقدر ما أنعشها كلامه وأطربها سماع نظيره، فقد أغارها وآلمها  
لأنه ليس لها، ولكنها أحت عليه أن يلقاها دوماً في نفس ذلك  
الميقات وفي نفس المكان.. فوافق ولكن باستحياء..

\* \* \*

ألف رام المرجيحة، وأضحى يمضي وشهد وقتاً معقولاً، ولا  
يلبث أن يؤوب إلى أعماله الأخرى.. أحاديث كثيرة دارت،  
ودموع سالت، وزفرات طافحة، وانكسارات شتى وإرهاصات  
لا تحصى، وكانت حصة رام من هذه الأشياء انفعالات عادية  
فحسب... لم يخلص للحزن والحرقه كشهد.. فيتألم بشدة  
وتحاصره الحيرة حين تنفجر بقولها:

- أنا فتاة ليست حية أو ميتة، وأشعر أن عطفك عليّ هو إشفاق  
رتيب وإن كان يأتي من قلبك، فهو يمس حالي، ولا يصل إلى  
روحي...

- اهدهني، أنا أبادلك الشعور، ولكنك تتوهمين..

- كلا، أعماقي لا تتوهم، ولكنك غير ملموم..

لا تلبث أن تتبرم من أخيها معن وأطباء المملكة الذين لم

يوفقوا بمداواتها من ألم المفاصل المزمّن.. وحين يندرج اسم فردون في الحديث، تقول في هياج:

- أحقد على الفتيات لأنني كسحاء أتوكأ على الجواري، ولكم أتمنى أن أصير ابنة صانع نعال وأمشي مهرولة في كل مكان..  
لم يطل اللقاء غير أسبوع.. إذ خطرت في ذهن رام خاطرة ملحة، فسار إلى معن وقال له بصوت متزن:

- عليّ أن أرحل إلى ملوك حمير، وأثيرهم على حرب الرومان..  
- حمير نائية، وملوكها جبابرة متغطرسون. أجب الملك معن.  
- لازال هناك وقتاً يسمح بالمروق إلى ظفار، والعودة قبل قدوم المحاربين..

حاول معن أن يثنيه عن عزمه، ولكنه ناء بالفشل.. نظر رام إلى شهد بعد صعوده مقصوده من أجل الراحة قبل السفر، وقال هامساً برحمة:

"أعلم ما يساورك من ألم، فأنت آدمية ولك الحق أن تسيري كغيرك بقدمين صحيحتين".

جاء الصباح التالي آذناً بالترحال، في وقت ارتسمت فيه أنامل الشمس البيضاء على التلال، الصغيرة المحيطة بمدينة معين، غير أن ثمة ظلالاً بارداً لازال باقياً على ناصية المدينة.. بدأ الصباح مقطباً جيئه، منذراً باندحار آخر فلول السكون.. أخذ رام مائة فارس من فرسان معين، وسار بهم قاصداً ظفار حاضرة حمير، والأدلة يبتكرون أقصر الطرق ويتطلعون إلى الآفاق البعيدة عليها تهبهم أجنحة الزمن الذي يدور بإسراع، وانبعثت من قشرة التربة أجسام لا تحصى، وزادت الريح من ثورانها فصارت تكلل الفرسان بحلل غبراء مكتنزة.. وفي قلب الراحل هوة سحيقة

ليس لها تسمية في ذلك الزمان، ولكنه أسماها جزافاً  
الشوق.. تمايل الهدهد السبئي الساكن في جوفه كالملدوغ ونتج  
عن تمايله اسماً دقيقاً لتلك الهوة.. إذ قال هامساً:

"هي الحنين يا صاح. أرض وامرأة، الأرض التي لم تعتل  
عرشها بعد مع أنك وارثها الوحيد.. وتلك الخليفة التي مُزجت  
دماؤها بدم عبد من عبيدها على وثيقة لا تنقض.. والمقة غافلة عما  
يدور في أرض عابديها من عبث وجور.. والسادن لا يملك إلا  
أن يقيم هذا التشريع القائم على ألفاظ مأثورة لقنها إياه أول  
أجداده.. ولكن ليس له أن يجري على الملك كرب حدأ لتعسفه  
وإفراطه في القتل.. وأصوات معشر القوم تنخر عظم الآلهة.."  
ألف جلدة وبتر يده ورجله.. "مائة جلدة وقطع رجله من  
منبتها" .. و.. و.. "اقتله ولا تمثل بجسده" .. وهذه الأخيرة قول  
المشفقة الراحمة.. فاضت أفكار رام، فزفر وهمس لروحه: "لا  
أدري بعد لماذا عدل السيف عن قتلي؟ لعل ذلك لأنني اشتفيت  
الموت كما أشتيتي سيفي وحصاني.. وفي لحظات مُت مراراً،  
ولكنني في النهاية عشت لأشقي من جديد" ..

تماهت الأغبرة المشورة بكثرة عن جبهة الصحراء الممتدة  
امتداد البصر.. وراحت تتقلص شيئاً فشيئاً.. بدت الهضاب  
الجبليّة من بعيد تلوح كالإبل المناخة على البقيع، وسارت الرحلة  
بصعود مُطرِد.. صهلت جياد الفرسان موحية بदनو الإعياء  
الجدّي، وحمحم جواد رام لدى تضاريس غير مألوفة.. تسواري  
الفرسان خلف الهضبة الأولى ولاح لهم قاع مترامي الأطراف  
يفصلهم عن قلة جبليّة أرفع من الهضبة التي اجتازوها آنفاً.. كان  
عجبهم شديداً وهم يرون تلك الأرض مبللة والبقع الواطئة

مطمورة بالماء الضاحل.. قال رام مخاطباً من حوله:  
- قلما تهطل الأمطار على أرض جنات، ومع هذا تحف بها  
البساتين النضرة والجنان المثمرة، والعيون الكثيرة.  
أجاب أحد الأدلة:

- أرض جنات منخفضة، ولهذا تنحدر السيول صوبها...  
- ولكن السد لها بالمرصاد، فيتلعها جميعاً...  
بهذه العبارة أكمل دليل آخر حديث رفيقه.. وأخذ رام يجول  
بفكره حول بنيان السد الشديد.. وتذكر القول الشائع في سبأ  
وهمس سرّاً:

« يا للمقة، أنشأ سوره خمسون ألفاً من العتاة في زمن الملك  
يراع، فأعاش أقواماً لا تحصى ! ».

طرب رام لهذه الشائعة، وابتسم مزهواً بما أسلفه أجداده،  
وقاطعه عن نشوته ومض البرق الذي أومض من أعلى جبل  
الطيال.. فهمس بتفاؤل قائلاً:  
- انفرجت شفتا فردون بمكر..

وبعدها تمددت السحب السوداء في عرض السماء وطولها،  
ودوى صوت الرعد قوياً فقال بتطير:

- السادن شيزار يحاول إقتاعها بالرضوخ للتشريع..  
وانطلق صوت الصعق من كبد السماء، شارخاً الأذان، فأطرق  
إلى الأرض وقال بفزع:

- الملك كرب يقسم بالمقة..  
وأخيراً همت السماء بغزارة، فقال نافخاً في الهواء:  
- وتبكي فردون بشدة حتى تذوب عيناها..

وصل رام والفرسان إلى ظفار في اليوم الخامس.. فوجدوها

متربعة على تل منبسط، يلفها سور وحيد لكنه قوي ومطعم من أسفله بكتل صخرية يبدو أن أيدي عملاقة قدتها من جبل ظفار الجاثم غرب المدينة، لذا لا غرابة إن لاحظت هذه المدينة في شفافية الفجر كقطعة جامدة من الجبل.. انتظر رام ورفاقه حتى أشرقت الشمس على تلك البلاد، ودبت الحركة حول سور المدينة فاقتربوا من بوابتها بتهيب. فاعترضهم الحراس وصاروا يحمقون في أزيائهم بإعجاب، وبعد محادثة قصيرة بينهم اتضح أن الملك يريم بمدينة سام وليس في قلعة ظفار سوى ابنه رعين. وقال رام في خضوع:

- لا ضير من لقائه وعرض الأمر عليه...

ثم دلف والفرسان وسار خمسة من الحراس أمامهم صوب قلعة ظفار.. وبعد أن أذن لهم رعين بمقابلته.. دخلوا إلى مجلسه تباعاً ورام يتقدمهم بقوامه الفارع، لكنه فغر فاه مندهشاً حين رأى على كرسي المجلس غلاماً حدثاً بريء الملامح، وعلى يمينه فتاة سمراء ناضجة قاسية، وعلى يساره فتاة ثانية يلفت النظر وجهها الخمري الضاحك وجسمها الفتى كامل البناء، وتبدو من عينيها النابهتين الزرقاوين أصغر وأدهى من الأولى، لم يتحرك رام. بينما انحنى فرسان معين إجلالاً للملك الصغير الذي كان ينظر إلى أزيائهم ويضحك بطفولية.. وثمة طائفة من الشيوخ تحوط به، وزمرة من الشباب أيضاً.. بادرت فتاة اليمين قائلة لهم بغطرسة:

- ما حاجتكم يا قوم؟

أجاب رام بحدة:

- هذا غلام حدث، ولا أدري كيف أخاطبه.

ردت الفتاة بغضب:

- من أنت أيها النحيل حتى تبتغي عمراً ملوكنا؟
- ألقي إليها نسبه، فتدخلت فتاة اليسار قائلة له:
- يقال أن لكم علامة تفتخرون بها، فما علامتكم؟
- الدائرة المقدسة المتربعة على الكتف الأيسر.
- أرني إياها.

قالتها بعناد، فرد بفتور:

- لن أفعل حتى أرى علامة ملوك حمير!!

مدت فتاة اليسار يدها إلى طبق تفاح بجوارها، وتناولت واحدة حمراء وقذفتها صوب شاب لا نبات بعارضيه يتوسط المجلس دون أي تلويح أو إنذار.. وبسرعة مذهلة تلقاها بضربة من سيفه فشققها نصفين..

سرى ألق من الزهو في ملامح الحميرين وقالت الفتاة بأنفة:

- أحسنت يا غيمان. أنت أمهر أبناء عمومتنا في إتقان العلامة..  
انبرت فتاة اليمين قائلة لها بحدة:

- يحصب لا يجاربه أحد، فهو أمين خزائن حمير.

- بل غيمان، قائد الخيالة، أما خطيبك يحصب لا...

- بل يحصب و...

أما رام فاحترار وقطب جبينه في دهشة، واعترف بمهارة الشاب.. ولكنه عاد يخاطب فتاة اليسار منهيماً الحوار المحتدم بينها:

- اقدني تفاحة أخرى إلى الأعلى، لأريك العجب..

استجابت الفتاة ومدت يدها إلى الطبق وخطفت تفاحة، ورمتها عالياً بتكاسل، وعيناها لا تحويان أي حماس.. سددها رام

إلى التفاحة نشاباً كان في يده، فوقع في منتصفها ولم يمرق منها، ونزلت التفاحة إلى أرضية المجلس والنشاب مشتبك بها. فانذهل كل من في المجلس حتى فرسان معين.. وتأوهت فتاة اليسار لقرط الدهول.. وإذا بغازٍ يحط في أحشائها ويحتلها دون أية مقاومة تذكر.. هذا المحتل الفتاك تجلى كصغير شرعت أسنانه بالبزوغ على فكيه.. شعرت به يعض قلبها ثم يلثمه، ويبكي ويفرح، لكن الشيء الوحيد الذي كانت تؤمن به هو أنها سعيدة به، تواقه إليه رغم ذلك.

راق لفتاة اليسار أن تعرف عنه الشيء الكثير.. وصار صوتها يرق ويرق وهي توجه إليه أسئلة متلاحقة، مستعينة بالأدب والجدية والاهتمام وهو بدوره يجيب بصدق، وفي أول الحديث قالت بتهكم:

- أرنا الدائرة المقدسة...

كشف رام كتفه.. فأرأوا الدائرة المقدسة، في حين عادت لتسأل:

- ما اسمك، وإلى أي الملوك تنتسب؟

- رام بن شام، وأنسب إلى ذوي الدائرة المقدسة.

- ما حاجتك يا ملك سبأ؟

- أصبو إلى لقاء ملككم لأمر هام.

لم تقتنع بهذا الجواب، فعادت لتسأل بفضول:

- هل لي أن أعلم بحاجتك فلعل بوسعي أن أعينك؟..

قاطعتها فتاة اليمين بنزق:

- إياك والتدخل والثرثرة. الزمي الصمت، فلا شأن لك

بما يريد.

أخفضت فتاة اليسار رأسها بحياء وقال لها رام مواسياً:



- أشكرك على لطفك، والحقيقة أن الرومان زاحفون على  
الممالك..

ثم أوضح رام القصد من قدومه في حديث مختصر، فازدادت  
به فتاة اليسار تعلقاً، واستفحلت قوة الغازي في جسدها،  
وأوسع قلبها كياً وتحريقاً.. في تلك اللحظات أزعج رحيل رام،  
واستدار ومشى قارعاً قبة المجلس قرعات ثابتة، فاستدارت  
معه روح فتاة اليسار وكادت تهول خلفه لولا أنها علقته بخيط  
من جلد، وأعيقت بحطام وأكوام من أمل ودهاء.. إذ قالت  
تخاطبه وهو لدى الباب:

- أبلغ الملك يريم أن الصغرى تدور في الدائرة القريبة منه  
ووقعت عليها، ولا مناص ولا خلاص.

وقف رام والتفت إليها، فأعادت عليه الألفاظ، ولكنه  
قال بعجب:

- كيف أحمل رسالة لا أدرك معناها؟

- لا شأن لك بهذا، سوف تعرف معناها حالما تصل

إلى الملك..

هزّ رام رأسه مدعناً، وخرج والفرسان من قلعة ظفار، ولكنه  
حتى تلك اللحظة لم يفهم مغزى تلك الرسالة التي ألقته إليه  
فتاة اليسار لينقلها إلى الملك.. كان أول من فطن إلى معنى الرسالة  
هو الشاب الحميري غيمان، فانسحب خارج المجلس بعد برهات  
من خروج رام، ثم فتاة اليمين وبقية أقبال وشيوخ مجلس حكم  
ظفار. راحت فتاة اليمين تعاتب فتاة اليسار بشدة.. وما إن ابتعد  
رام عن بوابة ظفار قليلاً حتى رأى الشاب الذي شق التفاحة  
يعدو خلفه راكباً على حصانه، ويناديه بصوت جهور. تريث رام

والفرسان وقد هالهم أمره. اقترب الشاب منهم لاهثاً واسترد أنفاسه بعض الوقت. ثم قال بتوسل:

- أنصحك يا ملك سباً وأتوسل إليك أن تكتم عن الملك رسالة راما...

- لم أنكتم عنها يا صاح؟

- أنا أحب راما منذ سنوات بعيدة!! وهي ابنة عمي، وربينا معاً..

قال رام للشباب باستغراب:

- ما علاقة حبك لها بتلك الرسالة؟

- لقد آلى الملك على نفسه أن يقرن راما بمن ترضي به حتى إن كان الشخص المرغوب كارهاً الاقتران بها..

انطلقت نظرات رام إلى وجه الشاب كالشرار، قبل أن يقول

بغضب:

-انطق أيها الشاب وأفصح عما يجول في نفسك!!

بلع الشاب الحميري غيمان ريقه، وحلق بعينيه، وقال بتناقل:

-الفتيات في حمير يخطبن الفتيان، وراما في رسالتها قد خطبتك

لنفسها وتطلب من الملك أن يُعجّل بالزواج...

ضحك رام حتى كاد أن يقع من على حصانه، فحدجه الشاب

بضيق وأضاف:

-لا تضحك يا سيدي، وعزة اللات أن الملك يريم سيقرنك

بها راضياً أو مكرهاً إن أنت أبلغته الرسالة...

-اطمئن يا سليل حمير، لن أوحى إلى الملك بشيء،

وشرف المقة..

انذهل رام من جرأة الفتاة ودهائها، ورغم أنه لم يجد في وجدانه

أي هوى لها. إلا أن ثمة شيئين شدا انتباهه واستحقا التفكير.. اسم الفتاة القريب الشبه باسمه.. والوصف الأخير الذي جاد به الشاب الحميري، حيث زعم أن فتاة اليسار راما هي العقل المدبر للحكم في حمير، وكثيراً ما يرجع الملك إليها عند النوائب الكبار ويأخذ بقولها أياً كان.. والملك يريم يود أن تكون قريباً منه، وقد أسعده يوم خطبت غيان لنفسها، وهي علاوة على ذكائها الخارق جميلة ورقيقة ونديّة اليد. وهكذا مضى رام ضاحكاً وشاكراً الآلهة، لأنه لم يسقط بشرك الرسالة. وصار يقول لمن حوله:

- هذا أغرب ما مررت به في حياتي من أعراف الممالك.

انتاب راما الأرق، وأحست بالضيق يجثم في صدرها. أخذ قلبها يخفق خفقات متتالية. كانت مطمئنة بحب " غيمان " ابن عمها وراضية به. لكن كل شيء انقلب وتبدل مذمجيء رام، ذلك السبئي الذي حوى الصفات التي ترجى في الرجل، عيناه شبابتان جذابتان ووجهه خضراوي فاتن خالٍ من الرتوش، فمه مدور وكلامه موزون.. وأجمل ما شدها إليه هي هيئته الطافحة بالجدية والبسالة والعراقة، ولعل بعض الحياء يكتنف تقاطيع ملاحظه، وشيء من المرح أيضاً. ملبسه لا يوحى إلى ترف، ورغم بساطته يبدو في مظهره أزهى منه لو لبس النفيس والباهظ من جلابيب الملوك. وقد فطنت راما بما لها من أنوثة جبارة أنه رجل يتعذر على أي فتاة أن تخذله فيما لو عرض عليها أن يطارحها الفراش. وهي بطبيعتها تعشق الكمال. وليس عسيراً على فتاة هي مستشارة حمير، أن تعثر على بختها الجميل، فحين خطبت غيمان من قبل، كان قرارها قد صدر عن عقلها الذكي فحسب. حيث ظنت أنه أمهر شاب حميري من أقاربها في كل شيء، والأجمل بكل شيء، والأنسب من غيره. لكن اختيارها لرام جاء من كل خلية في جسدها ومن كل عضو. من النفس والروح والقلب والعقل والأوردة والشرايين، وحتى من بين الفخذين أيضاً.

خاصم النوم عينها، وجفاهما جفوة شديدة، وهما المعتادتان

على الاستسلام له بسهولة كلما جاء في أول الليل. حلمت راما  
بأنيس متفهم فطن يشاركها همومها، ويصيخ لنجواها وأشجانها  
المتتدة في صدرها، دخلت على سحام شقيقتها الكبرى، فألفتها  
تغط في نوم عميق. ترددت قليلاً ثم عادت إلى مخدعها دون أن  
توقظها، لكنها لم تجد لدى القمر الساطع ما يروح عنها أو ينسيها  
ما يتهدى في نفسها من شجن. أرغمتها اللوعة أن تعود بعد قليل  
إلى مخدع سحام وفي داخلها إصرار جارف. ودون أي تردد هزمتها  
برفق، ففتحت عينها، وهبت جالسة بفرع، وهي تتساءل عما  
يحدث. ردت راما بتبرات هادئة:

- لا تخافي. أنا راما. وقد جفاني النوم هذه الليلة.

تثاءبت سحام بكسل، ثم أسندت رأسها إلى الحائط، وبدت  
وكأنها في حلم، في حين عادت راما لتقول باغتمام:

- رام! رام السبئي استحوذ على تفكيري، وشغل عقلي  
وقلبي معاً.

- يا لك من حمقاء. أظنك ناسية أنك خطبت لنفسك غيمان  
قبل عام.

أجابت راما بتوتر:

- صار غيمان لا يعجبني. وليس هناك ما يمنع أن أنقض  
الخطبة، وهذا جائز في الوثيقة.

- اخلدي إلى النوم. إنه لا يهفو إليك. لذا لا تنطبق عليه  
بنود الوثيقة.

- لا. أنا أحفظها بالتام. وأحد بنودها يقول: إن ذوي المآرب  
والمقاصد في حمير لهم ما لنا، وعليهم ما علينا. وهو من  
ذوي المآرب.

صاحت سحام قائلة بقسوة:

- أنت مجنونة - قسماً بالللات - إذ تجرين وراء غريب لا يحفل

بك.

- سيادلني الحب بعد الاقتران. أنا أعرف كيف أغزو قلبه كما

غزا هو قلبي.

- يا قليلة الحياء. لا أصدق أنك راما مستشارة حمير التي تدير

شؤون المملكة..

وأمسكت على رأسها، زاعمة أنها مصدوعة. فاستاءت راما،

وتنمرت، ثم فارقتها بالحال. وفي نغدعها أخرجت كل مصاغها

وحليها من صندوق عاجي متوسط الحجم وناولت خادمها

الأمين طبرو، وقالت له بحدة:

- خذ هذا الحلي والمصاغ وسر إلى الوزير حادم، واطلب منه

أن يلقاني عند باب القلعة. واستعجله يا طبرو.

بلغ رام وفرسان معين مشارف مدينة سام، وذلك بعد أيام من العبور الجاد، ولاح قصر غمدان شاهقاً كالبرج الهائل، سابحاً فوق قصور المدينة على قمة تلٍ عالٍ... والسحب تصطدم بطابقه الأخير الممرد بالزجاج، ولا تكاد الطيور المحلقة تجرؤ على الاقتراب منه لما له من بريق وهاج يخسف بالأبصار.. قال رام لنفسه وهم خارج سور المدينة الدائري:

"إذا صدق ظني وكان ذلك الشيء الذي أراه قصرأ، فهم أعز سلطناً وأكثر بسطة من السبئيين".

وعند دلوّفه ورفاقه المعينين إلى المدينة، أخذ يصوب نظراته بانبهار إلى الزخارف والتقوش التي جبلت بها الأجدر والحيطان في الأزقة المعبدة بالأحجار الملساء المستوية.. أفسح أهالي المدينة لهم الطريق وبشوا في وجوههم، وتبين لرام وفرسان معين أن السكان هادئون لطاف في المعاملة، وقال أحد الفرسان المعينين:

- رغم اتساع المدينة وكثرة قصورها المزخرفة إلا أن سكانها قلائل..

رد عليه رام قائلاً بهدوء:

- ربما اتخذها ملوك حمير للراحة والترريح على أنفسهم من أتعاب الحكم..

- ها هم مسلوبو السلاح، وأظنهم قوماً كسالى لم تطحنهم الحروب.

نطق هذه العبارة فارس معيني آخر.. فرد رام بنبرات حادة:

- من شيد هذه القصور لا بد أن يكون قوياً.

وابتلعتهم أزقة كثيرة وسط المدينة حتى وقفوا أخيراً وجهاً لوجه أمام قصر غمدان وأخذوا يرنون بأبصارهم إلى أعلاه، فرأوه يناطح السحب، وتبدو أشتات من الطيور تحوم حول رأسه كالبعوضات.. تضاحك حراس القصر الغلاظ، وسألوهم عن مرامهم، قالوا نود مقابلة الملك، فأشاروا لهم إلى طريق يسلكونها، واتبع رام والفرسان الطريق المؤدية إلى ما وراء قصر غمدان، وانكشفت لهم حينها أرض منبسطة رحبة مكدسة بألاف الجنود.. تأمل رام سقيفة عالية مفتوحة موشاة بقطائف زاهية، وبها كرسي برونزي محشو باطنه بريش النعام والطاووس، فبدا غاية في الروعة والبهاء.. ولكنه خالٍ وثمة أجناد محاطون حوله.. بينما الأجناد الكثيرون مرتصون في تلك الباحة العريضة.

اقترب رام والمعيون من السقيفة، فهرع إليهم الحراس، وقال

أحدهم بشراسة:

- يا أشر الخلق في حمير، كيف تجرءون على الاقتراب من

السقيفة الملكية؟

- لسنا من حمير، نحن وفد من سبأ ومعين إلى الملك..

- المسامحة يا قوم.. لقد ظننتكم من ظفار جئتم طمعاً في الأمانة.

رد عليه رام مستفسراً:

- ما هي الأمانة يا حارس السقيفة؟

- أنظر إلى هناك، أنهم يسددون سهامهم إلى هدفٍ متحرك

فإذا أصاب أحدهم الهدف يتمنى على الملك ما يشاء، فيلبي



أمنيته. إنها لعبة قديمة في حمير أصبحت فيما بعد عادة أثيرة.  
تعجب رام وفرسان معين غاية العجب، وسال لعاب البعض،  
وقال رام سائلاً الحارس:

- أهذا دأبكم دوماً يا معشر حمير؟

- لا يا هذا... بل يحدث هذا في عيد الآلهة (ود).

همّ رام أن يستفسر عن الهدف لكن الحارس خاطبهم مضيفاً  
بقلق:

- لو التفت الملك ورأى زحامكم قرب السقيفة سيعاقبنا  
بشدة..

انحرف رام ومن معه ناحية الملك والأجناد الكثيرين المزدهجين  
عمق تلكم المساحة الشاسعة، واندسوا قرب مركز الرماية  
قاصدين المتعة والنظر إلى ما يدور هناك عن كئيب.. أمعن رام  
النظر في الهدف وتضرج وجهه بالذهول وتذكر للتو ما جرى في  
مجلس ظفار... كان الهدف تفاحة صغيرة ناضجة تتدلى بخيط  
رفيع، وثمة عمودين عاليين يصلها جبل متين من الأعلى،  
وخيط التفاحة معقود من منتصف الجبل، والتفاحة معقودة في  
آخر الخيط من الأسفل، ومن وراء العمودين يتجلى لوح خشبي  
ذو عرض وارتفاع كبيرين، وعليه دوائر متداخلة منقوشة  
بالنورة البيضاء، وكل دائرة تحتضن سابقتها وهكذا...

أدرك رام بلا جهد بأن الغرض من اللوح صدّ السهام عن  
المروق إلى الناحية الأخرى.. لكنه لم يستلهم من خلال تفكيره  
المضني الغرض من تلكم الدوائر البيضاء.. وصار يرقب الرماة  
وهم يقومون بالرمي، وكسل رام له رمية واحدة لا  
يكررها.. وثمة قوس عاجي عتيق يتناقل من يد إلى يد... غير أن

هناك أفاعيل غريبة طرأت في زمن الرماية جعلته يدوخ في مكانه، ويستشعر بفداحة اندساسه والفرسان بين جموع حمير.. إذ كان هناك عشرة رجال أشداء عراة مشمري السواعد، يقفون جانباً من خط الرماية، أحدهم يحمل سيفاً قاطعاً، وآخر ممسك بسوط مطاطي سميك متوسط الطول، أما الباقيون فمجردون من أي شيء.. كان رام بمكان لا يسمح له برؤية الملك الذي غاص عمق زحام الجنود، ولا تكاد تظهر منه إلا خوذته الحديدية.. انتفض الهدهد السبئي جزعاً حين شاهد جميع الرماة يعرضون على صاحب السوط، وذلك بعد أن يستقصر عليهم الثمانية المجردون من السلاح، ويطحوهم أرضاً.. ومن ثم يلهب الجلابد بعض هؤلاء الرماة حتى تدمى جلودهم، والبعض الآخر يكون حظه قليلاً من الجلد.. صار ومن حوله يزحفون ناحية الملك دون أن يشعر بذلك الزحف المطرد، بيد أنه أخيراً أدرك ذلك حينما تناهى إلى مسمعه صوت الملك قريباً وهو يخاطب العشرة بين برهة وبرهة:

- هذا حظه خمسون وذاك عشرون جلدة، وذلك...

وكان صاحب السيف عاطلاً عن الحركة خامل الجسد. وبدأ حتى تلك الوهلة يائساً إلى أن صرخ الملك، وهو في خضم أوامره الدائبة للعشرة:

- اقطعوا رأس هذا، فلا حاجة لحمير به..

وثب صاحب السيف بالحال، وقام بقطع رأس الرجل الذي أشار إليه الملك.. وثوى إلى مكانه حاملاً الرأس على سنان رمح طويل.. وخاطب رام حميراً من الرماة، قابلاً بجواره، قائلاً له بحيرة:

- ماذا جنى ذلك الرامي حتى يقتل؟  
 - كأنك غريب عن حمير؟ سأله الحميري..  
 هزّ رام رأسه مؤكداً، وتطلع إليه متعشماً التعجيل  
 بالرد. فأضاف الحميري بلا مبالاة:  
 - ذلك المسكين زاغ سهمه عن اللوح الخشبي، وعلى أغلب  
 الظن أن الغرياء لهم الحق في الرماية كما أن عليهم عين العقاب..  
 - هل نجح أحد الرماة في إصابة التفاحة ذات يوم؟  
 - أصابها الملك أبرهم، وهو أحد أجداد الملك يريم، ومن  
 بعده لم يصيبها أحد..

انقبض صدر رام وأحس برغبة في الإحجام عن الرمي، ولكن  
 الهدهد السبئي قرصه في قلبه قرصة شديدة، فقال لنفسه:  
 "عساني أصيب التفاحة وأتمنى أن تنضم حمير مع معين للذود  
 عن سبأ".

أخذ قلب رام يدق بشدة مع مرور الوقت، وما زال الرماة  
 يتناقصون، وبدأ محيطه ينكشف رويداً رويداً والأنظار  
 تزحف صوب موضعه، بيد أنه شجع نفسه وصرخ الهدهد في  
 جوفه قائلاً:

"الملوك لا تهاب، وما مررت به من الأهوال أشد وأمر من  
 الجلد متى أخفقت في الرمية" ..

مضى جويره الحميري، ورمى رميته ولم يصب التفاحة،  
 فانقض عليه الرجال الثمانية، وبطحوه، وسمع الملك يقول:  
 اجلدوه خمسين جلدة.. وجاءه صوت مدرب الرماة عالياً:

- اقترب أيها التحيل من موضع الرمي..

دنا رام وآلاف النظرات تلوك رشاقة جسده، والبعض يحدس

ما سيناله من جلدات السوط، لكن ما حدسوه يتفاوت  
لأسباب شتى قدروها عشوائياً. وتوقفت خطاه فوق مكان  
الرامي، وهو مربع منقوش بالنورة البيضاء على التراب، ويقابل  
التفاحة الحمراء.. أخذ رام السهم من الأرض، ولم يلتفت إلى  
القوس المجدول بجانبه، وصاح المدرب عليه، وكان عبداً حبشياً  
أسود كالغراب، وقال بازدراء:

-أيها الرامي المغرور، خُذْ القوس، فقد أصاب الملك أبرهم  
التفاحة بالقوس وما أنت إلا حشرة إذا قارناك به..

-صه يا أقذر الأحباش وإلا أسقطت السهم في أنفك المتفخ..  
قالها رام باهتياج، وأفادت كراهيته للأحباش من برائن أعماقه  
الساكنة. وبلا أدنى تردد التفت بإسراع ورنأ إلى التفاحة بتحد ولم  
يعبأ باهتزازها بفعل نسائم الهواء السارية على المكان، ورمى  
السهم بثبات، وما لبث أن وقع على منتصف اللوح  
الخشبي.. حلّ بالحميرين جهود مباغت لبرهة وجيزة... ثم  
تدافعوا إلى الأمام غير مترئين لأمر من الملك يريم، فلحق بهم  
شاقاً طريقه وسط الزحام وحراسه تضرب الجند أمامه بالعصي  
لتفتح له ممراً يوصله إلى حيث التفاحة، وفي غضون لحظات  
وصل إليها وتأملها بتمحيص دقيق، وعلى وجهه لطفة من  
الشحوب، وسرعان ما التفت إلى مدرب الرماة رامقاً ملاحظه  
المهزومة باستفهام فقال بنغمة أسفية:

-أصابها الخبيث في القلب يا سيدي. رمية سديدة ليس فيها  
مجال للشك أو المراوغة.

لوى الملك يريم حصانه بحنق وأشار لهم باللحاق.. وسار  
حتى استلقى على كرسي السقيفة بإرهاق ودار الجند حوله

وأخذوا يرنون إلى رام بنظرات إعجاب والبعض غيورة، وهو محمول فوق أعناق فرسان معين والغبطة تعتمر في أجزاء وجهه الساطع، وتتكاثر في سطحي عينيه المشعين، ولما استقر أمام كرسي الملك يريم أشبهه الأخير تحديقاً ولاسيما إلى إزاره المبطن بفرو الأرناب، وعصابة رأسه المحتوية لجبينه والمعقودة في قفا رأسه. ورغم إنكاره أن يوجد ملبوس كهذا في حمير، إلا أنه قال يخاطبه مواريأ حرقته:

-باركت بك اللات أيها الرامي الحميري، فقد صرت ثاني رامٍ يصيب التفاحة، وأضحت لك أمنية مستجابة..

أجاب رام قائلاً برباطة جأش:

-لست من حمير يا جلالة الملك، وقد جئتك من سبأ ومعين وافداً..

انتشرت نظرات الملك يريم هنا وهناك، وبدا مفتتاً وشارداً قبل أن يأمر نقرأ من الجند صارخاً بعصية:  
-أتوني بالكاهنة شמוש في الحال..

انبرى ثلاثة من الجند، وغابوا بعض الوقت، ثم رجعوا ومعهم الكاهنة شמוש، وهم قابضون على ذراعها لكي لا تسقط.. والعكاز في يمينها يساعد هيكلها المعقوف على الوقوف، وقد بدت على وشك الانقراض، وجلدها الجاف ملتصق التصاقاً عفويًا على وجهها المتعكر اللون الذي تبرز التجاعيد على أركانه كحطام الأطلال الخربة.. وعيناها المبيضتان مثبتتان بلا عائق عمق تجويفين معلقين ككهفين مهجورين، وعلى حواف شفيتها تتدقشور أحدثتها تشققات مزمنة، لمحها رام بتقزز وتشاءم من إقبالها وهمس بصوت خافت قائلاً بضيق:

"يا للمقة، عجوز عجفاء حذباء تجاهلها الموت، يا هل ترى  
ما شأن هذه الشيخة؟"

أوقفها الجند بين يدي الملك يريم، فأمر لها بكرسي جلست  
عليه بمساعدة جنديين، وثبتت كالوثن بصمت، فقال لها الملك  
بعجل:

-يا شמוש!! أتذكرين رؤياي التي قصصتها عليك قبل  
أربعة أيام؟

أتى صوتها مرتجاً بصدى وإه وحشرة مذنبذة وهي تقول  
مؤكددة دون تفكير:

-نعم يا سيدي، أذكرها جيداً، فقد رأيت أن طائراً غريباً حط  
على أحد أركان قصر غمدان، وقذف من عينيه سهاماً عديدة  
أصاب أحدها قلب ابنتك راما، ولكنها أمسكت به، وأتت به  
إليك ولا أثر للجراح في صدرها.

-بمَ فسرتِ الرؤيا يومذاك؟

-قلت يجيء شاب غريب ذو شأن يروم قصر غمدان لأمر  
جليل، فتراه ابنتك راما، وتميل إليه وتخطبك عنه.

تفكر الملك يريم برهة من الوقت، ثم ضحك عجباً، وحدث  
رام بنظرة فاحصة، فوجده حائراً ممتقع الوجه، فحوّل بصره إلى  
الكاهنة وقال بريب:

-ولكن ابنتي في ظفار يا شמוש!! وقد سبق لها أن خطبت  
غيان لنفسها.

-أفتيت بما أعلم يا سيدي.

قال الملك في سره وهو شارده العقل: "لعل هذا السبئي يطمع  
في الزواج بابنتي راما ولعله أتى من أجل ذلك، وبعد أن أصاب

الخبث التفاحة لا بد أن أحقق أمنيته.. ومن ثم من لحمير بعد  
راما !!!".

أما رام فقد استعرت أغوار أعماقه بقلق محض، ووجد في  
الصمت خير معين له، وأكنّ في نفسه عمداً خبر عبوره ظفار،  
وتمنى أن يغفل الملك عن هذا الشأن بالذات.

ضاع سؤال جاد رسب في رأس الملك يريم، وكان قد خطط له في  
السابق ونسي أن يسأل رام عن اسمه ونسبه، إذ ظل يفكر في الأمانة  
التي قد تؤدي إلى فقدان رام العقل المدبر لمملكة حمير، وتمنى الملك  
يريم أن تكون الأمانة في مدار المال والسلطان، وأضاف مضمراً  
باغتمام: "لو أراد مدينة سام وقصر غمدان لما ترددت عن منحها له،  
ولكن راماً لن أسمح بها، ولو كان أشهر ملوك الدنيا، وأرادها  
لبخلت عليه بها، إلا إذا قبلت هي به أو بأي من ملوك المعمورة، أما  
هذا السبئي فلا يمكن أن يتمناها، وإن فعل قايضته بأمنيته أمانة  
أخرى مهما بهزت وأغرته بخزائن أمواله".

لاحظ رام الغمة طافية على ملامح الملك يريم، واكتنه سبب  
شروده، فابتعد عن صمته وقال للملك:

- لا تغتم يا جلالة الملك، ولا تأخذ قول الكاهنة في الحسبان،  
فلست أطمع بشيء تخشى عليه.

- وأنا لست مساوماً على أمنيتك، فتمن عليّ ما تشاء.. قالها  
الملك يريم بتلعثم، وقد أخجله التلميح، وعاد رام ليقول له:  
- لديّ غنى عن مصاهرة الملوك، وقد جئتك من أجل خطر  
السّم ببلادتي..

- حان الآن الوقت لتقريب القرابين وإشعال النذور، وبعدها  
أسمع أمنيتك كما هي العادة".

وخف الملك يريم إلى حصانه، فامتطاه واقتدى به الأجناد. وساروا خلفه إلى أن خرجوا من مدينة سام، وانتهى بهم السير الحثيث إلى معبد مهيب يدعى مزود، وهو قائم جوار روضة بهيجة على مرتفع صغير تحف به أشجار الكروم من كل جانب. وتزدحم سلام شتى مؤدية إلى باب منحوت عرض صخر ذلك المرتفع الأحمر.. وتجلت فتحتان مربعتان على جانب قصي من ذلك الباب، وظهر السادن مينامر من باطن المعبد، وراح ينطح الجدار برأسه نطحات معدودات متقنات جاهراً بالدعاء، والدموع تسح من عينيه وأعين معشر حمير الذين تسمروا في أماكنهم بصمت مطبق.. وبدأت مراسيم القربان والنذور، وانبرت مجموعة من العبيد وقامت بذبح أبقار بيضاء خالصة اللون.. ثم جعلت تلتخ بدمائها حيطان المعبد من الداخل والخارج. بعدها أوقد خدم المعبد ناراً عظيمة لفعت القوم حرارتها القاسية.. ثم نفث عليها أوقية من البخور الذي تزخر به مملكة سبأ.. فارتفعت أدخنة هائلة غطت جنبات المعبد وتمادت حتى لفت الملك يريم والأجناد، ومحقت الرؤية في العيون.. سعل رام وفرسان معين سعالاً شديداً، وتزحزح في مكانه متذمراً، وصار لا يرى كفه، وثمة رائحة نفاذة تلهب جيوب أنفه بكثافتها الحادة، وبالرغم من أنها طيبة للغاية إلا أنه تأقّب منها وفرسان معين لفرط انتشارها، ودوامها مدة كبيرة من الوقت والأدخنة في سماء المكان...

شعر رام بضيق في التنفس، وكاد يختنق، لكن أحد فرسان معين أسعفه بمرط من المخمل الخفيف طواه على رأسه وستر أنفه جوفه، وبعد مدة ليست بالقليلة صفا الجو نوعاً ما من



الدخان، ولم يبق غير عقب طفيف من فوح طيب، وبقايا شفافة من قتام متطاير، فجأة خلع السادن مينا مر حذاءه الجلدي السميك، فاقتدى به الملك يريم والحميريون الذين بدورهم غمزوا رام والمعينين فسارعوا إلى خلع نعالمهم، وقال رام لنفسه وهو لا يدري ما ينوون فعله: "ما أغرب معابد حمير المنحوتة على الجبال! وما أعجب تشريع آلهتهم اللات! حتى السادن لديهم يصطنع الإعياء للقوم، ويجوك لهم وقفات طويلة... أوقف حواراه ونفسه مجبراً حين خسر الحميريون سجداً في مواضعهم دون ترتيب أو سابق إشعار، ويفعل ذلك كاد أن يتعثر في حجر بارز كان أمامه، حيث دفعه القابعون وراءه بأيديهم ليتيح لهم مساحة للسجود، وإثر تلك المباغلة انخرط بعض فرسان معين في السجود، أما البعض فقد عزف عنه عندما رأى رام واقفاً ومندهلاً يتلفت حوله كالمصعوق.. لكنه بعد أن طال أمد السجود استعاد رباطة جأشه وساد عليه الهدوء، وأدرك حينئذ أن سدنة حمير هم المشرعون أيضاً، لذا بلغوا شأواً زائداً في القداسة وقد سجد القوم أسوة بالسادن مينا مر، وليس لأحد في حمير أن لا يسجد أو أن يتخلف عن السجود. أخيراً رفع السادن مينا مر جبهته من على حصير طلي بالزعفران والملح المذاب، وهي المادة التي يقول السدنة أن الأرواح الشريرة لا تقربها، ولا تمسها سوى طوارق النور من الأرواح الطاهرة الخفية.. التفت السادن مينا مر ليأذن للقوم برفع جباههم، لكنه رأى رام وبعض رفاقه واقفين وسط الأشلاء الكثيرة الساجدة وكأنهم حيطان متناثرة فضلت من مدينة حصدها زلزال شديد، فتلبد وجهه بالغضب، وقال لهم بصوت مزعج:

-لم لا تسجدون للات يا أجدد القوم بفضائلها وخيراتها  
الجمعة..

-نحن نعبد المقة لأنها آلهة الضياء والدفء، ولكنكم تعبدون  
حجراً جامداً.

بهذا العبارة أجابه رام، فاستهول السادن مينامر كلامه، وكاد  
أن يُغمى عليه لفرط غيرته على السلات... وراح يقول بفرع  
وارتعاش:

-حاشاك أيتها الآلهة النزيهة مما يتقول به الجاهلون، لا تغضبي  
فديناك بأنفسنا وذرائنا وأموالنا. فما فتئت أفواهنا تجهر بالثناء عليك،  
وقلوبنا تحفق بين يديك. فلا تؤاخذينا بذنب لم نقترف منه شيئاً.

في تلك الأثناء رفع الملك يريم والحميريون رؤوسهم، وأحروا  
جسد رام بنظرات حادة وقعت عليه من أعين متقدة، وشبَّ  
حريق من التعنيف والتحقير، ثم التفت الملك يريم وأزال تجهم  
وجهه، وسار حتى وقف أمام السادن مينامر وقال بلطف:

-أيها القديس السموح، لا تؤاخذ هذا الشاب على جهله، فهو  
غريب من أرض سبأ له دين آخر، ولو كان من حمير لأذقته  
صنوف العذاب حتى ترضى عنه اللات.

-خذه.. فقد اعتقته الآلهة ليعلم أنها تكره أن تراق دماء الغرباء  
والأطفال والنساء ماعدا الخارجين عن تشريعها من أهل حمير.

فقال رام هامساً لنفسه بتشاؤم: "إنه كالسادن شيزار يجيد  
الحديث عن التشريع، فيضع له موثيق كاذبة تخدّم الملوك  
وتساعدهم على قهر رعاياهم، ولا زالت الوثيقة كما هي عالقة  
بجدار المعبد، ولا شيء يتغير في أرض جنات غير لون وجهك  
أيتها المقة، ولا شيء يموت سوى عدلك، وكأن اقتران شنار

بفردون هو سبيلك القويم، ولعل قربي منها وحبي لها يحزنك ويؤلمك. ولا يزال العبد شنار ماضياً في غيه وعبثه، فزيديه تيهياً على تيهه حتى تزول معابدك بمعاول الأحباش والرومان، وبعدئذ لن تقوم لك قائمة، ولن يعبدك أحد، وسأضحك منك كثيراً، وأظل طريداً في الصحارى حتى أموت غرباً على متن جوادي كما عشت غربياً. ولكنني ذقت الشقاء صغيراً وشاباً، لأجل هذا أشفقت على سبأ، وهي البلدة العزيزة، وعلى رعاياها وهم الأعداء. ومع أنني الوريث الحقيقي لعرش سبأ، ولكنني أرغب في أن أقبض به عمي كرب بفردون..

لم يكن رام يشعر أنه يمشي وموكب الملك إلا حين رأى قصر غمدان، وولج إلى داخله. حيث انتهك بشدة، وهو يصعد السلم الحجرية الطويلة، وما إن بلغ الملك يريم مجلس الحكم حتى حشر جسده على كرسيه العريض، وما زال رام يلهث من التعب بعد أن استقر بجانبه على مقعد وثير. بيد أنه طفق يرنو إلى ما حوله بإعجاب مفرط. وغمرته الغبطة حينما استقرت عيناه على الأكسية الزاهية والتقوش الغريبة الباشة على الحيطان والسقوف، وقال لنفسه بتهيب:

"إن من أرسى هذا القصر المليح، وأتحفه بالزخارف والأسجية الفريدة والنهارق والأرائك الوثيرة قادر على سحق الرومان.."

راودته نفسه أن يطل من النافذة على ما تحت القصر ليقبس علوه، ويتمتع برؤية المدينة، فسار إلى النافذة وألقى نظرة ظامئة إلى الخارج. رأى المنازل كالكعك المرصوص بدقة فوق مائدة صغيرة، والمارة يدبون في حانات الأسواق كالنمل العاكف على

خزن الحبوب أيام القحط. أفلتت من فم الملك يريم ضحكة عارمة، وقال مصوباً نظرات متتابعة إلى وجه رام:

-هل أعجبتك مدينة سام أيها السبئي المغمور بالدهشة؟

-لا تخاطبني ساخرًا يا جلالة الملك، أنا رام بن شام.. أجب

رام بحنق.

بتر الملك يريم ضحكته، وتقمص الجدية قائلاً باندهال:

-علامتكم هي الدائرة المقدسة، ولا شك أن واحدة تتريع على

كتفك... لا أعلم في أيهما !!

-الأيسر. هاهي ذي، كن على يقين.

وكشف رام صفحة كتفه، وأراه الدائرة المقدسة. فقال الملك

يريم بخجل جم:

-لقد تجاهلتك، وأهملتك، أما الآن فتمن عليّ بلا حرج،

وأخبرني بما جئت من أجله.

عند ذلك ألقى إليه ما حدث في أرض جنات بدون تحفظ أو

زيف، وأسدى إليه خبر الألوية الرومانية، وقال في ختام حديثه:

-يا جلالة الملك !! أطمع أن تتحالف همير وسبأ ومعين على

مواجهة الرومان.

-وجبت ضيافتك إلى اليوم الثالث، وبعدهُذ أرد عليك.

أجاب الملك يريم..

ثم أرسل نظرة طويلة إلى باب مجلس الحكم، ولم يلبث أن أمر

الحاجب أن يصطحبه وفرسان معين إلى أماكن النزهة في المدينة،

ثم يعيده ورفاقه إلى جناح الضيافة في القصر. وفي ذلك اليوم

والذي يليه مشى بهم الحاجب إلى سوق التوابل والغلال وسوق

العطارين والبخور والطيب، ثم سوق النساجين، وسوق

الصاغة، وسوق الدباغين، ودار بهم أيضاً إلى أسواق شتى متباينة الحرف، فتعجب رام من ذلك التخصص والنظام الذي يكتنف أسواق وحوانيت المدينة. في صباح اليوم الثالث مال بهم الحاجب إلى حوانيت كثيرة مصفوفة قرب بعضها بداخلها شيوخ شاحبو الوجوه، لكنهم ذو أشكال وألوان متفارقة، قال الحاجب بازدهاء:

- هذه حوانيت العرّافين والمنجمين والحكماء، ولكل منهم مهارته وشهرته.

- ألا يوجد لديكم سحرة يستطيعون مسح عمي كرب إلى عمود رخام؟

تساءل رام متندراً وضحك بنشوة مفاجئة. ثم أضاف بنبرات جادة:

- أرشدني إلى حوانيت الحكماء، لأهتدي إلى أسماء العقاقير النادرة، فهاهي ذي حمير برعت في صنع الدواء، بينما تعاني سبأ من الطاعون، وتعاني معين من النقرس.

حينها عرج الحاجب إلى عدة حوانيت، ورام يقف لدى كل حكيم، ويستفسر عن كل عقار يصادفه، وهكذا حتى وصل إلى حانوت واسع على جداره نقش كبير انتقاه دون غيره من الحوانيت التي لم يمر عليها بعد، مضمراً أن يكون آخر حانوت يرتاده..

وقف أمام شيخ وقور انسدلت لحيته البيضاء إلى منتصف صدره، وبدت شعيرات صُفر قليلة تحتل رأس خديه، وعدد أقل يخرج من شقي أنفه المدبب، لكن رغم ما يبدو عليه من وهن التفت إلى رام، ورد تحيته بنشاط، واستعد لخدمته وتلبية

طلبه. فسأله رام بطراوة:

- ما هو عملك يا عماء؟ وما هذا النقش البارز على الجدار؟  
- أنا حكيم. وهذا النقش كلمات يحفرها التُّحات ليتهدي إليّ  
من يجيد القراءة، وهو ليس الأوحده، ولكنه أكبر نقش في  
السوق.

تعجب رام من فكرة النقوش المبتكرة، وحيثذ انتبه إلى نقوش  
صغيرة على الحوانيت الأخرى، فسأل الشيخ بتطفل:  
- أي الأمراض التي تداويها؟  
- ما أقدر عليه، ولكن لدي خبرة عالية قديمة في معالجة  
الكسور وأوجاع العظام...

أثناءها تذكر رام شهد، فهتف:  
- هناك فتاة تشكو من ألم قديم في المفاصل، ولا تستطيع القيام  
والمشي إلا بالمساعدة، فهل هنالك ثمة دواء لهذه الحالة؟  
- لدي علبة بها دهن لزج ذو منفعة أكيدة، ولكنه خاص بقرينة  
الملك.

- يا للمقة! إعطني جزءاً مما بحوزتك، ولا تخش شيئاً، فأنا  
صديق الملك وفي ضيافته. أليس كذلك أيها الحاجب؟  
والتفت رام إلى الحاجب بلطف، فرد بابتسامة حائرة ألقاها في  
وجه الشيخ، بينما رنا الأخير إليهما بقلق، ولم يلبث أن غاب قليلاً  
جوف حانوته، ثم عاد قاذفاً علبة متوسطة الحجم إلى كف رام،  
وقال بنبرات سريعة:

- هذا الدهن نادر جداً، وقد جلبته من الهند، وكلفني ذلك  
كثيراً من المال، وعلى المريض أن يمسح مواضع الألم في المساء  
والصباح لمدة شهر، وأرجو أن لا تبوح للملك بشيء من هذا...

-اطمئن، لن أفعل وهذه الصرة لك. وسأزيدك أضعافاً إن برئت الفتاة.

وقذف له بصرة مليئة بالدنانير، فتناولها الشيخ بلهف، ودق صدره مؤكداً جدوى الدواء، فودعه رام ومضى فرحاً ورفاقه صوب قصر غمدان.

\* \* \*

كان الشفق قد غاب وتوالد الظلام، وأوحى الجو بليلة مقمرة جميلة.. راح نصف القمر يتبادى من الأفق البعيد، والنصف الآخر مازال متدارياً خلف جبل النبي شعيب.. الليل في مدينة سام شهى ورائق، بالذات في الليالي المقمرة الشفافة، ما أجل أن يبیت الساهر على بهو قصر بعلو قصر غمدان!! وما أنقى سريره وهو مقتعد على الشرفة، يغازل السحب والنجوم عن كذب، وصوت الكائنات الليلية المقلقة لا يكاد يصل مسمعه إلا كما يشبه الخيال.. ليس بحاجة إلى شيء سوى سكون مريح وكأس دافئ من البن أعدته جوارى جناح الضيافة في القصر. لا يوجد متحركاً غير قلب واجف هدهدته ذكرى سباً وفردون.. وبعد قطعة طويلة أتى النعاس فأب رام إلى فراشه مودعاً السهر.

في الصباح باكراً، تناول رام من بين متاعه حلته الملوكية الحريرية، والتي أهديت إليه من الملك معن ذات يوم.. ارتداها بعد أن أخذ حماماً ساخناً، وجفف جسده، فزالت عنه كدرة الأسفار ووعث السبل.. فبدأ وجهه صافياً جميلاً لا يشوبه عيب غير قسوة ضئيلة طفت بين عينيه السوداوين الشبيهتين بعيني أمه ترا.. لا تفتأ أن تحجبها عن الأنظار هالة نورانية ملكية من البراءة

والسوّد موءودة في ملاحه الشابة.. وتفصح عنها انكسارات  
وجهه وتقطيات جبينه وردود أفعاله في الحزن أو الفرح.. شوهد  
في باكورة ذلك الصبح مبتهجاً باشاً، وهو سائر وفرسان معين  
إلى بلاط الملك يريم، وفي أغوار أعماقه أمل دان يكاد  
يتحقق.. وهذا ما لمس به بنفسه واستشفه من أحاديث الملك  
الواعد، ولا سيما بعد أن صارت له أمنية مستجابة، ولما برزوا  
للملك يريم اهتاب من طلعة رام.. فأدناه ورحب به، وأقعدته  
جواره، وقال:

- ما هو الجواب الذي تظن أن يأتيك مني الآن؟  
- تلك أمنيته يا سعادة الملك، ولا بد أن أحسن الظن.  
قال رام..

تنحج الملك يريم، وقال بتشاط:  
- وأنا عند حسن ظنك يا حفيد شراح.. سنكون صفاً في حرب  
الرومان.. وسنظل نرقب أنباء الألوية، ثم نبعث إليكم الرسل  
متى جاءت. ومن ثم نشكل جبهة موحدة لتتحمى من جحافل  
الغزاة..

وثب رام وعلى وجهه يشع الامتنان.. وقال بحماس:  
- علي الآن أن أرحل إلى معين، فلدي ما ابتغي عمله في ميادين  
التدريب.

ثم انكفاً يصافح الملك يريم، وانبرى يبادلها عبارات صغيرة  
تقال عادة في الوداع. أثناء ذلك عبر الحاجب إلى ردهة  
المجلس.. وهتف بصوت عالٍ: " الوزير حادم يطلب الدخول يا  
سيدي " ..

أذن له الملك بالإشارة.. وقد حُضِب وجهه بخضاب



الفجيعة.. وتشاءم من مجيئه المباغت.. وما هي غير وهلة قصيرة  
وظهر الوزير الكهل من باب المجلس، وسأله الملك بقلق  
جامح:

- ما الخطب يا حادم؟ كيف حال الملك الصغير وشقيقته؟  
- إنهم في أحسن حال يا سيدي.. وقد أتيت رسولاً إليك من  
سعادة المستشار رام..

ارتعش بدن رام عقب قول الوزير، وتمنى لو كان رحل قبل  
قدومه، ولم يتمهل الوزير حتى يفيق قلب رام من الصفعة  
الأولى.. بل أعقب الأخرى:

- تزعم المستشار "راما" أنها وقعت في الدائرة  
المقدسة.. وتطلبها لنفسها ولا تريد سواها..

حدج الملك يريم وزيره بنظرة قاسية ارتعدت لها عظامه.. وقال  
بنزق:

- هل أرغمه أيها الأحمق على القبول، وهو ليس من حمير؟  
- العفو يا جلالة الملك.. إنه من أولي المآرب وقد أشارت الوثيقة  
إلى هذا في نص صريح..

- كفى وقاحة يا حادم.. لا.. لن أجبره على شيء كهذا.  
اعترض رام مقاطعاً:

- هل يأذن لي الملك بالانصراف إلى بلادي؟  
- اجلس.. تريت قليلاً، فهناك ما يدعو إلى بقائك..  
وجاء صوت الوزير فظاً موحشاً:

- لا خيار آخر!! فالمستشارة آلت بعزة المعبودة اللات أن  
تحذف روحها من رأس القلعة...  
- تحذف روحها أو لا تحذفها....

- تمهل. تمهل. لا تجعلني أسخط عليك.

قو طع رام بنبرات صوت الملك يريم المحتدة، والأخير يتفكر ويفرك أصابعه بأصابعه، وقد ضاعفت كلمات الوزير من شحوب وجهه، ستقذف جسدها في هاوية الموت حتماً، لأن الحب في حمير ناموس مجلل في التشريع.

لحظات صمت مرّت بعسر ثم بارتباب، وفي مباغثة لوى الملك رأسه إلى رام، ومضى يسأله رغم علمه:

- قبل مجيئك قصر غمدان عرجت إلى ظفار، أليس كذلك؟

- نعم، زرت قلعة ظفار. فلماذا تسأل؟

تمظهر رام بالجهل بما عناه الملك رغم علمه أيضاً. فتحرك الأخير حاجبيه الرقيقين وقال:

- استغرب أن ابنتي أغرمت بك بمجرد أن رأتك أول مرة، وقد هددت بموتها وإنما لجادة.

ثم استدرك بنبرات واعدة:

- أعلم ما يساورك من ظنون، لكنني أعدك أن أخلي سبيلك

إثر انقضاء المحنة.

- متى يا سيدي. متى؟ لماذا تجبسونني في هذه الأوقات

الحاسمة؟

- لست الحابس لك، بل إنها آهتنا اللات والتشريع المقدس،

لقد خطبتك راماً لذاتها..

قالها الملك يريم بإيمان عنيد ورد رام بعصية:

- عن أية آلهة تخاطبني؟.. لا أدرك بعد ماذا تنوون !!

- لا مناص من اقترانك بابنتي، نعم.. تقترن بها وتبيت المساء

معها دون أن تمسها، وفي الصباح تفسخ القران بحضور السادن،

ثم ترحل متى تشاء، وإياك أن تظن أنني أصطاد أبناء الملوك حتى يكونوا أزواجاً لبناتي، فلست ناقص عز حتى أفعل ذلك، ولكن حدث في قديم الزمان ما قلب تشريع حير برمته. أرجوك افعل ما قلت لك ولن تخسر شيئاً.

سكت رام على كرهه، عرف أن عليه الانصياع وإلا لن يؤوب إلى معين، ومدة أسبوع أو حتى عشرة أيام هينة، ولا زال هناك متسعاً من الوقت إلى موعد الألوية.

في تلك الأثناء نظر الملك يريم إلى الوزير حادم نظرة ملتبهة، فارتعشت أطرافه، وهو يرى الملك قد أضحى كالجدوة المتفحمة.. فعلم ما يراد منه، وسرعان ما زاعغ عن بصره مهرولاً خارج المجلس، ولم يرد أنفاسه إلا خارج مدينة سام.. سار في طريقه إلى ظفار فرحاناً بنجاح مقصده، حيث أن الحلي والصبغة أصبحت ملكاً له، ولا يمكن لراما استعادتها لأنها قطعت على نفسها شرطاً بذلك، وهاهي نظرات الملك تأمره أن يغادر ليأتي بها والسادن لإجراء الزواج.

وساوس كثيرة تراوده أن يسبل سيفه ويفلق هامة الملك يريم. ولكن المجلس يغص بالأجناد الغلاظ، وهم لا يحرصون لكثرتهم.. تفكر وثابر عقله في وضع أفكار جادة، سيربح أشياء ويخسر شيئاً لا يعوّض. وانحصر تفكيره في هذا الشيء فأطلق آهة عميقة، وقال في سره: "ماذا أقول لفردون التي بترت إصبعها بالخنجر وهي تعترف بحبي؟ ولكن في ظل قساوة الملك كرب تتحطم الأنوف الشاء المستقيمة والقلوب العصية. وما يحز في النفس هو الإكراه. ولكن متى عشت حُرّاً والملك كرب قابع على عرش أبي الذي قتله الأحباش. لا ريب أن فردون في

هذه اللحظة في أحضان شنار، تضاحكه وتلاعبه بعد أن ذقت حلاوة المضاجعة. اللعنة على الحياة".

راقب الملك يريم دمعتين متوازيتين تسحَّان من عينيه بسكون، وتمر أيام وعند غروب كل يوم يؤوب إلى جناح الضيافة تحف به عشرات الجنود، لا شيء غير الاحتراس عليه من الهروب وفي الصباح يأتون به إلى المجلس، وهكذا.. كما لو كان شغلهم الشاغل.

في آخر الأسبوع أتت راما والسادن وحشد كبير من أقيال ظفار ومقادماتها. وعلى فناء قصر غمدان نصب لها مقعدان متقابلان، فجلسا لحظتها يتوسطهما السادن مينامر والذي قال بصوت عالٍ، مخاطباً راما ثم رام:

- تأهبي لمصافحة هذا الشاب، وقولي: خطبتك لنفسي،  
ورغبت بك زوجاً ولتشهد اللات...

- وأنت.. تأهب لمصافحة الفتاة، وقُل: " قبلت رغبتك،  
وصرت لك زوجاً ولتشهد اللات".

رفعت راما راحتها للمصافحة، وهي تنطق عبارتها مخفضة رأسها إلى الأرض بحياء العرائس..

بينما دحك رام عينيه بدهشة وكأنه أفاق من المنام، وأخذ يحدق في وجوه الحميريين، فالتقت عيناه بوجه غيمان الوارم، ووجدته يذرف الدمع الغزير، فحول عينيه عنه وأحس بكف السادن تقبض معصمه فحرر ذراعه من قبضة السادن، ورفع يده بمحض إرادته، وصافح راما قائلاً بصوت محتد:

- قبلت وصرت لك زوجاً ولتشهد المقّة.

- انطق العبارة بحذافيرها أيها السبئي. اذكر آهتنا فهي

الشاهدة..

هكذا صاح السادن مينامر بغضب، ولكن رام ظل صامتاً كأن  
لم يسمع، وقتئذ قال الملك للسادن بهدوء:  
- اعفه أيها القديس. فهو جاهل بتشريعنا. وقد اكتفيت بما  
نطق به..

سكت السادن على مضض.. ولم يلبث الملك يريم أن أمشاط  
غطاء الخبز المسدول على رأس ووجه ابنته راما، فتجلت مبتسمة  
خافضة طرفها، ووجهها مفرط في حسنه، وقد ضاعفت حمرة  
الخجل من فنتتها، وزادتها أعقاد اللؤلؤ البراقة أناقة، وكذا الحلة  
الملوكية التي ترتديها.

انفجرت في شفتي رام ابتسامة طائشة حاكها الإعجاب  
ونسجتها الدهشة على رغمه.. قال الملك بعد وهلة تأمل قصيرة:  
- الآن يمكن للعروسين أن يختليا في (المنظرة) \* الزجاجية  
للقصر.

وبعدها قرص أذن رام وأذن راما بدلال، لكنه أسر لها بشيء  
قبل أن يدعها تمضي متمنياً لها حظاً سعيداً وحتى تلك الوهلة ما  
كان رام بحاجة للتذكير، فلا زال في نيته أن يترك راما كما جاءت  
مختومة بختم الصبا، وأمّا الملك فأوصاها أن تضم فخذها  
بعضها تلك الليلة، ولا تفتحها أبداً، وأمّا هي فأدركت  
بدهائها أن رام السبئي قد تعثر بهواها، وأنه لن يفلت من قبضتها  
البتة.. ولما دلفا المنظرة كانت مشعشة بنور عشرة أسرجة  
صغيرة.. السقف زجاجي، والجدران المحيطة زجاجية من  
الخارج، مبطنة بخشب نضيد في الزوايا والأركان المفتوحة على

---

\*المنظرة: مقصورة زاوية على شكل التاج تقع على رؤوس الدور العالية.

الشمس، وقد نُقِشت عليه صور شتى، هياكل آدمية، طيور،  
وعول، عناقيد كروم، تفاعحة كبيرة.

خالط رام نزوع عجيب، شعور بالسعادة والحزن في آن  
واحد. لكن السعادة أشمل وأكثر ميلاً إلى نفسه. ساد المنظر  
الزجاجية البديعة مناخ بأجواء الخوف والغبطة، والصمت كان  
سيد المنظر الأول لبرهة كبيرة من الوقت. استلقى رام في ركن  
قاص على أريكة مريحة بعد أن تخفف من ملابسه، ثم رمق  
عروسه "راما" وقال بصوت فاتر:

- لم أرسلت الوزير خلفي، فأعقتني عن الأوبة إلى بلادي؟  
لم ترد عليه. ظلت مطرقة إلى الأرض كالمذنب، ورغم انكسار  
رمشها إلا أن من ورائها تبدو فرحة لا حدود لها.. كرر رام  
سؤاله، فردت باحتراس شديد:

- ما هذا وقت العتاب. ها قد صرت عروسك الآن..  
- نعم صرت زوجي. لكنني أكرهت. بل أهنت وغلبت على  
أمري...

وذابت عيناه، لم يقدر أن يتمالك نفسه لفرط ما انتابه من شعور  
بالذل، ليس في حمير فحسب، بل في كل مكان.. متى كان له في  
يوم من الأيام أن يختار أو يدير دفة حياته بإرادته؟ هو المرغم  
الأبدي.. والأدلة حاضرة لا تحتاج إلى تبين. أين عرش أبيه  
المثخن بالعظمة؟ أليس يئن تحت ثقل عمه الطاغية؟ أين فردون  
ابنة عمه وحبيبته؟ ألم تُخطب للعبد شنار بمباركة الآلهة والسادن  
والملك؟ أين خيرات سبأ؟ ألم تأت عليها النيران والأحباش؟  
فماذا بقي له غير العذاب واليتم والترحال بين الممالك؟ ساعة تراه  
في كنف قريب، وأخرى يلوذ بصديق، وحيناً يلجأ للممالك

ضارعاً من أجل الذود عن سباً، يتجشم المكاره، وهم نائمون مكبون وجوههم على وسائد النعيم، فليك إذن، ففي البكاء شفاء من غصص الحياة..

لم تواتها الشجاعة أن تسأله عما يبكيه، فالفرسان لا تبكي من الألم، بل من القهر.. قالت وهي تغالب غصة:

- لا تبك، صار علينا أن نفرق، إن شئت الليلة أو الصباح. إنني أشتهيك من كل قلبي، ولكن لا ينبغي أن أكون جزءاً من الآمك.. لقد أردت أن أستحوذ عليك، متجاهلة قلبك وما تحمله حياتك من أعباء..

زلزلت ألفاظها روحه، وأحس بأجزائه تتساقط.. فوجد نفسه يقول:

- صرت زوجتي، وأظنني أحببت هذا الإكراه، ومحال أن أرغم ثانية. سأستبقيك حتى الرمق الأخير.

انتشت وطربت فلم تنبس بينت شفة، وحلق الصممت في أرجاء المنظرة، وصارت راما تستعد نفسياً لما يتلو ذلك، وظل يتأمل القمر. وبعد لحظات قال بلا وعي:

- أنا سعيد يا فردون... أووه، بل أنا سعيد يا راما.

- من تكون صاحبة الاسم الأول؟

- هذه هي سبب اعتراضى على الزواج الذي تم حثف أنفى.. ولا بد أن أروي لك بعض أخبارى.

أخذ رام يثر أخباره الطويلة والاهتمام يتفاقم على قسامات وجهه راما مع مرور الوقت. حتى أتم آخر خبر قالت بدهاء:

- الملك كرب استعان بالأحباش للقضاء على أبيك وشنار يطمع بعرش سباً، وسيستعين بالأحباش ليتم له ذلك، وهو حاقد على آل

شراح، وما يرغب بفردون عن حب، بل لينتقم من سلالتكم.  
انبهر رام لسرعة بديهتها وفراستها، وأيقن أن شنار يطمع  
بالعرش لا بغيره.. وما فردون إلا إحدى ذرائعه لبلوغ غرضه  
كونها الوارثة للحكم بعد أبيها.. زاد حبه لراما وشروده وهمس  
في سره: "لقد حدست راما نوايا شنار بمجرد السماع، فيا لها من  
داهية، ولا يستبعد أن تدفعها الغيرة من فردون إلى الفتك بها أو  
بي بدائها الخارق".

تضاعفت دهشته وانهار انهياراً ملحوظاً حين قالت راما  
بصوت هادئ وهي تتأمله بوداعة:

- لا تظلم راما.. فقد علمت من السادن أن المرء إذا وهبته  
الآلهة عقلاً ذكياً يجب أن لا يوجهه في الشر وقال إن القلب ينبغي  
أن يكون نقياً..

- أحبك يا راما الحميرية. اقتربي، فقد حزت علي نصف قلبي  
وحازت فردون على النصف الآخر.

- لن أدعك تفعل حتى تقسم بأهلك أن تسترعي ما بيننا إلى  
الأبد..

وبعد أن أقسم رام على الوداد، اقتربت، واستقرت بين يديه  
كالكراس الأبيض المفتوح، ومضى إليها يلايتها ويلاعبها إلى أن  
راضت واستنامت.. وتوارى القمر خلف السحب، ومضت  
أوقات شهية من الليل، خلالها ودع القمر ليل مدينة سام  
وودعت راما أيام عزوبتها..

صباحاً عرف الملك أن رام وراما لم يفسخا النكاح كما أراد، بل  
قضيا الليل في احتضان، وأزالا الغشاء في تلك الليلة. فاغتاظ  
وحزن، ولكنه لم يلبث أن أرجع الأمر إلى مشيئة الآلهة.. واحتكم



إلى العقل فوجد أن الأحرى به أن يزدهي بهذا القران، لأنه صار  
صهراً لذي الدائرة المقدسة، الذي أصاب التفاحة بالنشاب، ما  
لبث الملك يريم أن التقى العروسين وهنأهما من كل قلبه حتى  
استغربا لذلك، ثم أعلن المناسبة أمام الأقيال والجنود في المجلس،  
كان يظن رام أن العرس قد انقضى، لكنه أدرك أنه بالكاد ابتدأ  
من ثاني أيام الزفاف، وفي كل صبح يأتي الملك يريم والسادن،  
وفوج كبير من الأهالي والجنود ليأخذوهما إلى الرياض والبساتين  
وشتى القصور والمنتزهات في المدينة، فيضعوا لهما كرسيين  
فاخرين يتوسطهما كرسي رافع للملك يريم. أما الباكون فيضربوا  
حولهما سياجاً دائرياً كبيراً.. ثم يقبل أولو الطرائف والنكات  
والمهرجين والسحرة لإمتاع الحاضرين لاسيما العروسين، فكان  
رام لا يكف عن الضحك والطرب، وهو يسمع الدعابات من  
أفواه الشيوخ، ويرى الحركات والألعاب البهلوانية التي يقدمها  
بعض الفتيان الرشاق..

أمسى ذهوله عظيماً حين ظهر السحرة والخيال بأيديهم، وفي  
رمشة عين تنقلب إلى أفاع تسعى.. وذلك الساحر أناخ بعيراً،  
وعابنه رام يلج من فمه ويخرج من دبره.. قال رام والمرح طاف  
على بشرة وجهه الصافية:

- أرض جنات خالية من السحرة عدا ساحر واحد صار طاعناً في  
السن، وهو من يتلو على الدائرة المقدسة مآثورات الآلهة..

رد الملك يريم مفاخرأ:

- السحرة في حمير كثيرون، وقد لقنهم السحر الكهنة وأرباب  
الوثائق المطلسة العتيقة..

- لقد جاء في التشريع أن الأفراح الآتية بعد الزفاف تبشّر

القرينين بحياة هنيئة. وقال المُشَرِّع كما ورد عن الآلهة: إن العروس والعريس مخلوقان بريئان يتحتم على الناس إشعارهما بالسعادة والألفة، ومساعدتهما على تحطّي ما بينهما من خجل.. قالت ذلك راماً.. فابتسم رام وقال في سره متعجباً: "ما أقوى وأشمل تشريع حير، حتى الأعراس أفرد لها بنوداً حكيمة!!!"

انسلخ أسبوع ما بعد الزفاف بسرعة.. وفي كل يوم يزداد رام تعلقاً براماً.. ويكتسب معارف جديدة، وأخباراً كانت خافية عنه، فألم بأحوال الحميريين واطلع على بنود تشريعهم، وظفر بنزهات كثيرة وأوقات مليئة بالمتعة والمرح والهناء.. في أول الأسبوع الثاني نام ليلته إلى جانب راماً لاويماً ذراعيه على عنقها.. ملقياً برأسه فوق صدرها. فرأى في منامه أن فردون تجري في البیداء مكشوفة الرأس عارية الجسد والرمضاء تلهب قدميها الحافيتين. كان أبوها وشنار والجيش السبئي يطاردونها.. وهو قابح على رأس ربوة عالية لا يبدي حركة. فمر به والده فوق حصان صافي البياض وضربه برفق بكرساج ذهبي كان في يده.. وقال له كأنه يعرفه منذ أمد بعيد:

- هذه فردون، وهي فارة ناحية البحر لتتحرر..

- أعطني حصانك لعلّي أتعبها وأخلصها من هذا الجيش

الللجب..

أعطاه الرجل حصانه وهوول مبتعداً بين الكثبان وهو يقول:

- اذهب باركتك المقة.. فأنا أبوك.

هبّ رام من فراشه مفزوعاً، يقبض صدره براحتي يديه.. وراحت أنفاسه تتصاعد، ولا زالت صورة أبيه عالقة بذهنه. وانتبهت راماً، واستوت تسأله عما جرى.. فأجاب بانكسار: هذا طيف أبي أتاني ويأمرني بالرحيل.

انحدر رام وفرسان معين من المرتفعات سالكين أقصر الطرق وهو يفكر بما جرى وكأنه حلم في المنام، وحين يجيل بصره حوله يجد الحقيقة له بالمرصاد ومع فرحته الغزيرة إلا أن ثمة شجن جارف يغتال عليه أوقات هناءه، فلا ينبي من لحظة إلى أخرى يرى شبح فردون ممشوقاً أمامه راتياً إليه في سكون مربع، وراما تتأرجح على هودج جميل شد على متن بعير قوي صلب القوائم سريع الخطو.. كان رام يحاذيها وهو فوق جواده فيناديها.. فتطل عليه من تحت كساء الهودج.. وتجدد عليه بأرق الأحاديث وبين الحين والحين يتركها ليقضي برهات وجيزة ورفاقه المعينين.. لكنه سرعان ما يؤوب..

كان الركب يأخذ قسطه من الراحة في أوقات الطعام والنوم، ثم يواصل السير.. بدأت الجبال تتناقص حتى انكشفت لهم كثبان الصحراء.. فمرت رعدة شديدة في بدن رام.. ذلك أنه غدا على كشب من أرض جنات.. تذكر رام شيئاً وهو يتفكر في رحلته إلى حمير وما مر به من أيام عصيبة وجيلة. وقف بحصانه قرب الهودج، ونادى بصوت حان:

-راما!! لم أعلم بعد سر خطبة المرأة للرجل في حمير!!

قهقهت راماً قبل أن تطل وتجيب قائلة بوله:

-الآن يمكنك أن تعرف السبب.. بوسعك أن تعرف كل شيء

يا "رامي" الحبيب، وهذا سر غائب لا يعرفه إلا قلة من  
الحميريين، وهؤلاء من أبناء عمومتنا وأقاربنا..  
أرهف رام السمع. وبدا منصتاً لا يرمش طرفه.. فاطلقت آهة  
شديدة واستدركت:

"منذ زمن بعيد في عهد أحد أجدادنا الملوك، وهو شمر عوش،  
حدثت فاجعة كبرى.. إذ كانت له ابنة رائعة جاء لخطبتها أناس  
كثيرون من أبناء الملوك والأقيال.. غير أن وثائق الزواج كانت  
صارمة في حمير آنذاك.. والفتيات كُنَّ مسترخصات مهانات. لا  
قول لهن ولا مشورة.. كان لابنة الملك خليلاً ترغب في الاقتران  
به.. لكن الملك شمر عوش رفض أشد الرفض، فسلمت الفتاة  
نفسها لخليلها، فجامعها مراراً، وكان يتسلل إلى مخدعها ليلاً  
متنكراً بلباس امرأة.. وبعد شهر برز حملها للعيان. وأعلمت أمها  
الملك بالأمر.. فقتلها شنقاً. ولكنه ندم على قتلها ندماً شديداً.. وقد  
أضحى طيفها يطارده في أحلامه وكل أوقات فراغه واسترخائه..  
فما كان منه إلا أن أمر مُشَرِّع حمير أن يسن تشريعاً يجعل للمرأة  
حق الخطبة والفسخ حسب هواها.. فصارت منذ ذلك الزمان  
وثيقة مقدسة، وعرفاً سارياً في أرجاء المملكة.. وقد أفرد المُشَرِّع  
لسلالة ملوك حمير تشريعاً صارماً، فإذا اختارت ابنة الملك أو ابنة  
أحد أشقائه رجلاً لا بُدَّ لها أن تقترن به سواء راضٍ أو مكروه وإن  
كان فقيراً من أبناء العامة.

وهذا البند خاص بسلالتنا، أما أهالي حمير فيحق للرجل أن  
يرفض طلب المرأة التي تود الاقتران به. ويسري تشريعنا - ذلك  
الخاص بالاقتران - على الغرباء من أولي المآرب في حمير.. وقد  
استفدت من هذا البند واخترتك لنفسني، ونبذت غيماً وكل

أهل حمير من أجلك.. ولو أن أمي كانت حية لا شك أنها ستفرح  
وتهتني على حسن اختياري" .. وضحكت بمنتهى الارتياح ..  
قال رام بنشوة عارمة مازحاً:

- أخشى أن يركب رأسك شيطان النساء يوماً، فتفسخي  
قراننا لأن في يدك حق الفسخ ..

ردت راما والشك يلتمع في عينيها:

- لا!! هذا التشريع في حمير فقط .. وسيسري علينا تشريع  
بلادك .. لذا أخاف أن تنهزم أمام فردون التي ستعصم بالخصام  
وتناشدك بفسخ قراننا .. قالت راما والشك يلتمع في عينيها ..

أجاب رام بعجب:

- أحسبني وحدي أتحرق غماً، ولكنك مثلي تحسبن حساب  
فردون ..

- نعم، فمن خلال حكيك في المنظرة الزجاجية عرفت كم هي  
متسلطة وعنيدة.

- ليت المقة تعصمها عن الزلل والغضب، وليتها تحيل دون  
قيام قران سنار وفردون.

- قد تنشغل بأمر فردون وتلاقي الأمرين فتجد خلاف ما  
رسمت له أو ينالك مكروه ...

- أنت واهمة، وهذا كلام رديء لا أحب سماعه .. قاطعها رام  
بصوت متعب هادئ.

ما لبثت راما أن طمرت غيرتها حين لمحت وجومه، وأحالت  
ذلك الكدر اللصيق به إلى ارتياح جرار .. استطاعت ذلك بلسان  
معسول لبق، ومنطق شفيف عذب، فاختصرت السبيل إلى  
رضاه بعبارتين ودودتين .. ولما عبر رام بواحة مدينة معين افترق

عن رفاقه المعينين الذين اصطحبهم إلى حمير، إذ كان عليه أول المطاف أن يتناع له منزلاً للسكنى، وقد رأى أنه ليس من المستحب أن ينزل وعروسه في قصر الملك معن ولو لبعض الوقت. شعر أن حياته منذ تاريخ اقترانه قد انقلبت، وصار لها مسار خاص أكثر تنظيماً وجدية. فمع انضمام عضو جديد إلى حياته لم يعد من الممكن أن يعيش دون استقلالية، حتى قراراته وأفعاله ينبغي أن تكون مقيدة بالحدود التي تعود عليه وعلى شريكته بالفائدة والسعادة. لم يعد يحيا منفرداً حتى يتصرف كيفما يشاء. بات عليه لزاماً أن يمتلك منزلاً، ويصير رب أسرة يرعاها وينفق عليها من حر ماله، كل هذه الأشياء استقرت في بال رام، وحفز همته على العمل بها. المنزل هو أول ما يفكر به المرء الذي يتهيأ للزواج، ولكنه لا يملك الكثير من المال. لأن الهبات التي كان يقبضها من خزينة قصر معين لقاء تدريب الجند ابتاع بها مؤنة الرحلة إلى حمير. ولكن لا زال بحوزته من المال خمس قطع فضية لا غير. هذا لأنه لم يكن يقطع جزءاً مما يتحصل عليه لمواجهة الأيام العسيرة التي قد يمر بها. وهو دون أدنى شك لم يكن يفكر قط بحدوث مثل ذلك الاقتران المفاجئ. وقد عرض عليه السمسار خمسة منازل للبيع، وأعجبه من بينها قصر صغير حسن الزخرف والبناء يقع في قلب السوق، له فناء جميل تتوسطه بوابة عتيقة، طلب صاحب المنزل مائة قطعة فضية معينة، وأوحى السمسار أن خدمته بخمس قطع، ووصف بمنطق عجيب الثمن المعروض بالصفقة الرابحة التي لم تكن لتتم لولا احتياج البائع للمال لسداد قروض الدائنين قبل أن يزوج به في السجن.

رأت راما الحيرة بادية في وجه رام، وهو لا زال يساوم السمسار المعيني الذي كاد يحترق أمامه مستميتاً في الدفاع عن موقفه الرافض لأي مساومة. حدثت أن قرينها السبئي المحتار لا تنقصه القناعة بصدق كلام السمسار بل ينقصه المال فحسب. أخرجت من مدخراتها خمسين قطعة ذهبية تساوي مائة قطعة فضية معينة، وقذفت بها إلى السمسار الذي استقبلها بابتهاج. ثم قبض أجرته، وأعطاهما وثيقة تملك القصر ومضى مهتماً.

وقامت راما بإنفاق خمسين قطعة ذهبية أخرى في تأثيث القصر. واقتناء الآنية وأدوات الطهي والأسرجة وبضع عبيد للخدمة. وانصرفت إلى إجراء بعض التعديلات والتحديثات في البهو الخارجي والفناء. وما كاد رام يسترد أنفاسه قليلاً داخل منزله حتى رأى أن يزور صديقه الملك معن. سار إليه ومكثا يتحادثان عن عجائب الرحلة إلى حمير، ويضحك الملك معن ويقول بمتهى المرح: "يا لها من رحلة موفقة، أه، لو رحلت معك كنت عدت وبمعيتي شقيقتها الأخرى، فمن يرحل إلى حمير يعود بفتاة". ثم اتجه رام إلى الجنينة.. فوجد شهد فوق المرجحة كعادتها، تحوطها جواربها، ونخلات تتللى أذواقها الصفر كبطون الحوامل.. وما إن رآته مقبلاً حتى حاولت النهوض معتمدة على ذراعيها المكممين إلى النصف بكممين مزركشين لجلباب من الأطلس القضاض.. وينحسر تحتها ساعدان فضيان رشيقان.. لكن الجواري سارعن إليها، ورفعنها فبدا الأسي شمساً على قسماها الشابة الطرية، وسارع رام إلى القول بثقة:

- اجلسي.. إن لدي دواء سيخفف آلامك، ويشفيك.. لقد أكد الحكيم على ذلك.

-هنيئاً، قيل أنك اقترنت بابنة ملك حمير، فلم تأت بها إليّ  
كي أراها؟

قالتها مبتسمة ابتسامة ضنكى، وقد اعترى وجهها انكسار  
مريع، فأجاب:

-إنها في القصر الصغير الذي يتوسط سوق المدينة. وكم  
ستكون سعيدة حين تراك..

-ما اسمها؟

-راما.. اسم يقارب اسمى.. لقد اقترنت بها مُكرهاً، ولكنني  
أحببتها رغم ذلك.

-هذا مذهل "رام وراما"، اسمان متقاربان "خُذني إليها فقد  
تفاقم شوقي" .. دار رام إلى الخلف، وسار على مهل بخطى  
بطيئة، وسرعان ما أسندتها الجوارى وسرن بها خلفه.. بعد قليل  
دلف رام قصره وطلب من الخدم إفساح الطريق لشهد  
وجوارىها.. والتفتته راما بفرح شديد، وألقت نفسها إلى صدره،  
ولما ألهب وجنتها المتوردة بقبل حارقة، أنبأها بقدم شهد أخت  
الملك معن. قالت راما بارتباك:

-ويلك إننا بالكاد وصلنا، وليس في معيتي جوارى للخدمة،  
وهذا يعني أنني سأتكبد أعمال الطهي والنظافة بمفردي وقد مرّ  
عليّ زمن طويل لم أقم بأي من هذه الأعمال.. وكان أقل ما يجب  
أن تفعله هو أن تنذرني في أول الصباح، لأستعد وأرتب نفسي  
لهذه الضيافة..

احتار رام وسكت.. فأعقبت سريعاً بلهجة قلقمة طفى فيها  
اللطف على الأمر:

-افتح المجلس الكبير.. وابعث من يتاع اللحم الطري،



والخضر والفواكه، والتوابل والطيب..

قام رام بفتح باب المجلس.. وبعث الخدم إلى السوق لابتياح ما طلبت من أغراض.. فيما سارت راما إلى المطبخ وثلاث جارات جئن لزيارتها ليعددن مشروباً ساخناً للضيقات.. وبعدها استحضرت الأغراض أقبل رام وقال متودداً:

- سنعد وليمة كبيرة، وأجذ أن أدعو الملك إليها.. كيف أعجز عن استضافته يوماً واحداً وطالما لبثت في ضيافته شهوراً عديدة!!  
- اعمل ما تشاء.. فلدي من المال ما يكفينا لسنوات طويلة.. لا تقتر على نفسك، ولا تحسب أنني سألومك أو أنشز عن أمرك، وهاك روعي إن تشاء..

قالتها راما بلين فاندفع إليها وضمها إلى صدره وأوسعها لثماً وتقبلاً.. اغرورقت عيناه بالدموع لعظم وجدده بها.. هكذا أفصح رام عن إحساسه في تلك اللحظة.. إذ انحجست كلماته في قفصه الصدري من شدة التأثر، ولم يستطع النطق بما جاش في أغوار نفسه..

وبعد لحظات ظهرت شهد تسندها الجواري.. كانت تتحرك بتؤدة، فسلمت على راما سلاماً رقيقاً، فيما احتفت بها الأخيرة وبشت في وجهها، ورافقتها حتى أجلستها على فرش صوفي وثير.. ثم أحضرت الإبريق الذي يحوي المشروب الساخن، بينما تكفلت بعض الجواري السبئيات بجلب كؤوس نحاسية، وصبين في كل كأس جرعات صفراء تماهت أبخرتها عالياً لتندثر الضيقات بخطورة اللمس أو الشرب عقب الصب.. لكن شهد تناولت كأسها، فأحست بسخوته اللاسعة، ولم ترتدع، بل زمت شفيتها وأدنت فمها المدور الصغير إلى حافة الكأس، وارثفت جرعة صغيرة في حذر، رنت إلى راما رامشة بعينها

بعجب، واشتعلت في فمها بسمه فريدة، وقالت وهي تتلمظ:  
- ما أحلى هذا المشروب، إنه ذو مذاق حلو ورائحة طيبة، إننا  
في معين لا نصنع مثيله...

أجابت راما:

- هذا هو مشروب البُن.. وأشجار البن كثيرة في حمير وتزرع  
على رؤوس القمم وفي المدرجات الخصبة.. أول الأمر تجنى  
حبيبات البُن الحمراء، ثم تترك للشمس حتى تجف، ثم تطحن  
بمطاحن حجرية.. ويؤخذ للإبريق الواحد ملء الخف من  
طحين البُن بعدما نملؤه بالماء، وأوقيتين من السكر، ثم نغليه  
تحت النار حتى يتحضر هذا المشروب الساخن..

- ما أحلى البن !!

بترت شهد عبارتها المضغوطة، ووضعت الكأس على صحن  
نحاسي يحتضن الإبريق والكؤوس الممتلئة والفارغة.. وأرهفت  
السمع بشكلٍ فاضح.. كان صوت رام ينبع من أحد الدهاليز  
القريبة، وهو يحث الخدم على تنظيف ردهات القصر، ورشاشة  
الحوش الخارجي بالماء بحيث يكون رطباً لا يثير الغبار.. تمت  
شهد متأوهة وهي ترمق راما بتيه:

- تمتلكين زوجاً بريئاً وجميلاً وشجاعاً، ولو كنت في مقامك  
لبنيت عليه برجاً حصيناً.

- أنت تعظمين من شأنه.. ولا أراه إلا شاباً رشيقياً فحسب،  
ويفتقر إلى كل تلك السمات.. قالت راما ذلك ببرود تحسد عليه  
في الظاهر. أما في الباطن فكانت الغيرة تحريها لسعاً  
وإيلاماً.. نادى شهد على رام. فأقبل ولكنه تسمر قرب الباب  
يتطلع إلى شهد بخجل، قالت:

- تعال.. اتحفنا بما حدث في سفريتك، وما استجد من أمر الألوية الموعودة..

كاد أن يطيع ويتحرر من نعليه الجلديين لولا تدخلت راما قائلة:

-دعيه يذهب، فقد تأخر عن الملك، ولا ريب أنه سيسر بدعوة رام...

-تمتعن بوقتكن إذن.

ثم استدار وذهب، وشهد تتعبه بنظراتها الملهوفة، وقد أعلنت عن عدم رضاها بتكشيرة بدت على ملاحظها جلية.. وراما تترقبها بامتعاض، وبعد حداد وصمت دام فترة وجيزة رجعتا إلى الحديث والثرثرة، وكأن شيئاً لم يكن. غير أن شهد كانت تقحم رام في طيات حديثها وتشركه في ضروب شتى من التمثيل، مهما نأى الموضوع عن أحوال الرجال، أو كان جافياً أو شاذاً، وما فتئت تطيل في وصف مناقبه ولا تفتقر عن ذكره غير مبالية باحتقان وجه راما وانكساره.. وغير هذا لم تجد راما على شهد جنحة أو عيباً.. فهي منقاة من شوائب الإناث الأخرى.

ومر الوقت، واستطاعت راما أن تهرب من حديث شهد المُغير عن قرينها السبئي، تعللت باختفاء أشعة الشمس عن التوافذ، وسارت وجميع الجوارى ليظهن طعام الغداء للضيوف، وآب رام ومعن ونخبة قليلة من أقيال معين إلى قصره ملييين دعوته لتناول طعام الغداء.. كانت الموائد قد صفت بالجفن والأطباق المتخمة بالمأكولات والأطعمة الخميرية والمعينية على حد سواء. وعبق جنوب وأفخاذ الخرفان المشوية يفتح في نفوس المدعوين شهية ونهماً شديداً.. غسل الأقيال أيديهم بماء نظيف في

طشوت معدنية صافية.

ثم شرعوا في الأكل، وبعد أن فرغوا من تناول الطعام جففوا أيديهم بمناشف حريرية.. واتجهوا إلى مجلس آخر قريب. وجاء الخدم بزق الخمر، وأخذوا يملأون لهم الكؤوس. اكتفي رام بكأس واحد، حيث كان لا يسرف في شرب الخمر، فيما شرب معن والأقيال كؤوساً عديدة. فصاروا يتمايلون ويدردشون دردشات غريبة، ثم يضحكون بصوت عالٍ.. أثناء ذلك خرج الملك معن ينشد الحمام، وعند عودته تاه عن باب المجلس لما أصابه من ثمل، فدخل جناح النساء وهو لا يشعر، وتناهت إلى مسمعه أصوات وضحكات الجواري، فمال جهة الصوت، لكنه فوجئ بنفسه منتصباً أمام مجلس يعبق منه الطيب والأحاديث الرقيقة.. مد بصره بحيطه إلى الداخل، واختلس نظرات حائرة.. رأى شقيقته شهد قرب فتاة مليحة ذات لواحظ جذابة منمنمة، وعينين وديعتين، ووجه فاتن ذو بشرة بيضاء مشربة باحمرار طفيف عند الوجنتين المربربتين مما أثارهما فتنة وحيوية ونضجاً.. أصغى إلى شهد وهي تهتف قائلة:

- أطربتينا بهذا الحديث العجيب. وما حدث لك ورام شيء لا

يُصدّق!!

قالت إحدى الجارات المعينيات متندرة:

- هل يعني هذا أنها تجمع بين عضو الرجل وفرج المرأة؟

واستهاتين من الضحك، حتى قالت إحداهن موضحة:

- بل، إن من عادات السبثيات أن ينزلن إلى ميادين التدريب،

فضلاً عن أعمالهن الأخرى في المنازل.

سمع راماً ترد بنبرات غنجاء:

- كم أحلم أن ألتقي بفردون، فهي التي بترت إبهام قدمها من أجله. وقد صار حني بشغفه بها يوم زفافنا..

- لها صيت واسع.. فهي من أجمل النساء، وتجيد الحرب حتى قيل أن الفرسان يخشون لقاءها..

انكفاً الملك معن إلى السوراء مبهوراً بجمال رامنا، ومنطقها العذب وطار السكر من رأسه، لم يلبث أن قفل وهو يقول لنفسه بحسد: ما أسعد رام بهذه الفتاة! إنها كالقمر، لا.. لا.. بل إن القمر المنير الصافي هو الذي يشبهها.. إن صديقي السبئي محظوظ بالجميلات أيتها ذهب".

اتخذ الملك معن موضعه الأول، وملاحه مغتمة.. وراح يسرف في الشرب.. فلاحظ رام تغير وجهه واضطرابه، قال له بقلق:

- هل هناك ما أساءك يا صديقي الملك؟

- هاه.. لا شيء.. أرق خفيف سيزول.. قال الملك معن..

بعد لحظات تقوض المجلس وتفرق الأضياف.. وذهب كل إلى حال سبيله..

\* \* \*

ليلاً قبع الملك معن في مقصورته المضاءة بنور أصفر وهاج.. جعل يُحقر ذاته ويؤنبها أشد تأنيب: لم وافقت على قبول دعوة رام؟.. هل بدأت أحب امرأة صديقي؟ كل شيء جائز إلا هذا الحب القدر.. إلى متى سأظل عازفاً عن الزواج؟ ابتعدي عني أيتها المرأة.. قلت ابتعدي، فلم أذق طعماً للحب، ولم أنشق رائحته إلا حين رأيتك في المجلس تفوقين بحسبك الجواهر النضيد.. وأبصار النساء شاخصة إلى وجهك تلتهمه بتمعنهما الحقود.. كنت ثملاً عندئذ فارتد إليّ وعيي.. والآن أراي نائياً

عنك، وحاضر الوعي، ولكنني مسطول بخيالك.. راما !! إنك تتأكلين في حشوي كنار تتأكل بين الحشائش اليابسة.. لكن سأكتم ما بي، وأزجر حبي ما استطعت، لأجل صديقي " حاول الملك معن أن يلتهبي عن راما بالتفكير بأشياء أخرى من مشاغل المملكة، لكنها ظلت واخزة في قلبه لا يفتأ من حين إلى آخر يذكرها ويطلق آهاته في الهواء..

مرت الأيام تباعاً، وفي كل يوم يتفاقم ما به من الوجد، حيناً كان يراها ورام فوق جواديهما في طريقهما إلى الصيد أو النزهة.. وفي أحيان أخرى تظل متوارية عن ناظره داخل القصر.. صارت الليالي تزحف في عمره كالجنائز البطيئة. أجهده السهر، وأضناه السر المكبوت في أعماقه.. صار يقول في سره: " لمن أبث هذا السر المشين المخجل؟ آه لمن أجار بالشكوى؟ " .. ذات ليلة وقد انتصف الليل، خرج من مقصورته ليتنسم الهواء الطلق على شرفة القصر، فإذا به يرى الضوء خارجاً من نافذة مقصورة أخته شهد، تلك المطلة على ذلك الممر، اقترب من النافذة ليرى ما تفعله في ذلك الوقت المتأخر من الليل. تجمدت ملاحظه دهشة وهو يراها مستلقية على فراشها، وعينيها جامدتين عالقتين بالسقف. في حين تُقلِّب راحتها وتبتسم وتحضن وسادتها إلى صدرها سابحة في الشرود، وحيناً يتجههم وجهها وترسم على شفثيها كآبة وابتئاس كما لو أفاقت وانتبهت إلى حقيقة مريرة.. قال في سره مطلقاً آهة حزن خارقة: " المسكينة أصيبت بالهوس " .. لكنه ما لبث أن أصيب بهوس الذهول، وهو يسمعها تقول بصوت خافت:

"مازلت لا تفكر بي، ولا تجود عليّ إلا بنظرات الإشفاق " ..

حينئذ انفرجت أسارير معن، إذ وجد من يشاطره همومه،  
وطرق الباب بتؤدة، ونادى: شهد..شهد.. فهبت من على  
سريرها، وصارت تتوكأ بالجدار حتى فتحت الباب قائلة:  
-أهو أنت يا معن، ما الخطب؟

دلف إلى الداخل وأجاب:

-رأيت الضوء يتسلل من مخدعك، وقد هجعت العيون..  
فجئت لأرى ما أسهرك وأرقك..

-لا شيء يا أخي..ولكن عيني تأبين النوم هذه الليلة..وأنت  
يا معن؟ سألت شهد..

ضحك ولم يجب أو يجد الوقت الملائم للجواب. لكنه قال  
ملمحاً بدهاء:

-لقد سألتني رام عنك. فقلت إنك في أحسن حال.

نفر الدم إلى وجنتيها. وأصغت بانتباه متعطشة لبقية حديثه  
فأعقب ولكن بآلم:

-أعلم أنك تحببته منذ أمد طويل. ولكنك لا تعلمين أنني  
أعشق راما؟

-ماذا قلت؟ راما؟

صرخت شهد في استهوال. وحلقت في وجهه باستنكار  
فأجاب بتوتر:

-نعم، راما..وقد جاهدت نفسي بشدة فلم أستطع كبح جماح  
قلبي..

استعادت توازنها بعد تلك الصدمة وقالت باستبعاد:

-إنها تحب رام بجنون. ولا أراك يا أخي إلا كمن يأمل أن  
يزرع وروداً في بطن الصحراء.

- كلانا مخبول يا أختي، عندما نحلم بقرينين سعيدين لن يساوم أحدهما في حب الآخر.. أجاب بحق.

جُرحت شهد وتألمت، وشعرت أن مفاصلها تتكسر، وكأنها استجابت أعضاؤها الظاهرة وتضامنت مع باطنها الموجوع.. رأها أخوها بتلك الهيئة الرديئة، فسارع يقول بلهجة مشوبة بالأمل:

- اطمئني أيتها الحسنة.. فأنت أكثر أملاً مني. وقد تظفرين بقلبه و...

قاطعت بنزق:

- لن تستهويه فتاة عليلة. ناهيك أنه لازال يجري وراء فردون..

واستراحت برهة تلتقط أنفاسها المتلاشية، ثم أضافت:

- استحلفك بشرف ود أن تناسي راما يا أخي، فلو أدرك رام مكنون نفسك لن يبقى في معين.. وعندئذ نتجرع مرارة فقدته، وأصارحك القول أنني صرت مولعة به، ورغم أنه لا رجاء لي ولا أمل أن أكون بجواره، إلا أنني أتعزى عن ذلك بالنظر إلى وجهه، وهذا يكفيني يا معن، بل وكثيراً عليّ..

وتساقطت من عينيها دموع كحبيبات البرد اللزجة.. وطفق يهون عليها:

- سأفعل بالتأكيد.. سأتكمم.. والآن اخلدي إلى النوم فقد أطلنا الحديث.

ابتسم لها من قبيل الوداع. وانصرف إلى مخدعه. صار يتزحزح على فراشه ويتقلقل.. شهد هي الأخرى أطفأت السراج وآوت إلى فراشها بغية النوم.. أطفأت عينيها أيضاً، ولكنها لم تنم..



ثلاثة أشخاص سهارى يتململون على الفراش في تلك الليلة.. الملك معن، وشهد، ورام.. كان الأخير قد تلقى خبراً سيئاً من مخبريه الذين بعثهم إلى أرض جنات لتقصي أحوال فردون... في أصيل ذلك اليوم، وبينما هو منزوي في فناء قصره الصغير إذ جاءه عبيده الأربعة على جياد هجينة، قال أحدهم بصوت متحشرح:

-جئناك بأبناء أكيدة شافية، فهل تفني لنا بيا وعدتنا يا سيدي؟  
-نعم يا زاكى.. لم أكذب قط وأنتم تعرفون ذلك أيها المصاريع.. أجب رام مزجراً بغضب.

وما لبث أن سأله بيا في جعبته فأجاب بكل جدية:  
-منذ عشرة أيام خلت، أخذ السادن بكف فردون قسراً وسار يقصد المعبد لتصافح شنار وكان الأخير مريضاً والملك هناك، لكن ثمة وعكة حادة ألمت بها في الطريق، فأمر الملك بتأجيل القران حتى تتماثل للشفاء.  
-ماذا بعد؟ سأل رام في لهووجة.

- لقد هزلت وشحبت. وصارت في أسوأ حال، وعندما التقيناها جوار المعبد كانت مستاءة منك ومعتاظة. وبعد أفصححت أن حيلتها نفدت وصبرها قد طال، وتكالب عليها معشر سباً.. وتتساءل: هل عجزت أو وهنت أو جنبت أو أنك تود النكوص فحسب؟

حينئذ انتفض الهدهد السبئي في صميمه، وصار يثير بأجنحته المذعورة المرفرفة الزوابع الرملية وهو في خضم استعداده للطيران، ويدك بصوته الراعد الشواهي البازغة كأنياب الكلاب، بعد برهة من اللاشعور تجلت أمامه العبيد الغربان

السود كما لو رأهم لأول مرة، قال بنبرات مباغته ملوحاً بيده:  
- أنتم أحرار منذ اليوم، ولتشهد المقمة على ذلك.. اذهبوا حيث  
شئتم..

بقدر ما فرحوا اغتموا أيضاً.. وانقسموا على أنفسهم.. كانوا  
قد ابتعدوا عن القصر وحاروا في أي سبيل يجتازونها، وأي مكان  
يأوون إليه..

قال زاكي وكان أعقلهم:

- لا تفرحوا يا رفاق. فمنذ أن وهبنا الملك إلى قائد الجيش  
ونحن بقصره في عز وسعادة.. ولم نُهن أو نمتهن كبقية رفاقنا  
الخادمين في قصور الأقيال.

قال آخر:

- صدقت يا زاكي. القائد رام شاب طيب تتمنى عبيد الأقيال  
أن تخدم في قصره. وإذا تركنا خدمته سنبقى عاطلين عن  
العمل. ولا نجد ما نتقوت به. إن غايتنا هو العتق من الرق، أولم  
نكن أحراراً لدى سيدنا رام نجول معه في أسواق المدينة  
ونتناوب على حمل اللحوم والخضر، وأواني الفخار؟ ومن يرانا  
قربه لا يظن أننا عبيده..

هز زاكي حاجبيه بإيقان، تذكر يوم رافق سيده رام إلى الصيد،  
فكان يناجيه عن مغامراته، وولعه بفردون.. وعما يتهادى في  
بواطنه من خيالات وأفكار.. وليس هذا فحسب، بل يصغي إلى  
وصاياها بانتباه شديد، ويستجدي منه الرأي والمشورة..

ارتد العبيد إلى القصر، وحين اصفرّ الشفق رأهم رام يزاولون  
الخدمة، فاكتنفه العجب، ثم اقترب منهم ورنأ إلى وجوههم  
المنكسرة النادمة، وقبل أن يسأل أحنى الخادم زاكي رأسه وقال:

- إننا سعداء في قصرك يا سيدي ولا نشعر بالرق، وقد  
أخطأنا حين طالبناك بإعتاقنا..

اكتفى رام بابتسامة كثيفة ألصقها في شفثيه بعناء.. ثم أشاح  
وجهه ولم ينطق بكلمة، وسرعان ما ولج القصر بعد أوبته من  
ميدان التدريب. كان يوماً شاقاً لاهباً من أيام الصيف، كل يوم  
يؤوب وقت اصفرار الشفق متتهك القوى، مغبراً كأنه انتشل  
من بين الكتبان.. ولكن هذا اليوم نال مقداراً وفيراً من الكلل  
والإرهاق، فاغتسل، وخلد إلى الفراش في أول الليل طالباً من  
راما عدم إزعاجه، وقطع الليل الساكن يقظاً يفكر في فردون..

ودون أن يشعر هلّ الصبح كاسياً مخدعه برداء ناعم بارد من  
السكون والأمان، لم تلبث أشعة الشمس أن اخترقته وبثت  
خطوطها الدافئة في أركان منه عبر نوافذه المتقاربة، فقام وارتدى  
لباس الحرب وتجهز بكامل عدته، ثم خرج من قصره إلى قصر  
الملك معن. دخل إلى مجلس الحكم في وثوب وعبوس، كان  
ساهماً متورم الوجه والعينين وهيئته تنم عن قرار عصيب  
مرتقب. قال الملك معن بدهشة:

- ما أظنك إلا قاصد الحرب، وإني لأرى الشر يبرق في عينيك  
بجلاء.

- نعم يا ملك.. سأغزو سبأ.. وأسترد عرش أبي..

- تمهل.. إننا ستواجه الرومان، ولنا معهم وثيقة هدنة. وأنت  
من أبرم معظم بتودها.

قاطع رام صارخاً كالمجنون:

- لا مهلة يامعن فقد طال المطال، إن قران العبد شنار وفردون سيتم  
أوربما قد تم، وهذا الأمر يدع كل هदन الدنيا متكثثة وباطلة.

ران الصمت قليلاً.. وصعد الأقيال النظر في وجهي الملك معن ورام، وظنوا أن الأول سيأمر بقتله لا محالة بسبب ثورته وصراخه. أضاف رام بعد أن هدأ غضبه مخاطباً الملك:

- إن كنت تخشى على جيشك يا سيدي، فسأقاتل بمفردي، أو أبدأ إلى حمير مستنجداً..

ولما لم يجب عليه همّ رام بالمغادرة، ولكن الملك معن سار إليه ووضع راحته على كتفه وقال بتأثر:

- لا تستاء يا صديقي. لن أتخل عنك. انفر بجيوش معين في أي وقت تشاء..

مضت أيام ثلاثة، وجيوش المحميات المعينية تتوافد إلى خارج مدينة معين. في اليوم الرابع سار رام بجيش لجب تتقدمه الأعلام الحمر المبتكرة. شاقاً وسط الصحراء الملتهبة نحو أرض جنات. وبعد يوم واحد من خروج الجيش المعيني، أقبلت إلى معين كوكبة من خيالة حمير تحمل نبأ ألوية الموت الرومانية الغازية، وروت للناس تفاصيل مخيفة عن الأعمال الوحشية التي ارتكبتها هذه الألوية في المدن الساحلية لتهامة، ودفعت هذه الأنباء الخطيرة الملك معن إلى إفساد الرسل للمدن والشعور المعينية والحضر موتية، طالباً المزيد من الرجال والعتاد والمؤن، ومن أجل تعظيم شأن هذه الحرب، وإضفاء أهمية كبرى على مصيرها، أوصى باستقدام النساء والأطفال، وبعث إلى رام بهذه الأنباء الجديدة، وأسدى إليه نصحاً بالتوقف عن غزو سبأ، والتريث على مشارفها.

\*\*\*

انطلق الملك معن محارباً مع من توفر له من أهالي مدينة معين،  
وغالبيتهم من الأقيال، وقد استحسن الخروج باكراً إلى أرض  
الحرب. مضى وهو يغالب نزوة ملححة ركدت في تجويف  
نفسه. لكنه دحر قلقه وحياءه بعد مشقة، وعرج إلى هودج  
راما. وتنحج قبل أن يقول بصوت جاهر:

-راما.. كيف حالك يا قرينة صديقي العزيز؟

-في أحسن حال.

قالت راما، وأطلت برأسها من تحت كساء الهودج، فرأته على  
حصانه، واللوعة ممزوجة بالشحوب على زوايا وجهه، وعيناه  
تصرخان بالحب وتتدلهان بشكوى آلامه المبرحة، لم يغب عنها  
استشفاف ذلك بسبب نياحتها. وأعقت:

-أشكرك يا جلالة الملك على اهتمامك بي وسؤالك عن حالي.

-تبدين قلقة. هل تشعرين بالخوف على رام؟ سأل الملك معن.

-نعم. أنا قلقة عليه. أخاف أيضاً على نفسي أثناء غيابه. لا أمان

لي إلا في ظله..

وغشت الدموع حدقتيها، وتوثق في صميمها الخوف.. تخشى  
على رام من أي مكروه، وعلى نفسها من نية الملك معن الخفية،  
ولكن سرعان من أنست أماناً من طلعتة النقية. شعرت أنه رغم  
هوس نظراته أنقى سريرة وأبرأ روحاً، وليس كأبي ملك يمكن  
أن تغويه الفرص السانحة أو تغره الاستطاعة. لمحت ذلك من  
تغير ملامحه، وهو يهامس ذاته بملامة:

" الفتاة تتحرق شوقاً إلى قرينها، ولا تكثر بي، يا لود ما

أحقرني من صديق!! "

انتبه الملك معن حين سألته فجأة:

- كيف حال شهد؟

- لقد بدأت تتأثر للشفاء. صارت تخطو ببطء في قاع مخدعها، وهذا ببركة الدهن الذي جلبه رام.

- إنها تشبهك، فلماذا أشجان حبيسة، لكنها أشجع منك تفصح عن أشجانها.

حدجها الملك معن بنظرة ثابتة، وسأل بتلعثم:

- ماذا تقصدين بحق الآلهة؟

- أنت تحب امرأة صديقك ولا تجرؤ أن تبوح لها بحبك، وهي تحب صديقك، غير أنها لا تكل ولا تمل عن الحديث عنه والتشيب به.

انهارت أعضاء الملك معن بسبب هذه الصراحة المباشرة. عجب من فراستها وجرأتها.. ورد بصوت وإه:

- ماذا ترين في ذلك يا ابنة ملك حمير؟ أهو جنون أم حساسة؟

- لا ذا ولا ذاك. فلا سلطان على القلب سوى الإيمان الحقيقي بما قسمته الآلهة للمرء وفي هذه الحالة يزول الشر والخبث وتهدأ النفس.

- هذا أنا !! وماذا عن شهد؟

- شهد أرشد منك بكثير، وفي تشريعنا أن المرأة إذا أحببت بصدق كان على الآلهة أن تساعدوا إلى بلوغ مرامها. وهذا يتوقف على خبايا قلبها ودرجة وثوقها وإيمانها بالآلهة. وتراني جزعة غيرانة على رام، ولكن التشريع فوق جزعي وغيرتي وأنا مؤمنة به.

عقب هذه العبارة ذهب عقل الملك معن بعيداً، وأصبح اليأس يملأ نفسه المرعوشة..

تذكر ذلك اليوم الذي التجأ فيه إلى المعبد، فوجد أخته شهد  
قاعدة تصلي وتذرف دموعها في سكون، ثم رآها تتمرغ قرب  
حجر الآلهة كالحية المكلومة، وتتألم بالدعاء.

يومذاك وقف جامداً في رهبة، استعذب دعاءها المنعوم،  
وأحس أنه ينبع من حشو محروق، سمع أدعية السقم والشفاء  
والضراعة.. قالت في ختام دعائها:

" أيتها القديسة اشفيني من أجله أو أميتيني على حبه فهو  
طبيبي في هذه الحياة! "

إلى هنا وصل به الشرود ووقف به. تأوه الملك معن. ثم نأى عن  
هودج راما وهو يهمس لذاته بألم: " أنت صادقة، يا شقيقتي  
الوحيدة. وربما أعانتك الآلهة ود. أما أنا فقد أوصتني طبييتي راما  
أن أتحمى بالإيمان. وسأفعل ذلك حتماً .. "

## ( ٢١ )

نزل رام بالجيش المعيني في أطراف مملكة سبأ من جهة الغرب. وأوحى بنصب الخيام والمضارب في العراء.. كان ملتاعاً قلقاً على فردون، وقد أصبح قريباً من أرض جنات، والمسافة التي تفصله عنها هي مسيرة يوم وليلة أو أقل. في الليل تنكر بزى العبيد ولطّخ جسده براسب أسود مستخلص من الأسرجة. واستخلف نائباً له أوصاه ألا يفارق مكانه والجيش. بعدها أطلق لجواده العنان ومضى يعدو بسرعة شديدة حتى تواري وراء الكثبان المتجعدة النائية. قطع الليل مسافراً، واكتفى بغضوة صغيرة قرب الفجر، ثم واصل سيره المتسارع في النهار التالي والليل. وعند الفجر وصل مشارف مدينة جنات. كان مجهداً تؤلمه عيناه المسهدتان الحمرأوان. فبات جوار بوابة المدينة غافياً على سهوة جواده المنهوك حتى بزغ الصبح. صحا على صوت مصاريع البوابة المزعج حين انفتحت للعابرين. فكان أول دالّف إلى المدينة. لمح رام حالة من اللهو والفرح تسود الأزقة والحانات التي يجتازها..

بدت الزينة طاغية على الدور السامغة، ولوحظ الأهالي مغتبطون محتفلون، عندئذ اكتفتته الفجيجة ورعشة الانذهال، وهو يبصر الجنس الحبشي سائداً على الجنس السبئي الأبيض، وقد حوصرت الأمكنة بالأبدان السوداء والوجوه المتعجرفة..



أغاظت رام مشيات طاووسية ثابتة لبعض هؤلاء الأحباش،  
وضحكات ليست وقورة تتفجر من أفواه واسعة مشوهة. وهم  
يمرون فرادى ومثنى وثلاث ورباع متشابكي الأيدي يتغامزون  
ببجاجة وكأنهم أرباب المدينة الأصليين، وليسوا عبيداً في خدمة  
السبيين..

سلك في طريقه عبد حبشي ضعيف البنية، جاحظ العينين، ذو  
ملامح بلهاء بليدة وأنف مكور فاحم. سرعان ما تعمد  
الاحتكاك به ثم حدجه بنظرة باردة، وسأله بصوت أجش:

- أين تقصد يا أخ؟ هل أمسيت في مدينة العبيد؟  
- أقصد قصر الملك لأزور صديقاً هناك. وقد جئت لتوي من  
الخبشة. أجاب رام.

ضحك العبد، وانبرى يقول:

- أنت رفيقي إلى القصر. فكلانا له أصدقاؤه الودودون...

- لم هذه البهجة العارمة والزينة؟.. سأله رام.

- ذاك قران القائد شنار، وهو زعيمنا وقائد الجيش، وقرين

الملكة فردون. يا له من محظوظ.

احتقنت ملامح رام، وكادت روحه أن تفارقه... وانتفضت  
أشلاؤه بعنف، ولكنه هدأ قليلاً عندما سمع من العبد ما يفيد أن  
ذلك اليوم هو آخر أيام الفرح والزينة، وهذا يعني أن العروس  
زفت إلى شنار في الليلة الماضية، وهي مدة قصيرة قد لا يحدث  
فيها شيء مما يحشاه..

أوصاه ذلك العبد أن لا يغادر المدينة الطينية إلى مكان بعيد، لأن  
الألوية الرومانية آتية قريباً، وعليهم أن يغتنموا خروج الملك  
كرب لحربهم، لكي ينقضّون على مدينة جنات، ويستولون عليها

بعد أن يغالوا حرّاسها.. أما الملك كرب والجيش السبئي فلا بد أن يسحقهم الرومان، حتى لو انتصر الملك كرب - وهذا مستحيل - لن ينجو من سيف شنار. حيث خطط لقتله حال أوبته إلى مدينة جنات عقب الحرب. استسلم رام للذهول بسبب هذا المخطط الشيطاني الذي أعده شنار إعداداً متقناً. قال في سره: "يا أبناء الليل ما أدهاكم وأخبثكم! ولولا ابن البغي شنار ما استطعتم التدبير والكيد، ولحسن الحظ قابلت هذا العبد الساذج" ..

وما إن حاذيا قصر جنات حتى مال ذلك العبد إلى عبد آخر كان في محيط القصر، وجعل يحادثه. في حين سار رام إلى الحاجب السبئي القابع قرب باب القصر ذي المغالق المصفحة بصفائح من الحديد الصلب. وقد عرفه معرفة جيدة. تردد رام لوهلة وجيزة. راح يتدبر حيلة تمكنه من لقاء الملك كرب. صار الخوف والقلق يثبطان تدابيره. فهو يصبو إلى إنذار الملك بالألوية الرومانية الزاحفة على مملكة سبأ. وغايته الكبرى أن يصرف شنار عن فردون بأي ثمن، فقد كان يستبشع إلتقاء جسديهما، ويسرى أن كرامته وشرف عائلته سيعلنان انسحاقهما في حال تم هذا اللقاء. هو متيقن أنها لن تخضع له بيسر. عليه أن يغتنم الوقت قبل فواته. وأن يحدس تقديراً أن شنار حتى تلك اللحظة لا زال بين ذراعيها يتضرع دون جدوى.

انتبه الحاجب السبئي إلى رام المتنكر وهو بباب القصر على هيئة عبد حبشي نحيل.. ضاعفت شكوكه تلك الحيرة المدججة بين عينيه، وذاك التردد البادي على شفثيه الراجفتين. شهر الحاجب سيفه، ومضى إليه وهو يدمدم ويصيح:

- اذهب يا عبد السوء إلى حال سبيلك، فقد غصّ بكم القصر

ولا أمان عليكم.

لحظتها حزر رام أن عمه الملك كرب قد شرع يجتاط على نفسه من العبيد الأحباش، لأجل ذلك استبدل الحاجب الحبشي السابق بأخر من أبناء سبأ، ولكن هيهات، هيهات. أمست الحيلة ضرباً من ضروب العبث، وصنفاً من العزاء على الوقت المهذور الفاتت. ها هم الرومان جاءوا بألوية ضخمة لا قبل لأحد بها. وكيف لمملكة سبأ الواهنة أن ترد بمفردها الرومان عن أرضها المتداعية المنخورة بسوس الأحباش؟ تنهد رام ورد على الحاجب مستجمعاً شجاعته:

- أود لقاء الملك لأمر عظيم، وقد جئت من أقاصي البلاد لأنذره وأحذره من....

- قُلْ يا خبيث ما لديك، وإلا أرديتك بالسيف. قاطعه الحاجب.

- لا يجوز أن أجهر يا سيدي. أعطني أذنك. قال رام متصنعاً الاهتمام.

- أيها الخسيس، أنا سبئي. لا أنحني إلا للآلهة أو للدائرة المقدسة. وجدير بك أن تنحني أنت.

أطاع رام، وأحنى رأسه، وطفق يوشوش في أذن الحاجب بكلام خافت، ويمرك أصابع راحته اليمنى بإشارات صارمة تشي بخطورة ما يقوله. تجلى الاهتمام الكبير في وجه الحاجب سريعاً وقال بصوت متذبذب وهو يستدير للخلف:

- اتبعني أيها العبد. ولسوف يكافئك الملك إن كنت صادقاً..

- إن كان في المجلس أي من الأحباش فلينصرفوا يا سيدي..

بعد لحظات مثل الحاجب ورام قبالة الملك كرب. دنا الأول

وأسرّ في أذن الملك شيئاً فلم يلبث أن أمر بإخلاء المجلس من العبيد. ثم رمق رام بنظرة عميقة وقال بغطرسة:  
- قل أيها العبد..

- أنا جاد يا جلالة الملك. أقسم بالمقّة. الرومان بلغوا تهامة في ألوية كبيرة لغزو سبأ.

حلق الملك عينيه في هلع. وأضاف رام:

- العبيد الأحباش هم سبب النكبة يا سيدي، وهم أعوان شنار، وقد تحالفوا والرومان سرّاً وأضمرّوا الغدر ومساندة الأعداء. لكنني خرجت عن طاعتهم ولم تهّن علي هذه البلدة الطيبة التي أذاقتني خيرها و...

هَبَّ الملك قائماً، قاطعاً تنمة حديثه، فاستقام الأقيال أسوة به. فأخذ نفسه وخرج من المجلس ممسكاً على مقبض سيفه. وقد أدرك الطامة العظمى المحيطة ببلادهم. تبعه الأقيال والجنود إلى الفناء الواسع خارج القصر، وهناك امتطى الملك كرب سهوة حصانه وصاح:

- أشيروا علي يا شيوخ سبأ فقد ادخرتكم مثل هذا اليوم.

- أمهلنا حتى تسعفنا المقّة بالرأي الصواب. لقد طمست هذه الفاجعة عقولنا.

هكذا نطق أقيال طاعنون في السن يتنازع في نفوسهم التشفي والتأثر في آن واحد، لأنهم أهملوا طوال فترة حكمه.. فعاد الملك يتساءل وفي حلقه غصة خارقة:

- ماذا نفعل بهؤلاء العبيد الأنجاس المتآمرين في هذا الوقت الحرج، وقد صاروا كالخصي في سبأ؟

لاذوا بالصمت. فصار يتلفت يمنة ويسرة. لكن لا أحد

يجيب. أثناءها تجلى رام وهو على شاكلة العبد. وصاح بصوت عالٍ:

- أرى يا سيدي أن يجسوا في مدينتهم الطينية حتى تنتهي هذه المعضلة. فثامن غدرهم وكيدهم. إذ لا وقت لنا جزتهم الآن.  
- ما أفطن عقلك أيها العبد. هيا أخلوا مدينة جنات من العبيد خلا عبيد الطبل، وارموهم في مدينتهم وذرؤا خلف أسوارها خمسة آلاف من الأشداء. هيا واثنوني بشنار..

عند ذلك تفشى الجنود السبثيون في الأزقة والأسواق والمزارع والقصور، راحوا يلاحقون العبيد ويمسكون بمن ظفروا به. أكثر العبيد التجأ إلى مدينتهم الوضيعة فور علمهم بالأمر، والقلّة منهم سيقوا قسراً، حتى أُخليت مدينة جنات من الأحباش، عدا بضعة وخمسين حبشياً يجرسون الطبل، هم الذين يقومون بدقه وقائد الجيش وقت الحرب. وطوقت مدينة العبيد بخمسة آلاف سبثي في غمضة عين.

انخرط رام بالسبثيين الذين أرسلهم الملك كرب خلف شنار. كانت فردون قد حرمتها الضجاع في الليل متذرة بالمرض، فراح يحتمي الخمر في المقصورة كالمجنون، تملكه السكر وصار يهذي ويلعن الآلهة إلى أن شعشع الصباح. وحينها جاء إلى فردون يراودها بلا هوادة: فصدته أيضاً، ولكن نزوته الحيوانية سيطرت عليه. ولم يلبث أن اندفع إليها كالوحش الثائر المنتقم. فصارت تمنعه وتصارعه. لكنه كان يزداد وحشية مع مرور الوقت. جعلت تستغيث، وتصرخ وتنوح. وملاً صوتها قصره ولكن لا أحد يجيب أو يسمع صوتها المتحشرج الذي تضاعل وأوشك أن ينقطع.. كان العبيد قد أصدوا باب القصر

من الخارج. وهو بدوره أوصد باب مقصورته من الداخل، ومع هذا ظلت تقاومه حتى انهارت قواها وانطرحت تحت ثقل جسده الضخم. ما لبث أن مزق ثيابها، وقبض نهديها وضغطها بقوة حتى كادت روحها أن تصعد.. وصل رام والسبئيون إلى باب قصر شنار، فكسروه واقتحموا المقصورات بحثاً عنه ليجيب نداء الملك كرب الغضوب، والذي أزمع أن يقيم جلسة علنية ويسمع من شنار ومن العبد، ليرى من حقّ عليه القول. أما الأحباش فقد ترسخت في عقله خيانتهم، ولا مجال للارتياب في ذلك.. كان وقع أقدامهم قوياً أحس به شنار، فصاح بملاء الصوت، وهو يظنهم عبيده:

-ابتعدوا أيها الأوباش، كيف تجرءون على الركض في السلام؟

تلكا السبئيون خارج مقصورته، وخافوا مغبة إزعاجه، وتناهى إليهم صوت فردون واهياً وهي تصيح بصوت متقطع:

-ارفعوني يا معشر سبأ من تحت هذا الوحش، لقد مزق ثيابي. أين شرف سراح وعين رام؟

سمعها رام فقفز كالليث المقهور هائجاً وطوّح على الباب ضربتين جامحتين سريعتين، وارتمى عليه كمنجنيق محترق، فألقى نفسه داخل المقصورة يتلفت، وبخطرة أسرع من ارتداد الطرف استعاد ذكرى عصفورة نشبت بين مخالب جارح في مكان ما.. لا يدري أين رأها.. ولكنه أطاح بالجارح بسهم حاد، وابتعدت العصفورة ترفرف بأجنحتها سعيدة بنجاتها. وغاب عن صوابه وهو يرى حال فردون المشين، فهجم على شنار الذي أفقده المباغثة رشده، ورفع عن جسدها المخبول المصعوق، ودفعه

بقسوة ليرتطم عرض حائط المقصورة، وأخذ السيف وعاجده  
 بضربة وقعت وسط صلعته، فانشطر إلى بطنه، وسقط غائصاً في  
 مستنقع من الدماء.. كل هذا يحدث وفردون ترمقهم بعينين  
 ذاهلتين، وتداري عنهم أعضائها المكشوفة بستارة النافذة. وهي  
 ترجف كقصبه مسنبلة في يوم عاصف، وفي غمرة الدهول الذي  
 اكتنف المقصورة انسل رام بجلده الزائف، وخرج من قصر شنار  
 مسرعاً، وامتطى حصانه، وفر من مدينة جنات تاركاً للملك  
 والسبئين لغزاً محيراً..

\* \* \*

كان الملك كرب يقول للأقيال أن الألوية تفوق الجيش السبئي  
 عدداً وعدة، وأن هذه المسألة يجب أخذها بعين الاعتبار  
 والتفتيش لها عن حلول.

ردّ عليه السادن شيزار قائلاً بحماس:

- هل نسيت وثيقة المهادنة التي أبرمت بين سبأ ومعين؟

أجابه الملك كرب بحدة:

- لم أنسها قط يا روح المعبد، ولكن بلغني أن رام صار قائد  
 جيوش معين، والملك معن صديقه ولا يخالف له رأياً، وقد  
 تجاهلناه وأهملناه وفضلنا عليه شنار إذ أجزنا اقترانه بفردون،  
 ولهذا ترك سبأ وهاجر حانقاً من أجل ذلك، ولا شك أن نبأ  
 اقتران شنار بابتي سوف يزيد توتراً وعناداً. لذا لا أمل في  
 نجدتهم لنا.

- دماء سلالة شراح نائرة، ومن كانت على جسده الدائرة المقدسة  
 لا يفرط بأرضه مطلقاً، وهذا جاء بالتشريع على لسان الآلهة.

- ابعثوا الرسل إلى ملك معين إذن. واذكروا لرام من يكون أباه

وجده ! وما سيصيب أرضه عساه يلين ويرق و... .

قوطع الملك كرب بضجة عالية صدرت من خلف الأقيال. شخص بصره فإذا بالسبئيين الذين بعثهم لاستدعاء

شنار قد تبادوا صارخين ينعون الأخير:

- قُتل شنار في قصره يا جلالة الملك..

- من قتله؟ صاح الملك كرب متسائلاً بقهر.

- ذلك العبد الذي أنذرنا بقدوم الألوية. وقد فرّ فوق حصان

سريع..

- اللعنة. كيف فعل فعلته ونجا من العقاب، ابحثوا عنه فلعله

تذرع بذلك لكي يغتال قائد الجيش..

وأثناء ذلك ظهرت فردون من بين الجموع وهي على تلك

الحالة المزرية، وقد سترت ثيابها المقطعة بقماشة من الخز الأسود،

ووخزات أظفار شنار عالمة على صفحة عنقها، والفكشات

المدماة بارزة على جبينها وأجزاء من معصمها، صرخ الملك

كرب بثورة:

- من فعل بك ذلك؟ من ذاك الذي لم يخف من قسوتي

وبطشي؟

- إنه شنار يا أبي. شنار، لقد مزق ثيابي، وما أنقذني من عذابه

إلا عبد غيور قام بقتله.

قالت فردون ذلك، وهي تتشج نشيجاً حاراً. ثم جثت على

ركبتها، فتدلت خصلاتها المنفوشة حتى لامست التراب.. وكاد

يغمى على الملك لفرط غضبه وقهره، وهو يرمق ابنته ذليلة معذبة

مهتوكة. حينها انقلب غضبه إلى بكاء مُر، وقال بصوت متقطع:

- إني بجثة شنار، وإن وجدتم العبد الذي قتله فأتوني به أيضاً



لكي أشرب من دمائه لأنه حرمني من متعة تعذيبه ..  
جيء للملك كرب بجثته المشطورة، فأمسكها بكلتا يديه،  
ونزع قلبه من فجوة أحشائه، وأكل نصفه ملوثاً فمه وشاربه  
بالدماء، ورمى النصف الآخر إلى الأرض، وداسه بقدمه وهو  
يصيح في هياج:

-ارفعي رأسك يا ابنتي، أنا المذنب الذي وهبتك لأقذر قائد  
في سبأ.

فعاد للقول ثانية متوعداً مزججراً:

-قُلت: ارفعي رأسك وإلا قتلتك شر قتلة، فلا يجوز لك أن  
تطأطي رأسك وأنا حي أرزق، ولو أهانتك الآلهة في زمني  
لسفكت دمها هي الأخرى.

ارتعدت فرائص السادن شيزار من الرهبة والخوف. ورأى  
الملك وهو يلقي جثة شنار أرضاً ويوسعها ضرباً بسيفه حتى  
حولها إلى شرائح صغيرة من اللحم الممزق. وقال السادن شيزار  
لنفسه بحقن: لقد سكنه عارض شيطاني من أعداء الآلهة، ولو  
تدخلت كي أعظه وأحذره من غضب الآلهة سيأمر بقطع عنقي،  
أنا أعرف سلالة الملك شراح جيداً، إنهم سربعو الغضب في  
البداية، ولا يتحسرون على ما يقدمون عليه إلا بعد فوات  
الأوان.

في اليوم ذاته انعقد المجلس، ولم يتغيب أي من الأقبال، لأن في  
تلك الجلسة سيتتخب قائداً للجيش، ولا سيما بعد أن وردت  
الأنباء مؤكدة قول العبد بأن الألوية قادمة لغزو سبأ، وعندما  
اكتمل أرباب المجلس قال الملك كرب:

-من الجدير بقيادة جيوش خلفاً لشنار؟

طلب عشرة من الأقيال الإذن بالكلام، وكانوا من حاشية  
شнар. فأذن لهم الملك فقالوا مستسلمين للحزن:  
- كان شнар أدهى قائد في سبأ، ولا نجد رجلاً في المملكة أكفأ  
منه بالقيادة، لأن النساء لم ينجبن نظيره..  
عاد إلى الملك كرب غضبه وجنونه. وغاظه الشناء الزائد على  
شнар. وتجاهل شجاعة الملوك ذوي الدائرة المقدسة. أجاب بتوتر  
شديد:

- كذبتن يا أوغاد، لقد أنجبت جدتي ناطح الجمال وهو أشجع  
ملوك المعمورة، وأنجبت أمني هازم الأحقاف شام وأنجبتني  
أيضاً. أما صاحبكم المشؤوم فهو أسوأ قائد عرفته سبأ، وقد  
خلف وراءه آلاف القتلى عند حربنا الأخيرة ومعين، ولولا ابن  
أخي " رام " لكانت جيوشنا فنيت.

استمات أولئك الأقيال في الجدل، ذاكرين مزايا شнар  
وإنجازاته المحسوبة له، قالوا في أبرزها أنه الوحيد من أخذ  
الثورة التي أتت على الأخضر واليابس في المملكة، وما كان غيره  
ليستطيع أن يفعل ذلك.

بسرعة انتبه الملك إلى شيء هام لم يفتن إليه من قبل، إذ علق  
بباله أن شнар هو من أشعل الفوضى والقتل، بدليل أنه  
استجدى مقعداً في مجلس الحكم للعبد مرج، والذي اختفي  
فجأة بعد شهر. ثم نذر نفسه منذ ذلك الحين لتلمس هموم  
العبيد، والذود عن قضاياهم في مجلس الحكم، وهذا ما لا يجرؤ  
غيره على فعله، وكان يعزو ذلك إلى وجوب الرأفة بالإنسان أيضاً  
كان جنسه عملاً بأمر الآلهة، وإتماماً لنهج العدل الذي سارت في  
مداره الدائرة المقدسة القديمة.. وقد صدق الملك كرب

هرطقات شنار وحججه. أما الأخير - في ظل تواطئه - فما كان عسيراً عليه أن يدع الفتنة تخمد، والهدوء يؤول إلى سبأ، لأنه كان المحرك الوحيد لأعمال الشغب. تذكر الملك كرب أحاديث كثيرة دارت بينه وبين شنار. كان الثاني يفند كل ما يشي إلى خطر حقيقي قد ينجم عن تكاثر العبيد في أرجاء المملكة، بل ويزين للملك الاستكثار منهم.

الآن فقط تجلت الحقيقة أمامه كالشمس. فنفض الهواء المحبوس في صدره إلى الخارج وهمس في سره ساخطاً:

" زحفت الخيانة إلى عقر القصر، وخانني من كنت أثق بولائه المطلق. وهؤلاء الأقيال يتوهمون أنني سأظل على غفلي.. يا للمقة إنهم يستهينون بي، ولا يعلمون أنني متى أفقت من غفوتي أنقلب إلى نار لا تطفئها البحار".

كبت الملك كرب غيظه. ولجأ إلى الحيلة. وقال راسماً البشاشة على وجهه:

-أتم على حق. شنار قائد عظيم. وأود أن أسمع رأي الأقيال في ذلك.

انضم خمسة أقيال إلى أولئك العشرة، مؤيدين هذا الرأي، فغمز الملك كرب السيف، فهروا ممتشقاً سيفه، وقد عرف المطلوب منه، وسرعان ما قادهم إلى المصطبة، وجز رؤوسهم. بعدها انفجر الملك صارخاً:

-أيها الجند، أعيدوا العبيد إلى أرض جنات، وأدخلوهم عليّ مائة بعد مائة لأكافأهم على الخدمة. أو هوهم بالعفو الشامل.

أسرع الجند إلى مدينة العبيد. وصار المنادي يهتف:

"إن الملك كرباً قد صفح عن العبيد، ويرجو أن يعودوا إلى

الخدمة في مدينة جنات، وأن يدخلوا عليه لنيل الكسوة والذهب".

فاستسلم طوعاً نصف الأحباش، والنصف الآخر أخذوهم أسرى. وراحوا يدخلونهم إلى مجلس الحكم ولم يرهم بعدها أحد. حيث صاروا طُعماً دسماً للسياقين، وكان عددهم في أرض جنات خمسة وعشرين ألفاً، وعدد السياقين الذين أزهقوا أرواحهم مائة سيف. أما القناني التي امتلأت بدمائهم، فلا تحصى. وكانت تراق في تجاويف ترابية خارج مدينة جنات حُفرت خصيصاً لذلك، وهذه التجاويف - على عمقها وما روعي من رحابتها واتساعها - افترشت هكتارات كثيرة في الأراضي المنبسطة. ولأجل هذا نال الملك كرب لقب سفاح سبأ، وسُمِّي ذلك الأسبوع الدامي أسبوع الأحباش.

خلال هذا الأسبوع عرف الملك كرب أن جيش معين قد خرج للقاء الرومان، فتضاعفت حماسته، وتهللت أساريه. لكنه لازال ينتظر جيوش المحميات التي ما فتئت تزحف في أقصى سرعة. وقد خاف أن يذاع في البلاد أن مملكة معين حشرت جيوشها للذود عن سبأ فيما الأخيرة هاجعة لم تحرك ساكناً رغم أنها المستهدفة بالغزو.

وصلت الأخبار تبشر أن جيش حمير قادم من المرتفعات الشمالية لينضم إلى جيش معين. فتفاءل الملك كرب بالنصر. وقال لنفسه متعجباً: "ما أجل التحالف بين الممالك! ولا عجب من انضمام معين إلينا. لأن بيننا وثيقة هدنة ونجدة. وهم مثلنا يشعرون بخطر الرومان على بلادهم. لكن حمير نائية قليلاً، وليست مستهدفة، ومن الغريب أن يقحموا أنفسهم في

الحرب. لكننا أبناء سام ويعرب".

بعد أسبوع اكتملت جيوش المحميات السبئية، ومُزجت ببعضها. ثم سار الملك كرب بجيش كبير قاده بنفسه. فلم يعد قلبه يطمئن إلى أي من الأقبال ليقود الجيش، وتذكر رام فقال متحسراً:

- لو كان رام في سبأ، ولا يطمع في الاقتران بفردون لجعلته القائد، لأنه شجاع..

كان يظن أنه يهفو إلى ابنته طمعاً بالعرش. لذا تركها في قصر جنات خشية أن تلتقي به أثناء الحرب. قالت له بتودد عساه يسمح لها برفقته:

- أنا فارسة يا أبي. وقد خضت المعارك الضارية، ومارست القتال بشتى أنواعه.

- كُفِّي عن الاعتداد بنفسك. إن الحرب هذه المرة قاسية، من يدري!! لعلهم يغلبوننا ومن ثم يسبون النساء، ويذبحون الأطفال والشيوخ، فهم قوم لهم قلوب من صخر ولا تشريع لهم.. قال الملك كرب ذلك ثم مضى بالجيش.

أحست راما عقب وصولها أنها أضرت ناراً جهنمية في هيكل رام الناحل.. أصبح يحترق من الصميم. ويتأكل رويداً رويداً. لم تكن قادرة على إطفائه، لقد تاهت فطنتها في زحام الخوف. لكنها وجدت الندم ملجأً أميناً، كانت زلة لسان لم تُرتب لوقوعها البتة، لا تدري كيف فقدت في تلك الليلة قدرتها على التكتّم، فباحث بالسر الذي عقدت النية على أن تكتمه آنفاً..

كان لقاءها ورام حميمياً مشيراً في وقت شارف على الغروب. انسحق قلب الملك معن قهراً وهو يرمق راما تنهياً للقاء بكل جنون، فلوى حصانه وانسحب إلى خيمته دون أن يترك وراءه أثراً للريبة. فقد صار يخشى أن تخونه أعصابه، أو عيناه أو ملامحه المتكدرة. أما خيمة رام فقد صارت عامرة بالضحكات والشهقات والاعتناق، ولا زال مطر القبلات شناناً، تراشقه الشفاء بانتظام. وكلاهما يود تهيئة أعضائه للوصول إلى اللاوعي. جعلت راما تشيح شفيتها عن وجهه بتذمر لائح، فقهم رام ما يجول بنفسها. لذلك طفق يهامسها ويضحك بلطف وسرعان ما بانّت علامات الرضا بملاحمها، وانخرطت في مهامسته، فهي أثناء الممارسة لا تجبذ الصمت. لأن لا مبرر له في لحظات سعيدة كتلك، بل يذكرها بسير الجنائز في حمير، هذا ما استلهمه من مغامراته الجنسية الماضية.

ذعر رام، وانفصل عن جسدها بنحوه العاري أثناء ما كانت  
تثرثر بلا وعي ساردة أخبار الرحلة..  
-يا للملقة.. كاشفك معن بحبه؟ سأها..  
- هاه.. لقد أفلت لساني ولا أعني ما تفوهت به.  
ثم استوت جالسة بذهول، وزفرت بامتعاض، وأضافت  
بتلعثم وقد اتشحت قسامتها بالندم:  
- نعم، ولكنني كشفت نواياه أولاً، ثم كاشفته، فاعترف لي  
بمكنون نفسه.

لم يجب عليها، وإنما أسند رأسه بكفه، وأمضى الليل منكباً إلى  
الأرض يتخيل ما جرى ويتنهّد ويتوجع حتى وصل في نهاية  
خيالاته المتكاثفة إلى قرار عنيد لا مساومة فيه. لن يقطن معين إلى  
الأبد. سيضحى بقصره وأملاكه ويتجشم ويلات الترحال من  
جديد لكي تظل كرامته سليمة مصادرة. فليرحل بعد الحرب إلى  
حمير أو إلى أي مكان آخر.

هكذا طوى الليل في غليان دائم. ولم تكن راماً أحسن حالاً منه  
فقد ظلت معروضة على الفراش. مترينة علّه يؤوب إلى جسدها  
الأليف. غير أنه صار جافلاً غائب الحس كأنه عجف خاو لنخلة  
منخورة. ومضى الليل بعكازيه ببطء. وتداني من نهايته  
المحتومة.. كان رام قد شبع سهرأ.. فولى إلى الفراش، ورقد جوار  
راما التي بدت على نور السراج رغم خفوته كالموزة  
المقشورة. وهي تغط في نوم هنسيء على تلك الهيئة المثيرة  
الأولى. كان خاملاً محطماً، وهذا جعله لا يدثر جسده أو جسدها  
بأي غطاء.

منذاك حاول رام أن يبدو هادئاً منسجماً. لكن وجهه هتك

سره. ونبرات صوته الموجوعة، وهو يجاذب الملك معن الحديث، مما جعل الأخير يخمن انكشاف أمره وازداد يقيناً في اليوم التالي. فكر ملياً كيف سيواجه صديقه بحديث نخجل كهذا! من أين يبدأ؟

وبماذا سيبرر اقترابه من هودج راما؟... هكذا هامس الملك معن نفسه في لحظة انفراد طارئة. وسرعان ما تبلورت بكيانه قناعة كالمعجزة. ثمة أيدٍ حنونة خفية تتحسس مواضع ألمه. وتمدُّه بعافية خالدة. والأسمى من هذا أنه ما عاد يسمع صليل عظامه، واعتجان أماصيره عندما يطارحه طيفها الذكرى. لقد شفي من غرامها ولم يعد طريح هواها ولم يعد يغطها على شيء. ليس بسبب أنها وشت به، موغرة صدر صديقه عليه. وإنما لأن عقلها الذكي حط برأس امرأة لم يتحمل قلبها أكثر من شخص واحد، وأشد من ذلك لم يحتمل بقاء سر وحيد في أغواره...

في تلك الظهيرة أزمع الملك معن أن يصارح صديقه بحقيقة الأمر فجاء إليه وانفرد به في خيمته وكانت راما كامنة تحت ستار مجاور. وقال الملك معن بحزن صادق:

- لا أدري ما أصابني من جنون، لا أعرف كيف وقعت في هذا الأمر. لكن أقسم لك بشرف الآلهة «ود» أنني لن أدع قلبي يسيطر عليّ. وسأقتل ما به من حب حقير أو أقتل روحي.

- عمّ تتحدث؟

قالها رام مربوكة. حاول أن يبدو جاهلاً بمعنى كلامه. ثم تمتم

بحذر:

- أود إرجاء هذا الحديث..

- لا تتظاهر بالجهل، وإياك أن تضمّر بأنني خائن أو خليع أو



متسلط. لا شك أنني كنت أضمر حباً، ولكنني حجبته رغم  
ألمي. وهي التي انتزعته من صدري، لا أعرف كيف؟  
أجابه رام متأثراً:

- لا أنكر لك أنك أكرمت وفادي وصنت عرضي، وكنت لي  
كل شيء في الحياة.

- لا تقل هذا. إن بقاءك معي هو سر سعادتي وقوتي. وأظنك  
تفكر بالنأي عن معين. لا. لقد غدوت مني. أرجوك. الحياة من  
دونك مرة وكثيرة.. جثا الملك معن على ركبتيه، وانخرط في بكاء  
بلا صوت. وإنما دموع وهنئات صغيرة حاول أن يكبحها، لكنه  
لم يفلح. عضت راما أصابعها حسرة. وهي ترى من أحد الثقوب  
وتسمع ما يدور في الخيمة، أيقنت أنها بفعلتها خالفت التشريع،  
ومن ثم أغضبت الآلهة، وأوجعت قلبين خليلين بزلة لسان  
واحدة. اعترفت لنفسها بصدق قول الملك معن، فهي الجانية  
التي سرقت خبر غرامها من عينيه.

وهاهو عقلها الرشيد يستشف مما حدث أن ثمة ضرراً قد  
أصابها، وإن كان مستوراً، أو لا تحس به، أو يبدو هيناً في  
لحظته. لكنه يخزن في طياته أقسى المتاعب، وقد يجلب آثاراً  
وخيمة لا تسر. فمتى تراكمت زلات لسانها سيزداد كذلك عناء  
رام، وتشاؤمه منها، وقد تسقط من عينيه وقلبه. وهكذا جعلت  
راما تؤلب كامل طاقتها الذهنية لتحرص أن تدوم حية في أعماق  
رام. ودّت لولا الحياء أن تقفز إلى أمامها نائحة معتذرة وتطعن  
صدرها بخنجر حاد.

في ذات اليوم وصل إلى جوارهم الملك يريم بجيشه  
الكبير. فاستقبله الملك معن، ورام استقبلاً لاثقاً. ثم تركاه

ليستجم من عناء السفر. وفي غداة اليوم التالي سار الملك معن إليه خفية، واجتمع به في خيمته الفسيحة على انفراد. وكان يود أن يبرهن حسن نيته، وأن يعيد الثقة المفقودة إلى نفس رام. ويرفع من شأنه. قال بعد كلام طويل مؤثر:

- يا جلالة الملك، إن قرين ابنتك رام السبئي قد عانى كثيراً، وعمه كرب قد سلبه عرش أبيه...

قاطععه الملك يريم بقلق:

- يَمِ تفكر يا ملك معن؟

- ها قد آن الآوان ليستعيد عرشه المسلوب، ويمكننا أن

نؤازره.

- كيف؟ تساءل الملك يريم مدهوشاً.

- أرى أن نجعله ملكاً على ممالك الجنوب (سبأ ومعين وحمير). ونأتمر بأمره وننتهي بنهيه. وتصير له الخيرة أن يسكن أينما يشاء. وأن يستنفر جيوش الممالك متى يشاء. ونعقد على هذا وثيقة خالدة.

صاح الملك يريم بغضب:

- هذا هذر فارغ لا يقبله ذو عقل.

- أرجوك. فُكِّرْ بأناة وستجدها حيلة سوف تنظي على الملك كرب، ومن ثم يدوم رام ملكاً للممالك حتى تقوى شوكته، ويطيح بعمه بلا قتال، ثم يستقل سبأ.

- هل تظن الملك كرب طفلاً حتى يرضى أن نتزوج رام ملكاً

وهو ألد خصومه؟

- سيرضخ بالتأكيد، فقد صارت بلاده ضعيفة بسبب القلاقل التي اختلقها الأحباش. ولن يقوى على مواجهة الرومان

وحيداً، حتى لو نجا منهم لن يقوى على قتال معين وحمير.  
- كلامك به قدر كبير من الحقيقة، ولكن لا بد أن آخذ  
المشورة.

- كما تشاء يا جلالة الملك.

وانسل الملك معن خارج الخيمة. بينما جعل الملك يريم يفكر  
بعمق، وبحث في أعماقه عمَّن يستشيريه. سرعان ما اهتدى إلى  
ابنته راما. فهي مستشاره القديم الحصيف، كما يسود أن يراها،  
كانت رغبته جامحة، واشتياقه غزيراً مذ فارقت حمير ورام.  
أرسل إليها فجاءت ووأدت قامتها في طولها، وهي في غاية  
السعادة، وهو كذلك. لم يلبث أن دعاها للجلوس على مقعد  
بجانبه، ثم طفق يسألها عن أحوالها، وكيف تسير حياتها. هكذا  
يبدأ الناس في الحوار مع كل شخص حميم، وما أغنى الملك يريم  
عن مسألتها، وهو يرمقها أمامه صافية الوجه منفرجة الثغر  
تبتسم، وتضحك، وتتحدث بمتهى الطلاقة والمرح. وكما لو  
بدت له ذات صفات أخرى، ولولا أنه يعرف وجهها الذي لم  
يتغير لأنكرها. لكنها ابنته راما بشحمها ولحمها، وها قد تلاشى  
حياؤها العزوبي، وانفتقت عذوبة لسانها، وغدت أجمل مما  
كانت وأروع في كل شيء، وما برح يفكر ويتأمل حتى غار من  
رام، وانتابه الحسد عندما ألقى هذه السمات الجميلة التي لم يألفها  
عليها. وقال في سره بكدر:

"عجباً صارت راما كالنحلة تنز بنشاط وسعادة، ولعل رام  
السبئي يتمتع بفحولة ضارية، ما أبغض ألا تحتشم الفتيات!  
ويلزمن الخجل بعد الاقتران ولا سيما أمام الآباء!!"

أفاق الملك يريم على صوت راما، وهي تناديه مستفسرة وقد

فهمت ما يجول في خاطره:

- ما بالك يا أبي أناديك، ولا تجيب؟

- هاه. نعم أنا أسمعك جيداً.

- تراني قد تغيرت ووجدتني بشوشة وسعيدة، وهذا لا

يروقك.

اختجل الملك يريم، ولم يعجب من كياستها، لأنها مألوفة  
لديه، ولكنه أجاب هارباً عن مجرى الحديث:

- لقد افتقدت مشورتك، فاسمعيني بجميع جوارحك.

هزت راما حاجبيها مبتسمة، وأظهرت الانتباه. فتابع يقول:

- اتفقت وملك معين أن نجعل رام ملكاً على ممالك الجنوب،

ونعقد وثيقة بذلك. ولكن...

-ولكن. ماذا يا أبي؟

-أخا... أخاف أن يتعفرت قرينك، أو ينقلب عليّ.

-حسبه أن يسترد عرش أبيه، وهذا هو مبتغاه، ولا يطمح إلى

شيء سواه.

-هكذا يزعم الملك معن، ولكنني لزلت قلقاً.

-آه يا أبي، إن رام جدير بحكم الممالك الثلاث، لأنه من

حشدها لقتال الرومان. ولم يسبق لجيوش سبأ وحمير ومعين أن

اتحدت إلا هذه المرة.

-أنا ذاهب إلى ملك معين لنحسم هذا الأمر. اطمئني يا

ابنتي. أجاب بحزم..

واجتمع الملك يريم بالملك معن، واتجها إلى رام. فألفياه قرب

خيمته يشحذ سيفه، ويعالج عدته الأخرى. وعندما رأهما توقف

عن العمل مبتسم الوجه، وأخذ يمسح قطرات العرق عن

جيبينه. وسرعان ما عرضا عليه الفكرة، وهما يظنان أنه سيسعد كثيراً ولا يبايع من أول وهلة، لكنه أجاب بتلكؤ:  
- هذه فكرة سامية، ولكن جلاله الملك يريم أحق بتاج الممالك،  
لأنه أكبرنا سناً.

- لا يا بني. أنت من وحدت الجيوش، لذلك خولناك هذا الأمر الجليل.

تحرك رام بتملل.. ثم رد بكآبة:

- لم أصعد على عرش أبي بعد، فكيف اتمكن من اعتلاء عرش الممالك؟

- لا تكثرث، فقد صار الملك كسرب في حال لا يحسد عليه، وليس أمامه إلا الرضوخ والتسليم، وفي هذا السبيل إلى استعادة عرشك المسلوب.

- قو قلبك. فبعد أن نعقد الوثيقة ستصبح جدياً ملك ممالك الجنوب. وتكون أوامرك نافذة في سبأ ومعين وحمير. وحينذاك تستطيع اعتلاء عرش سبأ في أقرب وقت.

- افعلوا ما بدا لكم، ولا تأخذكم الآمال بعيداً عن عواقب الحرب الضروس القادمة.

قال رام عبارته. وأدبر إلى خيمة راما وأخبرها وهو لا يعلم أن لها دراية بالفكرة، وأنها كانت ستباغته بها لولم يبداً. لاحت فرحانة بادية الأسارير قبل أن يُحدثها. لكنها أبدت الوقار والاصغاء الجيد لحديثه، وعندما حان لها أن تتكلم استحلقتة بالآلهة أن لا يحجم عن عرش الممالك، وأن يبادر إلى خيمة الملوك ليمتطى الكرسي المعد له. أخذ رام بنصيحة راما، وأزال من نفسه الشكوك والأوهام التي تساوره، وسار تواء إلى خيمة الملوك لكي

يتوج ملكاً على ممالك الجنوب. في حين تبتسم راما بظفر، وفي سريرتها ينطوي سر جامح. تتأمل كل شيء حولها بسخاء. وتثني على عقلها المحنك. وتتخيل ما كانت ستفعل لو لم يكن محشواً في رأسها، ومادامت لم تُسخره للإضرار بأي أحد، فهي سعيدة، ولا ترى أنها اقترفت ذنباً عندما ألحت على رام بالتشبث بعرش الممالك. لأن عقلها هداها إلى أن الملك كرب سيساومه على عرش الممالك بفردون..

أناخ الملك كرب جيشه في مكان رحب وسط البيداء العريضة المزحومة بالخيام والجنود، ولم تطاوعه نفسه أن يخلد للراحة عقب مجيئه. وإنما سار توأ ليقابل الملكين المعيني والحميري. كانت خيمة الملوك منصوبة على ربوة، لكنها تلوح للعيان منمقة ومطرزة بأزهى الحلل والأكسية الأخاذة اللامعة، حتى أن المسافر يراها من بعيد كالنجم المتلألئ في السماء.

دخل الملك كرب إلى الخيمة الفسيحة، تدافع حراسه وراءه وعن يمينه وشماله. لكنه ارتسم مدهوشاً كالتمثال المتجمد، مبهوراً بالمشهد المنحوت أمامه. حيث كان رام فوق كرسي شاهق مبطن بالفضة، ومسبج بطوق نفيس من الذهب على أطرافه العمودية. إلى اليسار منه يجثم الملك معن بن قضاع على كرسي أخفض. ويقعد يميناً الملك يريم فوق كرسي مماثل. وذلك الضوء المسكوب في خواء الخيمة يلفع وجوهاً كثيرة متفاوتة مكدسة ويعرّيها بوضوح. جزء من الضوء ينبثق من ثلاث فتحات جدارية كبيرة في الخيمة، ومن بابها المثلث العريض. والجزء الأخر آتٍ من التاج المركون فوق رأس رام.

حجج الملك كرب الحاضرين بحيرة وقلق. ولم يلبث أن قال بصوت غاضب:

- جئت لألقى الملوك، ولم آت لكسي أرى قادة الجيوش على

عروش الملوك.

- اجلس يا ملك كرب. وسوف تدرك كل شيء غاب عن ذهنك.

قالها الملك معن مومئاً إلى كرسي خالٍ لا يقل عن كرسيه وكرسي الملك يريم في شيء.

أسرع الملك كرب، ورمى جسده المنهوك على كرسيه. وورنا إلى رام بعين واحدة حمراء كالدم، وقال بحقد غير موارب:

- لعل ما غاب عن ذهني أن رام ابن أخي امتطى كرسياً عملاقاً، ولبس تاجاً ملكياً باهظاً.

أراد رام أن يرد ولكن الملك يريم انبرى قائلاً بقوة:  
- بل توجناه ملكاً للمالك الجنوب، ولا أحسبك تأبى أن نعقد الوثيقة المقدسة...

ملاً صوت الملك كرب الخيمة، وهو يهتف بفضاعة:

- هذه لعبة خاسرة. لست من يتخددع بها، وليست سباً...

- عماه... اهدأ...

- دعه يا ملك المالك... فلا جدوى لصراخه...

- ما هكذا تتخاطب الملوك... وعزة اللات.

- ظننتكم تخططون للحرب، ولكنكم عاكفون على الغي.

- ليس غياً يا كرب، فالملوك لا تلهو أثناء الحرب، إن الوريث

الوحيد للعرش هو رام بن شام. وقد انتهت فترة وصايتك عليه منذ سنوات مضت.

- أعجب. كيف انضمت إلى تحالفنا، وليس بيننا وحمير عهد

أو نجدة!!

- ملك المالك استنجدني، وقد صار قرين ابنتي راما.



فوجئ الملك كرب بنياً اقتران رام. حيثئذ رمقه شزراً وهناه  
بكلمات جافة مقتضبة:

- دام فرحك يار...-

- ملك الممالك، قُل هكذا يا ملك كرب.

- إنكم تعكرون صفوي، ولازلت أرفض ما تدعونني إليه.

رد عليه الملك معن بنزق:

- أيها الغافل. إن نجوت من الرومان، لن تنجو من حمير  
ومعين. ليس هناك ثمة خيار أجدى من الوثيقة. هل توافقني  
الرأي؟

- لا بأس أن ترفض الآن كي ندعك فريسة للرومان. ونقفل  
راجعين.

حار الملك كرب. وزاد وجيف قلبه. ووجد نفسه بين خيارين  
أهونهما له مذاق العلقم. سيقبل بالأهون، وهو أن يعترف برام  
ملكاً للمالك الجنوب، وأن يعقد وثيقة خالدة ذات نصوص  
صارمة يدعن لها صاغراً. ثم يتهاى للحظة التي يُطاح به عن عرش  
سبأ... خطر في رأسه أن يجرمه من فردون، ووجد في هذا بعض  
العزاء عمّا افتقده من وجهة، وما حاق بمركزه من انحطاط  
واهتزاز. قال بصوت متماوت:

- لقد قبلت أن يصير رام ملكاً للممالك. ولكن لي طلب وحيد.

- طلبك مُجاب إن كان أهلاً للإجابة. قال ذلك الملك معن

بحيطة.

- نعم إنه أهلٌ لذلك. لأن لي فيه أحقية مطلقة، ولا ينبغي لرام

أو غيره أن يتنازعي.

رد الملك يريم:

- ما هو طلبك يا ملك كرب؟

-أمل أن لا يناشدني رام بشأن الاقتران بفردون، وهنيئاً له  
عرش الممالك.

وحل الصمت. واهتزت أعضاء الهدهد السبئي الكامن  
جوفه. قال بصوت مكتوم لا يسمعه أحد: " هذا طلب عويص،  
وذاك عرض مغرٍ. هبْ أنني أبيت ما عرض عليّ من أجل أن  
أفوز بفردون، هل آمن جانب عمي كرب، وأركن إلى  
وعده؟.. قد لا يسمح باقتراي بفردون أيضاً، وتكون الخسارة  
أعظم وأنكى "

أخذت نفس رام تشتهي عرش الممالك، وتسول له التنصل  
عن ابنة عمه فردون. لكنه تذكر إبهام قدمها المبتور، والعهد الذي  
أبرمه معها جوار المعبد.

وأتاه صوت الملك يريم قاطعاً أفكاره، وقال له سائلاً:

- ما بالك صامت؟.. أعجزت أن تجرد بغيتك، وتختار إمّا

ممالك الجنوب أو فردون؟

تعهد الملك يريم تضخيم لفظي الخيار الأول " ممالك الجنوب  
" موحياً إلى أهميته، بينما نطق لفظ الخيار الثاني " فردون "  
بصوت واه.

-إن تخليت عن عرش الممالك. هل بوسعي أن أطلب فردون  
للاقتران بعد الحرب؟

أجاب الملك كرب مقطباً جبينه:

-هذا شأني.

- إذا انقضت الحرب أكون قد فكرت جيداً يا عم، لا بد أن

تنزل إلى الجيوش..

بعد أن أتم رام عبارته استاء الحاضرون خلا الملك كرب الذي  
عدّ ذلك نصراً وقاه من عقد الوثيقة الخالدة، مع أن النصر الذي  
أحرزه مهدد بالزوال.

أثناءها خرج رام من الخيمة، وساروا ورائه في حشد صغير  
يضم الملوك، المعيني معن، والحميري يريم، والسبئي كرب. كذا  
عدد من أقيال الممالك. استقروا جميعاً أمام الجيوش، وراح رام  
يلقي خطاباً حماسياً على الجنود والقادة والمنادي الجمهوري  
الصوت يردد العبارات خلفه بقوة، لكي ينقلها إلى مسامع  
الصفوف البعيدة. أطال الوقوف أمام الجيش السبئي لأول مرة،  
وعمه الملك كرب بجواره يتوجع في الباطن، وقد غابت عن  
ملاحظه الغطرسة، والثقة بالنفس. وفيما هم كذلك يضعون  
الخطط والترتيبات للحرب وردت الأخبار عن تقهقر الرومان،  
وكأنهم شعروا بفداحة الخطر الذي سيجره عليهم لقاء جيوش  
الممالك الكثيرة.

فتعقبت جيوش الممالك آثارهم حتى أوردوهم حدود البحر.  
وهناك رأوا آخر مراكز الرومان يمزج الأمواج المتلاطمة مبتعداً  
عن الشاطئ، فلو حواله بنصال السيوف وقوائم الرماح مودعين  
ثم قفلوا راجعين. ولما بلغوا أطراف سبأ مكثوا هناك للراحة بعد  
عناء المطاردة. وفي غداة اليوم الثالث دخل الملك كرب خيمة  
الملوك، فألفاهم يهتنون أنفسهم بالنصر، عند ذلك اتخذ مكانه  
الخاص به قرب الملوك وقال بتهكم موجهاً كلامه إلى رام:

- ها هي الجيوش المعادية قد اندحرت. ماذا قررت أن تفعل؟

وقبل أن يرد عليه. قال الملك يريم وقد استشاط غضباً:

- يا ملك كرب. كان عليك أن تهنتنا بالنصر. ثم تشكر رام

الذي حشدنا لنحارب الرومان. ثم تسأل عن قراره في آخر المطاف.

- أهتكم على فرار الرومان ، وأشكر ابن أخي على ما بدر منه.

هكذا رد الملك كرب بهدوء، وفي تلك اللحظة نهض رام وترجل عن كرسيه. وقال بصوت ثابت رانياً إلى عمه والملك يريم:

- هذا قراري اصعد يا ملك يريم إلى عرش الممالك، فأنت جديره.

- كلا. وشرف اللات أنك ملك الممالك الثلاث، ولا بد أن يستجيب الملك كرب إلى مرامك.

قالها الملك يريم بجدية وحلف عليه أن يرجع إلى موضعه، وقال الملك كرب:

- لن أعده هذه اللحظة بشيء، ولكنني وجدت لابنتي قريناً آخر.

- أراك ستعيد تجربة شنار. سترغمها على الاقتران بأحد القادة. أليس كذلك؟

- لا.. لا.. لن أرغمها على ذلك. سوف أدعها تفعل كما فعل أبوك شام حين يتس من لقاء أمك تنرا. ستنزول إلى الجنتين

الخصبتين لكي تختار قرينها من فتیان سبأ.

- وأنا يا عمّاه.. أود الاقتران بفردون.

ضحك الملك كرب. وأجاب باستخفاف:

- أنت. أنت، لا تقل هذا ثانية. لديك قرينة...

- إياك أن.. بل أتوسل إليك، أود أن ألقاها لأبثها ما جرى لي.

قاطععه رام بتلعثم، واكتسى وجهه بالسواد والأسى. وتجلى عمه الملك كرب ناقماً وشامتاً وهو يرى حاله المأزوم. صارت فردون دبوساً حاداً يخز به قلبه، وكان قد انتصر عليه، وسيغدو أول ملك يتوج على عرش ممالك الجنوب، ولا يستبعد أن يضع يده على ممالك الشمال النائية أيضاً.. لكنه رغم ما بلغ من مجد يسدو ذليلاً مهزوماً يخشى غضب ابنته فردون، وكأنها رب نعمته أو الآلهة، لقد غدا ذا شأو كبير ولا يجمل به أن يضعف أو يتكدر من أجل فتاة. هكذا دار في باطن الملك كرب، ولعله وجد نفسه ممتناً من ابنته، ومزهواً بها بعض الشيء. ذلك أنها أذلت رام الذي أذله، وجعلته يستعطفه ويفاوضه بشأنها. ولولاها كان بمقدوره أن يأمر بجز رأسه أو بسجنه. لأن الممالك تؤيده والسبثيون.

قال الملك كرب بعد وهلة صمت قصيرة:

- هيهات.. أنا ضد رغباتك دوماً.. لن تلقاها لأنني سأحدثها عن كل شيء.

- عمّاه. هاك العرش. خذ ما تشاء.. قايضني بفردون....

قاطععه الملك يريم صائحاً بعصبية:

- مادام عمك يراوغ، ستظل على عرش الممالك، وهذا العام تقسيم في حمير، والعام المقبل في سبأ، والذي يليه تحمل في معين. هاتوا الوثيقة..

وسرعان ما أقبل السادن مينامر كبير سدنة حمير مهرولاً، وبين يديه وثيقة جلدية عليها بنود صارمة تحول رام أن يسدير شئون الممالك. ومما جاء في الوثيقة:

"بمباركة الآلهة (المقة - واللات - وود) يكون رام بن شام ذو الدائرة المقدسة ملكاً للملك الجنوب (سبأ وحمير ومعين). وتكون

أوامره سارية على الملوك. ويصير له الحق أن يدعو الجيوش، وأن يقودها في الحرب وأن يعقد المعاهدات. وقد مزجت الملوك دمائها وباركت له. ومنحته الآلهة لقب ملك ممالك الجنوب". ..  
وبعدئذ مزجت الدماء على الوثيقة وأخذ كل من سدنة الممالك نسخة من الوثيقة لتعلق على المعابد، أما الوثيقة الخالدة الأصلية فقد ارتأى الملوك أن تلصق بمعبد مدينة سام. وكانت أول مرة ينحني الملك كرب أمام رام وهو يوشك على الانصراف قائلاً  
بكمند:

- طاب يومك يا ملك الملوك. عليّ الراحة لأنني في الغد  
سأغادركم إلى سبأ.

آبت الجيوش صوب ممالكها بعد وداع كبير أجري في أطراف سبأ. أحس رام وهو يرتحل إلى حمير أن عمه سيجعل فردون تقترن قبل أن يأتي العام الذي سيقوم فيه على عرش سبأ. أما الملك كرب فهو الآخر أب إلى مملكته محزوناً بسبب الوثيقة الخالدة. ساءه كثيراً أن رام ذاك الطريد أضحي ملكاً مبعجلاً على ممالك الجنوب، وأنه سوف يتلقى أوامره وينفذها مكرهاً، وإن لم يفعل تكالبت عليه حمير ومعين ليجردانه من حكم سبأ. والأنكى أن وجوه السبئيين عند عقد الوثيقة كشفت عن مودة خابئة في دواخلهم لرام. وإلا لماذا لاذوا بالسكوت، وواروا رؤوسهم كالنعام، ولم يجرؤوا ساكناً حينما مورست ضده كافة الضغوط والتهديدات لكي يرضخ لفكرة ملكي حمير ومعين.

أزمع الملك كرب سراً أن يذيق السبئيين ألواناً من العذاب بسبب هذا التواطؤ غير المعلن. ولما دخل جناحه الخاص عائداً من مجلس الحكم عقب مجيئه، لمحت زوجته هاميرا كفهرا ر وجهه وامتقاعه، وكانت فردون بجانبها متلهفة إلى استقصاء أحوال رام، وسماع الأخبار عما حدا بالرومان إلى الفرار، إثر أخبار ذاعت في أرض جنات تفيد أن مفتاح النصر هو رام بن شام، ذو الدائرة المقدسة، ووريث المملكة الشرعي. والسبئيون يعرفون ذلك كل المعرفة. فلکم يمقتون الملك كرب منذ أن

هاجر رام إلى معين، وبعدهما قضاوا الشنار بفردون، لقد رأوا  
البؤس، ولاقوا كل الغصص، وعانوا من استبداد العبيد  
الأحباش، فكم جُزّت من رؤوس على مصطبة الدم في مجلس  
الحكم، وظلوا ألعوبة للموت بين مطرقة العبيد الأحباش  
وسنديان الملك كرب، إلى أن قُتل شنار غداة ليلة دخلته،  
وانقلب الملك كرب على الأحباش، جازاً رقابهم  
كالخراف. ولكن رغم زوال العبيد لم يتخفف الملك من عادة  
القتل، وها هو يرجع من الحرب بشهية أكبر للدم. ويادرتة قريته  
هاميرا والتي بدت في العقد الرابع من عمرها:

- ما بالك يا جلالة الملك متضايقاً، مكفهر الملامح، وقد  
عدت لتوك متصراً؟

- انتصرت على الرومان بمساندة من حمير ومعين، ولكنني  
رغم ذلك انهزمت في هذه الحرب التي لم تقع.

هكذا أجاب الملك كرب بنبرات منقطعة مشروخة. وسألته  
فردون:

- كيف انهزمت يا أبي، وقد صارت الملوك تخشاك؟

- ما عاد يهابني أحد. ولا أدري كيف تعاطفت الملوك مع رام،  
وأعلوا شأنه، فأجبروني على وثيقة خالدة صار بموجبها ملكاً  
على ممالك الجنوب.

رقص قلب فردون فرحاً، ورنّت من النافذة إلى الخارج مدارية  
فرحها بالتحديق إلى الجو متظاهرة بعدم الانتباه، بينما قالت أمها  
بعتب:

- كان يجب أن تبتهج، لا أن تكون مستاءً. لأن رام ابن أخيك

شام سبي و...



-لم يشأ أن يتنازل عن عرش الممالك عندما عرضت عليه  
الاقتران بفردون. قاطعها الملك كرب بحدة.

تعهد أن يملاً صدر فردون حقداً على رام. ويشعل بينهما فتيل  
الخصام، ومن ثم تفقد أمل الاقتران به، وتكرهه. انتبهت فردون  
وغابت الفرحة من وجهها النابض بالحياة، ووجدت نفسها  
تهتف بلا وعي:

-ماذا تعني يا أبي؟

-أيتها الغبية!! لم يعد بحاجة إليك، فقد كان آنفاً يتمرغ  
أمامي كالقط لكي أسمح له بالاقتران بك، حيث كان يشكو  
الضيق والتشرد، ولكن لما حالفه الحظ وأصبح ملكاً للمالك  
الجنوب نسي بلاده، ودائرتة المقدسة، وأزمع أن يقطن حمير، وأن  
يدع مدينة سام حاضرة الممالك، وتعامى عن مدينة جنات مهده  
ومهد أجداده.

-لا يا أبي، لا تبالغ في الأمور. لعله ذهب إلى حمير ليقضي شأناً  
من شئونه...

قاطعها الملك صارخاً بنزق:

-أنت حمقاء. لن يعود ملك الملوك لأنه اقترن بابنة ملك حمير،  
وقد توسلني أن أكتفم هذا الخبر عنك.

صعقت فردون، واختبل جسدها، وظلت لوهلة من الوقت  
غير قادرة على الحركة أو النطق.. حدثت في أبيها بعينين  
ضارعتين عله ينفي ذلك، أو على الأقل يواسيها بنظرة رثاء أو  
بكلمة أو بتكشيرة حزن، ولكنه بات متسماً يتأمل بشهامة كيف  
تكون ردة فعلها. ودَّ أن تكون مدمرة ساحقة لا تبقي على حبهما  
ولا تذر. وقد هول الأمر في مخيلتها، وزين لها أن رام قد نسيها

بعد أن صاهر ملك حمير وانتفع بهذا القران..

رنت فردون إلى إصبع قدمها المتور وراحت تتحب. حبست نفسها تحت سقف مخدعها صائمة عن المأكّل والمشرب والخروج. وبعد ثلاثة أيام أنهت مراسيم الصوم، لكنها لم تستطع التغلب على الأسى المتفاعل داخلها. سرعان ما انجرّ إلى قلبها اللين اللطيف، فاستحال إلى نقمة وصلف. مضت تهيل عليه أصناف التحقيرات، والسخط. إلا أنها لا زالت تفكر به في أوقات كثيرة. بينما وقعت عينا الملك كرب على القيل الشاب معد. وهو ابن شقيقته " مروة " وكان جميل الصورة، مجيداً للحرب. وقد انتقاه الملك بكل عناية. وصار يعدّه لكي يكون قريناً لابنته فردون، ورغم أنه يصغرها بعام إلا أنه أبدى سروره عقب أن صارحه خاله الملك كرب برغبته المبيتة. بعدئذ أصبح معد يتردد على فردون، ليأخذها في رحلة قصر قصيرة. أو فسحة وضيفة لا تتجاوز حدود مدينة جنات. لكنها لم تعطه من الاكتراث نصف ما ظن الملك حدوثه. ومع هذا انسجمت معه نوعاً ما بعد أن يئست من عودة رام، غير أن طيوفه وذكراه ما برحت من صميمها المهدهد. لكن أفتك ما يُذكّرُها، ويقض مضجعها ليلاً هي خطاباتة التي جاءت على قطع مستطيلة من جلود الغزلان، على مدار أربعة أشهر متعاقبة. ففي كل شهر يأتي خطاب ذو لهجة وسطية بين اللين والصرامة. وترى أحرفه المسندية المسارية بتجاعيدها وتقوساتها المألوفة، بات الملك كرب يطلعها عليه كلمة كلمة وسطراً سطرأً. وهو على ثقة تامة أن أواصر قلبيهما قد انقطعت. حتى خطاب كان لها أخطأ الرسول وسلمه إلى يد الملك كرب، بينما سلم فردون خطاب أبيها الملك. ذهبت فردون إلى أبيها أولاً،

فألفته يقرأ الخطاب الخاص بها ويقهقه بسخرية. لم يلبث أن ناولها لتتفحصه بعينها الموتورتين. كانت كل لفظة تخفي وراءها نهدة أو آهة أو امتعاضة. تخللت الخطاب موجة حزن جرّارة. كلمات مؤثرة غريبة تدفع إلى الإنتحار نشيجاً. خيل إليها منكباً يكتب وقد تحلّى عن وقار منصبه، وصار يتداعى متعارقاً في ألم، ويلد ألفاظه كامرأة يحضرها المخاض. يستجديها أن تستفهم أعضاره، وألاً تؤمن بأي كلام شائن يُرمى إليها. وأن تكون على يقين أن اعترافها لا يبارح خياله قط. لم تدر أي هجس يرغمها على التفكير ببراءته مما وصم به. ما خلا ارتباطه بابنة ملك حمير فقط، وما هو يعترف في خطابه بأنه أُجبر على ذلك، ولا ينكر أيضاً أنه حظي بسعادة غامرة. جلبت صراحة رام في عبارته الأخيرة نتيجة عكسية وغير مرجوة. بل أشعلت حقد فردون أكثر، وصّبت الزيت على النار، ربما لو كان امرأة لأدرك ماذا يعني أن تعيش امرأتان في قلب رجل واحد. شعرت فردون بتأكل أحشائها، واعتصار أليم في نفسها، لكن أباه لا زال يتمايل ضاحكاً من الخطاب، وكأنه يرى أول خطاب غرام في مدار حياته أو لم يجد ما يتندر به. ولكنه في الحقيقة كان يجد نفسه أسعد الكائنات لا لشيء سوى أن رام يتألم وحسب، لا يهمه أي شيء آخر غير ذلك. لكنه عندما رفع بصره عن الخطاب ناحية فردون وجدها تهنهن بخفوت، وترسل الدموع بغزارة. قال مخاطبها بدهشة:

- ما يبكيك؟

أجابته بصوت متقطع:

- هذا السافل، لشد ما أمقته! أود أن يكف عن هذه الخطابات

السمجة.

ضحك الملك كرب وقال:

-أنهاك عن شتمه، فهو ملك الممالك وبيننا وثيقة مقدسة،  
وليس بمستطاعي أن أتبرم من خطباته، وما دام هذا أول  
خطاب يبعثه إليك، أستطيع أن أبعث إليه رسالة لطيفة أذكره  
أنني اشترطت عليه ألا يطالبني يوماً بالاقتران بك.

- هل اشترطت ذلك حقاً؟

-نعم. لقد اختار عرش الممالك، لذا وجدتك السوط الذي

يلسع قلبه.

أطبق الغيظ فم فردون. ووجدت أن أباه استغل غضبها من  
رام لكي يمرر أحقادها ويتجاهل مشاعرها، ويعطي لنفسه الحق  
في انتقاء وجه شريكها، ناسفاً شرعية قلبها في الاختيار. قالت في  
سرها بمرارة: "لم تُعط الآلهة لأبي الوصاية عليّ في شبابي، أمّا  
ملك الممالك رام الأحق، فقد بعث خطاباً يخبرني أنه أرغم على  
الاقتران، ويعدني أن يقصص عليّ ملابس ذلك لاحقاً، لكنه لا  
يلبث أن يقول أنه في غاية السعادة مع قرينته الحميرية، ويحسبني  
سأتهلل بسبب ذلك" ..

وطرق سمعها صوت الملك كرب وهو يسأل:

-كيف يعاملك القيل معد؟

-وااااه، يا للمقّة كيف نسيت أنه ينتظرنى فى مزارع البرتقال!!

ودعت أباه، وسارت نحو الخارج بسرعة تخلو من الحماس،  
تاركة وراءها سؤال أبيها بلا جواب، بينما عكف الملك كرب  
على إملاء خطاب شفيف يرد به على خطاب رام الذي بدا  
صارماً بما فيه الكفاية ولهجته تنم عن تهديد فادح. حيث كان قد  
أمره أن يطلق سراح السبئيين المعتقلين بتهمة ارتكاب أعمال

الشغب أو مناوئة الملك أو الأقيال أو السادن، وأولئك الذين ليس لهم ذنوب جسيمة. وقد أفاد الوفد الذي بعثه ملك الممالك للتحري في السجون السبئية، أن الملك كرب أفرغ كافة السجون من السجناء، ولكن إثر ذلك عثر على بعض هؤلاء مقتولين. وفي خطاب آخر أمره أن يزيل مصطبة الدم من مجلس الحكم، وأن يُقلع عن إهراق دماء السبئيين. إلا أن الشكاوي تواردت إلى حمير أن المصطبة أزيلت عن المجلس بالفعل، ولكن الرؤوس لازالت تجز في مكان آخر. لهذا جاء خطاب رام يهدد الملك كرب من مغبة التهادي في ظلمه. وها هو الأخير يفند التهم الموجهة إليه في هذا الخطاب. ويشحن ألفاظه وسطوره ببريق كاذب ونخادع. ويطلب بالأدلة التي تدينه.

تفيات حمير الهدوء والأمان، واتسعت رقعتها إلى السواحل شرقاً، وإلى أقصى الشمال والجنوب. وأوشك العام أن ينقضي. لم يفضل منه سوى شهرين. ومن ثم يجيء العام المنتظر الذي يعتلي فيه عرش سبأ، وشعر بفرحة غامرة حين جال هذا الهاجس في رأسه. ولكنه استبطأ عودة الرسل الذين يوافونه بما يجري في سبأ. كانت راما قد وضعت في مدخل ذلك الأسبوع طفلاً أسماه "رباد" أسوة باسمه القديم، وكان قد تردد في تسميته بهذا الاسم بسبب ما عاناه من غربة ونأي وهو يحمله.. أحس رام بذائقة الأبوة، وصار على مدار الوقت يناغي الصغير، ثم يُقبِّله ويضمه إلى صدره. ويرنونو إلى راما بإشفاق عجيب، والدموع تتراقص في سواد عينيه. لقد خفف مجيء المولود بعض قلقه، ولكنه اتسوى على المسير إلى سبأ، حيث رأى أن الرسل قد تأخرت أكثر مما يجب، وبينما هو يعد نفسه للسفر في آخر الأسبوع، وفد الرسل عليه، وقالوا أن اقتران فردون ومعد أصبح وشيكاً في آخر الشهر. سرعان ما حدس رام أن الملك كرب يعتزم إجراء قران فردون قبل أن يقيم هو بسبأ في منتصف الشهر القادم.

يومها أقبل صفوة من أهالي سبأ، زاعمين أنهم فروا من بطش الملك كرب وجبروته، بسطوا الشكوى أمام رام "ملك المالك" القابع على كرسيه المرتفع في قصر غمدان، فاستاء بشدة، وتأهب

للسفر إلى أرض جنات؛ لكي يقف بنفسه على ما يدور هناك. وبعث إلى الملك يريم في ظفار يخبره بما عزم عليه. وحيد أن يأخذ معه عشرة آلاف فارس من حمير لكي يحمون ظهره عند الرجعة. حيث صمم أن يختطف فردون بالقوة قبل أن تقترن بمعد. وقبل أن يمضي بمن معه عرج إلى قصره ليودع راما وطفله الرضيع " رباد ". وتناول الأخير من حجرها ليضمه ويقبله، فقالت له:

-هل مازلت ملحاً على ملاحقة الفتاة؟

-لقد حدثتكَ آنفاً عن العهد الذي أبرمته وفردون قرب المعبد، فلا تغاري يا أم رباد.

قالها رام بانزعاج طفيف لا يكاد يظهر. حينها ردت عليه مشيرة إلى صغيرها:

-ليست غيرة. ولكنني خشيت أن تصاب بسوء.

-لا تخشين عليّ. لن يحدث شيء. دامت أيامك وأيام السبئي الصغير في خير.

وأعاد رساداً إلى حجرها، ثم طبع على عارضها قبلة هادئة. ومضى تاركاً إياها حزينة وملتاعة. بكى الطفل رباد في حجرها وكأنها سرى الحزن إليه من جسد أمه.

سار رام بالفرسان في الطريق إلى مدينة جنات "حاضرة سبأ"، وبعد سبعة أيام وصل إلى أطراف سبأ. وهناك ترك العشرة آلاف فارس قرب جبل هيلان، واصطحب معه عشرة فرسان، ودخل بهم المدينة. مر في طريق المعبد متجهاً إلى قصر الملك كرب، والقناع مضروب على وجهه بغرض تضليل أنظار عسس الملك وجنده. رأى بالصدفة ثلة من الجوّاري متجمعات جوار

المعبد. ولمح أيضاً على منعطف قريب مجنون زقاق الهدهاد الذي يملأ صوته أرجاء المكان، ولا أحد يعبأ بصراخه وهياجه. وما إن رآهم حتى هرول مبتعداً، وهو يصيح بصوته المزعج:

"الماء... الماء. لن تبق سوى الأعمدة الستة" ..

تشاءم رام من عبارات المجنون. وشعر بمقدار إخافتها وشؤمها رغم أنه لم يفهم منها شيئاً. فأطلق جواده خلفه حتى ألقاه في طريق جانبي بهم بالعبور نحو بقعة كثيفة الأشجار تمر قربها قناة ضخمة تصل إلى محمية ذي الجمامش. اعترضه رام وأعاقه برمح الطويل. تأمله عن كثب، فوجده هو لم يتغير. ذلك الرجل الشائب السيء الحال، المنفوش الخصلات، والثرث الثياب. قال له بصوت جاهر:

- ما هذه الكلمات المخيفة التي ترددها دائماً؟ فمن يسمعها لا يشك في سلامة عقلك !!

لم ينبس المجنون بحرف. وإنما مديده المرتعشة إلى الرمح محاولاً إبعاده عن طريقه، وصار يغمغم بكلمات ساخطة غير مفهومة. حار رام في أمره. وقال أحد المارة المتطفلين:

- سلّه يا سيدي عن الطبل. فلم نعد نسمعه يتحدث عنه.

سأله رام مشيحاً الرمح عن طريقه:

- كم قرع الطبل في عمرك؟ وأين تكون عندما تقرعه العبيد؟

- اتركني يا هذا كي أفر. الماء.. الماء. أنت.. أنت قارع

الطبل. أجاب المجنون.

كان صوته صاخباً ارتج به المكان قبل أن يتوارى بين الأشجار. ارتجفت أعماق رام رجفات شديدة، وأوجس في نفسه خيفة. أمّا المارة فقد تضحكوا من قوله.



وقال أحدهم لرام بسخرية:

- لقد جعلك أيها الفارس المقنع قارعاً للطبل، ويبدو أن  
حظك سيء لأن الحروب قد انقضت بعد اندحار  
الرومان.. وسرعان ما تفرق المارة، وحرار رام، ولم يسعفه عقله بما  
يجب أن يعمل. ظل تائهاً يدور حول المعبد، والفرسان العشرة  
يدورون خلفه لا يكلون ولا يفترون، وتوقف عندما رأى  
وصيفة فردون، وهي الجارية الرومية ماسا. دنى منها بحيطة ثم  
ناداها باسمها. فالتفت إليه ذاهلة، وسألته بشك:

- هل ناديت علي أيها الفارس؟

- نعم. أين سيدتك فردون؟

قالها رام بصوت خافض متلفتاً حوله بخوف، أجابت:

- إنها وقائد الجيش معد في المعبد ليمزجا الدماء على وثيقة

القران.

ثم حركت شفتيها الجافتين بصعوبة، وأضافت:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

رد بصوت خفيض:

- أنا رام.

- أوه. جلالة الملك رام. عرفتك الآن. ولكن سيدي حانقة

منك. ولا أعلم السبب.

ثم أحنت رأسها، وحيّت الدائرة المقدسة واضعة قبضة يدها  
اليمنى على صفحة كتفها الأيسر. لكنه أوحى إليها أن ترفع  
رأسها حتى لا يشك أحد بشخصه. وأن تلقي خبر وجوده إلى  
فردون. انطلقت ماسا إلى جوف المعبد. وغابت هنيهة من الوقت  
ثم عادت إليه، وقالت بخجل:

- تقول لك سيدتي: اذهب إلى حال سبيلك يا ملك. لتلا يراك  
أحد، فيؤذيك، فإنها لا تحب الخونة حسب زعمها.

- أخبرتها أنني أقسمت بالمقمة لأفلقن رأس معد كما فلقنت  
رأس شنار، وأرمي نفسي طُعماً للسيوف.

ذهبت ماسا حاملة هذا التهديد الجاد إلى سيدتها فردون. ولعل  
الأخيرة أدركت حينئذ أن العبد الذي قتل شنار ليس غير رام  
المتنكر بشخص العبد. بعد زمن قصير رجعت ماسا مسرعة  
كالفراشة المبتهجة بالنور. قالت له:

- بالكاد وافقت سيدتي أن تلقاك. انتظرها صبيحة بعد غد  
تحت جبل السد الملتصق بالسور. إنها بالكاد استطاعت إقناع  
القائد معد بإرجاء مزج الدماء على الوثيقة.

كانت السماء تنذر بالمطر، بينما حجبت السحب السوداء القمر عن الأنظار. فيما بدا ضوءه باهتاً غير وضّاح كما ينبغي أن يكون عليه الحال في منتصف الشهر. لكنه استطاع أن يميز ما حوله، ويرى الجياد المعقولة بين الأشجار القريبة من الجبل وهي تتحرك بالقدر الذي تسمح لها الحبال بالحركة. استلقى رام على صخرة مسطحة، وأغمض عينيه. راح يتفكر في أمر نفسه، ويتقل في غور خياله من موضع إلى آخر، وأينما حلّ قاتل الفرسان، وقابل الفتيات الحسان، وعشت فيه الأقدار. وحلم بأشياء أخرى في صحوه وسباته، فانتهى كل شيء من أحلامه، ولكن حلم فردون الوئيد في كل جزء من روحه لم ينته بعد، بل إنه حقيقة ماثلة في عمق إيمانه، مثله مثل الموت وأقدار الآلهة.

ولما أحس ببرودة الرذاذ تحتل وجهه والأجزاء المكشوفة من أطرافه فتح عينيه. رأى خطوطاً بيضاوية اللون تتساقط من السماء. أفاق تماماً على صوت الرعد الذي زجر فوق الجبال النائية. ساعده ضوء البرق المتقطع أن يمشي بلياقة عالية، وأن يوقظ الفرسان وتذكر ما قاله مجنون زقاق الهدهاد، وسرعان ما التجأوا إلى مكان آمن تحت الجبل لا تصل إليه القطرات المنهمرة. أخذ المطر مع مرور الوقت يشتد غزارة، ولا يكاد يبلغ إليهم إلا الرذاذ الأبيض الذي تطايره الريح. يئس رام من مجيء فردون إليه ولا سيما حين

ظلت السماء تهمني دون توقف، وعند إشراقة الصباح الثاني خف المطر قليلاً، ولكنه لا يزال يشكل خطراً على السائر فيه. في ذلك الوقت، قدمت فردون على ظهر حصان أسود مرتدية ملابس ثقيلة لتتقي برودة الطقس، تركز في كفها عصا طويلة تنتهي بقطع عريضة خفيفة متلاصقة من سعف النخيل، منشورة فوق رأسها بشكل دائري بغرض صد القطرات عن جسدها، وحين دنت كان المطر قد بلبل ثيابها من ضخات القطرات المتتابعة على طول المسافة الكبيرة التي قطعتها إلى الجبل.

أسرع رام وأمسك لجام حصانها، ومد لها يده، فنزلت ثم سارت وراه إلى عمق التجويف، وقد باتت أسنانها تصطك وأطرافها ترتعد. أخرج رام من متاعه لحافاً صوفياً دثرها به، فانكشمت جوفه، وانزوت مقرفة بجانبه دون أن تتكلم. حينذاك أدرك أنها لازالت بردانة، فقام بإضرام النار على هشيم يابس من الحطب كان عمق الجبل، واقتربت فردون منها حتى كادت أن تلتهم طرف اللحاف. وبعد برهة دبّت الحرارة في جسدها فنشطت دورتها الدموية. وخرجت عن صمتها الثقيل. وقالت:

-لم أشأ أن أتصل عن وعدي رغم كثافة المطر. وها أنت ذا ترى حالتي السيئة، حيث قطعت مسافة كبيرة لأصل إليك. ولكنك لا تستأهل العناء من أجلك..

احتار رام من لغتها المتوترة، وقال:

-أنا أيضاً عانيت من أجلك كثيراً، ولا أدري لماذا تعاتبيني هكذا.

-ألم تقترن بابنة ملك خمير؟ ألم تتخل عني حين عرض عليك عرش المالك؟

- كان اقتراني براما صدفة تثير الضحك والدهشة.  
ثم طفق يقص عليها ما خفي عنها، ولكنها عند نقطة في  
الحديث قاطعة قائلة:

- ولكنك تزعم أنك سعيد مع راما الحميرية.  
حاول رام أن يمتص غضبها حين قال بجديّة:  
- نعم، سعدت معها. ولكنني سأصير الأسعد معك. وهي  
تعرف هذا جيداً.

- قد تبدو أعذارك قوية في حمير، ولكنها تكون واهية حينما  
قبلت عرش الممالك.

- أنا لا أكذب. إصغي إلي حتى أتم ما بدأت في الحديث.  
أصغت إليه. فأوحى إليها بكل شاردة وواردة حدثت، بل أكد  
لها أن أباه الملك كرب حين خيّر بينها وبين عرش الممالك كان  
يراوغ، ولم يبد حسن النية في عقد القران، بل ترك الأمر رهن  
التفكير ريثما يعود إلى سبأ. مما يؤيد أن مماطلته تنم عن هروب من  
الضغوط المعينية والحميرية، ومن الالتزام بعقد القران على حد  
سواء. وكان خير خيار يجنبه خسارة من المحتمل أن تكون  
كلية، هو أن يمسك بعرش الممالك الذي غدا مهيباً له، ولا ينكر  
أن ثمة مرارة قد مستهما ولا سيما هي. لكنه لا زال يأمل أن لا  
تطول، ومادام على عرش الممالك، ومتيماً بها، لن يسمح أن تقترن  
بأي شخص غيره.

وعقب هذا الحديث الذي بدا مقنعاً لها لزم رام الصمت، بينما  
نكست رأسها إلى الأرض، وغرقت في التفكير، أو بالأصح  
تصنعت ذلك، ثم رفعت وجهها متغضناً لا يتواءم مع جماله، مطلقة  
نظرات حادة إلى وجهه، ولم تلبث أن قالت بلهجة عدائية:

-مادمت تحب زوجتك راما فلماذا كلَّفت نفسك مشقة العودة  
إليَّ وجلبت لي معك الألم؟ وقد كدت أن أنساك. نعم أنساك.  
-فردون !! ماذا حصل لك؟.. لا أكاد أنساك عند الشدائد،  
والرماح مشرعة إلى نحري.

قاطعته بصوت مغيظ:

-لقد شغلني معد عنك كما شغلتك راما عني. فإما أن تفسخ  
قرانها أو نتفارق.

-مستحيل، هراء. كلا. لن أدع صغيري يترعرع في أحضان  
الدادات بعيداً عن أمه. يكفيني أنني عشت يتيماً.. فكّري بشيء  
آخر. اطلبي أن أفقأ عيني أو أبتز أحد أعضائي..  
-هاه. رزقت منها بولد أيضاً. تباً لك ولها. دعني أذهب إلى  
قصر أبي.

قالتها بنبرات مضغوطة مفعمة بالغيرة، غير مبالية بعينيه  
المغرورتين بالدموع، اتجهت إلى حصانها بخطى سريعة، ولكن  
رام تعقبها ثائراً وفصل رأس الحيوان بضربة قاسية من  
سيفه. فسقط قتيلاً ينزف الدم منه، رافساً بأطرافه رفسات المات  
الأخيرة، ومضى رام يصرخ بهستيرياً:

-الرحمة أيتها المجنونة، أنت متعجرفة مثل أبيك، غرّك أنني  
أحبك ولا أطيق الحياة من دونك.

ارتدت فردون إلى الوراء بفرع، ثم جثت على ركبتيها،  
وراحت تصيح بانتحاب:

-قتلت جوادي أيها الجبان. اقتلني، هيا افعل، فأنا عاجزة في  
الدفاع عن نفسي كجوادبي المسكين.

-اغربي عني. إن دائرتك المقدسة زائفة وفسادة. سأعيش وراما

الحميرية، فهي الأجل روحاً وهيئة.

قال رام عبارته الأخيرة. وأخذ يهيج في مكانه، وقد زاغ عقله في رأسه، واتسعت عيناه. وسقط فجأة على وجهه وارتطم رأسه بالصخرة القريبة، فساحت الدماء بشدة وابتلعت ملامحه. وزحف الظلام إلى عينيه، وامتد على الأرض بلا حراك. لحظتها سارع الفرسان لتجدته. فرأوا شجرة غائرة في مقدمة رأسه. وسرعان ما حملوه إلى مكان جانبي قريب، وانبروا يظهرن الجرح من الدماء المتكثفة حوله، ثم ربطوا رأسه بقماش أبيض احتوى الجرح وأوقف نزيف الدم. وظل في غيبوبة تامة حتى أفاق في المساء.

وجد نفسه فوق حصير غليظ ومغطى بـ (حُطَّة) \* مكسوة باللبد والصفوف. ورأى فردون جاثية بجواره فقال:

- حسبتك غادرتِ هذا المكان إلى قصر أبيك.

أجابت عليه قائلة بهدوء، وقد خفت حدة لهجتها:

- المطر لازال يهطل، وقد أردت البقاء حتى تفيق من إغمائك.

- لا شأن لك بي. هأنذا أفقت. وسأجعل الفرسان يرافقونك

إلى المدينة...

- اهدأ. لن أفارق هذا المكان إلا جثة هامدة.

قاطعته فردون بكلماتها الماضية المتخنة بالاصرار. وأراد رام النهوض من مطرحه لكنه أخفق. وقال:

- هاتي سيفي. فهناك من يود قتلي.

- لن أفعل. لأنني سأحميك وأدود عنك بكل قوتي. لن أدع أي

---

\* الحُطَّة: نوع من اللحم مصنوع من جلد الماعز.

شيء يقترب منك حتى الحشرات.

بعد ذلك جيء بالطعام. فطفت تطعمه، لكنه عاف اللقمة الرابعة، وقال لها:

- أنتِ عدوتي أيتها الفتاة. فكيف تطعميني؟

ثم جعل يلفظ كلمات غريبة ومتناسقة حتى غلبه النعاس، فغفت أيضاً بالقرب منه. وقد أدركت أنه محموم. في اليوم التالي ازدادت حالته سوءاً. وصارت فردون عند رأسه تبتهل إلى الآلهة بالدعاء. ولا تدري غير هذا ماذا تفعل من أجله. نسيت أباهما وأمها وما سيحدثه غيابها من فزع في المدينة.

وظل الحال كذلك حتى أتى الفرسان بحكيم من مدينة جنات استحضر له دواء من العشب. وبعد أن عرف أن مريضه هو ملك الممالك "رام بن شام" ورأى فردون، ركع إجلالاً للدائرة المقدسة. ولم ينس أن يقسم بالآلهة أن يتستر عن مكانها قبل أن يقفل راجعاً إلى مدينة جنات. فيما ظلت فردون تسقيه جرعات من الدواء، وتحثه على الأكل بإلحاح شديد، حيث كانت قابليته للأكل منعدمة. ويلفظ كل ما يصل إلى فمه من زاد، بيد أنها صارت تعرف كيف تجعله يأكل قدرأ من الطعام الذي يقدم له. مستعينة بما فطرت عليه الإناث من رقة وطول بال، وكان هذا سبباً مهماً لتحسن حالته في اليوم الخامس. إذ صار يُميز ما حوله، ويعي الكلام.. ويومئذ سألها بغرابة:

- متى أتيت إليّ؟ وأين نحن؟

- أنا معك منذ خمسة أيام. وإنما الآن تحت جبل سد جنات.

عندها أحس باعتصار الألم في رأسه. فمد أنامله إلى موضع الجرح، لكنه فوجئ بعصاب مشدود على رأسه. قال مشدوهاً:



- كيف جرى ذلك؟

ولم تجد ما توجيهه به. فادعت أنه وقع من على حصانه إلى الأرض. راح رام يتذكر، وجعل يصوب عينيه في ما حوله، كأنها يبحث عن أثر من الآثار. ولكنه لم يجد أي شيء يمكن أن يفسر ما حدث، كانت جثة حصان فردون قد أخفيت في زاوية بعيدة، ولم يكن الدفن تقديراً للذكرى الحيوان في نفس صاحبه فحسب، بل كان احترازاً من انتشار عفونة لحمه المتفسخ، وإتقاء تهافت الطيور على المكان، والتي لا بد أن تجذب بتحليقها الأنظار إلى مكانهم.

في سادس يوم جاء اثنان من فرسان حمير إلى الجبل، وكانا قد ابتاعا طعاماً من سوق المدينة. وجلبا حصاناً لفردون، وتلصصا على الأخبار. وقال أحدهم:

- الجنود ينبشون كل شبر في المدينة بحثاً عن فردون، وقد وعد الملك كرب أن يمنح من يعثر عليها أو يخبر عن مكان وجودها مائة أوقية من الذهب الخالص.

حينها طفا الخوف على ملامح فردون. وتجلت الحيرة في نبرات صوت رام حين قال:

- كيف العمل الآن؟ ربما باغتتنا الجنود، وعندئذ لن يبقينا الملك أحياء. أرى أن نبعث فردون إلى المدينة ربما أستنفر جيوش حمير ومعين ثم أساوم عليها بحياته.

- أرجوك.. ها أنذا معك، وسأظل معك، وما جدوى عودتي؟ لنعيش معاً أو نموت معاً.

- كنت مزعماً أن أحتفظ بك إلى النهاية، ولكنني كما ترى لا أقوى على المشي.

قامت فردون من مكانها بطريقة توحى إلى موقفها المتصلب،

وخطت بضع خطوات، ثم ولتهم ظهرها رانية إلى بعيد  
بتيه، وقالت:

-أخاف إن عدت أن يقلتني أبي، فأنت لا تجهل حميته ولؤومه.  
-نحن في موقع مكشوف للأبصار. أحبذ أن نتخذ ملاذاً أكثر  
سترأ وأماناً.

قال رام عبارته، في حين استغرق الجميع في التفكير. حتى  
هتفت فردون بحماس بالغ:

-هناك كهف واسع أعلى الجبل يطل على مياه السد اللامعة،  
ويقال إنه مسكون بأرواح البنائين الذين ماتوا عند تعمير  
الأسوار، وله منافذ كثيرة عموهة بأحراش وجلاميد ساترة.

- نصعد إلى قمة الجبل في الظلام، فليس هناك ما هو أوحش  
من أرواح الأحياء.

قالها رام متثابراً، ثم لم يلبث أن استسلم لغفوة خفيفة، بينما  
جلست فردون بجواره شاردة الذهن، وأما الفرسان فقد انتشروا  
في محيط المكان بغرض الحراسة، ولما جن الليل أسنده الفرسان  
،وأخذوا يسرون به على مهل حتى بلغوا رأس الجبل، ورأوا  
الكهف.

كانت مياه السد ممتدة متدفقة تبعث في النفس المتعة  
والارتياح. بدا القمر مشرقاً في تلك الليلة، ولكن سرعان ما  
توارى خلف الغيوم المتلبدة الداكنة. وما لبثت السماء أن أمطرت  
بعد انقطاع قليل في أول الليل. فلجأوا إلى الكهف، ومكثوا به  
حتى الصباح، ومع هذا ظلت الغيوم والسحب السوداء تعتكر  
في السماء وتوحي بمزيد من المطر. كان رام قد تعافى من الحمى،  
وعاد النشاط إلى جسده مرة أخرى. راح يسامر فردون خارج

وخطت بضع خطوات، ثم ولتهم ظهرها رانية إلى بعيد  
بتيه، وقالت:

-أخاف إن عدت أن يقلتني أبي، فأنت لا تجهل حميته ولؤومه.  
-نحن في موقع مكشوف للأبصار. أحبذ أن نتخذ ملاذاً أكثر  
سترأ وأماناً.

قال رام عبارته، في حين استغرق الجميع في التفكير. حتى  
هتفت فردون بحماس بالغ:

-هناك كهف واسع أعلى الجبل يطل على مياه السد اللامعة،  
ويقال إنه مسكون بأرواح البنائين الذين ماتوا عند تعمير  
الأسوار، وله منافذ كثيرة عموهة بأحراش وجلاميد ساترة.

- نصعد إلى قمة الجبل في الظلام، فليس هناك ما هو أوحش  
من أرواح الأحياء.

قالها رام متثابراً، ثم لم يلبث أن استسلم لغفوة خفيفة، بينما  
جلست فردون بجواره شاردة الذهن، وأما الفرسان فقد انتشروا  
في محيط المكان بغرض الحراسة، ولما جن الليل أسنده الفرسان  
،وأخذوا يسرون به على مهل حتى بلغوا رأس الجبل، ورأوا  
الكهف.

كانت مياه السد ممتدة متدفقة تبعث في النفس المتعة  
والارتياح. بدا القمر مشرقاً في تلك الليلة، ولكن سرعان ما  
توارى خلف الغيوم المتلبدة الداكنة. وما لبثت السماء أن أمطرت  
بعد انقطاع قليل في أول الليل. فلجأوا إلى الكهف، ومكثوا به  
حتى الصباح، ومع هذا ظلت الغيوم والسحب السوداء تعتكر  
في السماء وتوحي بمزيد من المطر. كان رام قد تعافى من الحمى،  
وعاد النشاط إلى جسده مرة أخرى. راح يسامر فردون خارج

الكهف، وصارا يرنوان بوله وانشراح إلى المياه المتلائة تحتها، والقمر مرسوم ومتغلغل فوق صفحات الماء، ويتحرك بدلال بسبب تيارات خفيفة تهب من ناحية الشمال. وتناهي إلى مسمعها هدير عنيف، فالتفت رام وكذا فردون إلى مصدر الصوت، وتأملا بتمحيص دقيق. كانت هنالك عند مصب السد البعيد ثمة موجات مائية أثارت غباراً أسوداً غمر سماء تلكم البقعة النائية.

قال رام بسعادة عارمة:

- تكاد السيول تملأ السد، إنها تتدفق إليه من كل المصببات والسواقي منذ بضعة أيام.

- ألا ترى أن هذه الأمطار الغزيرة غير مألوفة في سبأ؟.. وهذا المطر لم أر مثله من قبل.. قالت فردون بشرود.

تفكر رام برهة وجيزة، ثم هز رأسه موافقاً وقال:

- لماذا يندو مجنون زقاق الهدهاد منزعجاً، ويود الفرار ويتحدث عن الماء بهلع.

- هكذا يثرثر دوماً، منذ أن فاض السد، وجرف الماء إبله ذات عام. وقد ساءت حالته كثيراً عندما استولى جدي شراح على مزارعه الجملة.

- قيل إن أبي أعاد كل أمواله إليه، غير أنه كان يفر متفوهاً بتلك الألفاظ الغامضة.

ثم أردف:

- الآلهة تغضب إن تفاقمت الذنوب، ولا شك أن أباك أغشم ملوك سبأ. فقد قطع آلاف الأعناق.

ردت فردون:

-أبوك هو من نقل مصطبة الدم إلى ردهة مجلس الحكم.  
-هذا صحيح، لقد فعل أبي ذلك لكي يمسك بزمام الأحكام،  
وظلت تلك المصطبة الخشبية مهجورة ونظيفة من الدماء حتى  
عشعشت فوقها العناكب.

-وأنت، لو حكمت سبأ بعد شهر..كيف تحكم؟ سألت  
فردون.

-سأحذو حذو أبي، ولكن أجدني أحس في أعماقي خوف  
غريب، وكأن ثمة شيئاً ما.. لا أدري..  
لم يتم رام عبارته الصاخبة، بل انكفاً يتأمل المياه بعينين  
تائهتين.

-لا تدع أقوال المجنون محل اهتمامك. هاهي النجوم تظهر  
وتغيب، ولا يتغير شيء في الدنيا. قالت فردون..

- من يدري. من يدري. وأراني أزداد خوفاً مع مرور الوقت.  
قال رام عبارته مطلقاً آهة شديدة، ومدد قدميه بحيث أدلاهما  
إلى الأسفل، وأخذ يلاحق بنظراته ومضاً مشتعلأ آتياً من نجم  
بعيد يخيل إليه أنه يلامس رأس جبل هيلان أو يكاد يلامسه، وبعد  
فترة من الصمت ليست قصيرة بلغه صوت فردون حين قالت:  
- ألم تلاحظ في نهار الأمس أشياء غريبة حدثت في الوادي  
القريب؟

هز رأسه في يقين، وعقد حاجبيه في دهشة، واكتفي بذلك. وبدا  
كمن يسترجع الأحداث. تذكر صرير الريح المزعج، وبعاع الإبل  
وهياجها. حيث رآها بأم عينيه وهي تنزح من الوادي القريب  
مسرعة صوب المدينة. ولم يكن وراءها راع أو خطر يتعقبها. ملأ  
أذنيه أيضاً صراخ الغربان، وثنغاء الأغنام السائمة في الجبال

المحيطة بالسد، وصهيل الخيول، وعواء الذئاب، ليس هذا فحسب. بل غدا كل كائن من ذوات الأربع يترك وادي السد الخصيب راكضاً إلى المدينة، أما الطيور فقد بقيت مكدسة في أعالي الأشجار الباسقة تطلق أصواتها الحامية. وتمط أعناقها بذعر، وتشئت نظراتها الزائغة في كل الجهات.

أخذت النجوم تتقلص في كبد السماء. كأنها توشك أن تختفي أذنة للفجر أن يتوالد من جديد. شرع جزء من القمر يندس خلف سحابة شديدة البياض، تتوسط ثلة صغيرة من النجوم كالأم القابعة وأولادها حول آخر طبق في مأدبة الطعام. تجلت شاحبة لأن الفجر قد طلع، وصار عليها أن ترحل..

في تلك الأثناء كان النعاس يداهم عيني فردون. أما رام فلا زال يتأمل المياه المتصاعدة صوب حافة السد. وكانت قد دعتة إلى المضي معها إلى الكهف، لكنه أشار إلى السد طالباً منها التريث قليلاً، بيد أنها اعتذرت،، وسارت بخطى متثاقلة حتى توارت عمق الكهف الذي تتناوب الفرسان على حراسته، وما إن كادت تندس تحت اللحاف حتى سمعت رام يصرخ:

- السد يتهدم من الزاوية الملاصقة للجبل الآخر.

خفت إليه يغشاها الفرع والذهول. ورأت المياه تفيض من حافة السد إلى الخارج على طول امتداد السور، فقالت بعصبية وهي تدقق النظر:

- ما دام السور قوياً سليماً، وما دام هناك قنوات إضافية للفائض من المياه، فلا خطر من فيضان الماء..

-أسرعي إلى الحصان، فقد رأيت حجراً ضخماً ينزلق من حافة السد، ولا بد من إنذار الأهالي قبل أن تغرق المدينة.

جذب معصمها بعنف، فحررت نفسها من يده بتوتر،  
وسارت خلفه حتى اعتلت حصانها، وسرعان ما نادى رام  
الفرسان المرابطين في قمة الجبل، ثم انطلق يعدو بحصانه  
وفردون في طريق ملتوٍ شديد الوعورة، والفرسان على أثرهم  
يتتابعون حتى توقفوا جميعاً أسفل الجبل. وخرجت من فم رام  
آهة شديدة، وأشار إلى بُعد ميلين من السد وقال:  
- كأي أرى جيشاً مرابطاً عند مخنق الوادي، ولا شك أنه  
جيش سبأ.

- واويلاه، ماذا نفعل؟

- لننذر الأهالي، هيا.. الماء.. الماء..

تبع رام، وراحت تعدو معه صوب المدينة، والفرسان  
وراءها كالأسهم المتعاقبة، وقد اخترقوا الجهة الشرقية من  
الوادي، محتمين بأشجار لا تثمر مواكبة لإحدى القنوات المائية،  
غير مكرئين بأربعة أو خمسة مضارب للجنود تناثرت في  
طريقهم.

\*\*\*

كان أحد الرعاة قد شاهد رام وفردون وفرسان معين في اليوم  
الماضي أسفل الجبل، فأنبأ الملك بذلك طمعاً بالجائزة. ولذلك قاد  
الملك كرب الجيش وعسكر به عند مدخل الوادي، وقد أدرك  
من خلال وصف الراعي لهيئتهم أن فردون تود الهروب مع  
رام. فهدد وتوعد، وبعث من يبحث عنهم في أرجاء الوادي  
ومحيط الجبل، ولكن الجنود عادوا ولم يعثروا على شيء. ومع هذا  
ظلوا في البحث حتى فطن أخيراً أحد الأقبال إلى أعلى الجبل  
ولاسيما الكهف، ولما أفصح للملك عن ذلك أمرهم بالتريث

حتى يشرق الصبح، وبغمر الضياء المكان، ومن ثم يحكون  
البحث أكثر جدوى من التخبط في الظلام، وعند الفجر قالوا لم  
يبق لانبلاج الصبح غير القليل من الوقت.

تأهب الجنود، وقد أزمعوا تطويق الجبل من كل الجهات، ولا  
سيما الجهة الخلفية للسد. في تلك الوهلة، هرع إليهم قائد  
الجيش معد، وكان يبحث وعدد من الجنود في جانب من  
الوادي. قال للملك بنبرات جادة:

- رأى بعض الجنود فارسين يمرقان شرقاً باتجاه المدينة، ومن  
خلفهما عشرة فرسان.

استدار القائد معد، وبدا وكوكبة من الفرسان يتأهبون للحاق  
بهم، قال الملك كرب:

- لا تتحرك يا معد. إنها خدعة يود بها تضليلنا عن مكانه، ومن  
رأيتهم لا شك أنهم بعض فرسانه يتجهون نحو المدينة، إن لديه  
منفذاً من الجهة الأخرى يؤدي إلى هيلان.

- إن أحد الفرسان هو فردون. وشرف المقة إنها فردون.

قالها القائد معد بجدية، ولكن الملك كرباً ظل يؤمن أنها  
خدعة مدبرة، إلى أن حبذ السادن شيزار أن ينسلخ القائد معد  
بنخبة من الفرسان ليلحق بأولئك الفرسان المجهولين، عندئذ  
سمح له الملك كرب بالانطلاق، فمضى لتوه وفرقة صغيرة من  
الفرسان نحو المدينة. أما رام وفردون فوصلا قبل الفرسان إلى  
مخدع الطبل، وصهل الحصانان بصوت قوي، وأخذا يتحركان  
بحماس رغم وقوفهما، ويدقان حوافرهما في الأرض..

في أثناء ذلك انتبه عبيد المخدع، وهبوا من السبات مذعورين،  
وأسرع رام نحو كبير العبيد وقال:



-افتح باب المخدع فالسد يتهدم، والملك والسبثيون عند  
مدخل الوادي.

فوجئ به يضحك هازئاً، ولاح بياض أسنانه جلياً عمق  
ملاحه السوداء، ثم لم يلبث أن رد بتحد:

-أنا لا أفتح المخدع إلا بأمر الملك كرب، ولا أقبل أن يأمرني  
أحد غيره مهما كانت الكارثة.

-افتح.. عليك اللعنة.

-افتح يا شنف، أنا فردون ابنة الملك، هيّا قبل أن يطمر الماء  
أبي وجنوده وتغرق المدينة.

قال رام عبارته بغضب، ثم فردون، ولكنه أجاب ببجاجة  
مشيراً إلى الأخيرة:

-لن أفتح الباب، لأن الملك غاضب منك بسبب هروبك  
من قصره.

عندئذ وصل فرسان حير العشرة، واغتتم رام ذلك، فدنا من كبير  
العبيد، وضرب هامته بالسيف، ثم ترجل ونزل إليه، ونزع المفتاح  
الكبير من وسطه، واتجه إلى باب المخدع وهو يقول بسخط:

-افسحوا الطريق يا أولاد اللثام. فالوقت قصير لا يسمح  
بإطالة الحديث مع هذا الأحمق.

تداعى العبيد، وانقضوا عليه محاولين منعه من فتح باب  
المخدع، ولكنه قتل عدداً منهم، وتولت فردون والفرسان  
العشرة مشاغلة العبيد عنه. ففتح باب المخدع بصعوبة، وسحب  
اللوح الحديدي الراسي فوقه الطبل، حتى انزلق إلى الخارج،  
وارتقى إلى سطح المخدع، وقام بتحرير الرافعة ذات القبقاب  
المطاطي الكبير، وصاح:

-سدوا آذانكم بأصابعكم.

وترك الرافعة تسقط على الطبل، وترتفع، وحيثذ وقف القتال الدائر بين الفرسان وبين عبيد المخدع. إذ دوى صوت الطبل عالياً حتى وصل صدهاء إلى بقاع بعيدة عن المدينة، وظلت الرافعة تسقط على الطبل ست مرات، مصدرة ست دقات عظيمة أرعبت أهل مدينة جنات، وجاء القائد معد بمن معه من الفرسان عقب آخر قرعة للطبل، ودنا من المخدع صائحاً بانفعال:

-من قام بدق الطبل؟

أشار العبيد إلى رام الذي هرع من المخدع مسرعاً إلى جواده. والتفت القائد معد، فرأى فردون فوق حصانها، وسيفها مسلول ملوث بالدماء، فقال بتشوة زائفة:

-ها هي فردون يا معشر سبأ، وربما جاءت برام ليقرع الطبل مبشراً بعودتها.

أشاحت وجهها عنه ولم تنبس بحرف..

- انظر إلى خلفك، لقد تحطم السد، وعلينا أن نلتمس النجاة لأهل المدينة.. قال رام.

ألقي القائد معد نظرة سريعة إلى ورائه، فرأى غباراً عظيماً نائراً من بعيد، وقد ملاً الجو بكتلة قائمة سوداء، عندها صاح بهلع:

-يا للويل. الملك والجيش هالكون لا محالة، ونحن هالكون أيضاً.

-أمامنا بعض الوقت. دعنا نطوف بالأزقة لنساعد الشيوخ والأطفال.

هز القائد معد رأسه بنفي فاضح، ولاذ بالفرار متمسكاً النجاة

لنفسه. وتبعه فرسانه، وحث رام فردون على الهروب من طريق الماء، لكنها تشبثت بثيابه وأعاقته عن السير وقالت:  
- تعال، لننقذ أبي قبل أن يغرق وجنوده.

دفعها رام عنه، وقال بصوت حاد:

- إن حالهم الحظ سوف يفرون حينما يسمعون صوت الطبل. أمّا الآن فلا وقت لدينا لكي ننقذهم وإلا هلكنا جميعاً. هيا.. أسرع مع الخارجين من المدينة.

أسرعت فردون وفرسان حمير، وعرجت إلى قصر جنات وانتزعت أمها هاميرا من فراشها، وهربت مع عدد كبير من خدم القصر، وجاست معهم وسط المدينة المزدهجة بأسراب الفارين حتى جاوزوا الخطر، واعتلوا هضبة عالية مطلة على مشارف مدينة جنات، أما رام فقد أرخى عنان جواده وغاص بين الأزقة، وصار يؤازر أهالي المدينة الهاربين بأجسادهم من الغرق. والذين خلفوا وراءهم مواشيهم وأموالهم وقصورهم، ولم يأخذوا معهم سوى فلذات أكبادهم وذويهم، وطفق يلوح للمتعثرين والعجزة بالإسراع، ويحمل فوق حصانه الأطفال إلى الأمكنة الآمنة ثم يعود، وهكذا حتى رأى في ثالث عودة طلائع الماء أمامه، فانكفاً مُسرِعاً وأمواج الماء تتعقب كعبي حصانه السريع، وبين يديه طفل وليد كانت أمه النفساء قد تخلت عنه مؤثرة نجاته.

\* \* \*

كان الملك كرب والسبثيون المعسكرون بوادي السد، يرون الغبار المتصاعد يزحف صوبهم باطراد. فأوجسوا خيفة منه، لكن البعض من الأقيال ظن أن ثمة زوبعة ترابية قد أحدثتها الرياح العاصفة قرب الفجر. وقد أمرهم الملك كرب بعدم الاكتراث. لكنهم حين سمعوا صوت الطبل علموا أن ثمة خطراً يتعقبهم، وقد اعتادوا أن يتفروا خفافاً وثقالاً حينما يسمعون قرعات الطبل الثلاث عند الحرب، ولكنه هذه المرة قرع ست قرعات متتابعات، مما يعني أن ثمة كارثة غير اعتيادية قد وقعت. لم يعبأوا بصرخات الملك كرب المتعاقبة، وهو يحثهم على البقاء معه، وقال آخر قيل سبئي له قبل أن يفر من الوادي:

-لقد قرع الطبل ست قرعات يا سيدي، ويبدو أن سور السد العتيد قد تهدم، وها هو غبار السيل فوق رأسك.  
-الماء.. الماء.. النجاة.. النجاة.

تعالى الأصوات حتى ارتج المكان، فتنفر أبواب الجياد في لمح البصر إلى خارج الوادي، أما الراجلون من الجيش، فصاروا يجرّون جاهدين، ويستغيثون بإخوانهم الذين سبقوهم، وسرعان ما أدرك الملك كرب، وأيقن أن سور السد العتيد قد تهدم، فحث حصانه وقد تغيرت ملامحه ووجف قلبه من شدة الخوف. غير أن حصانه قذف به إلى الأرض بسبب الزحام فوق وقع تحت حوافر الجياد، وأقدام الراجلين. وأخذ يصرخ ولا أحد يأبه له، حتى جاءت المياه العاتية وجرفته والمتعثرين من الجنود، وكذا السادن شيزار الشائب الذي لم تفلح أدعيته الحارة في درء الموت

عنه. وبعثرتهم جثاً خاوية في مواطن شتى على طريقها الطويل. ولم ترحم المياه المدينة والقصور، فطمرتها وسحبت أحجارها ونقوشها وزروعها وتركتها أثراً بعد عين. لم تصمد في وجه المياه المتوجة الهوجاء سوى الأعمدة الستة للمعبد الأكبر حيث لم تستطع الأمواج زحزحتها قيد أنملة، فظلت قائمة على هيئتها الماضية، لتصير الشاهد الوحيد على ما جرى لأرض جنات من كارثة أليمة. كان أهالي المدينة الناجين من الفرق ينظرون بألم إلى أعظم فيضان يجتاح أرضهم في وضح الصباح، ورام فوق صخرة بارزة يرى ويكي معهم في صمت رهيب. انتفض الهدهد السبئي الكامن في جوفه بحزن، وجعل يخلق فوق رؤوس السبئيين وينعب نعيباً حاداً. رمق فردون فوجدها تتحب وتُساقط دموعها كالحمم الحارة. تطلع إلى وجهها الشاحب الذي استحال إلى دائرة تومض بريق محزن. ولكن رغم ما شعر به تجاه وجهها الكئيب من عاطفة، فقد لمح إشارة ملاحظتها تبلج على حين غرة في ذلك النهار، فأضحى يرى طلعتها في منتهى الفتنة.

اصطبغت نفس رام بالدهشة بشكلٍ مفرط، وأيقن أن ما بان من جمالها هو من أعمال السحر، ولم يلبث أن عم الهمس والغمز بين أسراب الناجين، وقد وضح لهم انتشار فيض الجمال والسحر في وجوه كل النساء. ولاذ القوم ببعضهم وانخرطوا في حلقات وتجمعات كبيرة وصغيرة، واستبد الانفعال ببعض الحكماء فرووا للناس عن عاهة خطيرة أصابتهم من إفرازات الكارثة. لم

يتحمس أحد لمثل هذا الرأي، غير نخبة قليلة من الخدم وأدنياء القوم، الذين لا يهمهم أي شيء على الإطلاق سوى الحفاظ على رمق الحياة، لذلك لم يشعروا جراً ما حدث بأي خسارة أو مرارة. وظلت الحقيقة غائبة حتى أتت وثيقة الدائرة المقدسة بمعية القليل كوهار من صرواح. عندئذ عرف الناس سر تفشي الجمال في وجوه النساء، ولكنهم استقبلوا خبر عودة الدائرة المقدسة بالتعجب، كيف يحدث هذا بالرغم مما حدث، وفي ظرف كهذا سلبت فيه أرضهم من كل مقومات الحياة، وفي وقت لم يعد لهم مملكة، ولا ملك، ولا سادن، حتى أنهم باتوا في شك من وجود الآلهة ذاتها، وفي ذلك الحين أمست النساء والرجال في العراء جنباً إلى جنب، معرضين لأشعة الشمس، وصقيع الليل، ورغم ذلك أحسوا بمزيج من السعادة والدفء والعطف ينبعث من أجسادهم، وكان ذلك الشعور كل ما يملكونه في الحياة!

لم تكن المحميات السبئية الأخرى بمنأى عن الكارثة. حيث أن انهيار السد جعلهم يفدون تبعاً إلى أرض جنات. لأنه كان يغذي أرضهم وزروعهم بالماء عبر القنوات المسقوفة، وها قد تركوا قصورهم ودورهم خاوية على عروشها، وجاءوا بمواشيهم وما استطاعوا حمله من متاع، وانضموا إلى البيداء الجائمة تحت جبل هيلان، وكان مجيئهم بالمؤن والغلال المخزونة مصدر إعاشة لأهالي أرض جنات الذين نفذ كل ما بمعيتهم من رزق...

وبعد أن خفَّت حدة المياه المتدفقة من السد انتشر السبئيون في طريق عبورها الطويل، وأخذوا ينتشلون جثث الضحايا، ويدفنونها في حفر عميقة، ورأت فردون جثة أبيها التي عُثر عليها مجدولة في إحدى ضواحي محمية ذي الجامش، وقد أكلت الطيور ثلث جسده، وأبقت على وجهه سليماً. فبكت بمرارة، وأصرّت أن يدفن قرب أعمدة المعبد، كما وجدت أشلاء السادن شيزار ممزقة بين صخور كلسية خارج مدينة جنات، وما استطاعوا تمييز هويته إلا بخاتمه المقدس. أما مجنون زقاق الهدهاد فقد وجدوه مشبوكاً بين أغصان شجرة صنوبر ضخمة، تحتل قلب مدينة جنات، مما يوحي بأنه لاذ بتلك الشجرة فراراً من المياه، فحوصر أعلاها حتى مات سغباً وظماً بعد بضعة أيام.

